موسوعة أسماء الله الحسنى

وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض

تأليف

أ. د عقيل حسين عقيل

جامعة الفاتح - كلية الآداب

ليبيا - طرابلس الغرب

الجزء السادس

الشَّهِيدُ الحَقُّ الوَكِيلُ القَوِيُّ المَتِينُ
الوَلِيُّ الحَمِيدُ المُحْصِي المُبْدِئُ المُعِيدُ

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

مَوسُوعَة
أسماء الله الحسنى
وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض

الجزء السادس

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1430 هـ ـ 2009 م

دار ابن كثير

دمشق ـ بيروت

ردمك : 978-9953-520-28-5

الموضوع : عقيدة

العنوان : موسوعة أسماء الله الحسنى 10/1

التأليف : أ.د. عقيل حسين العقيل

الورق : كريم

ألوان الطباعة : لونان

عدد الصفحات : 5292

القياس : 17×24

التجليد : فني – كعب لوحة

الوزن : 10 كغ

التنفيذ الطباعي : 53 dots – بيروت

التجليد : مؤسسة فؤاد بعينو للتجليد – بيروت

تنضيد و إخراج ضوئي : مؤسسة الجعبري

دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا ـ بناء الجابي

ص.ب : 311 ـ صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 – 2228450

مكتب تلفاكس: 2243502 – 2458541

بيروت ـ برج أبي حيدر ـ خلف دبوس الأصلي ـ بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 ـ تلفاكس : 01/817857 – جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

9789953520285

بسم الله الرحمن الرحيم

فِهْرِسُ الْمَوْضُوعَاتِ

الشَّهِيدُ جلّ جلاله

اسم ٱلله الشهيد : يدل علىٰ ذات ٱلله ، وعلىٰ صفة الشهادة بدلالة المطابقة وعلىٰ ذات ٱلله وحدها بالتضمن ، وعلىٰ صفة الشهادة وحدها بدلالة التضمن ، ويدل باللزوم علي الحياة والقيومية والسمع والبصر ، والعلم والإحاطة وغير ذلك من أوصاف الكمال ، واسم ٱلله الشهيد يدل علىٰ صفة من صفات الأفعال (1) ، فصفات ٱلله تعالىٰ متعددة لا يمكن حصرها لتعدد أسمائه وأفعـالـه التـي لا يمكـن للعقـل البشـري الـوصـول إلـىٰ عـدِّهـا ، قـال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (2) فإذا كانت نعم المولىٰ عز وجل لا تعد ولا تُحصىٰ فكيف بأسماء وأفعال من أنعم علينا بهٰذه النعم ؟

الشهيد : « المطلع علىٰ جميع الأشياء . سمع جميع الأصوات ، خفيها وجليِّها ، وأبصر جميع الموجودات ، دقيقها وجليلها ، صغيرها وكبيرها . وأحاط علمه بكل شيء ، الذي شهد لعباده ، وعلىٰ عباده ، بما علموه » (3) .

الشهيد : هو الباقي الدائم في القبل والبعد ، وفي الحياة والممات والبعث وفي الحساب ثواباً وعقاباً وهو علىٰ كل شيء قدير .

الشهيد يرىٰ ويسمع ويلاحظ ويحكم ويجيب ويقدر ويهيمن وهو بكل

---

(1) أسماء ٱلله الحسنىٰ جـ19 ، ص9 .

(2) إبراهيم ، 34 .

(3) شرح أسماء ٱلله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة ، ج 1 ، ص 58 .

شيء محيط وعليم ، والشهيد بالإضافة هو من يستمد صفات الشهادة الحميدة حتىٰ تكون شهادته الحق والعدل .

الشهيد : دليل إثبات الشهادة ، فلو لم يكن ما كانت ، ولأنه الشهيد بالمطلق فهو يُشَاهِد ولا يُشَاهَد ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ (1) ، وفي غير ذلك يكون الشهيد بالإضافة تحت المشاهدة والملاحظة ، ولذا فالشهيد المطلق يشهد الظاهر والباطن ويعلم بالمطلق علم اليقين ، والشهيد بالإضافة لا يشهد ولا يعلم إلا ظاهراً وفي دائرة الممكن يستنبط ويستقرئ .

الشهيد المطلق ٱلله جل جلاله ، وشهادة ٱلله لا تقابلها غيبة ، فلا غيب لديه ، وعالم الغيب والشهادة بمعنىٰ أنه يعلم ما يغيب عنّا وما نشهده ، وعلمه يسع ما يعلمه جميع الخلق وما يغيب عنهم ، من علم ملائكي وجنّي وبشري وكائناتي ، وغير ذلك من علم معلوم ومجهول ، ومشهود ومحجوب ، وغائب ومغيَّب قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (2) ، ويقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ (3) ويقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٧٥ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (4) .

فالشهيد : هو الذي لا يغيب عنه شيء وقيل : هو العالم الرائي فيرجع

---

(1) الأنعام ، 103 .
(2) البقرة ، 255 .
(3) طه ، 110 .
(4) الحج ، 75 ـ 76 .

معناه إلىٰ صفة العلم وصفة الرؤية [1] .

وهو سبحانه وتعالىٰ ـ كما قلنا ـ عنده الشهادة المطلقة فلا يوجد عنده غيب ، فالغيب ما غاب عنا ، ولا ينبغي أن نقول : إن عند ٱلله غيباً ، فالغيب خلق من خلقه فكيف يغيب المخلوق عن خالقه ، ولا أن نقول إن الشهيد مشتق من الشهادة ، بل هو سبحانه وتعالىٰ خالق الشهادة التي لغيره أما شهادته غير مخلوقة وهي ذاتية سرمدية بلا أولية ولا انتهاء لأنه الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية .

كما لا نقول : إن الشهيد مبالغة في الشهادة بل نؤكد : أن الشهيد جل جلاله له العلم المطلق الذي يليق به وبالكيفية التي يعلمها هو ولا نعلمها نحن علىٰ مر الآجال والأجيال .

والشهيد : الحاضر ، يقال : شهدت الشيء وشهدت به وأصل قولهم شهدت به من الشهادة التي هي الحضور ، واليوم المشهود يوم القيامة لأنه معلوم كونه لا محالة فكان معنىٰ الشهيد العالم [2] .

والشهادة لا تقتصر علىٰ فرد واحد بل تتعداه لجماعة وتتعداها لأمة بأكملها ، فقد يكون الفرد شهيداً كقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۢ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴾ [3] ، فالرسول عليه الصلاة والسلام شهيدٌ .

أو الجماعة تكون شهيدة ، لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ

(1) الاعتقاد ، ج1 ، ص60 .
(2) تفسير أسماء ٱلله الحسنىٰ جـ1 ، ص53 .
(3) النساء ، 40 ـ 42 .

بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (1) ، فالشهادة هنا كي تكون مقبولة لابد أن يجتمع فيها أربعة شهداء كي يُعْترف بها ، إذاً فالشهادة في هـٰذه الحالة تعدت الفرد الواحد إلىٰ جماعة ، لأنها أصبحت من شروط الإدانة في هـٰذه الحالة اجتماع أربعة شهداء ، ولا يُقبل شاهد واحد فقط .

أو الأمة بأسرها قد تكون شهيدة كقوله تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ ﴾ (2) ، فالأمة هنا في هـٰذه الآية ستكون شاهدة علىٰ نفسها ، ومن المعروف أن الأمة تشمل الكثير من الأفراد ، فلا يمكن أن تدخل في إطار الجماعة .

والشهادة تكون دائماً ملازمة للحق ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ (3) فشاهد الزور ليس بشهيد ، لأنه لا يشهد بالحق بل هو مزيف للحقيقة كاذب يقلب الأمور حسب مصلحته .

الشهيد هو الحي القيوم :

لا يمكن أن تأتي الشهادة من غير الحي ، فالحياة لازمة لحصول الشهادة لأن الحياة تدل علىٰ القيومية وهـٰذا بالتالي يجعل من الحي المطلق شهيداً مطلقاً لا يمكن أن يغفل أو ينام وذلك كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ

---

(1) النور ، 4 .

(2) البقرة ، 143 .

(3) الفرقان ، 72 ـ 77 .

إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (1) ، فالشهيد المطلق هو من كان مطلق العلم بعباده وبما خلق لما تتطلبه الشهادة من متابعة ومراقبة وعلم وعدل ، وهـٰذه الصفات لا تكون مطلقة إلا لدىٰ الواحد الأحد الذي يشهد علىٰ كل صغيرة وكبيرة ويجعل من كل منها شاهدة علىٰ الإنسان في كتابه يوم تقوم الساعة فيقف بين يدي الحي القيوم كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (2) ، ولا يمكن أن تكون هـٰذه الدقة وهـٰذا النظام إلا بوجود شهيد دائم الحياة والقيومية لا يغفل ولا ينسىٰ ولا ينام ولا يظلم ، وفي تقديمه للصغائر عن الكبائر أكبر دليل علىٰ عدل شهادته ودقته وعلمه المطلق بكل شيء ، فالغافل لا يمكن أن يدرك كل ما حوله والنائم لا بد أن تفوته الكثير من الأمور والميت تنتهي علاقته بكل شيء منذ ساعة موته ، وهـٰذا ينتفي مع صفات ٱلله تعالىٰ الذي يحاسب علىٰ كل شيء فكيف يحاسب الإنسان علىٰ أمر من غير أن يكون شهيداً عليه .

ولله المثل الأعلىٰ إذ أنه لابد لولي الأمر أن يكون دائم الانتباه والمراقبة علىٰ رعيته ، بذلك فإنه سيكون شاهداً علىٰ أغلب ما يقومون به من أعمال وهـٰذا لا يمكن أن يحصل إلا إذا كان قائماً عليهم منتبهاً لهم فلا يستطيع الرعية عند ذلك التحايل عليه وإيقاعه في الخطأ فيظلم بدون علم منه بوقوع هـٰذا الظلم ، فكيف يدرك ذلك وهو لم يكن شاهداً علىٰ ما حصل بسبب إهمال أو غفلة أو جهل ؟

ونستطيع أن نمثّل لذلك بحالة انفصال الزوج والزوجة عن

---

(1) البقرة ، 255 .

(2) الكهف ، 49 .

بعضهما البعض فينشغل كل من الزوجين بأموره الخاصة دون الالتفات لوضع الأبناء النفسي الذي لابد وأن يكون الطلاق له بالغ الأثر فيه ، فغياب الأم مثلاً أو اضمحلال دورها وغفلتها عن ما يقوم به الأبناء بسبب ابتعادها عن البيت وبقاء الأبناء مع الأب ذلك من شأنه أن يجعل منهم معرضين للفساد الأخلاقي ، مما يجعل منهم ضائعين لا يجدون صدراً حنوناً يضعون رؤوسهم عليه عندما يشعرون بحاجتهم لذلك ، وهـٰذا الحرمان يولّد أحياناً القسوة والعناد ، فيكبرون بهـٰذه النفسية دون شاهد عليهم يراقبهم ويراعيهم ، وكذلك الحال في غياب الأب الذي له الدور الكبير في ردع الأبناء عن كل ما هو غير مرغوب بتعلمه .

فالوالد والوالدة لابد أن يكونا شاهدين علىٰ الأبناء كي يؤديا واجبهم بشكل كامل ، ولابد لهما من أن يكونا علىٰ وعي تام بأهمية دورهما في حياة الأبناء ، فلا يجعلا من الأبناء شهداء علىٰ الانهيار الاجتماعي الذي قد يحدث بين الزوجين في كثير من الأحيان فبذلك يكون المجتمع ضعيفاً مفككاً لا يُرجىٰ منه شيء .

لذلك فالشهادة ليست بالأمر الهين الذي يستطيعه الكل بل هي مسؤولية كبيرة ومهمة تصعب علىٰ الإنسان تحملها لأن عاقبتها لا تقتصر عليه فقط بل تمتد لتشمل الكثير ممن حوله ، ولأن الشهادة أمرٌ عظيم كانت من أسماء ٱلله تعالىٰ الحسان وبالتأكيد لا يتصف الخالق إلا بعظائم الصفات والأفعال .

وكل شهيد بالإضافة مصيره إلىٰ الفناء والموت حتىٰ وإن كانوا رسل ٱلله ـ صلوات ٱلله عليهم وسلم ـ كما جاء في قول ٱلله عز وجل : ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [1] ، لذلك فإن شهادتهم تقتصر علىٰ فترة حياتهم وتنقطع بعد ذلك لعدم قيامهم علىٰ أمور قومهم ، أما الشهيد المطلق فهو دائم الحياة فلا ينقطع عن عباده ولا يغفل عما يقومون به ويفكرون فيه ، فشهادته يوم الحساب أول شهادة علىٰ الإنسان كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [2] ، ففي هـٰذه الآية الكريمة دلائل تامة للشهادة المطلقة وهي :

أ ـ **الكفاية** : فالاكتفاء بالأمر يعني الاستغناء عن غيره ، فشهادة المولىٰ عز وجل تفصل بين الحق والباطل بشكل قطعي لا شك ولا رجوع فيه فتتحقق الكفاية بهـٰذه الشهادة التي لا يمكن أن تكون إلا للشهيد المطلق سبحانه وتعالىٰ .

والاكتفاء لا يتوفر إلا إذا كان الشهيد مطلق العلم والخبرة والعدل ، والمولىٰ عز وجل هو الشهيد المطلق بقيوميته الأزلية وبقائه الأبدي .

ب ـ **الخبرة بالعباد** : وهـٰذا ما تستند إليه الشهادة الحق ، فلا يمكن أن تكون شهادة الحق صادرة عن شاهد جاهل أو غافل بل لابد أن تكون عن وعي تام وخبرة تامة بالغير ، فكيف بٱلله الخبير المطلق الذي خلق الخلق ؟

بما أن ٱلله تعالىٰ قائم علىٰ أمور عباده عليم بما يسرون ويعلنون فهو الشهيد الحق عليهم ، هـٰذا بخلاف الخليفة الذي لا يستطيع التعمق في خفايا الصدور بل تتحكم به وبشهادته ظواهر الأمور ، قال تعالىٰ : ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [3] .

ج ـ **البصر المطلق** : البصر لدىٰ الشهيد عز وجل يصل إلىٰ ما تخفي النفوس

---

(1) المائدة ، 116 ـ 118 .

(2) الإسراء ، 96 .

(3) الملك ، 13 ـ 14 .

وتسرُّ ، فلا يخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، فهو المطلع علىٰ أمور العباد خيرهم وشرهم صلاحهم وفسادهم ، قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (1) ، فالخالق تعالىٰ بصير بمن خلق وبصره المطلق شاهد أزلي علىٰ خلقه .

والخليفة يجب عليه أن يكون شهيداً علىٰ نفسه طالما هو حي علىٰ وجه الأرض ، وأن يكون علىٰ ثقة تامة بأنه تحت الشهيد عز وجل الذي يحييه ويميته ، فيراقب الشهيد في كل ما يفعل وما ينطق به فيجعل من نفسه مستحقاً للحياة بأن يكون داعياً للحق والصلاح ، لأن شهادة الحق من شأنها أن تزرع الأمن والطمأنينة بين البشر لعدم ضياع الحقوق ، فشهادة الخليفة تجعل منه حياً بضميره وإيمانه وخوفه من الشهيد بالمطلق ، وعلىٰ الخليفة أن يكون قائماً علىٰ أمر نفسه وأهله وعلىٰ المسلمين ، رادعاً للظلم والزور والخطأ .

وشاهد الزور هو إنسان ميت بالرغم من حياته ، لأنه من فقد صلته بٱلله مات وهو علىٰ قيد الحياة ، فمن يميت ضميره ويشهد زوراً وافتراء فقد علاقته بٱلله لأنه من شأن هٰذه العلاقة أن تجعل المرء من أتباع الشيطان فيكون مأموراً بكل ما هو فاسد ومخجل .

الشهيد هو العدل :

ٱلله تعالىٰ هو العادل المطلق الذي فعله وقوله حق عز وجل ، فحكمه عادل فلا جور ولا ظلم عند الشهيد العادل ، إذ تنتفي المصالح الدنيوية عنده عز وجل ، فلا قيمة لإنسان يوم القيامة إلا إذا كان ميزانه مليئاً بالخيرات مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝

(1) التغابن ، 2 ـ 4 .

وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [1] فشهادة ٱلله تعالىٰ فعلية إذ يكون ميزان أعماله شاهداً علىٰ الإنسان نفسه ، فلا تزوير ولا نقص ولا زيادة وكيف ذلك والحكم يومئذ للحكم العدل الشهيد ؟

العدل في الدنيا لا يتحقق بوجود الظالمين والمتكبرين والعاصين والمنافقين ، مع أن العادل بالإطلاق أمرنا بالعدل مع أنفسنا ومع من حولنا من أقرباء وغيرهم ، وجعل من العدل منهجاً لحل الأزمات والوصول إلىٰ النتائج المرضية ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [2] ، ففي الآية الكريمة السابقة نجد أنه :

* من أساس طرق الحل والعلاج هو الإصلاح وعدم الإفساد .

* من وجوه العدل أن يُرد بالقوة علىٰ الظلم والاستبداد لردع الطغيان والظلم .

* العدل أساس الحق فلا إحقاق للحق دون عدل .

فالشهيد بالإطلاق هو العادل بالإطلاق في شهادته ، فلا يظلم أحداً ولا يُنقص عمل إنسان ، قال تعالىٰ : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ

(1) الأعراف ، 8 ـ 9 .
(2) الحجرات ، 9 ـ 10 .

﴿ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ (1) ، فالشهيد لا يحتاج إلىٰ سجل أو كتاب ليسجل فيه أعمال البشر ولـٰكنه بالرغم من ذلك يجعل من كتاب أعمال الإنسان شهيداً عليه يوم القيامة كي لا تكون حجة لأي كافر أو جاحد علىٰ ٱلله تعالىٰ .

ومن عدله تعالىٰ في شهادته أنه :

أ ـ لا يغفل عن صغيرة أو كبيرة لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (2) ، فالعدل الحق هو عدم إغفال صغائر الأفعال قبل الكبائر .

ب ـ عدم تجاوز الحد في العقاب كما في قوله تعالىٰ : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (3) .

ج ـ لا فرق بين العباد لديه إلا بالتقوىٰ والعمل الصالح ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (4) ، فالفروقات الدنيوية بين البشر التي يصنعها المال أو اللون أو تصنعها القوة والسلطة هي فروقات ظالمة ، يلغيها العادل بالمطلق عندما يقف البشر بين يديه للحساب ، فيكون شاهداً علىٰ الغني والفقير وعلىٰ القوي والضعيف وعلىٰ المسلم وغير المسلم وعلىٰ البشر أجمعين حيث تتحقق العدالة التامة التي لا يستطيع البشر الارتقاء إليها بما في نفوسهم من ضعفٍ وغفلة ، وبما للشيطان من سلطة علىٰ أتباعه .

---

(1) ق ، 19 ـ 30 .
(2) يونس ، 61 .
(3) غافر ، 40 .
(4) الحجرات ، 13 .

لذلك فالشهيد عادل في شهادته علىٰ كل شيء وكيف لا يكون كذلك وهو الخالق العظيم القائم علىٰ أمور الخلق ؟

وعلىٰ الخليفة أن يثق أنه لا عدل مطلق إلا عدل ٱلله الشهيد المطلق ، فإذا حكم بحكمه تعالىٰ كان العدل والحق ، وإذا اتجه لغير حكم ٱلله تحقق الجور والظلم ، وعليه أن يلزم العدل في القول قبل الفعل مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (1) فهناك أمر في الآية الكريمة السابقة للمؤمنين بأن يعدلوا مع القريب والغريب ، بل إن في هٰذه الآية منهجاً قويماً للطريق الصحيح وهو البدء بالنفس دائماً في الإصلاح فلا يمكن مثلاً أن نعدل مع من حولنا ونكون في نفس الوقت ظالمين لأنفسنا ، فالذي يظلم نفسه من المستحيل أن يعرف العدل طريقه لقلبه وعقله ، ومن كان عادلاً مع نفسه فمن المستحيل أن يكون ظالماً لغيره جائراً عليهم .

فالإصلاح دائماً ينبعث من النفس فإنها إن صلحت صلح المجتمع وإن فسدت فسد المجتمع ، لذلك بدأ الشهيد بالعدل مع النفس في البداية ثم مع الوالدين والأقرباء .

وعلىٰ الخليفة في الأرض أن يلزم شهادته العدل فلا يظلم نفسه وغيره بقول الزور والكذب والافتراء الذي قد يصل إلىٰ درجة الافتراء علىٰ ٱلله تعالىٰ كما جاء في قوله عز وجل : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (2) وهٰذا أسوأ درجات الكذب والافتراء الذي تكون نتيجته جهنم وبئس المصير .

---

(1) النساء ، 135 .
(2) يونس ، 59 ـ 60 .

الشهيد هو الرقيب :

إن الشهادة تحتاج إلىٰ مراقبة مستمرة كي تكون شهادة حق ، فلا يمكن أن تأتي الشهادة وصاحبها غائب أو غافل عما حوله ، إذاً فالشهادة لا تكون إلا من حي وقائم ورقيب كي تكون شهادته شهادة عادلة وشهادة حق .

فالشهيد عز وجل علىٰ عباده هو الرقيب عليهم بالتأكيد ، بل بمراقبته لهم تكون شهادته وعدله في جزائهم ، وهـٰذا من شأنه أن يجعل من الإنسان رقيباً علىٰ نفسه لشعوره بأن الرقيب بالإطلاق يبصره ويسجل أعماله ويشهد عليها ، فسبحانه وتعالىٰ لا يغفل عن صغيرة ولا عن كبيرة لقوله تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ رَّقِيبًا ﴾ [1] فلفظة (كل) هنا في هـٰذه الآية تدل علىٰ جميع الأقوال والأفعال فلا يفلت من مراقبته أي شيء مهما صغر حجمه ، فهو الرقيب علىٰ الأنفس لقوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾ [2] ، في الآية الكريمة السابقة تحذير من ٱلله تعالىٰ سببه مراقبته للأنفس وما تحمل الصدور وعلمه المطلق بما يدور في أنفسنا ، فمراقبة ٱلله وشهادته تتعدىٰ الأقوال والأفعال لتصل إلىٰ ما في النفوس البشرية ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ [3] ، والرقيب بالإطلاق هو الشهيد بالإطلاق علىٰ الخلق ومراقبته هـٰذه لا تنقطع ولا تتغير كما جاء علىٰ لسان عيسىٰ ﷺ في قوله تعالىٰ : ﴿ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ

(1) الأحزاب ، 52 .

(2) البقرة ، 235 .

(3) المائدة ، 116 .

﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [1] ففي هـٰذه الآية نجد أنه :

أولاً : الرسل صلوات ٱلله عليهم وسلم هم شهداء بالإضافة لا يمكن أن تستمر شهادتهم لعدم استمرار حياتهم .

ثانياً : المراقبة مهمة أوكلها ٱلله لخلفائه .

ثالثاً : اسم ٱلله الرقيب يتفق مع اسمه الشهيد .

لذلك فعلىٰ خليفة ٱلله أن يكون أولاً رقيباً علىٰ نفسه ، فلا يجعل منها مسكناً للفساد والشر بأن يكون علىٰ يقين بأن الشهيد هو الرقيب علىٰ الضمائر والأنفس فكيف الحال بما نفعل أو نقول ؟ في هـٰذا اليقين عصمة للخليفة من الخطايا والشرور والرذائل ، بأن يخلص لله في السر والعلانية ، فهـٰذه المراقبة والشهادة تلزمان الإنسان بالسير علىٰ الطريق الصحيح الذي أمره المولىٰ عز وجل بالسير عليه .

وعلىٰ الخليفة أن يجعل من مراقبته مراقبة علم ونفع لتكون مراقبة إيجابية تعود بالنفع والخير علىٰ الخليفة نفسه وعلىٰ من غيره ، ولا يجب أن تكون مراقبته لدافع سيء يعود بالضرر عليه وعلىٰ غيره ، كأن يراقب الجار جاره لمجرد الفضول .

وإذا داوم العبد علىٰ مراقبة نفسه وتيقن من اطلاع ٱلله تعالىٰ علىٰ خفاياه وظاهره فإنه يصل إلىٰ خير نفسه وصلاح حاله ، وتوصل إلىٰ حالة من الود لله والخشية من ٱلله توصله لأن يكون في مواجهة مع نفسه ومراقبة لذاته في كل لحظة وحين ، فيراعي الشهيد والرقيب عليه في قلبه ولسانه ، فيكون خالصاً لله تعالىٰ عالماً بما يرضيه مبتعداً عن ما يغضبه .

فمراقبة الشهيد عز وجل هي عبادة تقرب العبد من ربه وتحفظه من وسوسات الشيطان الرجيم الذي لا سلطان له عليه كما في قوله تعالىٰ : ﴿قَالَ

(1) المائدة ، 117 .

رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [1] .

ومن شأن اسم ٱلله الرقيب أن يجعل من العبد متيقناً بأن الشهيد قد وكّل ملكين يحصيان أعماله وأقواله وأن حسابه يكون مكافئاً لهٰذه الأعمال والأقوال ، فينعكس ذلك علىٰ حياته فيبتعد عن الباطل ولا يكون غافلاً عن وقته الذي يجب أن يستغله في طاعة ٱلله وحبه ، فيعمر قلبه بالإيمان بأن الشهيد يراقبه ويشهد ما يقوم به دون انقطاع لأن ٱلله يراه ، فعندما سُئِل الرسول ﷺ عن الإحسان قال : « أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنَّكَ إِنْ لاَ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » [2] ، فالشهيد يرانا ويراقبنا فطوبىٰ لمن كان رقيباً شاهداً علىٰ نفسه جاعلاً من عقله وقلبه شاهدين عليه .

الشهيد هو الحافظ :

بما أن ٱلله تعالىٰ هو الشهيد كما أسلفنا القول علىٰ أقوالنا وأفعالنا وعلىٰ إسرارنا وإعلاننا فهو بالتالي الشهيد الحق الرقيب علىٰ كل العهود والوعود التي تتم بين البشر بغرض حفظ الحقوق ، فٱلله هنا هو الحافظ الشهيد أي الراعي لأي عهد أو اتفاقية أو دين أو معاملة أو عقد ، ولو استحضرنا هٰذه الفكرة في أبسط مثال ألا وهي عقود العمل وعقود الزواج ففي حالة أن كل طرف من الأطراف المشتركة في العقد يضع نصب عينيه أن المولىٰ عز وجل شهيدٌ علىٰ هٰذا العقد المبرم وأن يكون الشهداء علىٰ أي عقد مستحضرين هٰذا الاسم الكريم في أنفسهم لاستطعنا أن نصل بفكرنا لضرورة حفظ الحقوق وأنه يجب أن يوفي كل شخص بما يمليه عليه بنود هٰذا العقد الذي شهد عليه أو اتفق عليه

(1) الحجر ، 36 ـ 42 .
(2) صحيح مسلم ، جـ1 ، ص30 .

مع الطرف الآخر وأن ينفذه بكل أمانة وإخلاص وصدق ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [1] ، وبذلك تكون النتيجة رائعة بمراعاة كل طرف مرضاة وصون حقوق الطرف الآخر كما يمليه عليه العقد ، وكذلك في حالة عقد النكاح الذي يتم بين طرفين ينويان الارتباط للشروع في تكوين أسرة ، ذلك الارتباط الشرعي الأساسي في تكوين المجتمع المسلم والذي يجب أن يقوم علىٰ أساس الاحترام والحب والمودة في أجمل صورها .

لذلك فلو أن كل إنسان وضع نصب عينيه أن ٱلله هو الشاهد الأول في كل عقد لتوصل إلىٰ صونه والحفاظ علىٰ حقوقه وحقوق الطرف الآخر حتىٰ ولو تطلب ذلك بذل جهد وتضحية ، فإذا كان هـٰذا حال الإنسان فما بالك بالشهيد المطلق والحافظ المطلق والذي يوفق بين العباد كيفما يشاء ، فهو مثلاً الذي يوفق الزوج للتواصل مع زوجته باحترام وحب وهو الذي يهبهم الأبناء أمانة كي يحافظوا عليهم بالتربية السليمة والرعاية الشاملة وبذلك نكون علىٰ قدر المسؤولية بأن نستطيع أن نكوّن أسرة نموذجية صحيحة نفسياً فالأسرة هي نواة

(1) البقرة ، 282 .

المجتمع وبذلك نكون من المساهمين في تكوين مجتمع مسلم يرضىٰ عنه ٱلله تعالىٰ ، كما أرادنا المولىٰ عز وجل في قوله تعالىٰ : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (1) ، فإذا توصلنا لتحقيق هـٰذا المجتمع الذي أفراده علىٰ هـٰذا القدر من الوعي والالتزام والأمانة فسيكون قد توصلنا إلىٰ معرفة أساس الخلق الذي يحفظ للمجتمع آدميته ويجعله مستحقاً لخلافة الأرض ، هـٰذا المجتمع الذي يبحث عنه الغرب بالوسائل والتقنيات والآليات .

ولا يوجد منه هو حافظ لكل شيء غير الحافظ المطلق الذي يحفظ بعلمه المطلق وشهادته المطلقة ما يشاء ، وطوبىٰ لمن كان في حفظ ٱلله ، قال تعالىٰ : ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (2) ، فهو الحافظ لنا برحمته وقدرته وبشهادته .

فهو الحافظ لنا من المرض برحمته ، والحافظ لنا من النار بمغفرته ، والحافظ لنا حقوقنا بشهادته ، والحافظ لنا المال والبنين بكرمه .

فعلىٰ الخليفة أن يكون حافظاً للتالي :

لحدود ٱلله : قال تعالىٰ : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ (3) ، فٱلله تعالىٰ أعلم البشر بحدوده ومن يتجاوز هـٰذه الحدود فإنه ظالم لنفسه ، فلا حق لإنسان بتعدي حدود ٱلله تعالىٰ ، وٱلله بالتالي شهيد علىٰ من يحفظها وعلىٰ من يتعداها ، ومن أراد النجاة فما له إلا أن يبقىٰ ضمن هـٰذه الحدود حافظاً لها ، واسم ٱلله الشهيد من شأنه أن يذكّر الإنسان بالحفاظ علىٰ هـٰذه الحقوق لأن من تجاوزها فإنه ٱلله يشهد عليه بذلك .

---

(1) آل عمران ، 110 .

(2) يوسف ، 64 .

(3) الطلاق ، 1 .

والشهيد أعلم بالإنسان من نفسه لذلك فقد جعل عقاباً لمن تجاوز حدوده سبحانه وتعالىٰ ، وجعل ثواباً لمن حفظها ، ولنا في رسلنا وأنبيائنا القدوة الحسنة في حفظهم لحدود ٱلله ، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ ٱللهِ ﷺ فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلاَّ أُسَامَةُ حِبُّ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ . فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ . فَقَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ ٱللهِ . ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ فَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا » (1) .

فيجب أن نراعي حدود ٱلله ونحفظها في أنفسنا وفي أهلنا وأقربائنا ، فلا أعظم من أن نكون عادلين وحافظين لهٰذا العدل وهٰذا الحق .

حافظاً لشهادته : فهو بالتالي حافظ للحق من الضياع وحافظ للعدل أن يسود ويعم النفوس البشرية التي تلجأ أحياناً لطمس هٰذا الحق ، فلا يجب أن يترك المؤمن مؤثِراً يؤثر عليه لتغيير شهادته لأن في ذلك ضياع للحقوق وعدم حفظ حدود ٱلله تعالىٰ .

حافظاً لنفسه : من يحفظ ٱلله تعالىٰ فقد حفظ نفسه من النار ومن سوء العقاب ، فٱلله حافظ المؤمن من وسوسات الشيطان الرجيم ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَـٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَـٰنٌ

---

(1) صحيح مسلم جـ5 ، ص114 .

إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [1] ، فمن أراد أن يكون في حفظ ٱلله لابد أن يكون علىٰ يقين بأن ٱلله شهيد عليه في كل لحظة فيراعي ٱلله في كل ما ينطق به أو يفعله ، بالتالي فهو يحفظ الشهيد في نفسه والشهيد يكون حافظاً له من الشيطان الرجيم .

حافظاً لصلة رحمه : قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [2] ، فقد أوضح ٱلله تعالىٰ الحقوق المادية كما جاء في الآية السابقة لصلة أرحامنا ، وكذلك أوضح الحقوق المعنوية لهم في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ [3] ، فهـٰذه الحقوق المادية والمعنوية التي يؤدي كل منها إلىٰ الآخر من الأمور المهمة التي أمرنا ٱلله بأن نكون حافظين لها وهو شاهد علىٰ من يحفظها ومن يضيعها .

فمن أثر اسم ٱلله الشهيد أن يجعل منا حفظة لكل حدوده التي بيّنها لنا وأشهد عليها ملائكته ورسله ، فلا مهرب من مسؤوليتنا أمام ٱلله عند تجاوز هـٰذه الحدود وكيف ذلك وهو الشهيد علىٰ كل شيء ؟

الشهيد هو الكريم :

ٱلله سبحانه وتعالىٰ هو الشهيد علينا وعلىٰ الرسل والملائكة وعلىٰ كل عملٍ نقوم به ، فمثلاً وفي أبسط صورة حينما نقف للصلاة أو القيام بأي نوع من

---

(1) الحجر ، 32ـ42 .

(2) البقرة ، 215 .

(3) الإسراء ، 23ـ25 .

أنواع العبادات متذكرين أن ٱلله تعالىٰ شهيد علينا لوجدنا أنفسنا تهفو للمزيد من هـٰذه الطاعات والقيام بها علىٰ أكمل وجه ، وقد أكرم ٱلله تعالىٰ الإنسان محفزاً إياه للطاعة والعمل الصالح والزيادة في سعيه وراء الحسنات في قوله تعالىٰ : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (1) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾ (2) .

فالكريم يعطي الإنسان من أوسع أبوابه ويضاعف الحسنة بعشرة أمثالها ولا يكتب السيئة إلا بسيئة مثلها ، وهو الشهيد فشهادته بمثابة فرحة عظيمة للإنسان المسلم الذي يجعل من هـٰذا المسلم يسارع في فعل الخيرات لنيل جنة النعيم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ (3) وبذلك يكرمه ٱلله بنجاته من النار ودخوله جنات عدن ، ونستطيع أن نتصور كيف ستكون همة الساعي لطاعة ٱلله ونيل رضاه فهمته ستكون في أعلىٰ مراتبها وأروع صورها وهـٰذا يجعل من المؤمن مستشعراً بلذة السجود لله تعالىٰ الشهيد عليه وعلىٰ ما في قلبه ، فليتنا نتخيل مدىٰ الجمال الذي يتمثل في قمة العبودية له سبحانه وتعالىٰ وهـٰذا يكون انطباع المؤمن وإحساسه تجاه ٱلله تعالىٰ في لحظة سجوده لله تعالىٰ وهو يشهد عليه بالإضافة إلىٰ أن في سجوده هـٰذا يتخلص من الكثير من الأعباء والهموم وقد أثبت العلم الحديث في دراسة جديدة أن الإنسان يتخلص من بعض

---

(1) الأنعام ، 160 .

(2) البقرة ، 261 ـ 263 .

(3) المؤمنون ، 60 ـ 61 .

الشحنات الكهربائية الزائدة والتي تساعد علىٰ الحصول علىٰ راحة نفسية لا يمكن وصفها .

والكريم هو الذي يعطينا الخير أما الشر فيأتي من أنفسنا ، لأن ٱلله رفع الحجة عن البشر ببعثه للرسل والأنبياء ، وشهد علىٰ تبليغهم كلمات ٱلله وهداه ، وهٰذا كرم من المولىٰ الذي لا يريد إلا الخير بنا مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (1) ، فمن الآية الكريمة السابقة يتضح لنا أن الحسنة والخير من عند ٱلله تعالىٰ لأنه الكريم والكريم لا يمكن أن يبخل بالخير علىٰ غيره فكيف بالكريم المطلق ؟ أما الشر والفساد فمن يد الإنسان نفسه باتباعه خطوات الشيطان الرجيم الذي لا يدل إلا علىٰ المفسدة والمعصية ، لم يكن ٱلله تعالىٰ ليشهد علىٰ كفر أو إيمان أي إنسان إلا بعد أن يكرمه بتوضيح طريق الحق من الباطل وبعد ذلك لا يكون للبشر حجة علىٰ ٱلله في كفرهم وعصيانهم .

ومن شأن الوصول إلىٰ اليقين بأن السيئة تأتي للإنسان من نفسه أن يحاول علىٰ الفور الابتعاد عن كل ما هو سيء وفاسد ، فعلىٰ الإنسان أن يبحث عن الخلل ويحاول إصلاحه ويساعده في هٰذا الإصلاح كل سبل الهداية من الكريم جل جلاله .

الشهيد هو الوكيل :

تتخلص الصلة بين اسم ٱلله الشهيد واسمه الوكيل في هٰذه الآية : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ (2) بما أن ٱلله تعالىٰ دائم الحياة وقائم علىٰ أمر العباد وبما أنه الحي فهو الشاهد علىٰ كل شيء ، والشاهد علىٰ كل شيء لا بد أن يكون الوكيل

(1) النساء ، 79 .

(2) الفرقان ، 58 .

عليهم ، وإذا وصل المسلم لفهم هـٰذه العلاقة لتوكل علىٰ الشهيد الذي لا يموت .

والوكيل المطلق هو الذي يشهد علىٰ حفظه ما وكله به عبده صغيراً كان أم كبيراً ، وبعدله المطلق يحفظ حقوق الخلق ولا يظلم المولىٰ سبحانه وتعالىٰ أحداً وهـٰذا ما وصل إلىٰ قلوب الخلفاء في قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [1] ، فالاكتفاء بتوكيل ٱلله تعالىٰ في أمورنا هو أساس الإيمان والطاعة للمولىٰ جل جلاله .

ويتوكل علىٰ ٱلله كل مؤمن بقدرته وبأنه شاهد علىٰ كل شيء ، فما من حق أو أمانة أو اتفاق إلا وكان ٱلله شهيداً عليه ، ٱلله هو الوكيل الذي يجب أن نتوكل عليه وحده ونثق بعدله وحكمه وقضائه ، فلا تضيع الحقوق لديه عز وجل ولا تُكتم الشهادات عنده بل هو الحافظ لما وكلناه به ٱلله شاهد بعلمه وقدرته المطلقين .

ولذلك فإن الخليفة من وكّل أمره لله واثقاً به ومسلماً أمره له عز وجل ، وهـٰذا يجعل منه راضياً بما قدّر له من تقسيم رزق ، وأن يجعل من ٱلله وكيلاً علىٰ كل ما يقول أو يفعل كما فعل سيدنا موسىٰ ﷺ في قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى

(1) آل عمران ، 173 .

وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴾ (1) ، ذلك بأنه الشهيد علىٰ القول والفعل سراً كان أو جهراً ، والخليفة من يتبرأ من أمره ويفوضه للشهيد عليه ، فهو يشهد حاجته ويعلم ما ينفعه وما يضره .

الشهيد هو العليم :

الشهيد عليمٌ بمن يراقبهم ويحفظ أعمالهم ، فلا تكون شهادته بها نقصٌ أو عيب وهـٰذا ما يتفق مع أنه تعالىٰ منزه عن النقائص والعيوب ، فعلمه عز وجل يحيط بكل شيء والإحاطة تتوفر في مراقبته عز وجل ، وبهـٰذه المراقبة هو الشهيد علينا .

وعلمه عز وجل لا يقتصر علىٰ ما ظهر من أعمال وأقوال بل يتعداه لما تخفيه الصدور لقوله تعالىٰ : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (2) ، فبعلمه وخبرته يشهد علىٰ عباده فهو الذي لا يعزب ولا يغيب عنه أي شيء في الأرض أو في السماء ، وكذلك علمه لا يتحدد بزمن أو وقت فهو يعلم ما كان وما سيكون .

فالعليم عز وجل شاهد علىٰ العباد بعد أن جعلهم مدركين عاقلين بما وهبهم إياه من نعمة العقل لكي يميزوا بين الحق والباطل ، فقد جعل من الأرض والسماء شواهد علىٰ قدرة ٱلله يخاطبان عقل الإنسان ويهديانه إلىٰ قدرة ٱلله تعالىٰ لقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا

---

(1) القصص ، 23ـ27 .

(2) التغابن ، 1 ـ 4 .

بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (1) وأعلمهم بالخير بإرساله الرسل والأنبياء مبشرين ومنذرين ، قال تعالىٰ : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (2) ففي الآية الكريمة السابقة نجد أنه :

* ٱلله يعلم ما ينفع البشر وما يضرهم ويعلم مسبقاً بما سيكون في نفوس العباد .

* ٱلله والملائكة يشهدون علىٰ الإنسان يوم القيامة .

* خطاب ٱلله تعالىٰ للرسول عليه الصلاة والسلام بأنه شهيد إنما المقصود به تأكيد للبشر علىٰ كفاية شهادة المولىٰ عز وجل .

ولذلك فإن خليفة ٱلله يجب أن يملك من العلم ما يرفع به خُلُقه ويرقىٰ به ليصل إلىٰ استخلاف الأرض وإعمارها ، فالعلم يكون شاهداً علىٰ صاحبه بالنفع والخير .

الشهيد هو الحليم :

بالرغم من أن المولىٰ عز وجل شهيد علىٰ عباده ويعلم العاصي والجاحد منهم إلا أنه لا يسارع في عقابهم لحلمه بهم ، فلو عاجل ٱلله تعالىٰ العاصي والمذنب لما وجدنا تائباً أو مستغفراً ، ولـٰكن ٱلله تعالىٰ العليم بعباده وبضعفهم يمنحهم الفرصة تلو الأخرىٰ كي يرجعوا للحق وهو شهيد عليهم ، فٱلله شهيد علىٰ المؤمن والكافر والتائب وهو أيضاً حليم بهم ومحيط بهم جميعاً عليم

(1) البقرة ، 164 .
(2) النساء ، 165 ـ 166 .

بما في صدورهم ، قال تعالىٰ : ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (1) فالحليم هو الشهيد علىٰ ما في النفوس فيحلم بأصحابها كي يرجعوا للحق والصواب .

وبالرغم من أن المولىٰ عز وجل شهيد علىٰ خلقه إلا أنه لا يمسك فضله عن عباده عقاباً لهم علىٰ ذنوبهم ، فلا يغضب لعصيان عاصٍ ولا لذنب مذنب بل إنه يحلم بهم ويجعل من حلمه بهم حافزاً لهم للتوبة والندم .

وحلمه علىٰ العباد شاهد علىٰ أنه سبحانه وتعالىٰ قادر ورحيم في ذات الوقت ، فهو يملك القدرة ولٰكنه يعاملنا بالرحمة والود ، فهو الشهيد وهو الحليم الذي يؤخر عقابه بعلمٍ وخبرة ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾ (2) .

لذلك فعلىٰ الخليفة أن يحلم علىٰ غيره بكونه شاهداً عليهم فلا يغضب لأقل الأسباب ولا يجعل من شهادته رد للإساءة وعقاب لما آذاه ، قال تعالىٰ : ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (3) .

للشهادة مراتب منها :

أولاً : الشهادة بالمطلق :

وهٰذه الشهادة لا تليق إلا بالشهيد المطلق ولا تتحقق إلا فيه فهو الشهيد بالإطلاق الذي خلقنا وشهد علينا : قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ

(1) البقرة ، 235 .
(2) فاطر ، 45 .
(3) الشورىٰ ، 40 .

مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [1] ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [2] ، فشهادته عز وجل هي الفاصل بين الحق والباطل ، فلا تضيع حقوق العباد لديه وهو الشاهد عليها ، فيشهد للظالم بظلمه ويعاقبه علىٰ ذلك ويشهد للمتقي بإيمانه ويكافئه علىٰ ذلك ، قال تعالىٰ : ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ

---

(1) الحشر ، 11ـ14 .

(2) يونس ، 27ـ30 .

عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (1) ، فشهادته تعالىٰ تثبيت للحقوق ورد للمظالم ومكافأة لأحبائه ، فلا يداخلها تزوير أو تحيز أو تفريق بين العباد ، وكيف ذلك وهو العادل الواحد الأحد الرقيب الحسيب ؟

فنحن نلاحظ أن في بعض القوانين التي وضعها البشر نقصاً وعيوباً وثغرات يستطيع الظالم أن يدخل منها لطمس حقوق الآخرين دون أن يكون عليه شاهد دنيوي من بني الإنسان فهنا القانون يكون غير عادل وخاصة إذا أخذ بأقوال شهداء الزور ، ومن هنا كان شرع ٱلله الشهيد علىٰ نفوس البشر أصلح منهاج للحفاظ علىٰ الحقوق لأن هـٰذا الشرع يشهد عليه الشهيد بالإطلاق الذي لا يشوب شهادته أدنىٰ شك لتنزيهه عن كل النقائص والعيوب .

ومن شأن الإيمان بذلك أن يتوكل الخليفة علىٰ مولاه عز وجل وهو مدرك أنه شهيد له وعليه ، فيطمئن ويهدأ ويتيقن أن حقه في الدنيا وإن سُلِب فإنه سيرجع إليه يوم القيامة عندما يشهد الحق بذلك فلا يبقىٰ حقٌّ مسلوب ولا مظلمة إلا ويرجعها الشهيد لأصحابها .

ثانياً : الشهادة التي لا يتطرق إليها شك :

كشهادة الملائكة المكرمين والرسل الكرام الذين ينطقون بما أمرهم ٱلله به ، وإذا كان هـٰذا حالهم فكيف لا تكون شهادتهم شهادة صدق ؟

فالملائكة لا تعمل ولا تقول إلا ما يرضي ٱلله تعالىٰ ، وبالطبع لا يرضىٰ الشهيد الحق تزوير الشهادات ولا يمكن أن ينطق بها من يعملون بأوامر ٱلله قولاً وفعلاً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴾ (2) ،

---

(1) النحل ، 26 ـ 32 .
(2) النحل ، 49 ـ 50 .

وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [1] .

وكذلك الرسل والأنبياء الذين اصطفاهم ٱلله تعالىٰ للتبشير والتحذير ، فهم بهٰذا الاصطفاء لا يمكن أن يكونوا شهداء علىٰ الباطل فذلك يتنافىٰ مع كونهم ينطقون بما يوحي إليهم المولىٰ عز وجل قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدًا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ [2] ، فٱلله شهيد علىٰ أنهم شهداء علىٰ أقوامهم في فترة مكوثهم بينهم ، وهٰذه شهادة لا يمكن أن يداخلها شك أو كذب أو افتراء مما يتنافىٰ مع أخلاقهم وصفاتهم التي رباهم ٱلله عليها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾ [3] ، فمن وصفه ربه بأنه علىٰ خلقٍ عظيم لا يمكن أن يتطرق الشك في شهادته التي هي أمر من ٱلله لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ [4] ، وهٰذه الشهادة تشمل جميع الرسل ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴾ [5] .

ثالثاً : الشهادة التي تداخلها الشك :

بما أن الإنسان خُلق ضعيفاً فإنه متعرض للغفلة والوهن مما يجعل منه

---

(1) النساء ، 166 .
(2) المائدة ، 116 ـ 117 .
(3) القلم ، 4 .
(4) الأحزاب ، 45 ـ 46 .
(5) المزمل ، 15 .

متذبذباً بين الحق والباطل ، يخضع أحياناً هـٰذا الإنسان لنداء ضميره وأحياناً يقع تحت وسوسة الشيطان الذي لا يقود إلا للهلاك والضياع ، لذلك فإن شهادة هـٰذا الإنسان يتطرق إليها الشك ، قال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [1] ، فشهادة الإنسان يتداخلها شك فكان لابد من مستند تستند عليه وهو أن ٱلله الشهيد الحق ، وفي هـٰذا تذكير للإنسان الذي سيؤدي اليمين بأن ٱلله شهيد علىٰ شهادته .

وبالرغم من ذلك نجد بعض النفوس البشرية الضعيفة التي تلجأ للحصول علىٰ مال اليتيم الذي نهانا ٱلله عن القرب منه بغرض اختلاسه وسلبه من أصحابه ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [2] ، وقد يجلب هـٰذا الإنسان الطماع بعض من يشهد معه زوراً علىٰ سلب هـٰذا الحق مقابل قدر من المال ، وكأن كلاً منهما علىٰ ثقة بأن لا أحد يدرك ما يصنعان أو يتآمران عليه ، في حين أن الشهيد المطلق يكشف حتىٰ ما في النفوس قبل الخروج منها ، قال تعالىٰ : ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [3] .

ولهـٰذا فعلىٰ الخليفة أن يراعي ٱلله الشهيد في كل ما ينطق به أو يقوم بفعله ، وإذا كان في موضع لأن تُؤْخذ شهادته يجب أن يتذكر بأن الشهيد يراقبه ويكتب شهادته فيكون معتدلاً غير متحيز لقرابة أو علاقة بل يجب أن تكون

---

(1) النور ، 6 ـ 10 .
(2) الأنعام ، 152 .
(3) التغابن ، 4 .

علاقته بالشهيد من أول الأمور التي تكون في حسابه عند الشهادة .

وقد جعل ٱلله من الإنسان شاهداً علىٰ نفسه ، بالرغم من شهادة الشهيد عليه ولـٰكنه جعل من جسده وأعضائه التي هي أقرب شيء فيه شاهدة عليه يوم الحساب مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ [1] ففي الآية الكريمة السابقة نجد أنه :

* ٱلله العليم الصبور علىٰ عباده حدد وقت شهادة الإنسان علىٰ نفسه في أصعب الأوقات التي لا يمكن أن ينكر فيها المرء ما نطقت به أعضاؤه .

* الإنسان يميل إلىٰ إنكار الحقيقة والشهادة بها لذلك فقد أنطق الشهيد كل ما شهد علىٰ الإنسان من نفسه .

* ما أضعف الإنسان إذ أنه لا يملك حتىٰ السيطرة والتحكم في أعضائه ! فهي تعمل بما أمرها ٱلله تعالىٰ به فهو خالقها ومالك أمرها .

ما العلاقة بين الشهادتين (أشهد أن لا إلـٰه إلا ٱلله وأشهد أن محمداً رسول ٱلله) وبين اسم ٱلله الشهيد ؟

هاتان الشهادتان فيهما أكثر من معنىٰ ، فالمعنىٰ الأول فيها هو الشهادة لله بالوحدانية متضمنة شهادة بالعبودية لله من قِبَل هـٰذا المتشهد ، والمعنىٰ الثاني اليقين بأن محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، والمعنىٰ الثالث أن الإنسان

(1) فصلت ، 19 ـ 24 .

مسؤول عن مراعاة هـٰذه الشهادة التي أقرها في قلبه قبل النطق بها بلسانه .

فالإيمان ينحصر في العمل ضمن هاتين الشهادتين ، فلا عمل يُقبل دون الإقرار والتصديق بهما ، وفي النطق بالشهادة رجاء من الإنسان إلىٰ الشهيد بالإطلاق كي يشهد علىٰ ما شهد علىٰ نفسه ، أي أن الإنسان المؤمن يحب أن يكون ٱلله شهيداً عليه ، فهو لن يُظلم أن يُفتَرىٰ عليه من عند ٱلله جل جلاله الذي نزّه نفسه عن كل العيوب والنقائص .

كما أن اسم ٱلله الشهيد يعلّم الخليفة درساً في القوة والانتصار ، لأن الشهيد بالإطلاق هو القوي الذي يملك أن يكون شهيداً وحده وعلىٰ كل شيء وفي كل وقت ، والخليفة بما أنه يستمد صفاته من صفات المولىٰ عز وجل فإن من شأن اسم ٱلله الشهيد أن تصل بالشهيد بالإضافة إلىٰ قوة اليقين بٱلله الواحد الأحد فننطق بالشهادتين بقوة إيماننا بهما وبالتالي فإن ذلك الإيمان يمنحنا القوة التي نفتقدها في زمننا هـٰذا ، فلو رجعنا إلىٰ زمن بعث الرسول ﷺ بالهدىٰ والقرآن المنير نجد أن قلة من العرب الذين أسلموا بذلك وصدّقوا به وبالرغم من ذلك فقد واجهوا الكفر بطغيانه وجبروته ودخلوا في حروب مع أهل الكفر والجهل بشكل غير متكافئ إذا قارنا بين المسلمين والكفار من جهة العدة والعتاد ، وقد كانوا يواجهون ملوك الفرس والروم هاتان القوتان اللتان كان يخشاهما العرب أجمع ومع ذلك كله استطاع المسلمون القلة أن ينتصروا علىٰ كل أولـٰئك ، يا ترىٰ كيف نعجز الآن نحن المسلمين من رد أي أذىً عن بلدٍ مسلم أو حتىٰ في صون كرامتنا كمسلمين ؟

السبب بسيط جداً يتلخص في مدىٰ صدق النطق بالشهادتين ، وبمدىٰ يقيننا بأن ٱلله هو الشهيد علىٰ ما نشهد به له من وحدانية له وعبوديتنا له عز وجل فنستمد منه هـٰذه القوة التي نستطيع بها أن نحيا أعزاء وأحراراً كما أرادنا ٱلله تعالىٰ .

فالشهادتان لا يمكن أن تكونا مجرد جملتين نرددهما بين الحين والآخر

بل لابد أن تكونا مركز القوة والطاقة التي تمدنا بالقدرة علىٰ كل شيء في الحياة ، فقد كان رسول ٱلله ﷺ يجعل من الصحابة ومن معه من المسلمين يصلون بأنفسهم إلىٰ جوهر هـٰذا المعنىٰ فكانوا جبالاً في الطاقة والقوة المعنوية والنفسية والقدرة علىٰ التحمل ، لأنهم كانوا يضعون الشهيد بالإطلاق نصب أعينهم عند النطق بالشهادة فيستشعر بواجبه تجاه هـٰذه الشهادة أمام الشهيد سبحانه وتعالىٰ ، فنجحوا في إرساء دعائم المجتمع المسلم القوي والصحيح .

وقد تجلىٰ أيضاً صدقهم مع الشهيد عليهم حتىٰ في معاملتهم مع الكافرين وأهل الكتاب فما الذي كان يجبرهم علىٰ احترام العهود معهم والتزام حسن الخلق في التعامل معهم ؟

ما كان شيء يجبرهم إلا علمهم أنهم تحت الشهيد الذي يشهد ما يفعلونه ، فالإحساس لدىٰ كل مسلم بأن ٱلله تعالىٰ يراقبه يجعله قوياً صابراً متوكلاً مكتفياً بشهادة الشهيد علىٰ كل قول أو فعل يصدر منه ، وهـٰذا بحد ذاته أكبر رادع للإنسان المسلم كي يحسن التصرف والكلام فيشعر بالخجل بما تفوّه به من رذائل الكلام كالنميمة والكذب والسخرية كما نهانا ٱلله تعالىٰ في قوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1) ، فلا يصل الإنسان إلىٰ هـٰذا الخلق الكريم الذي يرقىٰ بآدميته إلا إذا كان مدركاً بأن الشهيد معه في كل همسة وكل فعل صغُر أو كبر ، فيراعي الشهيد في كل أمر من أن يقوم بما لا يرضيه عز وجل .

(1) الحجرات ، 11 ـ 12 .

الشهيد هو الحق وكل من كان شاهد حق هو شهيد ، فالذي يشهد الزور هو مانع للخير والصلاح فلا يعتبر شهيداً علىٰ الباطل .

الشهادة لها حقوق علينا ألزمنا الشهيد المطلق بها وهي :

1 ـ عدم تزوير الشهادة :

عند اللجوء إلىٰ شهادة شاهد في أمرٍ ما فإن هـٰذه الشهادة تحتمل الحقيقة أو تزييف هـٰذه الحقيقة وهـٰذا يرجع إلىٰ ضمير الشاهد ودرجة إيمانه ، فمن كانت نفسه مطمئنة بحبها لله وذكره فإنها لن ترضىٰ إلا بشهادة الحق ، وإن كانت النفس تحت سيطرة الشيطان فإنه بالتأكيد سترضىٰ بشهادة الزور ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴾ [1] ، والسوء هنا يقع تحته كل ما هو قبيح وفاسد ومن ضمن ذلك شهادة الزور ، علىٰ عكس من اتبع ٱلله وخاف عقابه فهـٰؤلاء لا يرضون بغير الحق وشهادة الحق ، فشهادة الحق من صفات المؤمنين الذين قال تعالىٰ عنهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ [2] .

فمثلاً نجد في بعض قضايا الطلاق يلجأ أحد الطرفين لتزييف الحقيقة لهدف مادي يحلم أحد الطرفين بالحصول عليه ولا يهم الأسلوب الذي يتبعه للوصول لهدفه ، وهـٰذا الطمع المادي يُخْسِر الإنسان رضا ربه الشهيد علىٰ ما يفعل بل إنه يتناسىٰ ويغفل عن الشهيد المطلق الذي لا ينام ولا يغفل .

2 ـ عدم كتم الشهادة :

إذا كتمتَ شهادة حق فاعلم أنك بالتأكيد قد أضعت حق إنسان وأن ٱلله شهيد عليك فيها ، لأنه حين نكتم شهادة حق معنىٰ ذلك الظلم قد وقع علىٰ

(1) النساء ، 38 .
(2) الفرقان ، 72 .

إنسان قدّر لك ٱلله أن تكون شاهداً في أمره .

كتم الشهادة من شأنه أن ينشر الفساد والظلم بين البشر ، وفيه طمس للحق وإظهار للباطل ، ومن يكتم شهادته يكون في غفلة عن ٱلله الشهيد عليه وعلىٰ ما في نفسه ، فإنه كتمها عن البشر فكيف يكتمها عن الشهيد بالمطلق الذي أمره بقولها لما فيها من نفع وحفاظ علىٰ الحقوق والمصالح ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (1) .

3 ـ عدم إنقاصها :

بل يجب أن تكون كاملة لا نقص ولا زيادة فيها لأن الحق لا يحتمل النقصان أو الزيادة ، فمن الطبيعي أن يكون في نقص الشهادة إنقاص للحق ، وهـٰذا لا يمكن أن يُرضي الشهيد بالمطلق الذي أمرنا بأداء الشهادة كما هي كي نتجنب الظلم والفساد والضياع .

والشهيد المطلق شاهد علىٰ نفسه قبل أن يكون شهيداً علينا ، قال تعالىٰ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (2) .

---

(1) البقرة ، 283 ـ 284 .

(2) آل عمران ، 18 ـ 20 .

والشهادة في الدنيا تكون اختيارية ، فقد يشهد المرء بالحق وقد لا يشهد وذلك يرجع كما أسلفنا القول إلىٰ إيمانه وخوفه من الشهيد بالإطلاق ، أما في الآخرة فهي إجبارية لا يتحكم فيها الإنسان بل الذي شهد عليه في الحياة الدنيا مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ [1] .

وشهادة الحق تؤدي إلىٰ :

إظهار الحق :

بما أن الإنسان مخلوق ضعيف قابل للفساد والمعاصي فإنه متعرض للذنوب والأخطاء ولـٰكن عند الأمر بشهادة الحق فإنه من شأن ذلك أن تُظهر الحق علىٰ الباطل ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [2] .

إعادة الحقوق :

أحياناً بشهادة حق واحدة ينطق بها لسان بشري يخاف ٱلله خالقه ومولاه

(1) فصلت ، 19 ـ 25 .
(2) النور ، 6 ـ 9 .

يُرجع بها حقاً مسلوباً أو يرفع بها ظلماً واقعاً علىٰ شخصٍ ما ، فتُرَد الحقوق النفسية والمادية الضائعة لأصحابها بهٰذه الشهادة التي تحيي الحق وتميت الباطل ، إنها شهادة إن نطق بها لسان الإنسان أصبح مسؤولاً عنها ، وإن كتمها إن علمها فهو أيضاً مسؤول عنها ، فلابد أن يراعي حق ربه وحق نفسه وحق غيره فيها .

ردع للفساد والظلم :

لا يأمر الشيطان إلا بالفساد والشرور والظلم ، لذلك كان لا بد من شهداء حق علىٰ الحقيقة كي يحاربوا أتباع الشيطان ويمنعوهم من نشر الظلم والرذائل علىٰ الأرض التي هي مسؤولية كل من عليها إذ أنها أمانة نحن مستخلفون فيها ، فإذا زُيفت الحقيقة وتزيفت ضاع الحق وتاه وسط هٰذا الفساد والباطل ، ولأن ٱلله جعل من شهادة الحق رادعاً للظالمين والفاسدين الذين يريدون أن تعم الفاحشة بين البشر .

فإذا عمت شهادة الزور وشملت النفوس واستوطنت فيها فإن ذلك يكون باعثاً لتفشي الرذيلة دون خوف أو رادع .

الشهادة تتطلب :

الأمانة :

الأمانة في الشهادة هي أن تُؤدىٰ بكاملها فلا نقص يعتريها ولا زيادة ولا كتمان ، قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ

إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝٤ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ (1) .

والشهيد بالإطلاق عندما استخلف الإنسان في الأرض وضّح له طريق الحق والهداية ، ومن ضمن ذلك أنه في اسم الشهيد يعلّم الإنسان الأمانة ، فالإنسان كفرد لابد أن يكون شاهداً علىٰ نفسه أميناً فيها قبل كل شيء ، فلو وصل كل مسلم لهٰذه الدرجة من الأمانة لعم الخير والصلاح ، لأنه إذا كان أميناً مع نفسه وحدث خلل لديه مع نفسه لوجد غيره ممن يحيطون به يساعدونه علىٰ لمس هٰذا الخلل سواء كان أخاً أو أباً أو صديقاً أو قريباً ، فالأمانة مع النفس سبب قوي لإحقاق الحق ولتكوين مجتمع أمين سليم مطمئن .

فعلىٰ الخليفة أن يكون أميناً داعياً للأمانة بين العباد الأمر الذي يبعث الراحة والطمأنينة في نفوس العباد ، إذ أن الخيانة أساس كل الرذائل وأصل كل المفاسد ومن شأنها أن تنزع الثقة من النفوس .

الصدق :

فمن صفات شهداء الحق الصدق ، ومن كان صادقاً مع نفسه كان صادقاً مع ربه ومع غيره ، ومن شأن الإنسان الصادق أن يكسب ثقة من حوله وهٰذا يؤدي إلىٰ أن تكون شهادته شهادة صادقة لا يداخلها التزييف والافتراء الذي يتنافىٰ مع أخلاق الإنسان الصادق ، قال تعالىٰ : ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝١١٦ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ

(1) الطلاق ، 1 ـ 5 .

﴿ ... فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴾ (1) في الآية الكريمة السابقة توضيح بأن الصادق في الدنيا هو الصادق في الآخرة حيث يشهد ٱلله تعالىٰ بأنه صدقه وصدق رسله ، وهـٰذا هو المكسب الكبير ، وقد كان الرسول ﷺ من صفاته الصدق والأمانة إذ كان يلقب بالصادق الأمين وهو خير أسوة لنا نقتدي به ونسير علىٰ منهجه ، فإذا اجتمع الصدق والأمانة فقد اجتمعت مكارم الأخلاق الذي بعث ٱلله تعالىٰ سيدنا محمداً عليه السلام كي يتممها بين البشر .

وإذا عم الصدق وانتشرت الأمانة بين المسلمين لما لاحظنا هـٰذا الارتفاع الكبير في نسبة الجريمة وهـٰذا الفساد الذي عم السواد الأعظم من النفوس المسلمة ، لذلك فهـٰذه مهمة الخلفاء كي يسيروا داعين لها عاملين بها .

لذلك فإنه من المستحيل أن يكون من بين الخلفاء من هو كاذب أو خائن أو مفترٍ ، لأن ذلك يتنافىٰ مع رسالته التي عرضها له ٱلله تعالىٰ لصلاح الأرض وخيرها ، فالصدق يجعل من الخليفة موضع ثقة واحترام مع نفسه ومع من حوله .

العدل :

في حال انتشرت الأمانة في أداء الشهادة يتحقق العقاب للذي يستحقه فلا يُظلم أحد من وراء شهادة كاذبة ، لأن الشهادة هي التي تحدد نوع العقاب وعلىٰ من يستحقه ، ولابد كي يتحقق العدل بين الناس أن لا يكون لدىٰ القانون مستويات للبشر كالغنىٰ والفقر والقوة والضعف ، فإذا كان هناك فرق وتمييز

---

(1) المائدة ، 116 ـ 120 .

لبعض الأفراد عن البعض الآخر فلن تفيد شهادة الحق طالما هناك تمييز بين البشر .

لذلك علىٰ ولي الأمر أن يكون عادلاً في حكمه وعادلاً في سماعه للشهادة وعادلاً في قوله لها مهما كانت الظروف ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ۝١٠٦ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠٧ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [1] .

القوة :

لا تأتي شهادة الحق إلا من إنسان قوي بٱلله وبحبه له تعالىٰ فيكون هٰذا الحب هو الدافع له لكل عمل خير يقوم به ، فلا يضعف تحت تأثير مالٍ أو جاهٍ أو سلطة ، فالمتوكل علىٰ ٱلله والواثق بأنه شهيد عليه وعلىٰ كل ما يقوم به سيشعر بالخجل من أن يزيف شهادته وسيخاف من عقاب الشهيد عليه .

الإيمان :

درجة الإيمان في صدر كل إنسان تتحكم في تصرفاته وأفعاله ، وأشدها هو أن يصل الإنسان إلىٰ حد الإحسان وهو أن تدرك وتتأكد من أن ٱلله يراك في كل لحظة وكل طرفة عين ، بذلك يراعي ٱلله في كل حركاته وسكناته ، أما إذا نقص الإيمان في قلب الإنسان فسوف يكون معرضاً للفساد والهلاك واتباع

---

(1) المائدة 106 ـ 108 .

طريق الشيطان الذي لا يعد الإنسان الذي يتبعه إلا بالسوء والفاحشة .

فالإيمان الحق يجعل من الإنسان مستحضراً للشهيد في نفسه في كل لحظة وكل حين ، وهو الذي يصل بالإنسان إلىٰ قناعة أن الشهيد دائم الشهادة عليه .

العلم :

العلم يجعل من صاحبه مدركاً لخطورة مجريات الأمور من حوله ، أما الجاهل فسوف يخلط الأمور بعضها ببعض فلا يدرك عواقب الأمور ، لذلك كلما كان المرء علىٰ درجة من الوعي والفهم والإدراك لارتقىٰ بنفسه من رذائل الأمور التي تهين آدميته وتُلقي به إلىٰ الهاوية ، وتقع علىٰ عاتق الإنسان المتعلم مسؤوليات عدة أكثر بكثير من الإنسان الأمي الذي لابد أن يكون للمتعلم دور في نشر مفاهيم صحيحة تعين هـٰذا الأُمي علىٰ السير الصحيح تجاه الخالق عز وجل ، فلا يكون معرضاً ضعيفاً تحت أي ضغط ، أو ساذجاً من السهل التحايل عليه .

الحرية :

والمقصود بالحرية هنا هو عدم تحكم شخص في الشاهد بأي شكل من الأشكال ، لأنه يجب أن يكون حر الرأي وأن تكون الشهادة خالية من أي استعباد لها من طرف آخر ، وأن يكون الشاهد يملك من قوة الشخصية وبعد النظر ما يكفي لأن يكون حر نفسه ، لا يتبع سلطان المال أو الشهوة أو غيرهما .

وللشهادة أطراف وهي :

شاهد : من شهد الفعل أو القول بنفسه ، فيكون ملزماً بأداء هـٰذه الشهادة علىٰ أتم وجه لأنه منذ أن شهدها أصبح مسؤولاً عنها ، فإظهارها أو طمسها يكون مرتبطاً بمدىٰ أخلاق الشاهد ، قال تعالىٰ : ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا

يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [1] .

مشهود عليه : الشخص الذي شهد له أو عليه ، فكل أمر يتطلب الشهادة لابد أن يكون هناك طرف علىٰ حق وطرف آخر علىٰ باطل .

مشهود به : الفعل .

وفي اسم الشهيد تحذير للعباد من أن ٱلله تعالىٰ يراقبهم ويحصي أعمالهم خيرها وشرها ، فهو الشهيد علىٰ ما يفعله البشر وبذلك لن يفلت إنسان إطلاقاً من هٰذه الشهادة ، ولٰكن بالرغم من هٰذا التحذير يغلب أحياناً طبع الإنسان المغرور علىٰ عقله ، حتىٰ أن أهل الكتاب أنفسهم بعد أن مَنَّ ٱلله تعالىٰ عليهم بالكتاب كفروا وازدادوا غروراً وفجوراً رغم أن لديهم الدليل والبرهان الذي يقطع أي حجة علىٰ ٱلله تعالىٰ ، وبالرغم من علمهم أن الشهيد يراهم ويكتب ما يعملون كما جاء قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [2] فلو تدبر كل مسلم الآية الكريمة السابقة والسؤال الذي فيها لاستشعر فيه التحذير ورد الحجة علىٰ أصحابها بعدم العلم ، بالرغم من أن الشهيد بالإطلاق قدّم لهم الدليل المادي

---

(1) يوسف ، 23ـ 27 .

(2) آل عمران ، 98 ـ 99 .

للإيمان به والخوف منه وهو الشهيد عليهم ، لـٰكن الذي حصل هو ازدياد كفرهم وعنادهم .

وٱلله هو الشهيد علىٰ عباده لأنه يحبهم وهو الكمال والعدل بذاته ، وهو الشهيد عليهم كي يترك في نفس الإنسان الإحساس بأنه يرتبط بٱلله ولا يمكن أن تنقطع هـٰذه الرابطة سواء كان مؤمناً فهو الشهيد عليه أو كان كافراً فهو الشهيد عليه أيضاً ، وهـٰذا يترك انطباعاً في نفس المؤمن بأنه علىٰ اتصال بربه لأنه تعالىٰ مطلع عليه ليلاً ونهاراً ، وقد منحنا ٱلله تعالىٰ صورة وافية لكي نصل إلىٰ هـٰذه القناعة حيث أنه قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (1) ، ففي هـٰذه الآية دافع لأن نكون ممن أحبهم ٱلله ورضي عنهم فيغفر لهم ويرحمهم .

وبما أن الشهيد المطلق هو شهيد علىٰ كل شيء فإنه يُعفي الإنسان المؤمن بهـٰذا الاسم من التفكير بأن يُسلّم لله تعالىٰ الذي يعلم ما في قرارة نفسه وهـٰذا من شأنه أن يزيح عن كاهل هـٰذا المؤمن عبء التفكير وانتفاء حاجته لمن يطلعه علىٰ ما في نفسه ، لأنه بذلك يكون قد وصل إلىٰ مرحلة من الارتباط بالشهيد القريب منه باستمرار والمحيط بكل ما فيه ، فلا يحاول شرح ما فيه لأحد ولا يتعب من البحث عن مستمع أمين ، وهـٰذا يجعل من المؤمن يشعر بالراحة والاطمئنان لأن الشهيد عليه هو الودود والرحيم والقريب والسميع والبصير ، فٱلله بعظمته وكبريائه وبجلاله شهيدٌ علىٰ أفعالنا وأقوالنا فإننا نصل إلىٰ أنه أيضاً الغفور الذي يعلم سيئاتنا ولو أننا سترناها عن كل الخلق ، فشهادته عز وجل علينا لا تمنع رحمته ومغفرته ، فالحمد لله الذي كان شهيداً علينا غفوراً رحيماً بنا .

---

(1) الأحقاف ، 6 ـ 8 .

لذلك فلا يجب علىٰ الخليفة عندما يكون شهيداً علىٰ أحد أن يطغىٰ ويتجبر وأن يسرع في الشهادة بل عليه أن يتأنىٰ ويتحرىٰ الحق ثم الحق ، وهنا نجد أن شعوراً بالطمأنينة يسكن نفس المؤمنين بما في ذلك من إيجابيات تنعكس علىٰ سلوكهم من ثقة ومودة واحترام ، فيتكون لدينا مجتمع مؤمن واثق تملأ نفسه الطمأنينة لبعضهم البعض إذ يكون المؤمن شهيداً علىٰ أخيه المؤمن فلا يزور ولا يخون ولا يكتم ما يجب أن يظهر من الحقائق .

ولو تمعنّا في هـٰذا الاسم الكريم لوجدنا فيه حلاً للكثير من مشاكلنا الاجتماعية وأمراضنا النفسية ، التي تحتاج إلىٰ راحة وطمأنينة لا تتحقق إلا إذا اتصفنا بالأمانة والصدق في الشهادة .

وٱلله تعالىٰ في هـٰذا الاسم يبعث لنا تحذيراً لنتحرىٰ الطريق الصحيح في تصرفاتنا وأفكارنا وسلوكياتنا ، وأيضاً إنذاراً لنا قبل أن نغادر هـٰذه الحياة الدنيا لننجو من عذاب الحريق بالتحلي بمكارم الأخلاق التي تتضمن شهادة الحق والابتعاد عن قول الزور ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمًّا وَعُمۡيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴾ (1) .

ومن شأن الإيمان بهـٰذا الاسم أن يعلّم المؤمن الصبر والتحمل في حالة ضياع حقه في الدنيا ، إذ أنه قد يتعرض أي فرد فينا للظلم فيأتي هنا اسم الشهيد ليبرّد نار الظلم التي تشتعل في النفس البشرية بأن هناك الشهيد العادل الذي يرد كل حق ويسجل كل شيء فيعلم أن هـٰذا الحق وإن لم يستطع أخذه في الدنيا فإن

(1) الفرقان ، 71 ـ 76 .

هناك الوكيل الذي يجب علىٰ المؤمن أن يوكل أمره إليه ، وأن يتيقن أن هـٰذا الحق سيرد إليه إما في الحياة الدنيا أو في الآخرة عندما يقف بين يدي الشهيد علىٰ حقه الضائع .

اللهُمَّ يا الشهيد نشهد أنك أنت ٱلله وأنك علىٰ ما نعمل شهيد ، ونسأل أن تكون أعمالنا خير شاهد علىٰ استخلافنا في الأرض وفوزنا في الجنة إنك بنا رؤوف رحيم !

اللهُمَّ يا الشهيد إنك علىٰ كل شيء شهيد ، نية تكمن في الصدور ، أو تذكُّر لماضٍ ، أو تفكُّر في مستقبل ، أو قول ينطقه اللسان في الحاضر ، أو عمل تؤديه الحواس ، فاجعل كل ذلك خالصاً لوجهك الكريم يا الشهيد يا ألله !

اللهُمَّ يا الشهيد اجعلنا شهداء بالحق ولا تجعلنا من الشاهدين بالباطل ، واجعلنا مؤمنين بقول الحق والشهادة به ولو كان علىٰ أنفسنا ، اللهُمَّ إنك أنت خير شاهد فإن نسينا أو أخطأنا فاغفر ! اللهُمَّ إن الشهادة بك تحق الحق فنشهد أنك أنت الحق شاهداً سبحانك !

اللهُمَّ يا الشهيد إنك جعلت علينا ألسنتنا شاهدة وأيدينا شاهدة وأرجلنا شاهدة فلا تجعلنا من مرتكبي المعاصي والزلات والخطايا والذنوب والعيوب والكبائر حتىٰ تكون ألسنتنا وأيدينا وأرجلنا شاهدة لنا لا شاهدة علينا يا ألله !

الحق جل جلاله

الحق : من أسماء ٱلله تعالىٰ ، والحق اسمه المنزه من الباطل ، ولأنه اسم من أسمائه الحسنىٰ فهو صفة ذات .

الحق : هو « الذي ليس له مثل في ذاته وصفاته وجميع أفعاله » [1] . ولذا فإن الحق هو الذي لا يلبسه الباطل .

الحق : واحد لا يتعدد [2] ، ولهـٰذا فإن المستخلفين فيها هم الذين يهدون إِلىٰ الحق ، ويرشدون إِلىٰ الصراط المستقيم [3] .

وعلىٰ الخليفة أن يتقي الحق في قوله وعمله وأن يبين الحقيقة ، ويميز الحق من الباطل ، فينهىٰ عن دعاء غير اللَّه ، وينفي عن الخلق القدرة علىٰ النفع والضر المطلق ، ويوضح أن من دعا غير الله ، ورجا منه النفع المطلق ، ودفع الضر فقد أشرك [4] .

الحق : « هو المستحق لأن يعبد ويطاع ويعظم ، لا إلـٰه غيره ولا رب سواه » [5] .

---

(1) جامع الرسائل ، ج 1 ، ص 17 .
(2) قصيدة ابن الأشعث ، ج 1 ، ص 62 .
(3) الوجيز في عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة ، ج 1 ، ص 27 .
(4) رسالة التوحيد ، ج 1 ، ص 104 .
(5) بيان التوحيد الذي بعث ٱلله به الرسل جميعاً وبعث به خاتمهم محمداً عليه السلام ، ج 1 ،=

إذاً الحق هو قول الحق . ولهٰذا فٱلله هو الحق وقوله هو الحق ، قال تعالىٰ : ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ﴾ [1] .

وعلىٰ مستوىٰ المستخلفين في الأرض ، قال الشاعر :

يـا نفسُ فـازَ الصـالحـون بـالتُّقـىٰ وأبصـرُوا الحـقَّ وقلبـي قـد عُمـي
يـا حسنهُـم والليـل قـد جنَّهـم ونـورهـم يفـوقُ نـورَ الأنجُـمِ
تـرنّمـوا بـالـذكـر فـي ليلهـم فعيشهـم قـد طـاب بـالتـرنُّـمِ
قلـوبهـم للـذكـر قـد تفـرّغـت دمـوعهـم كلـؤلـؤٍ مُنظَّـمِ
أسحـارهـم بهـم لهـم قـد أشـرقـت وخِلـعُ الغفـران خيـرُ القِسَـمِ [2]

وعليه فالحق يستوجب القول فهو شهادة لا تكتم . قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَٰبِۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [4] .

ولأنه صفة تنزيه قال تعالىٰ : ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [5] . ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا﴾ الذي أنزله هو الحق ، وهنا يعد الحق فعلاً وصفة

= ص 11 .
(1) سبأ ، 23 .
(2) اختيار الأولىٰ في شرح حديث اختصام الملأ الأعلىٰ ، ج 1 ، ص 14 .
(3) البقرة ، 283 .
(4) البقرة ، 159 .
(5) البقرة ، 41ـ44 .

لموصوف بالفعل المسمىٰ به . ثم جاء الأمر في قوله : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ، هـٰذه الآيات الكريمة السابقة جاءت دالة علىٰ الحقوق الآتية :

ـ الصلاة حق .

ـ إيتاء الزكاة حق .

ـ الركوع للحق حق .

ـ إتباع البر حق .

ـ تلاوة الكتاب حق .

ـ العمل بما جاء في الكتاب حق ، مصداقاً لقوله : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي أفلا تدركون الحق وهو بيِّن بين أيديكم كما نزل ، ومن يدرك الحق ليس له بد إلا أن يعمل به ، أي أن تبيانه لأجل الأخذ به قول وفعل وسلوك وتشريع .

ولأن الكتاب جاء به الرسول الكريم صلوات ٱلله وسلامه عليه تنزيل من الحق العزيز ، فإن ما جاء به الرسول هو الحق الواجب أخذه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (1) .

نعم الحق هو ٱلله وهو أيضاً أمر النبي ﷺ وما جاء به من الحق وهو القرآن الكريم ، أمّا أهل الباطل فقد كذبوا بالقرآن وهو كلام ٱلله الحق وكذبوا النبي ﷺ وهو الحق ، ويمثل أهل الباطل في عهد النبي ﷺ اليهود ومن شاكلهم ويمثلهم الآن من سار علىٰ نهجهم في رفض الحق بطراً وحقداً من عند أنفسهم فيقول الحق تعالىٰ في كتابه الحق : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ

(1) الحشر ، 7 .

بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ (1) .

وأهل الباطل من أهل الكتاب رفضوا أمر النبي ﷺ لأجل المال والسلطة الدنيوية وقد قال ٱلله عز وجل في كتابه لهم : ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (2) ، ولٰكن هٰذا الموقف الرافض للحق لم يكن له مبرر منطقي يبرره إلا الحقد والحسد اللذين هما منطق الضعيف الذي لا حجة له ، مع تمنيهم أن يعود أصحاب الحق وأهله عن حقهم ويرتدوا إلىٰ الجهل والباطل الذي يتمثل في الشرك بٱلله وعبادة أحجار وأصنام وخلقٍ من خلق ٱلله لا ينفعون أنفسهم ولا يضرون غيرهم ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ (3) . وهٰكذا فهم يمكرون ويمكر ٱلله وٱلله خير الماكرين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

(1) البقرة ، 39ـ46 .
(2) البقرة ، 41ـ42 .
(3) الأنبياء ، 59ـ69 .

لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (1) نعم هو الحسد ولا غيره كما قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (2) .

وفي معركة الإيمان ضد الكفر معركة الحق ضد الباطل يقذف ٱلله بالحق علىٰ الباطل فيزهقه ويبطله ، وأساس هٰذه المعركة ومن أول أسبابها أن قال أهل الباطل زوراً وبهتاناً إن لله زوجة أو ولداً أو أن له شريكاً في الملك والإلٰهية وكل ذلك باطل يرده ٱلله بقوله الحق فيقول تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (3) .

الحق لا يحقه إلا الحق ، والباطل لا يسنده إلا باطل ، ولذا فالفرق كبير

---

(1) الأنفال ، 30ـ33 .
(2) البقرة ، 109 .
(3) الأنبياء ، 16ـ24 .

بين من يتصف بالحق حتىٰ يسمىٰ به ويتصف وبين من يرتكب الباطل حتىٰ يتصف به ، وإذا أوضحنا ذلك فإن (الحق لا يحقه إلا الحق) يعني :

ـ الحق الأولىٰ في الجملة السابقة : يدل علىٰ التصاق الفعل بفاعله .

ـ والحق التالية في الجملة السابقة ، يدل علىٰ المصدر الذي يُستمد الحق منه .

ـ وكلمة التوسط بين الحقين (لا يحقه) تدل علىٰ أن الحق لا يستطيع إحقاقه هو كما هو إلا الحق الذي استمد منه .

وفي المقابل لما ذكرنا جاءت الجملة التالية : (الباطل لا يسنده إلا الباطل) ، وهـٰذه الجملة هي الأخرىٰ حق ، ولـٰكنها ليست الحق الذي جاء بالحق ، فالباطل الأولىٰ في جملة ما بين القوسين السابقين ، هي الباطل هو كما هو في ذاته . والباطل التالي للباطل في ذات الجملة ، هو : الفاعل للفعل الباطل ، وهو الذي لا تسنده حجة حق .

وقوله عز وجل : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴾ معناه ما سوينا هـٰذا السقف المرفوع وهـٰذا المهاد الموضوع وما بينهما من العجائب للعب واللهو ، وسويناهما لفوائد منها التفكر في خلقهما وما فيهما من العجائب والمنافع التي لا تعد ولا تحصىٰ ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا ﴾ اللهو ضياع الوقت في غير ما يجب ، ﴿ لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾ من عندنا باعتبار كل شيء بيده فهو يستطيع أن يفعل ما يشاء كما يشاء ، ولـٰكنه فعل كل شيء لغاية ولهـٰذا لم يكن لا عبا بالشيء المخلوق من عنده ، وهناك من فسر هـٰذا الأمر في اتجاهات أخرىٰ كما هو حال ابن عباس ، ونحن لا نفسره بذلك ، وهناك من فسره بما في معناه لو كان ذلك جائزاً في حقنا لم نتخذه بحيث يظهر لكم بل نستر ، ذلك حتىٰ لا تطلعوا عليه ، وذلك أن النصارىٰ لما قالوا في المسيح وأمه ما قالوا رد ٱلله عليهم بقوله لاتخذناه من لدنا لأنكم لا تعلمون أن ولد الرجل

وزوجته يكونان عنده لا عند غيره ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ يعني ما كنا فاعلين ، وقيل ما كنا ممن يفعل ذلك لأنه لا يليق بالربوبية بل يعني دع ذلك الذين قالوا فإنه كذب وباطل ، ﴿نَقْذِفُ ﴾ يعني نرمي ونسلط ﴿بِٱلْحَقِّ ﴾ يعني بالإيمان الذي لا يُبطل دليلاً وحجة ﴿عَلَى ٱلْبَٰطِلِ ﴾ يعني علىٰ الكفر بالحق ، وقيل الحق قول ٱلله أنه لا ولد له ، والباطل قولهم اتخذ ٱلله ولداً ﴿فَيَدْمَغُهُۥ ﴾ فيهلكه والدمغ هنا ليس مادياً حتىٰ يسيل الدم منه ، ولـٰكن تشبيه بليغ بين قوة الحجة وفعل صاحبها في دحض الباطل الذي لا يقدر الصمود في مواجهة الحق ، ولذا فالمتصف بالحق متصف بالقوة القاهرة للباطل فلا يخاف ، والحق لابد أن يحق .

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ ﴾ الزهق إبطال والزاهق هو المتولي ، والفار من الاستمرار في المواجهة ، واللعنات تلاحقه من كل جانب ، والمعنىٰ أن ٱلله يبطل كذبهم بما يبين من الحق حتىٰ يذهب ويضمحل ولا يبقىٰ في ميادين المقارعة إلا الحق ثابتاً لا تهزه الرياح ولو أتت من كل جانب ومهما عتت فإن الحق باق .

ثم أوعدهم علىٰ كذبهم فقال تعالىٰ ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ ﴾ يا معشر الكفار والمشركين ﴿مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ ٱلله بما لا يليق من عدم القدرة أو الصاحبة والولد ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ ﴾ يعني عبيداً وملكاً وهو الخالق لهم والمنعم عليهم بأصناف النعم ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ ﴾ يعني الملائكة وإنما خص الملائكة وإن كانوا داخلين في جملة من في السمـٰوات لكرامتهم ومزيد الاعتناء بهم وهم الذين بإيمانهم به واحداً أحداً لم يلد ولم يولد ولم يكن له شريك في الملك ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ يعني لا يتكبرون ولا يتعظمون عنها ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ يعني لا يراودهم الندم في أنفسهم من طاعة الحق وعبادته فهم لا يعيون ولا يتعبون ، وقيل لا ينقطعون عن العبادة ثم وصفهم ٱلله تعالىٰ ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ لا يضعفون ولا يسأمون ولا ينقصون شيئاً في عبادتهم له

وتسبيحهم بأسمائه وصفاته الحسان ، وذلك أن تسبيحهم متصل دائم لا يفتر في جميع أوقاتهم لا تتخلله فترة بفراغ أو شغل آخر قال كعب الأحبار : التسبيح لهم كالنفس لبني آدم ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ (1) يعني الأصنام من الحجارة والخشب وغيرهم مما يتخذون شركاءهم يعتقدونها تقربهم إليه زلفىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ (2) وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ (3) .

وقوله : ﴿ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ يعني يحيون الأموات إذ لا يستحق الإلـٰهية إلا من يقدر علىٰ الإحياء والإيجاد بأبلغ وجوه النعم ، وهو الله عز وجل ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ﴾ في السماء والأرض ﴿ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ بالتأكيد لو كان هناك شريك أو شركاء لكان لكل شريك حصة ، وله في كل حصة رأي ، مما يظهر

(1) الأنبياء ، 21 .
(2) سبأ ، 34ـ39 .
(3) الزمر ، 2ـ5 .

الخلاف ، ويؤدي إلىٰ الخصام والنزاع ، وهـٰذه الصفات صفات بشرية لا علاقة لها بالصفات الربانية ، والحق دائماً واحد أحد لا يمكن أن يكون أكثر من ذلك ، فإن زاد عن الواحد ظهر الخصام ، والواحد الأحد لم يكن طرفاً في مواجهة آخرين بل هو الواحد الذي خلقهم جميعاً والحمد لله إنه الواحد الأحد الذي لم يكن له شريك في الملك ، ولم تكن له الصاحبة والولد .

كل أمر صدر عن الاثنين فأكثر لم يجر علىٰ النظام المطلق ، والحق جل جلاله في قوله مطلق وفي فعله مطلق وفي وحدانيته مطلق ، وفي هـٰذا الأمر قال الإمام فخر الدين الرازي : « القول بوجود إلـٰهين يفضي إلىٰ المحال ، فوجب أن يكون القول بوجود إلـٰهين محالاً ، وإنما قلنا إنه يفضي إلىٰ المحال لأنا لو فرضنا وجود إلـٰهين ، فلا بد وأن يكون كل واحد منهما قادراً علىٰ كل المقدورات ، وهـٰذا محال »[(1)] .

وإبطال الحق يكون بكلمة صغيرة لا قيمة لها يتلقفها أهل الباطل فيغرسونها في أرض الزور والبهتان والكذب ، وهـٰذه لا يمكن أن تنبت شجرة مثمرة ، ومن ينتظر ثمارها فليس له من المجاعة والفاقة فك ، ولا من الموت مفر ، وهـٰذا الأمر الذي يفضي إلىٰ نشر الباطل ومحاربة الحق قد نبَّه ٱلله عليه في كتابه الكريم بقوله تعالىٰ : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[(2)] .

نعم فقد كبرت كلمة الباطل وتعاظم إفكها وزورها وكذبها ، لذلك قد

---

(1) تفسير الخازن ، ج 4 ، ص 392 .

(2) الكهف ، 1ـ 5 .

وضّح النبي ﷺ خطورة قول الكذب والزور وجعله من أكبر الكبائر : فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ثَلاثًا ، قَالُوا : بَلَىٰ يَا رَسُولَ ٱللهِ ، قَالَ : الإِشْرَاكُ بِٱللهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ : أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ قَالَ : فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّىٰ قُلْنَا : لَيْتَهُ سَكَت ! »[1] .

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ ـ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ـ قَالَ :

قَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ، قُلْنَا : بَلَىٰ يَا رَسُولَ ٱللهِ قَالَ : الإِشْرَاكُ بِٱللهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَقَالَ : أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّىٰ قُلْتُ : لا يَسْكُتُ ! »[2] .

فأكبر الزور نما من كلمة صغيرة من أفواه أهل الباطل بأن ادعوا للرحمـٰن ولداً ، وصاحبة ، وغير ذلك من الإفك والكذب ، ومن الزور كتمان الحق ، وقلنا : إن ٱلله الحق هو الواحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله .

وٱلله أرسل الرسل لتصحيح الزور ونقض الباطل الذي أعلاه الكفر والشرك وجاءت رسالة الإسلام لتعيد البشرية إلىٰ الفطرة السليمة بإعلان أن ٱلله واحد أحد وهـٰذا يظهر من أول ما يبدأ به الإنسان بالدخول في الإسلام فإنه يقول : (أشهد أن لا إلـٰه إلا ٱلله وأشهد أن محمداً رسول ٱلله) وهـٰذا قول الحق وذروته ، ثم يتأتىٰ الاعتراف والإقرار بباقي الحقوق التي منها أن الأنبياء حق والموت حق والساعة حق والملائكة حق ، ولـٰكن من أكبر الزور والافتراء الكذب علىٰ ٱلله والكذب علىٰ الأنبياء ، قال الحق تبارك وتعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ

(1) صحيح البخاري ، ج 9 ، ص 136 .
(2) صحيح البخاري ، ج 18 ، ص 372 .

أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [1] .

قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [2] .

وعليه فإن أشد الناس عناداً وأخطأهم فعلاً وأعظمهم كفراً من اختلق علىٰ ٱلله كذباً فزعم أن له شريكاً من خلقه وإلٰهاً يعبد من دونه كما قال المشركون من عبدة الأصنام ، أو ادعىٰ أن له صاحبة وولداً كما قالت النصارىٰ أو كذب بآياته ، التي تعد حجة حق علىٰ أمر واقع ، كما كذبت اليهود بمعجزات الأنبياء ، وقيل معناه أو كذب بآيات القرآن الذي أنزله علىٰ محمد ﷺ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ إنه لا ينجح القائلون علىٰ ٱلله الكذب والمفترون علىٰ ٱلله الباطل [3] .

وفي ذات السياق يقول الحق جل وعلا : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾ [4] .

---

(1) الأنعام ، 20 ـ 21 .
(2) الأنعام ، 20ـ 26 .
(3) تفسير الخازن ، ج 2 ، ص 378 .
(4) الأعراف ، 35ـ 37 .

ومدلول « حق » لها معان عدة ومن ذلك ما ورد في الكتاب الكريم ، في قوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ ﴾ أي ثبت ، وقوله تعالىٰ ﴿ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ أي وجبت وثبتت وكذلك ﴿ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ ﴾ وحَقَّ الأمرَ يحُقُّه حقّاً وأحقَّه كان منه علىٰ يقين ، تقول حَقَقْتَ الأمر وأحْقَقْته إذا كنت علىٰ يقين منه (1) .

والحَق في معناه ما يعاكس معنىٰ الباطل دلالة وإرشاداً ، وفي التنزيل : ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ ﴾ وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ ، الحق لا يعرف إلا بأنه الحق ، سواء اسم أو صفة أو فعل ، ولهٰذا فللحق دائماً الصفات الحسان ، والحق أيضاً يتوحد مع الذات ويتوحد مع القول ويتوحد مع العمل ويتوحد مع السلوك ويتوحد مع الفعل ، وعندما يتم التوحد به يأخذ المتوحد به صفة الحق الذي لا يتبدل (هو كما هو) ولذا فإن ٱلله الحق مطلق ، وقوله مطلق وفعله مطلق ، وقوله تعالىٰ ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ ﴾ معناه جاءَت السكرةُ التي تدل الإنسان أنه ميت بالحقِّ بالموت الذي خُلق له ، وروي عن أبي بكر ـ رضي ٱلله عنه ـ وجاءت سكرة الحقِّ أي بالموت والمعنىٰ واحد ، وقيل الحق هنا ٱلله تعالىٰ ، وقولٌ حقٌّ وُصِف به كما تقول قولٌ باطل ، وقوله تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ﴾ إنما هو علىٰ إضافة الشيء إلىٰ نفسه ، وفي الحديث أنه أعطىٰ كلَّ ذي حَقّ حقّه ولا وصيّة لوارث أي حظَّه ونَصِيبَه الذي فُرِضَ .

وكلُّ ما كان في القرآن من نَكِرات الحق أو معرفته أو ما كان في معناه مصدراً فوجه الكلام فيه النصب كقول ٱلله تعالىٰ وَعْدَ الحقِّ ووعدَ الصِّدْقِ .

والحَقِيقَةُ ما يصير إليها حَقُّ الأمر ووجُوبُها وبلغ حقيقةَ الأمر أي بلغ اليَقِينَ في الحقيقة (2) .

---

(1) لسان العرب ، ج 10 ، ص 49 .

(2) المصدر السابق .

والحقيقة تعني ظهور الحق بشكل جلي ، ولذلك لا يبلغ المرء الحقيقة إلا بحب الحق وقول الحق وعمل الحق والإيمان بالحق .

والحقيقة هي كما هي كاملة قد لا يكون بلوغها بالكمال ولكن بلوغها وفقاً لدائرة النسبية ، وفي الحديث : « لا يبلُغ المؤمن حقيقةَ الإيمان حتىٰ لا يَعِيب مسلماً بِعَيْب هو فيه » وهٰذا يدل علىٰ خالِص الإيمان ومَحْضه وكُنْهه وعن حقيقة الإيمان مما ورد عن رسول ٱلله ﷺ الكثير ؛ لأن الإيمان الحق يصل بالمرء إلىٰ معرفة الحق ، و من قول النبي ﷺ في ذلك : عَن أَبِي الدَّرْدَاءِ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإيمَانِ حَتَّىٰ يَعْلَمَ : أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ » [(1)] .

عن عطاء بن يسار قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « من قال حين يمسي : رضيت بٱلله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً ، فقد أصاب حقيقة الإيمان » [(2)] .

وعن ميمون أبي عمر ، قال : « لا يصيب عبد حقيقة الإيمان حتىٰ يدع المراء ، وإن كان محقاً » [(3)] .

وعن عمرو بن الحمق قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « لا يحق العبد حقيقة الإيمان حتىٰ يغضب لله ، ويرضىٰ لله ، فإذا فعل ذلك فقد استحق حقيقة الإيمان ، وإن أحبائي وأوليائي الذين يذكرون بذكري ، وأذكر بذكرهم » [(4)] .

قال الحسن : « ابن آدم كيف تكون مؤمناً ولا يأمنك جارك ؟ ابن آدم كيف تكون مسلماً ولا يسلم الناس منك ؟ ابن آدم لن تصيب حقيقة الإيمان في

---

(1) مسند أحمد ، ج 56 ، ص 26 .
(2) مصنف ابن أبي شيبة ، ج 7 ، ص 42 .
(3) الإبانة الكبرىٰ لابن بطة ، ج 2 ، ص 157 .
(4) المعجم الأوسط للطبراني ، ج 2 ، ص 161 .

قلبك حتىٰ لا تعيب الناس بعيب هو فيك ، حتىٰ تبدأ بإصلاح ذلك العيب ، فإذا فعلت ذلك لم تصلح عيباً إلا وجدت آخر ، فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة بدنك ، وخير عباد ٱلله من كان كذلك » (1) .

و قال رسول ٱلله ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون ٱلله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن لا يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه ٱلله منه كما يكره أن يلقىٰ في النار » (2) .

وعن أنس بن مالك ـ رضي ٱلله عنه ـ أن رسول ٱلله ﷺ قال : « ثلاث من كن فيه فقد ذاق طعم الإيمان من كان لا شيء أحب إليه من ٱلله ورسوله ، ومن كان أن يحرق في النار أحب إليه من أن يرتد عن دينه ، ومن كان يحب لله ويبغض لله » (3) .

عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « خمس من الإيمان من لم يكن فيه شيء منها فلا إيمان له : التسليم لأمر ٱلله ، والرضا بقضاء ٱلله ، والتفويض إلىٰ أمر ٱلله والتوكل علىٰ ٱلله ، والصبر عند الصدمة الأولىٰ ، ولم يطعم امرؤ حقيقة الإسلام حتىٰ يأمنه الناس علىٰ دمائهم وأموالهم ، فقال قائل : يا رسول ٱلله أي الإسلام أفضل ؟ قال : من سلم المسلمون من لسانه ويده ، علامات كمنار الطريق شهادة أن لا إلـه إلا ٱلله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحكم بكتاب ٱلله وطاعة النبي الأمي والتسليم علىٰ بني آدم إذا لقيتموهم » (4) .

وعن أنس ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « ثلاث من كن فيه استوجب الثواب واستكمل الإيمان : خلق يعيش به في الناس ، وورع يحجزه

---

(1) شعب الإيمان للبيهقي ، ج 14 ، ص 280 .
(2) صحيح مسلم ، ج 1 ، ص 48 .
(3) المعجم الأوسط للطبراني ، ج 11 ، ص 133 .
(4) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، ج 1 ، ص 63 .

عن محارم ٱلله ، وحلم يرده عن جهل الجاهل »[1] .

وحقيقةُ الرجل ما يلزمه حِفظه ومَنْعُه ويَحِقُّ عليه الدِّفاعُ عنه من أهل بيته ، والعرب تقول فلان يَسُوق الوَسِيقة ويَنْسِلُ الوَدِيقةَ ويَحْمي الحقيقة ، فالوَسيقةُ الطريدةُ من الإبل سميت وسيقة لأن طاردها يَسِقُها إذا ساقَها أي يَقْبِضها والوَديقةُ شدّة الحر ، والحقيقةُ ما يَحِقّ عليه أن يَحْمِيه وجمعها الحَقائقُ .

والحقيقةُ في اللغة ما أُقِرّ في الاستعمال علىٰ أصل وضْعِه ، والمَجازُ ما كان بضد ذلك ، وإنما يقع المجاز ويُعدَل إليه عن الحقيقة لمعانٍ ثلاثة وهي :

1 ـ الإتِّساع .

2 ـ والتوكيد .

3 ـ والتشبيه ، فإن عُدِم هـٰذه الأوصافُ كانت الحقيقة البتَّةَ .

ومن اللغة ودلالتها يمكن أن نقول « الحق اسم من أسماء ٱلله تعالىٰ وصفة من صفاته وتجلٍ من تجلياته علىٰ كل شيء يريد أن يؤكد ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أنه حق ، فالقرآن الكريم حق وهو كلام ٱلله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا يأتيه الباطل لأنه قول ٱلله الحق المنزل علىٰ الرسول الحق المتعبد به تعبد الحق ، وهو منهج الأمة التي لا تبغي إلا الحق وتؤمن بالحق في دار الاختبار ودار الاعتبار .

وعليه فإن الحق المطلق مختص بٱلله ، والحق بالإضافة نسبي وصاحبه هو الخليفة الذي يؤمن بالحق رباً أعلىٰ ، ومن خلال الإيمان بالحق رباً يتأتىٰ الإيمان بالنبي ﷺ رسولاً حقاً من لدن الحق العلي ، ثم يتأتىٰ الإيمان بالحق كتاباً ومنهجاً ، ثم الإيمان بالحق غيباً نعيماً وجحيماً ، جناً وملائكة ، وبالعموم غيباً وشهادة .

---

(1) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، ج 1 ، ص 27 .

ـ ٱلله سبحانه هو الحق المطلق في الدنيا وفي الآخرة وَسَتُرَدُّ إليه الأعمال وأصحابها فيحكم بينهم بالحق لأنه أسرع الحاسبين ولا يظلم من لديه مثقال ذرة أو أصغر لأنه الحق ، يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٦٠ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ (1) ، فعندما تقبض أرواح الخارجين عن المنهج الحق ويعرضون علىٰ ٱلله الملك الحق المبين الذي ليس في ظهور استحقاقه لملكه منازع يحكم بين الجميع بالحق ليحق الحق بكلماته ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ (2) . وعد ٱلله هو الحق ، وذلك لثبوت حدوثه ، في الزمان والمكان المحددين له ، فعندما يأتي حقه يحقه ولو كره ذلك الحق المجرمون .

ومن الآيات السابقة يتبين أن خليفة الاسم الحق يؤمن بالآتي :

1 ـ الحق إرادة ٱلله سبحانه وتعالىٰ .

2 ـ ٱلله يمكِّن ويهيئ لأصحاب الحق الوصول إلىٰ مبتغاهم .

3 ـ إرادة ٱلله سبحانه وتعالىٰ متحققة لا محالة لأنه ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (3) .

ولا راد لإرادته ومشيئته فهو سبحانه قد خلق الخلق من دون معين

---

(1) الأنعام ، 60ـ62 .
(2) الأنفال ، 7ـ8 .
(3) البقرة ، 117 .

ولا شريك إبداعاً لا علىٰ مثال سابق ، وأنزل الإنسان علىٰ الأرض لحكمة وهي تعميرها بالحق لا بالباطل وهـٰذه إرادته ولا يعجزه فيه أحد لأنه القائل الحق : ﴿ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ ، الذي بيده الأمر والملك بطبيعة الحال إذا أراد شيئاً أن يكون حركة وزماناً يكون في الحال مع فعل الأمر ﴿ كُن ﴾ الذي لا يحدث إلا بمشيئة الخالق محق الحق جل جلاله ، ولأن إرادته متحققة فهو سبحانه وتعالىٰ يسعد فريق الحق ويشقي فريق الباطل بما قدمت أيديهم ، وهنا لا ينفعهم باطلهم من فكرة باطلة ومن آلهة باطلة التي كانوا يتخذونها من دون ٱلله ، وفي هـٰذا إنذار لمن يبتعد عن منهج الحق ويحيد عنه ، وفي ذلك القول الحق دليل دامغ يؤكد أن المؤمن بالحق سيلقىٰ جزاء عمله سعادة مقيمة في يوم يجمع ٱلله فيه الفريقين ويكون الشقي بعمله الإفسادي والسعيد برحمة ٱلله والعمل الصالح ، وهـٰذا اليوم الحق الذي يبرز فيه الحق ويختفي فيه الباطل ، وهـٰذه إرادة ٱلله وهي نافذة لا راد لها ، ويبين ذلك بشكل جلي قول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ﴿١٠٤﴾ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيٞ وَسَعِيدٞ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴾ [1] ويقول تعالىٰ : ﴿ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [2] .

---

(1) هود ، 101ـ108 .

(2) البروج ، 12ـ16 .

4 ـ يريد فريق الباطل أن يفسدوا في الأرض وهـٰؤلاء هم الكافرون المجرمون الذين قال ٱلله فيهم : ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ .

5 ـ الهدف الذي يسعىٰ إليه المتحقق والمتخلق بمنهج الحق يتمثل في :

أ ـ إحقاق الحق في كافة صوره .

ب ـ القضاء علىٰ الكافرين المجرمين بالحق .

والحق الذي يريد ٱلله أن يحقه هو الإسلام بمعنىٰ التسليم لله والانقياد له بطاعة أوامره واجتناب نواهيه وإتباع سنن أنبيائه المشمولة في سنة المصطفىٰ ﷺ منهجاً قرآنياً وتنفيذاً محمدياً واتباعاً صادقاً ، وبهـٰذا يتحقق الحق في كافة صوره لأن الإسلام ما ترك قضية إلا ووضع لها حلاً ، وبهـٰذا يقوم الحق وتكون الخيرية في الخلافة المتمثلة في خير أمة أخرجت للناس التي يشهد عليها قول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (1) .

فقوله الحق يتعدد في هـٰذه الآيات الكريمة :

1 ـ ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ إنه الحق .

2 ـ ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ إنه الحق .

3 ـ ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ إنه الحق .

4 ـ ﴿ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ ﴾ إنه الحق .

5 ـ ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ ﴾ إنه الحق .

---

(1) آل عمران ، 109ـ110 .

6 ـ ﴿ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ إنه الحق .

7 ـ ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ إنه الحق .

8 ـ ﴿ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ إنه الحق .

ولأن الحق بيِّن والباطل بيِّن ، جاء قوله لا إكراه لأي إنسان في أن يتبع أو يُتبع بالإكراه ، والحق في أساسه ليس في حاجة لمدافعين عنه ، الحق هو خير من يدافع عن حاله ، ولٰكن الحق في حاجة لمن يظهره ويبشر به وينذر ويحرض ، ولكل من هٰذه القيم والفضائل الإنسانية أسباب ودواعٍ تستوجب مراعاة الزمان والمكان المناسبين للقول والفعل والسلوك ، قال تعالىٰ : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (1) . بعد أن بيَّن ٱلله قوله في رسالته الخاتمة وأظهره علىٰ العالمين به فسيظل في اللوح المحفوظ الذي لا يدخله الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه ، ولذا فقد نهىٰ الحق عن الإكراه في الدين الحق ، الذي لم يعد خافياً علىٰ أحد من العالمين ، ولهٰذا فالمستمسكون بالحق هم علىٰ حق ، والمستمسكون بالباطل هم علىٰ باطل ، ولكل ثوابه ، أو عقابه . ولا تزر وَازِرةٌ وزر أخرىٰ قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (2) .

فأمة الحق يطمئنها ربُّها بالحق الذي لا يقبل جدالاً ولا نزاعاً بأن السمٰوات والأرض له وحده دون شريك ، والأمر كله يرجع له عز وجل ، ويلخص الأمر في الآتي :

(1) البقرة ، 256 .

(2) الأنعام ، 164 ـ 165 .

1 ـ لله أمر السمـٰوات والأرض بالحق وإليه يرجع أمر الخلق جميعاً ثواباً علىٰ طاعتهم واتباعهم المنهج الصحيح وتعميرهم الأرض ومحاربتهم الباطل في كل أشكاله ، وعقاباً لأهل الباطل الذين حاربوا الحق وأهله .

2 ـ الأمة التي تتبع الحق هي خير أمة ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [1] ، وهـٰذه الخيرية التي هي لخير أمة لها تستوجب من المستخلفين في الأرض أن لا يغفلوا عن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ومن أعظم الأمر بالمعروف : الإيمان بٱلله واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد ، وهـٰذا هو حق ٱلله علىٰ العباد ، كما أن لهم علىٰ ٱلله حق ، إن هم أدوا حق ٱلله وهـٰذا ما وضحه سيد الخلق ﷺ فعَنْ مُعَاذٍ ـ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : كُنْتُ رديفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَىٰ حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ : عُفَيْرٌ ، فَقَالَ : « يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي ما حَقَّ ٱللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللَّهِ ؟ » قُلْتُ : ٱللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ : « فَإِنَّ حَقَّ ٱللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَىٰ ٱللهِ أَنْ لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً » . فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ ٱللهِ ! أَفَلا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ قَالَ : « لا تُبَشِّرْهُمْ ، فَيَتَّكِلُوا » [2] .

ولبُّ الحق عبادة ٱلله وحده دون سواه والانصراف قلباً وقالباً عما سواه فلا يعتقد الإنسان في حجر ولا شجر ولا يتوجه بالعبادة والدعاء إلا لله وحده لأنه لا نافع بحق إلا ٱلله ولا ضار بحق إلا ٱلله ولا حكيم بحق إلا ٱلله ، وهـٰكذا فهو الحق في أسمائه وصفاته وأفعاله .

---

(1) آل عمران ، 110 ـ 111 .

(2) صحيح البخاري ، ج 9 ، ص 459 .

ولـٰكن فريق الباطل لم يدرك حق ٱلله علىٰ العباد ولم يؤده فعبدوا من دون ٱلله أرباباً باطلة لا تملك من أمر نفسها شيئاً فكيف تملك من أمر غيرها ؟ ! وهـٰذا الصنف الذي قال ٱلله فيه من خلال خطابه الناس جميعاً : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ (1) .

فالباطل الذي هو نقيض الحق له أتباع يحاولون أن يقلبوا الموازين ليبطلوا الحق ويحقوا الباطل ولأن ما يعبدون من دون ٱلله باطل فٱلله سبحانه وتعالىٰ يتحداهم بأن يخلقوا خلقاً من أضعف خلق ٱلله ـ سبحانه في قدرته ـ وهـٰذا المخلوق علىٰ ضعفه إلا أنه لا يستطيع أهل الباطل أن يخلقوا مثله لأنهم علىٰ ضلال ، ولأنهم علىٰ ضلال فٱلله يتحداهم بأن يخلقوا ذبابة ، وٱلله يعلم أنهم عاجزون لأنهم لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً فكيف يملكون من أمر غيرهم ؟ ! أما المستخلفون فيها بالحق فهم يؤمنون بأن الخلق من عند الحق تبارك وتعالىٰ ، وبالتالي لا يراودهم شك في ذلك .

ويبلغ التحدي الإلـٰهي مبلغاً آخر وهـٰذا التحدي يثبت العجز التام للباطل فيقول ٱلله لهم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟

---

(1) الحج ، 73ـ78 .

لَهُۥۚ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴾ (1) .

والإيمان بٱلله واحداً أحداً من أهم ما يؤكده خليفة الحق وإثبات أن ٱلله واحد في ملكه وأن دعوته وولايته حق وأنه كما قال في كتابه الحق : ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ﴿١٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ (2) .

ومن هنا فالولاية الحقيقية المطلقة لله الواحد الحق لأن الذي يدعوه رباً يدعو بالحق ويعلم أن دعوته غير مردودة ، لأن ٱلله عز وجل هو الذي دعاه لذلك بدعوة الحق ، ومن هنا فخليفة الحق يعمل جاهداً لإحقاق الآتي :

1 ـ ٱلله سبحانه وتعالىٰ هو الحق المبين وهو جل وعلا سيوفّي الجميع بما عمل ثواباً وعقاباً . وكلمة المبين تعني الواضح الذي لا لبس فيه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴾ (3) .

---

(1) الحج ، 73 .
(2) الرعد ، 14ـ18 .
(3) النور ، 23ـ25 .

2 ـ دحض فريق الباطل الذي يحارب الحق و يدعو من دون سلطان أو حجة دامغة . قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾ [(1)] ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [(2)] .

3 ـ تأكيد أن الحكم الحق والقضاء الجد الذي لا هزل فيه من خصوصية الحق ، لذا فإن ٱلله الحق يدعو نبيه الحق ﷺ ، ومن أراد أن يتخلق بالحق ويحقق خلافة الحق بقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴾ [(3)] .

أما فريق الباطل فقد نعته ٱلله بالموت يعني الموت المعنوي فهم إن كانوا أحياءً جسداً فهم أموات لأنهم لم يستطيعوا التمييز بين الحق والباطل ، كما نعتهم بالعمىٰ لأنهم باتباعهم الباطل أرادوا أن يثبتوا الباطل ويدحضوا الحق وهـٰذا يؤكده قول ٱلله جل في علاه : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [(4)] .

وفريق الباطل قالوا للحق لما جاءهم : ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ

(1) غافر ، 35 .
(2) غافر ، 56ـ 58 .
(3) النمل ، 78 - 79 .
(4) النمل ، 80ـ81 .

كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (1) فمن سار ضد الحق فهو فاقد للدراية وبهٰذا وكأنه ميت وذلك بأسباب غفلة العقل والقلب والسمع والبصر والبصيرة ، وهٰذا الصنف من البشر لا فائدة ترجىٰ منه لأنه أعمىٰ البصيرة في الدنيا وأعمىٰ البصر والبصيرة في الآخرة ، وذلك بإعراضه عن الحق في الدنيا ، والحق في الدنيا متمثل في :

1 ـ التوحيد الخالص لله عز وجل : قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (2) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (3) .

2 ـ اليقين بالقلب بهٰذه الوحدانية : قال تعالىٰ : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾

---

(1) الأحقاف ، 7ـ14 .
(2) الإخلاص ، 1ـ4 .
(3) الحديد ، 2 ـ 3 .
(4) الحجر ، 98ـ99 .

لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [1].

3 ـ متابعة اليقين القلبي بالقول الثابت أي بالنطق بكلمة الحق ألا وهي « لا إلـٰه إلا ٱلله محمد رسول ٱلله » . قال تعالىٰ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [2].

4 ـ الحق ثابت عال مثل الشيء النافع الذي يثبت في الأرض ويثبت ٱلله لينفع الناس مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [3].

5 ـ لا فائدة من الباطل وإن أخذ صورة نافعة فهو هاو لا أساس له ويذهب وينتهي سريعاً دون فائدة ، قال تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ﴾ .

6 ـ أهل الحق لهم الثواب العظيم والبشرىٰ بالمغفرة والجنة ، وهـٰذا ثابت بقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ .

7 ـ فريق الباطل جزاؤه من جنس عمله لأنهم لم يؤمنوا بالحق وكذبوه وأرادوا

---

(1) التكاثر ، 3 ـ 8 .
(2) إبراهيم ، 27 ـ 30 .
(3) الرعد ، 17 ـ 18 .

أن يدحضوه بعدم استجابتهم للحق ودعوته ، وهـٰؤلاء لا ينفعهم يوم القيامة أموالهم ولا أبناؤهم ليفتدوا بهم من عذاب الجحيم ، فهم لهم سوء الحساب وسيكون مصيرهم جهنم ﴿ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ .

والخليفة يعلم أن ٱلله هو الحق وأن دينه الحق ، فهو يستشعر الحق ويعمل علىٰ ظهوره وبزوغه وإذ كان إحقاق الحق من ٱلله الحق بكلماته التي جعل فيها قدرته وإرادته لأنه سبحانه إذا قال للشيء كن فيكون فهو ، ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [1] .

وٱلله هو الحق ودعوته الحق ، يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴾ [2] .

ولسان حال الخليفة الذي يسير علىٰ منهج الحق يقول كما ورد في كتاب الحق :

﴿ ۞ وَيَـٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّـٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ [3] .

فالباطل ليس له أساس في الدنيا ولا في الآخرة ، أما الحق فله الدعوة الصادقة لأنه كما سبق أن بينا ، فإن الحق راسخ في القلب يقيناً ثابتاً بالقول والفعل وذلك لأن ٱلله خلق السمـٰوات والأرض بالحق ، والحق أن يعبد وحده

(1) البقرة ، 117 .
(2) الرعد ، 14 .
(3) غافر ، 41ـ44 .

دون شريك من صنم أو حجر أو عقل ضال قاصر أو اتباع شيطان من شياطين الأنس والجن ، وٱلله سبحانه وتعالىٰ لمّا خلق السمـٰوات والأرض بالحق وجعل الإنسان في الأرض ليخلفه فيها ليعمرها بالحق فتفرق الإنسان إلىٰ فريقين :

أ ـ فريق الحق يتبع الحق قلباً ، ولساناً ، وعملاً . قال تعالىٰ : ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ (1) .

ب ـ فريق الباطل الذي وجد في نفسه ضعفاً واتبع الشيطان أو اتبع أهل الباطل فلم ينفعه ذلك إلا بالخزي في الدنيا والعذاب والخسارة في الآخرة ، و مثل الحق والباطل في هـٰذا الموقف مثل الكلمة الطيبة التي هي كلمة الحق والتوحيد والصدق ومثل كلمة الباطل التي هي نقيض الحق ، وهـٰذه الصورة يلخصها ٱلله في قوله تعالىٰ مخاطباً النوع الإنساني من خلال خطابه للنبي ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا

(1) الحجرات ، 14 ـ 15 .

سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ (1) .

الكلمة الطيبة هي كلمة الحق ، وطيبة لأنها تاركة للأثر الذي به تطمئن الأنفس ، والكلمة الطيبة لا تموت ستظل مع الحق عبر العصور ، وكل شيء يتغير إلا هي ثابتة صامدة في مواجهة الكلمة الظالمة التي دائماً اللعنات تلاحق قائليها أو المستشهدين بها أو المحتكمين بها . قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾ (2) .

---

(1) إبراهيم ، 19 ـ 33 .

(2) آل عمران ، 85 ـ 90 .

إذاً الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة تؤتي أكلها كل حين ، متىٰ ما يستشهد بها أو يحتكم بها تكون حجة حاقة للحق وزاهقة للباطل ، والشجرة التي تؤتي أكلها كل حين ، ذات منافع كثيرة ، ففي دائرة الممكن من منافعها الآتي :

1 ـ عندما تكون شجرة طيبة وتؤتي أكلها كل حين يستظل بظلها ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ (1) ، وعندما تكون الكلمة طيبة يحاجج بها حتىٰ تدخل الطمأنينة في القلوب . قال تعالىٰ : ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴾ (2) . أما عندما تكون الشجرة خبيثة فإن الأمر يختلف ، فهي لا تؤتي أكلها وإن آتت فيكون ذا ضرر مثلها مثل الكلمة الخبيثة التي تفرق بين المرء وزوجه وتفسد في الأرض وقد تؤدي إلىٰ سفك الدماء فيها بغير حق .

2 ـ الشجرة الطيبة النافعة يؤكل من ثمارها ، وهي في شبه كبير بالكلمة الطيبة النافعة التي بها يتم تقصي الحقائق وتتبع مكامنها في ميادين البحث العلمي والازدياد المعرفي فتضيف الجديد النافع . والشجرة الخبيثة ثمارها كالحنظل وهي المحرمة علىٰ المستخلفين فيها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ

(1) إبراهيم ، 24 ـ 27 .
(2) النساء ، 85 ـ 86 .

ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [1] ، وعليه فالشجرة الطيبة قول ٱلله لآدم : ﴿ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ، والكلمة الخبيثة ما قاله إبليس لأبينا آدم وأمنا حواء ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ ﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [2] .

3 ـ يغرس منها في أماكن أخرىٰ ، وهي في التشبيه كالسنبلة التي تتضاعف من حبة واحدة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [3] . ولذا فالكلمة الطيبة هي كلمة الحكمة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ

---

(1) البقرة ، 34ـ37 .

(2) الحشر ، 16 .

(3) البقرة ، 261ـ264 .

ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [1] ، إمـا الكلمـة الخبيثـة فهـي التـي تبطـل الصـدقـات ، قـال تعالىٰ : ﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

ولأن الكلمة الطيبة كلمة حق ، فهي باقية مثل كلمة التوحيد ، واحد أحد ، الأول والآخر ، الملك الحق ، لا إلـٰه إلا هو ، محمد رسول ٱلله ، كلمات تامة غير منقوصة ، كما حال كلمات الكفر والشرك بٱلله ، ومثل كلمات النفاق والكذب والبهتان .

وكلمة الحق ثابتة كالشجرة الثابتة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء ، ولهـٰذا في المقارنات كلام ٱلله الذي أنزله علىٰ عباده الصالحين وأرسل به الرسل مبشرين ومنذرين هو كلام باقٍ يسمع في الأرض ويسمع في السماء ، ولهـٰذا مهما بلغ حجم الشجرة المباركة المشبه بها فإن الكلمة المباركة ذات ظل أكبر وأعظم وإنها ذات امتداد عظيم ، ولهـٰذا فإن كلمة الحق تنصف المظلوم لتعيد إليه حقه وهـٰذا أكبر ظل يمكن له أن يستظل به ، الحكم العدل والوزن بالقسطاس ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [2] . وفي مقابل ذلك الكلمة الخبيثة التي قال

---

(1) البقرة ، 269 .

(2) الأحقاف ، 31ـ38 .

عنها تعالىٰ : ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ . أي كل ما يخالف ما جاء في الآيات الكريمة السابقة هو في محل الشجرة الخبيثة وهي التي عند ٱلله مكروهة .

والخليفة من يدعو لظهور الحق عالياً بالدعوة الصادقة لله ليعينه علىٰ ذلك امتثالاً لقوله تعالىٰ للنبي ﷺ : ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [1] .

فالثواب والعقاب بيد ٱلله ، وهٰذا هو الوعد الحق لمن سار علىٰ المنهج الحق أو خالفه ، والمنهج الذي يسير عليه خليفة الحق فيه الآتي :

1 ـ **إقامة الصلة** : الصلة علاقة ورابطة عندما تكون بين الخليفة وربه تكون بالحق علىٰ الحق وطاعة للحق ، ومن أهم العلاقات صلة بين الخليفة وربه جل جلاله ، هي الصلة بالصلاة ركوعاً وسجوداً لله وتسليماً خالصاً بالرسول صلوات ٱلله وسلامه عليه مع إيتاء الزكاة وحج البيت والصوم في الشهر الكريم الذي أنزل فيه الحق القرآن الكريم تكريماً له وتكريماً للصائمين ، ولذا فإن هٰذه العبادات تربط الصلة بين الخالق والمخلوق الذي هو علىٰ الطريق المستقيم . قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ

---

(1) يونس ، 1ـ4 .

وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [2] .

2 ـ **تدبر الكتاب** : الذي يحوي المنهجَ الصحيحَ والفكرَ المستنيرَ . قال تعالىٰ : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [4] .

3 ـ **تحري الصدق** : الكذب هو القول الفاقد للمصداقية ، أي أنه خالٍ من الحقيقة ، وهو تعمد لتجنبها ، وقد يترتب علىٰ القول الكذب فتنة أو اقتتال قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَـٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ [5] ، وقال تعالىٰ ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا

(1) البقرة ، 3ـ5 .

(2) البقرة ، 277 .

(3) النساء ، 82 ـ 83 .

(4) محمد ، 20ـ24 .

(5) يونس ، 69 ـ 70 .

وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ (2) .

وعليه فإن الخليفة هو متحري الصدق في كل الأحوال لأنه لا حق دون صدق ، وجزاء الصدق القبول عند ٱلله تصديقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ (3) .

4 ـ **التوكل علىٰ الحق** : ومن يتوكل علىٰ ٱلله فهو حسبه ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (4) ، وباليقين يكون الحق غالباً والباطل زاهقاً مدحوراً لا محالة تصديقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (5) .

5 ـ **الحكم بالعدل** : العدل اسم ٱلله ، وصفته الحسنة ، وفعله الحق ، والعدل من عمل به عمل بكلمات ٱلله التامة ، ومن لم يعمل به فقد ضل ، والحكم العدل هو الذي لا مظالم فيه ولهٰذا لا يقوم به إلا خليفة ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن

---

(1) النساء ، 111ـ113 .

(2) النحل ، 105 .

(3) الأحقاف ، 16 .

(4) الأنفال ، 49 .

(5) آل عمران ، 160 .

تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [1] .

6 ـ **إيفاء الكيل والميزان** : الإيفاء بالكيل والميزان اعتراف بإحقاق الحق ومخافة من باطل ، ولهذا من يتبع ذلك يجد نفسه في طاعة ما أمر به الحق تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [2] .

7 ـ **أن لا يزني** : الزنا عمل من أعمال الشيطان به تختلط الدماء فتختلط المحرمات مع الحلائل وفي هٰذا إثم كبير ، وفيه من الأمراض ما يسبب العلة والموت ، وفيه فتنة بين من يكتشف أمرهم مع المحرمات ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [4] . ولـذلـك فمـن يستعصـم يفـوز فـوزاً كبيـراً ، قـال

---

(1) النساء ، 58 ـ 59 .
(2) الأنعام ، 152 ـ 153 .
(3) الإسراء ، 32 .
(4) النساء ، 23 .

تعالىٰ : ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [1] .

8 ـ **أن لا يسرق** : الخليفة هو الذي يستمد صفاته من صفات مستخلفه في الأرض ، ولذا من يسرق لا صفة له من صفات مستخلفه في الأرض ، ولهٰذا نهىٰ الحق تبارك وتعالىٰ عنه وأوجب حكماً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [2] .

9 ـ **أن لا يوقد نار الفتنة** : الفتنة أشد من القتل فهي تؤدي إلىٰ الفرقة والعداء بين الأقارب ، وكذلك بينهم وبين الأباعد ، ولهٰذا فالخليفة هو من يصلح ويفلح ولا يوقد نار الفتنة في الأرض التي استخلفه ٱلله فيها ، فمن يوقدها لا يكون من المستخلفين فيها ، وذلك لأن نار الفتنة تفسد ولا تصلح وتؤدي إلىٰ سفك الدماء ، قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟

---

(1) يوسف ، 32 ـ 34 .
(2) المائدة ، 38 ـ 39 .
(3) التوبة ، 48 ـ 49 .

خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ ﴾ (1) .

10 ـ **أن لا يشرب مسكراً** : الخليفة دائماً علىٰ الحق ، وهو للظلم من الكارهين ، ولهٰذا لا يشرب مسكراً حتىٰ لا يفقد صوابه الذي به اهتدىٰ إلىٰ الحق والطريق المستقيم ، إنه الذي يتجنب كل ما من شأنه أن يؤدي به إلىٰ فقدان عقله أو ذاكرته التي بها يميز بين الخبيث والطيب والحلال والحرام ، قال تعالىٰ : ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (3) .

11 ـ **أن يعمل علىٰ إحقاق الحق وإزهاق الباطل** : الحق هو دائماً في مرضاة ٱلله ، ومرضاة النفس المطمئنة ، ولهٰذا فالخليفة بإقدامه علىٰ القول الحق والفعل الحق يرضي ربه عز وجل ويرضي نفسه وضميره ، فإحقاق الحق لا يترتب عليه ندم ، أما أفعال الباطل فيترتب عليها الندم الشديد ، وقد تضيع فرصة الندم فلا يتمكن الإنسان من الاستغفار في الوقت المناسب له ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ (4) . ولهٰذا عندما يفوت وقت الاستغفار يظل الحكم بالعقاب أمراً لا مفر منه والحمد لله رب العالمين الذي يمهل ولا يهمل . ولهٰذا فالمستخلفون فيها هم الذين

---

(1) التوبة ، 46 ـ 47 .
(2) البقرة ، 219 .
(3) المائدة ، 90 ـ 91 .
(4) التوبة ، 80 .

يعملون علىٰ إحقاق الحق وإزهاق الباطل بكل ما يكسبون ويستطيعون . قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ (3) .

ومن يخالف ذلك المنهج هو من فقد الصواب وعميت بصيرته وموقفه في الآخرة يوضحه ٱلله في قوله تعالىٰ الذي يقص علينا قصة الحق وصراعه ضد الباطل منذ البداية فلنرَ ماذا يقول ربنا جل في علاه فيقول تعالىٰ لفريق الباطل الذي اعتمد علىٰ الشيطان لينصره ، والشيطان قد يكون إبليس نفسه أو فكرة خاطئة أو اعتماداً علىٰ مال أو جاه أو غير ذلك من دون ٱلله عز وجل ، ولـٰكن الشر الأكبر متمثل في الملعون الذي يُزيِّن الباطل ، فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (4) .

وٱلله أعلىٰ ـ من كيد الشيطان وفريق الباطل ـ علواً كبيراً لأنه الملك الحق ، ويقص ٱلله علينا قصة الصراع الذي لا ينتهي إلا بنهاية الكون قصة الحق والباطل فيقول تعالىٰ : ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن

---

(1) التوبة ، 48 .
(2) الإسراء ، 81 .
(3) الأنبياء ، 18 .
(4) الأنفال ، 48ـ51 .

يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (1) .

هي القصة بعينها . . . الحق والباطل في صور متعددة ، وأصلها أن ٱلله أراد أن يستخلف خليفة لتعمير الأرض ، فاعترض الشيطان علىٰ الخليفة وعصىٰ أمر ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، فتشعب الأمر إلىٰ شعبتين حق وباطل . . . هدىٰ وضلال . . . صدق وكذب . . . نور وظلام . . . جنة ونار .

والحق والهدىٰ والصدق والنور في المنهج الذي يحض علىٰ الصلة بٱلله عز وجل للوصول إلىٰ الحق وٱلله هو القائل لنبيه ﷺ : ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (2) فكان ﷺ يقوم الليل بهٰذه الكلمات فإنها مأثورة عن

---

(1) طه ، 114ـ127 .

(2) الإسراء ، 78ـ81 .

رسول ٱلله ﷺ في قيامه للتهجد : اللهُمَّ لك الحمد أنت نور السمـٰوات والأرض ولك الحمد أنت بهاء السمـٰوات والأرض ولك الحمد أنت رب السمـٰوات والأرض ولك الحمد أنت قيوم السمـٰوات والأرض ومن فيهن ومن عليهن ، اللهُمَّ لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وأسرفت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إلـٰه إلا أنت ، اللهُمَّ آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها ، اللهُمَّ اهدني لأحسن الأعمال لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت ، أسألك مسألة البائس المسكين وأدعوك دعاء المفتقر الذليل فلا تجعلني بدعائك رب شقياً وكن بي رؤوفاً رحيماً يا خير المسئولين وأكرم المعطين .

وقالت السيدة عائشة رضي ٱلله عنها : « كان ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته قال : اللهُمَّ رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السمـٰوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلىٰ صراط مستقيم »[1] .

والحق كما ورد علىٰ لسان رسول ٱلله ﷺ يتمثل في : ٱلله الحق ومنك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والنشور حق والنبيون حق ومحمد ﷺ حق .

ونعود للغة التي تؤكد معاني الحق التي تكلمنا فيها فقد جاء معنىٰ الحق علىٰ النحو الآتي :

الحَقُّ : نَقِيْضُ الباطِلِ[2] .

---

(1) السنن الكبرىٰ للنسائي ، ج 1 ، ص 417 .

(2) المحيط في اللغة ، ج 1 ، ص 151 .

ـ وٱلله حـق ومـا دونـه البـاطـل فعـن أبـي هـريـرة قـال : قـال رسول ٱلله ﷺ : أصدق كلمة قالتها العرب :

ألا كـل شـيءٍ مـا خـلا ٱلله بـاطـل   وكـل نعيـمٍ لا محـالـة زائـل !
وكـل أنـاسٍ سـوف تـدخـل بينهـم   دويهيـةٌ تصفـر منهـا الأنـامـل !
وكـل امـرىءٍ يـومـاً سيعلـم سعيـه   إذا كشفـت عنـد الإلـه الحصـائـل [(1)]

والحديث كما في الصحيح نصه « عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ أَلا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ ٱللهَ بَاطِلٌ » [(2)] .

ومن معاني « الحق اللغوية » بَلَغتُ حَقِيْقَةَ الأمْرِ : أي يَقِيْنَ شَأْنِه » [(3)] وهـٰذا اليقين في بلوغ الحقيقة ما وجدناه في القرآن الكريم معبراً عنه بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [(4)] .

﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ بقمعهم وإهلاكهم . قيل كانوا خمسة من أشراف قريش : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وعدي بن قيس ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب ، يبالغون في إيذاء النبي ﷺ والاستهزاء به فقال جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لرسول ٱلله ﷺ : أمرت أن أكفيكهم ، فأومأ إلىٰ ساق الوليد فمر بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظماً لأخذه ، فأصاب عرقاً في عقبه فقطعه فمات ، وأومأ إلىٰ أخمص العاص فدخلت فيه شوكة

(1) ديوان المعاني ، ج 1 ، ص 46 .
(2) صحيح البخاري ، ج 12 ، ص 212 .
(3) المحيط في اللغة ، ج 1 ، ص 346 .
(4) الحجر ، 95ـ99 .

فانتفخت رجله حتىٰ صارت كالرحىٰ ومات ، وأشار إلىٰ أنف عدي بن قيس فامتخط قيحاً فمات ، وإلىٰ الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح برأسه الشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتىٰ مات ، وإلىٰ عيني الأسود بن المطلب فعمي والحمد لله رب العالمين .

وقوله ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ عاقبة أمرهم في الدارين .

﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ من الشرك والطعن في القرآن والاستهزاء بك ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ ﴾ فافزع إلىٰ ٱلله تعالىٰ فيما نابك بالتسبيح والتحميد يكفك ويكشف الغم عنك ، أو فنزهه عما يقولون حامداً له علىٰ أن هداك للحق ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ من المصلين الخاشعين لله وحده ، وعنه عليه الصلاة والسلام « أنه كان إذا حَزبه أمر فزع إلىٰ الصلاة » ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ أي الحقيقة التي تبحث عنها وتريد معرفتها ، فٱلله عليم كريم وحكيم فلا تستغرب أن أظهرك علىٰ شيء من الحقيقة أو أظهرك عليها فاحمده واشكره كثيراً . ولذلك فاعبده ما دمت حياً ولا تخلّ بالعبادة لحظة ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴾ الذي لا شك ولا ظن من ورائه ، فهو الحق الذي لا يتبدل ولا يتغير ولو كره الفاسقون والكفرة والمجرمون .

ونرىٰ أن عين اليقين هو اليقين الذي لا لبس فيه ، واليقين لا يظهر إلا بالحق ومن هنا فالحق يكشف ما كان غائباً حتىٰ ينكشف الغطاء وتبرز الحقيقة ويتحول البصر إلىٰ آلة حادة في الإبصار فيري الإنسان ما لم يكن قادراً علىٰ رؤيته من قبل ، وحتىٰ نبسط الأمر أكثر من ذلك نعود إلىٰ قول ٱلله الحق في كتابه الحق الذي يقول فيه : ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴾ (1) .

---

(1) ق ، 19 ـ 22 .

قال تعالىٰ : ﴿ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا ﴾ الغفلة معنىً يمنع الإنسان من الوقوف علىٰ حقيقة الأمور و سهو يعتريه من قلة التحفظ والتيقظ ، والمعنىٰ يقال له يوم القيامة أو وقت النشور أو وقت العرض : لقد كنت أيها الشخص في الدنيا في غفلة من هٰذا اليوم وغوائله . وقال ابن عباس رضي ٱلله عنهما : الغفلة من عاقبة الكفر ومن السائق والشهيد . وخطاب الكل بذلك لأنه ما من أحد إلا وله غفلة ، وقيل الخطاب للكافر وقرئ كنت بكسر التاء علىٰ اعتبار تأنيث النفس وكذا الخطابات الآتية ﴿ فَكَشَفۡنَا ﴾ أي أزلنا ورفعنا ﴿ عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾ الذي كان علىٰ بصرك والغطاء الحجاب المغطي لأمور المعاد وهو الغفلة والانهماك في المحسوسات والألفة بها وقصر النظر عليها ، والغطاء ما يجعل فوق الشيء من لباس ونحوه كما أن الغشاء كذلك وقد استعير للجهالة قال تعالىٰ : فكشفنا الآية . ﴿ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴾ أي نافذ ثاقب لا ستار يحول بينه وبين ما تود النظر إليه . تبصر ما كنت تنكره وتستبعده في الدنيا لزوال المانع للإبصار ولٰكن لا ينفعك ، وهٰذا كقوله أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ، يقال حددت السكين رققت حدها ثم يقال لكل حاذق في نفسه من حيث الخلقة من حيث المعنىٰ كالبصر والبصيرة حديد فيقال هو حديد النظر وحديد الفهم ويقال لسان حديد نحو لسان صارم وماض وذلك إذا كان يؤثر تأثير الحديد ، وفي الآية إشارة الىٰ أن الإنسان وإن خلق من عالمي الغيب والشهادة فالغالب عليه في البداية الشهادة وهي العالم الحسي فيرىٰ بالحواس الظاهرة العالم المحسوس مع اختلاف أجناسه وهو بمعزل عن إدراك عالم الغيب ، فمن الناس من يكشف ٱلله غطاءه عن بصر بصيرته فيجعل بصره حديداً يبصر رشده ويحذر شره وهم المؤمنون من أهل السعادة ، ومنهم من يكشف ٱلله عن بصر بصيرته يوم القيامة يوم لا ينفع نفساً إيمانها وهم الكفار من أهل الشقاوة .

ومن كلمات أمير المؤمنين علي رضي ٱلله عنه : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا » ، يعني أن عين اليقين الحاصل لأهل الحجاب في الآخرة

حاصل لأهل الكشف في الدنيا فإنهم ترقوا من علم اليقين الىٰ عين اليقين في هـٰذه الدار فطابوا وقتاً فكائنهم في الجنان في الحال وكل يوم لهم يوم المزيد [1] .

قال تعالىٰ : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [2] .

الحق واحد لا يتغير ولا يبلىٰ ولا يزول ولا يتعدد ، وهـٰكذا الحقيقة واحدة لا تتجزأ فإن قبلت التجزيء فلا علاقة لها بالحقيقة ، ولذا ففريق الحق يصدق بالحق ولهم حسن الثواب ، يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ [3] .

يقول ٱلله سبحانه وتعالىٰ في فريق الحق :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [4] .

ويقول في فريق الباطل : ﴿ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا

---

(1) تفسير حقي ، ج 14 ، ص 130 .
(2) التوبة ، 111 .
(3) النساء ، 150ـ151 .
(4) النساء ، 152 .

لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [1] .

ووجهة الحق واحدة لذا نقول في القول الشائع أن الحقيقة لها وجه واحد ، ولما أراد ٱلله أن يجمع الخلق علىٰ جهة الحق اعترض أهل الباطل بالزور والسفاهة وضيق الأفق ، وهم ما زالوا إلىٰ الآن يشككون في وجهة الحق فقد طلعت علينا إحدىٰ الفضائيات التي تهاجم رسول الحق ودعوة الحق لتشكك في قبلة الحق وتقول هل ٱلله في جهة واحدة أو أنه غير قادر علىٰ رؤية من يصلي له في الجهات الأخرىٰ ؟ وكأنهم لا يعلمون من الأمور أبسطها أن ٱلله أراد أن يجمع الإنسانية علىٰ جهة واحدة هي جهة الحق وعلىٰ رسول واحد هو رسول الحق ، الذي بالصلاة والسلام عليه تصلي علىٰ جميع الأنبياء والرسل ، أي أن الصلاة والسلام علىٰ محمد صلاة وسلام علىٰ جميع الرسل مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [2] ولهٰذا الدين الواحد له ربٌّ واحد وجهة واحدة ورسول واحد ، وٱلله قد وصف هٰؤلاء ورد علىٰ أسلافهم بقوله : ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ

(1) البقرة ، 42ـ46 .

(2) البقرة ، 285 .

بَعْضٍۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (1) .

ويرد ٱلله علىٰ أهل الكتب الخارجين عن الحق الذين يعرفون أن النبي حق وينكرون تلك الحقيقة بقوله تعالىٰ :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (2) .

والحق هو الحق له سبيل واحد كما قال ٱلله علىٰ لسان النبي ﷺ في الكتاب الحق : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (3) .

الدعوة ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ يعني علىٰ يقين ومعرفة ، والبصيرة هي المعرفة التي بها يتم التمييز بين الحق والباطل ﴿ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ ﴾ من آمن بي وصدَّق بما جئت به أيضاً يدعو إلىٰ ٱلله ، ويذكِّر بالقرآن وقيل تم الكلام عند قوله أدعو

---

(1) البقرة ، 142ـ145 .

(2) البقرة ، 146ـ153 .

(3) يوسف ، 108 .

إلىٰ ٱلله ثم استأنف علىٰ بصيرة أنا ومن اتبعني بعدي أنا علىٰ بصيرة ومن اتبعني أيضاً علىٰ بصيرة ، قال ابن عباس : إن محمداً ﷺ وأصحابه كانوا علىٰ أحسن طريقة وأفضل هداية وهم معدن العلم وكنز الإيمان وجند الرحمـٰن .

ولقد صدق من قال :

الطـرق شتـىٰ وطـرق الحـق مفـردة والســالكـون طـريـق الحـق أفـراد
لا يعـرفـون ولا تـدرى مقـاصـدهـم فهـم علـىٰ مهـل يمشـون قصـاد
والنــاس فــي غفلــة عمــا يـراد بهـم فجلهـم عـن سبيـل الحـق رقـاد [1]

وعلىٰ الجملة فلا يميل أكثر الخلق إلا إلىٰ الأسهل والأوفق لطباعهم ، فـإن الحـق مـر والـوقـوف عليـه صعـب وإدراكـه شـديـد وطـريقـه مستـوعـر ولاسيما معرفة صفات القلب وتطهيره عن الأخلاق المذمومة فإن ذلك نزع للروح علىٰ الدوام ، وصاحبه ينزل منزلة الشارب للدواء يصبر علىٰ مرارته رجاء الشفاء وينزل منزلة من جعل مدة العمر صومه فهو يقاسي الشدائد ليكون فطره عند الموت [2] .

وصراع الحق ضد الباطل من صوره مسألة كلمة الباطل التي قال بها من أشرك بٱلله من أهل الكتاب واختلفوا في حقيقة سيدنا عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ روح ٱلله وكلمته التي أرسلها إلىٰ السيدة العذراء عَلَيْهَا السَّلَامُ : لا يوضح الحق ويظهره في هـٰذه القضية إلا كتاب ٱلله وسنختار منه آيات علىٰ سبيل المثال لا الحصر فيقول وهو أصدق القائلين :

﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ

(1) إحياء علوم الدين ، ج 1 ، ص 83 .
(2) إحياء علوم الدين ، ج 1 ، ص 84 .

ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ
وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن
فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ
فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل
لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ
سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن
دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ
إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ
حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾
إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت
طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ
ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ (1) .

ويقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ
وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ
ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ
أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ
وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ

(1) آل عمران ، 53ـ70 .

عَلَيْهِ قَآئِمًاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (1) .

أما موقف الذين آمنوا منهم فلسان حالهم يقول كما أخبرنا ٱلله عز وجل : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (2) .

اللهُمَّ ثبتنا علىٰ الحق ، وقونا بالحق ، واجعلنا من أهل الحق وعلىٰ دين الحق ونقول كما قال الرسول ﷺ :

« يا مثبت القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك « قالوا أو تخاف يا رسول ٱلله ؟ قال « وما يؤمنني والقلب بين إصبعين من أصابع الرحمـٰن يقلبه كيف يشاء » (3) .

اللهُمَّ يا الحق لك الحمد كما ينبغي لك ، أنت ولينا في الدنيا والآخرة توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين ! اللهُمَّ إنا آمنا بكتابك الحق ، وبكل ما نزل فيه ، فالجنة حق ، والنار حق ، ولقاؤك حق ، فاغفر لنا يا الحق ما بدر منا من الذنوب والزلل والخطأ والتقصير والعصيان ، وألهمنا الحق الذي ينقلنا لطاعتك ومحبتك ورضاك ، نحن آمنا بك ، أنت ربنا مالنا رب سواك يرحمنا

(1) آل عمران ، 71ـ77 .
(2) المائدة ، 83ـ86 .
(3) تخريج أحاديث الإحياء ، ج 6 ، ص 304 .

ويغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا ، وما أسررنا وما أعلنا ، اللهُمَّ يا الحق نوِّر بصائرنا بالحق فلا نرىٰ فيها إلا رحمتك ومغفرتك وكرمك وعطفك ، فنحن الفقراء وأنت الغني ، ونحن الضعفاء وأنت القوي ، تباركت وتعاليت يا الحق ، يا محق الحق ومزهق الباطل ! اللهُمَّ إن رسولك محمداً حق عليه نصلي ونسلم كما صليت يا حق علىٰ سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد !

✍ ✍ ✍

الوكيل جل جلاله

الحمد لله مدبر الملك والملكوت ، المنفرد بالعزة والجبروت . رافع السماء بغير عماد ، المقدر فيها أرزاق العباد . الذي صرف أعين ذوي القلوب والألباب عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلىٰ مسبب الأسباب ، ورفع هممهم عن الالتفات إلىٰ ما عداه والاعتماد علىٰ مدبر سواه ، فلم يعبدوا إلا إياه علماً بأنه الواحد الفرد الصمد الإلـٰه ، وتحقيقاً بأن جميع أصناف الخلق عباد أمثالهم لا يُبتغىٰ عندهم الرزق ، وأنه ما من ذرة إلا إلىٰ ٱلله خلقها ، وما من دابة إلا علىٰ ٱلله رزقها ؛ فلما تحققوا أنه الرازق عباده ضامن وبه كفيل توكلوا عليه فقالوا : ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ (1) .

الْوَكِيلُ « هُوَ الْمُوَكَّلُ وَالْمُفَوَّضُ إِلَيْهِ » (2) .

الوكيل بالمطلق هو الموكول إليه الأمور بالمطلق (3) .

الوكيل هو « المتولي لتدبير خلقه ، بعلمه ، وكمال قدرته ، وشمول حكمته . الذي تولىٰ أولياءه ، فيسرهم لليسرىٰ ، وجنبهم العسرىٰ وكفاهم الأمور . فمن اتخذه وكيلاً كفاه » (4) .

---

(1) آل عمران ، 173 .
(2) الأسماء والصفات للبيهقي ، ج 1 ، ص 212 .
(3) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص 129 .
(4) شرح أسماء ٱلله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة ، ج 1 ، ص 88 .

الوَكِيلُ الكفيل ونِعْمَ الكَفِيل بأَرزاقِنا ، و﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ كافِينا ٱللهُ ونِعْمَ الكافي كقولك رازقنا ٱللهُ ونِعْم الرازق ، والمُتَوَكِّل علىٰ ٱلله الذي يعلم أَن ٱلله كافِلٌ رزقه وأَمْرَه فيرْكَن إِليه وحْدَه ولا يتوَكَّل علىٰ غيره ، وقال ابن سيده : وَكِلَ بٱلله وتوَكَّل عليه واتَّكَل استَسْلم إِليه [1] .

فأول ما يقع في نفس المتأمل لهـٰذا الاسم أنه من أسماء الكمال التي تحوي الجمال والجلال الإلـٰهيين في الذات والصفات والأفعال .

فمن الجمال :

الوكيل رحيم بمن وكل أمورهم ، حافظ لمصالحهم ، دؤوب علىٰ راحتهم ، مدافع عمن لجأ إليه ، يحلُّ محل الجميع ولا يحلُّ محله أحد .

ومن الجلال :

الوكيل يكفي من انتصر به فلذلك يقول المتوكل عليه عند الشدائد كما قال من أقيم الدين علىٰ أكتافهم : ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [2] .

فماذا تغني قوة العالم أمام قوة من انتصر به وتوكل عليه ؟ .

وٱلله الذي لا إلـٰه غيره لا تقدم ولا تؤخر قيد أنملة ، لأنه يملك جنوداً لا حصر لها في العدد ، ولا وصف لها في القوة ، فليجمع الناس ليرهبوا المتوكِّل علىٰ الوكيل ، وما علىٰ المتوكل علىٰ الوكيل المطلق إلا أن يقول : « حسبي ٱلله ونعم الوكيل » نعم أنا المتوكل عليه ، الآخذ بأسبابه ، المنتصر باعتمادي عليه ، لا يخيفني جموع أهل الباطل من مفسدين حاقدين ،

---

(1) لسان العرب ، ج 11 ، ص 734 .
(2) آل عمران ، 173 .

ولا يرعبني عددهم ، فعددهم بدد ، وجند ربي لي مدد ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (1) .

فمن اعتمد عليه أعزه ، ومن اتخذه وكيلاً نصره ، فجنوده يملؤون الزمان والمكان ، وهو القوي العزيز الذي لا يحتاج لجنود ينصرونه ، ولكن على سبيل طمأنة المتوكل عليه حتى لا يدخل قلبه أقل من ذرة شك من أن الوكيل يتركه لتوهم أن الوكيل ينساه فهو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادون إيماناً بأنه الوكيل ولا يرتابون ولا يقع في قلوبهم الخشية من قوة الظلم مهما أعدّ لأنه ضعيف بتدبيره وعاجز في تفكيره ومهما جمع فهو قليل بجمعه ذليل بما يتوهم أن فيه العز ، قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (2) ، فتعالوا يا أهل الذل الذين جمعتم لأهل العز ، أجيبوا علينا :

- هل تعلمون عدداً لجنود الوكيل ؟

- هل تعلمون مقداراً لقوة جند الوكيل ؟

- هل لديكم عزة الوكيل التي يهبها للمتوكل عليه ؟

- هل لديكم القدرة في الجمع بين العزة والحكمة كما هو الحال فيمن نتوكل عليه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ؟

إن إجابتكم بالقطع ستكون بالنفي : لا نعلم . . . لا نعلم . . . لا نعلم .

أما نحن المتوكلين عليه فنعلم عدد جنوده ، فهي فوق العد وخارج حدود

---

(1) الفتح ، 7 .

(2) الفتح ، 31 .

الإحصاء ، لذا فنحن مطمئنون بتوكلنا عليه ونعلم أن جنود ربنا لا يعلم عددها إلا هو . ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ ﴾ (1) .

وجند ربنا الوكيل قد ترىٰ ، وقد لا ترىٰ فهي متعلقة بقوة ٱلله الذي لا تدركه الأبصار ولا تحيط بقدرته البصائر ، فمن جنده المدركة بصراً الريح قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحًا ﴾ (2) .

ومن غير المشاهدة :

﴿ وَجُنُودًا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (3) .

فالريح تحس ويرىٰ أثرها في إطفاء النار أو انتشارها أو في نقل السحاب أو تفرقه وفي نقل اللقاح للثمار أو في خلع الأشجار وهدم البنايات أو في تحريك السفن أو في إغراقها ، فهي جنود مطيعة تفعل ما تؤمر فهي للسلام والتعمير وقد ذكرها ٱلله في كتابه فقال : ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾ (4) .

فالريح الرخاء من جند ٱلله لنشر الخير ولجلب المسرة في النفوس بما تتركه من أثر طيب لدىٰ المستفيد منها .

وقد تكون ريحاً ساكنة ولـٰكنها مدمرة فتمنع حركة السفن في البحار وتجعل الموج راكداً ، فهل من محرك لها من دون ٱلله ؟ قال تعالىٰ : ﴿ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ﴾ (5) فجند ٱلله

---

(1) المدثر ، 31 .
(2) الأحزاب ، 9 .
(3) الأحزاب ، 9 .
(4) ص ، 36 .
(5) الشورىٰ ، 33 .

جند مستعدون لأداء ما يطلب منهم في أي وقت وبأي كيفية وفي أي مكان في الأرض والبحر والجو لأنه سبحانه المهيمن علىٰ ملكه الحافظ لمن يتوكل عليه بتسخير جنوده له كيفما شاء .

ومع فرضية إمكانية النجاة من الريح العاصف والوصول علىٰ البر ، فهل النجاة في البر مضمونة ؟ ! بالتأكيد لا ، لأن من يملك الريح في البحر يملك الريح في البر فيرسلها إلىٰ البر فيحدث التصدعات فيهلك من علىٰ البر أو يرميهم بريح حاصب ترميهم بالحصباء أي بالحجارة ، فبٱلله هل ينفع معها مصدات للريح ؟ أو مضادات للحجارة ؟ سؤال إجابته كسابقيه ! !

فهل يفهم من استخلف في الأرض ؟ ويتوجه قلباً وقالباً للوكيل فيتوكل عليه وينطلق في ركب الخلافة فيكون خليفة لله متوكلاً عليه ، أو سيقف متكاسلاً خذولاً لا يأخذ بالمبادرة في الحفاظ علىٰ دوره في خلافة ٱلله وتعمير الأرض ومحاربة المفسدين مستعيناً بالوكيل الذي عنده جنود السمـٰوات والأرض والبحر وما غاب عنا أكثر .

وعليه فالوكيل : هو من يتولىٰ الأمر ، وهو من يُرجع الأمر إليه ، وهو من يتوكل بأمر من يوليه أمره رعاية وعناية وحسن عاقبة .

والوكيل هو دائماً وكيل أمر ووكيل حال ، أي وكيل للرعاية والعناية الكاملة ، وكذلك وكيل حسن تصرف وفقاً لكل حالة وحال ووفقاً لكل مكان وزمان سبحانه إنه الملك المتعال جل جلاله .

فمن يقف أمام حركة الكون الطبيعية لا يملك إلا أن يتقهقر وينزوي ويذوب ويذهب أثره ، وهـٰذا لا محالة حال من يفسد في الأرض الذي ضلت دعوته وضاعت كلمته وتبدد أثره فلم يجد وكيلاً يتوكل عليه فتوجه داعياً للباطل من وثن وصنم ، وفكر فاسد لا يضر ولا ينفع ، مع العلم الذي لا يرقىٰ إليه شك أن المنجي هو ٱلله الذي ينجيهم برحمته إلىٰ البر ، قال تعالىٰ : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ

كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾ (1) وعند النجاة إلىٰ البر هل يتحقق الأمن من خسف ؟ أو من ريح حاصب ؟ أو الانتصار بأي وكيل غير ٱلله ؟ .

فلا منجي إلا ٱلله ، ولا وكيل بحق غير ٱلله ، فهو ينصر من ينصره ويتكفل بمن ألقىٰ إليه همّه وألجأ إليه ظهره فهو بحق نعم الوكيل .

ومن جند ٱلله الريح العقيم التي لا تبقي علىٰ شيء إلا وجعلته كالرميم الذي لا حياة فيه سيء الشكل كريه الرائحة ، وقد سخر إليه هٰذا الجند علىٰ قوم من الظالمين وهي في خزائن ملكه في كتائب جنده تعمل بأمره وتدمر بحكمته وتندفع بمشيئته لنصرة من يتوكل عليه ، ولنأخذ العبرة من قوم عاد ولنستلهم العظة من قوم تركوا حقهم في الخلافة معتمدين علىٰ قوة واهية وجند مغلوبين لا محالة لأنهم وقفوا ضد حركة الكون وإرادة ٱلله في تحقيق الخلافة علىٰ الأرض ، قال تعالىٰ : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ (2) وما تزال الريح العقيم موجودة لا يمنعها إلا رحمته ، وهي من أدوات الوكيل لنصرة المتوكل عليه .

وحتىٰ لا نطيل علىٰ المتتبع لتجليات الاسم الوكيل نقول : إن الوكيل يكفي عبده المتوكل عليه من كل معلوم ومجهول ، وصدق ٱلله في قوله : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ (3) بلىٰ ٱلله كاف عبده في أي وقت ، فهو قد كفىٰ آدم عليه الصلاة والسلام وذريته من الخلفاء الذين تحققت فيهم الخلافة وأرادوا الإصلاح في الأرض من إبليس ووعيده بأنه سيحتنكن آدم وذريته

(1) الإسراء ، 67ـ69 .
(2) الذاريات ، 41ـ42 .
(3) الزمر ، 36 .

فيدمرهم ويهلكهم ويقودهم إلىٰ الهلاك وذلك لأن ٱلله قد اختار آدم عليه الصلاة والسلام للخلافة ومن توفرت فيه شروطها من ذريته وأول ما كان من أمر ذلك الاختيار السجود لآدم طاعة لأمر الله وتكريماً للخليفة ، فكان طاعة ومعصية ، طاعة من المجبولين علىٰ الطاعة ، ومعصية لمن حقت عليه اللعنة فهدد وتوعد ، قال تعالىٰ : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [1] ولـٰكن ٱلله الوكيل من تكفل بآدم وبحقه في الخلافة لم يترك مكفوله فصرف عنه الشر متمثلاً في إبليس ومن سار علىٰ نهجه ، وأنذره بجند من جند ٱلله ، أنذره بالنار التي سيكون لكل معترض علىٰ الخلافة والخليفة نصيب وافر من عذابها فقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [2] .

فالغرور من الشيطان الذي يعد المغبون الملعون بسلب الخليفة حقه ومن يدفع طريد الهداية المتسربل بالضلال المحتمي بالظلم المستنير بالظلام للفساد في الأرض التي أصلحها ٱلله كرماً منه لبني آدم فقال تعالىٰ : ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [3] فضل ٱلله بني آدم بالخلافة في الأرض علىٰ الجن والملائكة الذين كانوا في حضرة السجود ، وفضلهم علىٰ الملعون الذي طرده من رحمة ٱلله غروره وصلفه ، وكرمهم بأن تكفل ووكل أمرهم ومنحهم شرف عبادته وكفاهم من سلطان الشر والفساد فقال ٱلله تعالىٰ : ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ

(1) الإسراء ، 61 ـ 62 .
(2) الإسراء ، 63 ـ 64 .
(3) الإسراء ، 70 .

عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ (1) .

فلا مجال للوصول بشرّ إلىٰ أهل الخلافة لأنه لا سلطان لأحد عليهم لأنهم قد آثروا الحق علىٰ الباطل والعمار علىٰ الفساد والخير علىٰ الشر ، وهٰؤلاء خلاصة العباد أخلصهم لنفسه ووكل أمرهم واستثناهم دون بني آدم فقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (2) .

ومن عباد ٱلله المخلصين الأنبياء والصالحون والأولياء ومن كانوا في خفاء برحمة ٱلله فلا يعلمهم إلا ٱلله مثلهم كمثل اللؤلؤ في الأصداف لا يُعْرَفُون وٱلله يعرفهم .

وعباد ٱلله المخلصون قد آمنوا بالذكر فذكروا وأخلصوا فأُخْلِصُوا وانتصروا به فانتصروا وغالبوا له فغلبوا به ، فوكل ٱلله أمرهم وكفاهم ، أما من تركوا وكالته وابتعدوا عن ذكره فكفروا وسوف يعلمون عاقبة كفرهم ، مع نفاذ إرادة ٱلله في نصر من توكل عليه ، وغلبة من اعتمد علىٰ أسبابه ، ويوضح السياق القرآني هٰذا في قول ٱلله تعالىٰ في بيان حال المبعدين والمخلصين قال تعالىٰ : ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ (3) .

فالمبعدون يتمنون لو أن لهم ذكراً من الأولين الذين أخلصهم ٱلله ، ولٰكنهم لمّا أتاهم الذكر كفروا به وشككوا في آيات ٱلله ، وهم لا يخفون

---

(1) الإسراء ، 65 .
(2) الحجر ، 39 ـ 43 .
(3) الصافات ، 168ـ173 .

علىٰ ٱلله الذي يعلم ما تخفي الصدور وما تصدر وما يهمس الخاطر وما يهمهم اللسان فهو العليم البصير ، وجزاء هـٰؤلاء المبعدين نار جهنم فلا يجدون أمنا لأن الأمن للمؤمنين الذين آمنوا فأمنوا مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (1) .

والمخلصون آمنوا بالذكر وبرسل ٱلله عليهم الصلاة والسلام فكفاهم ٱلله ونصرهم وأمدهم بجنده وجنده منصورون لأن مددهم من العزيز الغالب .

ومما تقدّم نقول بفضل ٱلله وتوفيقه : إن اسم ٱلله الوكيل له معان عدة منها :

الأول : المقيم علىٰ شئون الخلق .

الثاني : الكفيل برزق العباد .

الثالث : حفيظ لخلقه بتقدير أمر محياهم ومماتهم وبعثهم ونشورهم وحسابهم .

الرابع : الكافي الذي يكفي عباده هم الدنيا وما فيها وهم الآخرة وما خفي منها بما لا يعلمه إلا هو .

الخامس : الرب الصاحب المالك الذي لا يملك أمر خلقه أحد سواه .

والوكيل بالإضافة وهو ما نبحث فيه ونبذل جهدنا لاستجلاء دور الخليفة لله من خلال التخلق بأسمائه فيأتي بمعنىٰ (المتوكل) الذي يأخذ بالأسباب متوكلاً علىٰ ربه خالقه وخالقها ، والمتوكل في الجانب المشرق أو في الجانب الفاعل الإيجابي .

---

(1) فصلت ، 40 ـ 42 .

والمتواكل الكسول الذي غرته الأماني فأخلد إلىٰ الهوىٰ ومال عن طريق الحق ففقد نصيبه في الخلافة ، هـٰذا المتخاذل في الجانب المظلم الفاسد السلبي .

وسنربط بين الاسم الوكيل وما ورد فيه من معان بين دفتي كتب اللغة والتراث وبين الطرح الذي ننطلق منه وهو تحديد العلاقة بين الاسم والخليفة ، وبين الاسم ومن تنازل عن حقه في الخلافة .

أولاً :

في أَسماء ٱلله تعالىٰ الوَكِيلُ ما ورد في كتب اللغة وهو :

ـ « المقيم الكفيل بأَرزاق العباد وحقيقته أَنه يستقلُّ بأَمر المَوْكول إِليه ، وفي التنزيل العزيز : ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ [1] قال الفراء : يقال : « رَبًّا » ويقال : « كافِياً » [2] . ومن تجلي ٱلله الوكيل أنه مقيم أي قائم علىٰ شئون خلقه ، ومن مظاهر هـٰذا التجلي الآتي :

1 ـ أنه القائم علىٰ شئون العباد في أحوالهم كافة برعايته لهم في كل زمان ومكان .

2 ـ هو الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، لأنه لو أخذته السنة أو النوم لما كان مقيماً . ومن لا تأخذه سنة ولا نوم فهو المقيم ، ومن تأخذه السنة والنوم فليس بمقيم سبحانه جل جلاله .

3 ـ والمقيم هو المدبر لأمر الخلق بالتساوي في وقت واحد .

4 ـ والمقيم هو الذي يضع من يشاء علىٰ الطريق القويم الذي لا عوج فيه .

---

(1) الإسراء ، 2 .

(2) لسان العرب ، ج 11 ، ص 734 .

5 ـ والمقيم هو القائم علىٰ كل نفس بما كسبت مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ [1] .

الثاني :

ـ والوَكِيلُ الحافظ [2] .

الثالث :

ـ والوَكِيلُ في صفة ٱلله تعالىٰ الذي توَكَّل بالقيام بجميع ما خَلَق [3] .

الرابع :

ـ والوَكِيلُ الكفيل ونِعْمَ الكَفِيل بأَرزاقِنا [4] .

وفي قولهم : (حَسْبُنا ٱلله ونِعْم الوَكِيلُ) : كافِينا اللهُ ونِعْمَ الكافي كقولك رازقنا اللهُ ونِعْم الرازق ، الوَكِيل بمعنىٰ الرَّبِّ [5] .

وأول ما يلقانا من معان أن الوكيل مقيم علىٰ شؤون الخلق لذا سنطلق العنان في البحث والتفكر في هـٰذا المعنىٰ ، فالوكيل المقيم لأنه :

1 ـ الملازم علىٰ فعل الشيء بانتظام دون خلل ولا كلل ولا ملل .

ومن أمثلة الانتظام دون كلل أو ملل :

---

(1) الرعد ، 33ـ34 .

(2) لسان العرب ، ج11 ، ص 734 .

(3) لسان العرب ، ج11 ، ص 734 .

(4) لسان العرب ، ج11 ، ص 734 .

(5) لسان العرب ، ج 11 ، ص 734 .

ـ سقوط المطر في مواسمه إلا إذا منعه ٱلله فهو جند من جنده يُسْتَخدمُ رحمة وعذاباً ثواباً وعقاباً . ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ (1) .

ـ تسخير الفلك التي تجري في البحر بأمره وبقدرته ولا يجريها إلا جند من جنوده (الريح) ، فإذا وثب علينا من يقول : إن هناك المحركات والنفط والطاقة النووية والشمسية فلا حاجة للريح الآن ، نقول له وبكل بساطة : أيها الظالم لنفسه المغرور بعقله الضال بعلمه إن ما تقول هو من جند ٱلله وقد منحك العقل لتسخيره فلا تدفع بنفسك إلىٰ الهلاك كمن قال : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ (2) ، لا فهو الذي سخر الفلك والأدوات التي تجريها في كل زمان ومكان ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ (3) ويا لروعة النص الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فيعقب قضية تسخير حركة الفلك بحركة الزمن الذي يعلم من الشمس والقمر .

ـ تسخير الشمس والقمر بصفة مستمرة لا يعتريها خلل أو اضطراب فقال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ (4) .

فلأنه الوكيل الذي إليه أمور الخلق فقد خلق السمـٰوات والأرض بالحق لكي يستفيد منها الخليفة في تحقيق الخلافة ، وهـٰذه الاستفادة لابد لها من أدوات تساعد علىٰ تيسيرها لذا فقد حفظ ماء الحياة في السمـٰوات وينزله بقدر موزون في الوقت الذي يراه مفيداً لخلقه دون تمييز إلا إذا أراد من ذلك الماء أن

---

(1) إبراهيم ، 32 .

(2) القصص ، 78 .

(3) إبراهيم ، 32 .

(4) إبراهيم ، 32 ـ 33 .

يغير وظيفته من النفع إلىٰ الضرر لحكمة يعلمها هو عز وجل .

وفي حالتنا هـٰذه فهو الذي ينزل ماء السماء لإخراج كنوز الأرض الزراعية من ثمار وحبوب رزقاً لجميع الخلق ، وحتىٰ تعم الفائدة سخر الفلك لنقل هـٰذه الثمار من مكان إلىٰ آخر ، كما سخر الماء بنوعيه المالح والعذب لمهمة النقل : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴾ نعم تجري بأمره هو لا بأمرنا نحن لأنه لو أراد أن يعطل حركة الفلك لأوقف الريح التي تسيره ولأوقف الحركة التي أمرها بالمطلق بيده سبحانه لا إلـٰه إلا هو مالك الأمر والملك .

وٱلله خلق الأرض وما فيها لغرض تحقيق الخلافة وقد تكفل بنعيم مقيم للذين يتوكلون عليه فلا ينظرون إلىٰ متاع زائل يمنعهم من أداء دورهم السامي وهـٰذا النعيم لا ينفد ولا يزول قد أعده ٱلله للذين علىٰ ربهم يتوكلون ، والذين علىٰ ربهم يتوكلون هم المعتمدون عليه في حركتهم وسكونهم وفي صحوتهم ومنامهم وفي حياتهم ومماتهم وفي بعثهم يوم يبعثون ، وينبه ٱلله المنوط بهم أمر الخلافة إلىٰ أن متاع الحياة الدنيا لا قيمة له لذا لم يعقبه بوصف مثل الغرور أو لقليل لأنه أقل من أن يوصف في مقابل نعيم ٱلله فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [1] .

ولله الوكيل القدرة المطلقة علىٰ خلقه لأنه قائم وكيل علىٰ مصالحهم :

ـ فهو سبحانه الذي خلق السمـٰوات والأرض .

ـ خلق الخلق في الأرض ونشرهم في عموم الأرض ولا يفعل ذلك

---

(1) الشورىٰ ، 36 ـ 39 .

إلا القائم علىٰ شؤون الخلق المتصرف في أمورهم الوكيل عليهم بهيمنته علىٰ السمٰوات وما فيها والأرض وما عليها وما تحويه في باطنها .

ـ ما يصيب الإنسان من ضرر علىٰ الأرض إنما هو من صنع يديه ومن فساده هو ومن كسب يديه لا من النظام الذي وضعه القائم علىٰ الخلق الوكيل عليهم وصدق ٱلله إذ يقول : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (1) .

فثقب الأوزون وارتفاع حرارة الأرض والأعاصير والجفاف والجدب وانتشار أمراض ما عرفت من قبل وغير ذلك الكثير والكثير يمكن رده وبسهولة إلىٰ ما كسبت الأيدي الشريرة الآثمة في تدخلها بالفساد في الأرض ، وهـٰذا الفساد هو محك السؤال الذي سألته الملائكة لله سبحانه وتعالىٰ وهو سؤال لاشك للاستفسار لا للاستنكار ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (2) ، فٱلله حين قال : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ فالخطاب للنبي محمد ﷺ الذي به ختمت الرسالات وفي رسالته أجمع بلاغ للناس وأوضح بيان ، والخطاب فحواه تبليغ الثقلين والملائكة الكرام ، بحقيقة الخلافة وهي جعل خليفة في الأرض يخلف ٱلله في تنفيذ أحكامه من أمر بمعروف ونهي عن منكر وإصلاح في الأرض والأخذ علىٰ يد كل مفسد وإن كان المفسد من ذرية الخليفة الأول آدم عليه الصلاة والسلام وذلك لأن المفسد قد تنازل عن حقه في الخلافة ببعده عن منهج الحق وتخليه عن الوكالة التي أنيطت به ليؤديها .

والهدف من الخلافة تنفيذ أحكام ٱلله في الأرض ، وبهـٰذا يكون الوكيل

---

(1) الروم ، 41 .
(2) البقرة ، 30 .

بالإضافة أو المتوكل علىٰ ٱلله الوكيل المطلق ، وبيان ذلك أنه إذا أخذ منه حق أو قهر من ظالم بالاعتداء أو بالحيلة أو بشهادة الزور فماذا يصنع ؟ .

يتوجه إلىٰ ٱلله بالدعاء بأن ييسر له أخذ حقه ، ثم يتوجه للخليفة ليساعده لنيل حقه ، فإن أعانه ذلك المسؤول فقد حقق الخلافة ، أما إن أهمله ولم يعنه لأخذ حقه فقد تنازل عن حقه في الخلافة ، ومرد كلامنا هـٰذا إلىٰ القول الفصل كلام ٱلله تعالىٰ إذ يوضح تلك القضية مع نبي ٱلله داود عليه الصلاة والسلام فيقول تعالىٰ : ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَـٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴾ (1) .

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَـٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ الخلافة هنا نيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه وإما لموته وإما لعجزه وإما لتشريف المستخلف والمنوب عنه حاضر لا يغيب يختبر ويبتلي الخليفة ، وهو حي لا يموت دائم دواماً سرمدياً قديماً أزلياً ، قادر مقتدر لا يعجزه شيء ، وعلىٰ هـٰذا فيكون الوكيل المطلق الذي لا يغيب ولا يموت ولا يعجز عن فعل شيء يكون وكيلاً علىٰ غائب وميت وعاجز وهـٰذا الإطلاق لله ، والإضافة للخليفة ، وعلىٰ هـٰذا الرأي الذي نركن إليه استخلف ٱلله أولياءه في الأرض ، فالخليفة ينفذ الحكم الإلـٰهي وهو من كان متبعاً للنبي ﷺ وسنته . والاستخلاف علىٰ الملك في الأرض والحكم فيما بين أهلها بما أمر ٱلله وفق إرادته التي خلق الناس لها .

فالخلافة الحقيقية ليست كسباً للإنسان وإنما هي وهبة من ٱلله يؤتيها من يشاء كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَـٰكَ خَلِيفَةً ﴾ والجعل هبة وعطاء لا كسباً وعملاً .

ـ إن استعداد الخلافة مخصوص بالإنسان كما قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي

(1) ص ، 26 .

جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ ولا يصل إليها إلا المتوكل علىٰ ٱلله الآخذ بأسباب الخلافة .

وعلىٰ ذلك فقدرة ٱلله المطلقة تحيط بمن يتوكل عليه تشمله وتكفله وترعاه ولا يستطيع أي خارج عن منهج ٱلله أن يفر أو يخرج عن إرادته لا بالجدل أو بالفرار ، وهنا نعود لما استشهدنا به من قول ٱلله تعالىٰ في المتاع الذي لا قيمة له والمتاع المقيم الدائم ، لنستبين صفات من صفات المتوكلين علىٰ ربهم ، فما ملك الناس في الدنيا فهو متاع زائل لأن المتاع الحقيقي يكمن في طاعة ٱلله في الدنيا والفوز برضاه في الآخرة وهـٰذا الفوز خير وأبقىٰ ، ولا ينال هـٰذا النعيم المقيم إلا المتوكلون علىٰ ٱلله فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [1] .

وهـٰؤلاء المتوكلون من صفاتهم :

- ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ .
- ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ .
- ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ ﴾ .
- ﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ .
- ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ .
- ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ .
- ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ .

(1) الشورىٰ ، 35ـ39 .

ولأن هـٰذه صفات المتوكل فهو « يعلم أَن ٱلله كافِلٌ رزقه وأَمْرَه فيرْكَن إِليه وحْدَه ولا يتوَكَّل علىٰ غيره » [1] . وهنا ننطلق إلىٰ الجزئية التالية التي صدّرنا بها البحث في الاسم الوكيل .

المعنىٰ الثاني :

ـ إن ٱلله وحده الوكيل الذي تكفل برزق العباد .

فهو وكيل وكفيل وضامن لرزق من يتقيه في حركاته وسكناته وأنفاسه وخواطره ونيته وسره وجهره ، فيجعل مخرجاً للتقي من كل ضيق وفرجاً من كل كرب ، ويسراً من كل عسر ، ويكفيه كفاية شمولية تبلغ به إلىٰ ما أراد ٱلله من تنفيذ أمر واجتناب نهي ، ولأن التوكل عمل وجهد يعقبه رزق وكفايه فقد جعل ٱلله لكل شيء سبباً دفعاً لعباده المتوكلين عليه للأخذ بالأسباب فقال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [2] .

ومنهج ٱلله شمل الزمان والمكان علىٰ العموم والإطلاق ، فبالإضافة إلىٰ السياق الأول لنزول الآية نقول :

إن المتوكل علىٰ ٱلله هو الذي يتقي ٱلله في السر والعلن ويكون جزاء ذلك :

ـ ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ومسألة الرزق واسعة ، فمن الرزق ما هو مادي وما هو معنوي ، والمادي كما في قوله تعالىٰ :

قال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ

(1) لسان العرب ، ج11 ، ص734 .
(2) الطلاق ، 2 ـ 3 .

مُتَشَٰبِهًاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (1) ، فرزق الدنيا المادي بالعمل والسعي ورزق الآخرة برحمة ٱلله تعالىٰ وهٰذا الرزق يشبه رزق الدنيا في الاسم لا في الجوهر والحقيقة .

وعلىٰ سبيل المثال قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ ﴾ (2) .

ودخول الجنة برحمة ٱلله للذين آمنوا وكانوا علىٰ ربهم يتوكلون ، ومن التوكل الأخذ بالأسباب بالعمل الصالح من صلاة وصيام وإنفاق في سبيله بالقول والفعل وبذل النفس لإحقاق الحق وإزهاق الباطل ونشر العدل والسلام والمساواة بين الناس علىٰ اختلاف ألوانهم وأجناسهم وأديانهم ، ولأن المؤمن قد أخذ بأسباب التوكل فقد نال ما لم ينله المتواكل .

المتواكل : هو الذي غرته الدنيا ونعيمها الزائل فقد أخلد إلىٰ هواه واعتقد من وهمه وضلاله أن ٱلله كما أنعم عليه في الدنيا سينعم عليه في الآخرة وقد تناسىٰ أنه قد فشل في اختبار الخلافة وتنازل عن حقه فيها ، وهٰذا هو لب القضية التي خلق من أجلها الإنسان ، فيقول ذلك المغرور كما أخبرنا ٱلله جلت قدرته في كتابه : ﴿ أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا ٧٧ أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٧٨ كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا ﴾ (3) فالذي كفر بآيات ٱلله ومنها البعث يعتقد أنه سينال الآخرة بما ناله في الدنيا فاغتر بماله وولده ولم يأخذ بأسباب النعيم الدائم فضاع منه شرف الأخذ بأسباب الخلافة في الدنيا وشرف الفوز بثواب ٱلله عنها في الآخرة ، « وقد نزلت الآية في العاص بنِ وائلٍ وكان لخبّابٍ بنِ الأرتّ عليه

(1) البقرة ، 25 .
(2) محمد ، 12 .
(3) مرم ، 77ـ80 .

مالٌ فاقتضاه فقال : لا حتىٰ تكفرَ بمحمد ، قال : لا وٱلله لا أكفرُ به حياً ولا ميْتاً ولا حين بُعِثتُ ، قال : فإذا بُعث جئني فيكونُ لي ثمّةَ مالٌ وولدٌ فأعطِيَك » (1) . فهـٰذا العاص قد اعتمد علىٰ ماله وولده ووكل أمره لهما وهما ليسا له بل عليه لأنهما ابتلاء واختبار ، فليعرف من أراد الخلافة هـٰذا فإن المال والولد سببان لشكر ٱلله وتنفيذ منهجه لا للكفر ومعاداة أوليائه وخلفائه الذين يصلحون في الأرض معتمدين عليه آخذين بالأسباب ذاتها لتحقيق الخلافة المثلىٰ علىٰ الأرض ، ومثل آخر ضربه ٱلله في كتابه للمؤمن الذي يتوكل علىٰ ٱلله وينتصر به ، والكافر الذي يعتمد علىٰ الهوىٰ والغرور ولا ينتصر بٱلله لأنه لم يتخذه وكيلاً ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ ۞وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ (2) .

فرجل مغرور بماله قد أعطاه ٱلله له للاختبار فكفر بربه وظن ظن السوء بأنه لن يزول ناسياً قدرة ٱلله عليه وأنه خلقه من نطفة لا قيمة لها وسواه رجلاً ليعرف طريق الهداية ولـٰكنه ضل بمال ليس له وبقوة ليست منه وغرته أوهامه بأنه سينال عند ٱلله ما ناله في الدنيا بالرغم من صلفه وعنته وكفره ، فهـٰذا حال من أحوال المتواكل المغرور بالقوة الفانية من مال وولد ، أما المؤمن المتوكل علىٰ ٱلله فقد أيقن أن ٱلله هو الرازق المانح الكفيل بأن ينعم في الآخرة كما أنعم في الدنيا

(1) تفسير أبي السعود ، ج 4 ، ص 328 .
(2) الكهف ، 32 ـ 38 .

إن شكر الإنسان وأقر بأن المنعم المتفضل هو ٱلله ، فلا يكفر الخليفة بربه ويرد ما لديه من قوة إلىٰ المصدر الأول لها ولا يغتر ولا يفتخر ولا يتعالىٰ بل يزداد توكلاً علىٰ ٱلله سبحانه وتعالىٰ .

وفي الحقيقة فإن الكافر لا متعة له لأنه يتمتع متعة حيوانية مثل الأنعام وهو بذلك قد اختار متعة زائلة عن نعيم مقيم ، يقول ٱلله تعالىٰ :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ (1) .

وما أشد الفرق بين المؤمن والكافر ، بين المتوكل والمتواكل ، بين الذي علىٰ بينة من ربه وهدىٰ ونور وبين الذي علىٰ الضلال واتبع سوء عمله مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴾ (2) .

فالذي علىٰ الهدىٰ هو الذي أخذ بأسباب الهداية وعمل للنعيم المقيم وتوكل علىٰ ٱلله فجزاه ٱلله برحمته النعيم الدائم الذي لا يحول ولا يزول وقد ضرب ٱلله لذلك النعيم مثلاً علىٰ سبيل التقريب لا علىٰ سبيل الوصف المماثل ، ثم أردف بالتعجب من حال الكافر الذي سيخلد في النار ولا يشرب إلا الماء الحميم الذي يقطع الأمعاء ، فقال عز وجل : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ (3) .

وما سبق من أمثلة الرزق المادي والمعنوي الذي يرزقه ٱلله للمتوكل ، ويغتر به المتواكل الذي يسعىٰ للمتع الحيوانية ولا يأخذ بأسباب الرزق الحقيقي الذي يحفظ الجسم للتعمير والإصلاح ويسمو بالروح إلىٰ الملأ الأعلىٰ ،

(1) محمد ، 12 .
(2) محمد ، 14 .
(3) محمد ، 15 .

وهـٰذا ما يسعىٰ له الخليفة السمو بالروح والسمو بالجنس الإنساني من البهيمية الحيوانية إلىٰ الروحانية المتمثلة في أن يكون خليفة في الأرض ولا فض ٱلله فاه القائل :

إنــي أســوق الــروح للمــلأ الأعلــىٰ   غيــري يســوق بهيمــة الأنعــام [1]

فالخليفة هدفه السمو بالروح إلىٰ المعاني السامية والأغراض النبيلة وممالا شك فيه أن من تلك المعاني السامية والأغراض النبيلة تحقيق الخلافة من تعمير وإصلاح وبناء وتعليم وزراعة وكفاية لحقوق من كرمهم ٱلله وأراد أن يكونوا خلفاء ، وهـٰذا من الرزق المادي الذي يعد أساساً من أسس السمو بالروح .

وغير الخليفة من الذين يتمتعون متعة بهيمية ويلهون لهواً حيوانياً يسوقون أجسادهم لمتع زائلة كما تساق البهائم من الأنعام .

والرزق المادي في الدنيا غير مرفوض ولا يُنْهَىٰ عن الأخذ بأسباب استخراجه ولـٰكن المهم في كيفية الانتفاع به واستخدامه ، وهـٰذا دور الخليفة الذي يدعو إلىٰ أخذ الأسباب من توكل علىٰ ٱلله والعمل والكد باستخراج ما في الأرض من خيرات .

ومن التوكل علىٰ لله الجمع بين الصبر والتوكل فيكون ضمان الرزق من ٱلله ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [2] .

فقد ذكر ٱلله الصبر والتوكل وفي الأمرين استغراق للزمن الماضي والحاضر والمستقبل ، فالماضي لا ندركه ولا قدرة لنا علىٰ استرجاعه والعمل

---

(1) ديوان الإمام فخر الدين البر هاني ، ص76 .
(2) العنكبوت ، 59 ـ 60 .

فيه ولا يؤمر الإنسان فيه بشيء ، فبقي الحاضر ويصلح معه الصبر وبقي المستقبل ويصلح معه التوكيل ، ومن هنا فالخليفة يصبر علىٰ ما يصيبه من الأذىٰ في الحاضر ، ويتوكل علىٰ ٱلله فيما يحتاج إليه في المستقبل ، ولأجل ذلك علينا أن نتوقف قليلاً عند الزمن الذي يحتوي في تقسيماته الماضي والحاضر والمستقبل لنتبيَّن الأمر ، ولنتبيَّن ذلك الأمر علينا بالتوقف عند (الآن) التي هي المكون الرابط في كل زمان .

يقول ابن سينا : (الآن) هو (دائماً وصل بين قبل وبعد ، وهو قبل ما بعده ، وبعد ما قبله) [(1)] . فالآن كالعلامة علىٰ الزمان ويشار به إلىٰ الوقت الحاضر الذي يربط الزمنين الماضي والمستقبل اللذين هما الآخرين علامتان علىٰ الزمان ، والزمان متصل غير منفصل ، أما الوقت الذي هو المتكون من الماضي والحاضر والمستقبل فمتجزئ بأحداثه ، وعندما نقول الزمان في تشبيهه كالحبل علىٰ البكرة ، فالذي تم سحبه منه أصبح في الوقت الماضي ، وما هو علىٰ البكرة هو في وقت الآن ، وما لم يسحب بعد يقع في الوقت المستقبل ، ولهـٰذا تجزأ الوقت ولم يتجزأ الحبل (الزمان) فالحبل متصل لأنه حبل واحد ، أما الوقت فلم يكن واحداً .

الآن إذاً هو الظاهر في الحاضر ، والكامن في الماضي ، والمتناهي في المستقبل .

الآن البداية :

هو الذي لم يكن كما قال عنه ابن سينا (الآن دائماً وصل بين قبل وبعد) [(2)] ، بل الآن البداية هو بداية التوأم (الزمان والحركة) فلا زمان إلاّ من

---

(1) إبراهيم العاتي ، الزمان في الفكر الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولىٰ ، دار المنتخب العربي ، 1993م ، ص183 .

(2) المرجع السابق ، 183 .

بعده ولا حركة إلاّ من بعده ، ولا حياة إلاّ من بعده ، وذلك لعدم وجود ماض سابق علىٰ وجوده ، ولهٰذا الآن البداية هو دائماً بداية لما بعده .

الآن الأوسط :

هو الذي ينطبق عليه ما قاله ابن سينا بأنه (دائماً وصل بين قبل وبعد ، وهو قبل ما بعده ، وبعد ما قبله) ، ولٰكن ليس بالضرورة أن يكون هو الوسط الحسابي بحيث تتعادل أطرافه ، فإذا اعتبرنا الآن في هٰذا اليوم نقطة وصل بين الماضي من البداية ، والمستقبل إلىٰ النهاية ، فهل نحن متأكدون بأن ما قضيناه من الزمان يساوي ما تبقىٰ منه ؟

الآن النهاية :

هو دائماً بعد ما قبله ، وليس وصلاً بين قبل وبعد ، فإذا كان للحجرة باب ، فالآن هو المفتاح الذي أُقفلت به الحجرة . ولهٰذا الآن النهاية هو دائماً نهاية لما قبله .

الآن الماضي :

هو المستوعب للتجارب التي وقعت أو التي حدثت بموجبها وسالبها ، وهو الذي يكتمل بعد حدوث الفعل أو الانتهاء من التجربة ، ويتصل مع كل حاضر بالنقطة الآن . الماضي هو الوقت الذي سجلت فيه الأحداث والأفعال والتجارب في الزمان والحركة ، وهو القابل للاستدعاء كأحداث وغير قابل للاستدعاء كزمان وحركة ، والسبب هو الأفعال الماضية إلىٰ جانب كونها تسجل في الزمان والحركة ، فهي أيضاً تسجل في العقول المدركة التي عندما تحاور بالأسلوب العلمي تتمكن من أن تستدعي ما سجل لديها من مخزون الماضي . أما الزمان الماضي والحركة الماضية فلا يمكن استدعاؤهما مع الأحداث الماضية إلاّ كمواقيت ودلائل لتسجيل الأحداث والمواقف والمواضيع والظواهر ، ولذلك لا يمكن استدعاؤهما مجردين مع

أنهما يتكرران وفقاً للدورة الفلكية المنتظمة . ولذلك نلاحظ تكرار الزمان والحركة ، ونلاحظ اختلاف المحتوىٰ ، بمعنىٰ أن اليوم يتكرر كل أربع وعشرين ساعة ، ولٰكن مضمون اليوم ومحتواه قد لا يتكرر ، فعلىٰ سبيل المثال : قد نجد اليوم درجة الحرارة أكثر أو أقل من حرارة يوم أمس ، أو أنها أكثر أو أقل من حرارة اليوم المماثل لهٰذا اليوم من العام الماضي ، مع أن هٰذا اليوم يماثل يوم العام الماضي من حيث الزمان والحركة ، ولهٰذا يختلف المضمون والمحتوىٰ لكل وقت سواء من حيث الكم أو الكيف ، ولٰكن بالنسبة إلىٰ الحركة الذاتية والزمان الذاتي لا يختلفان بين هٰذا اليوم ويوم العام الماضي ، فيوم 23 يوليو من هٰذا العام لا يختلف عن يوم 23 يوليو من العام الماضي ، باعتباره أطول أيام السنة نهاراً ، ولٰكن من حيث المضمون والمحتوىٰ فقد لا يكون بينهما تماثل ، وهٰكذا يكون يوم الفاتح من سبتمبر من هٰذا العام لا يختلف عن يوم الفاتح من سبتمبر من العام القادم من حيث الزمان والحركة . إذاً الماضي كأعمال لها مضمون ومحتوىً يمكن استدعاؤها في الوقت الآن ، والآن هو لحظة بداية ولحظة نهاية ، ولهٰذا يقع الآن في الزمان كما يقع الزمان في الحركة ، فلا حركة بدون الآن ، ولا الآن بدون زمان ، فالماضي لا يبدأ إلاّ به ولا ينتهي بغيره (بغير الآن) ، وهٰكذا الحاضر هو الآخر بدايته الآن ونهايته الآن ، وكل مستقبل لا يكون إلاّ به ، فهو أمر البداية والنهاية ، فسبحان ربي إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، ولذلك قال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [1] فالأعمال التي وقعت في الماضي ستكون في المستقبل كما هي أمام مرتكبيها ، ولهٰذا استدعاء الماضي ممكن ، ولٰكن إعادة الزمان والحركة بالنسبة إلىٰ المخلوقات غير ممكنة .

---

(1) الكهف ، 49 .

الآن المستقبل :

المستقبل هو الوقت المنتظر الذي يحتوي علىٰ الآمال وهو غير قابل للتذكر ولـٰكنه قابل للتفكر ، والتفكر لا يهتم باستدعاء المعلومات الجاهزة ، بل هو المتطلع إلىٰ ما هو متوقع ، نتيجة استنتاجه واستقرائه لمضمون الماضي الذي تكمن فيه المعلومات والتجارب وتتراكم فيه الخبرة ، ولذلك يستمد المستقبل تطوره وتجديده من الماضي الذي يرتبط به في الآن ، ولذلك تتداخل المعلومات كما يتداخل الزمان مع الحركة ، مما يجعل الحياة نسيج الأفعال في الزمان والحركة ، فلا زمان بلا حركة ، ولا حركة بلا زمان ، ولا حياة بدونهما .

المستقبل لا يحصىٰ ، وذلك لعدم تسجيله بعد في سجلات التاريخ ، مع أنه مسجل كوقت في الزمان والحركة ، ولهـٰذا سيأتي بالقوة الفاعلة من خلال قوة الزمان والحركة الفلكية ، فبما أن اليوم قد دخل والحركة مستمرة إلىٰ النهاية مع الزمان ، فبالضرورة سيأتي غد لا محالة ، وغد قد يكون نهاية لما سبق وقد يكون استمراراً له ، وهـٰذه بالنسبة إلينا غير معلومة مع أنها متوقعة .

المستقبل هو الذي سيأتي بعد كتابة هـٰذه الكلمة في حالة مواصلتي الكتابة ، وهو الفكرة التي ستأتي بعد ما أفكر فيه ، وهو الزمان الذي فيه طموحاتنا وما نتوقع ، والذي من أجله نتنفس ، ونشرب ، ونأكل ، ونفكر ، ونتعلم ، ونعمل ، ونتصدق ، ونصلي ، ونحب ، ونتزوج ، وندَّخر وفق حاجاتنا ، ونؤمن علىٰ أرواحنا وممتلكاتنا ، ونخاف ، وهو نهاية البداية وثبات الحركة ، وعليه كل حركة من أجل المستقبل .

تتحرك الأرض والكواكب والنجوم بالأمس ، فكان اليوم ، وتستمر في حركتها من أجل أن يأتي غداً ، وهـٰكذا تكون الحركة إلىٰ النهاية ، وعندما تأتي

النهاية يكون الثبات ، وإذا كانت الحركة تتضمن وجود طاقة ، فإن المستقبل يتضمن زمان ومجال توليدها ، وهـٰكذا تستمر الحركة والمستقبل ، فلا حركة إلاّ لمستقبل ، ولا مستقبل بدون حركة ، ومنهما يحدث التغير ، سلباً أو إيجاباً .

يتكـوّن كـل مـن المستقبـل والحـركـة مـن زمـان ، وفعـل (محتـوىً ومضمـون) . وعليـه لا يمكـن أن يتحقـق المستقبـل بـدون زمـان وفعـل ، ولا يمكن أن تكون الحركة بدون زمان وفعل ، وعندما تصل الحركة إلىٰ لحظة النهاية ، يكون العدم ، وينتهي المستقبل بالنسبة إليها مادامت في حالة عدم ، وعليه يستمر المستقبل كلما كانت هناك حركة ، وتستمر الحركة كلما كان هناك مستقبل .

ولو لم يكن هناك مستقبل ما كان هناك أمل ، ولا أمانٍ ، وما فكرنا فيما ينبغي أن نفكر فيه وهو ما يشغلنا . وبناء علىٰ ذلك ينبغي أن تكون مناهجنا مستقبلية ، لكي نعرف من نحن ، وما يجب علينا القيام به ، ونعرف من أجل ماذا نفكر ، ومن أجل ماذا نتعلم ؟ ومن أجل ماذا ندرس ، ونحلل ، ونعالج ؟ ولماذا طرحت هـٰذه الأسئلة ؟ وهل ينبغي أن يتجاوز تفكيرنا الزمان ، أم يقتصر عليه ؟ إذا كانت الإجابة بتجاوزه فإننا نفكر ، وإذا كانت بالاقتصار عليه فإننا نتذكر وننتظر ، نتذكر الماضي ، وننتظر حتىٰ يأتي الغد في لحظة الآن المستقبلية ، أي : نعطل قدراتنا ومواهبنا ولا نفكر ، لأن الغد لم يأتِ بعد . كل هـٰذه وتلك الأمثال تجعلنا كما قال تعالىٰ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [1] ، ويقول تعالىٰ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ

(1) الحشر ، 21 .

يَلْهَثْۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [1] .

المستقبل يكمن في الزمان والحركة كما تكمن الشجرة في البذرة ، مما يجعل الشجرة تكمن في الزمان المستقبل في البذرة الآن ، مع أن هـٰذه البذرة كانت في الماضي من الشجرة ، وعندما تصبح البذرة شجرة مثمرة تكون البذرة في الماضي ، وتكون الشجرة في الآن ، وتكون الثمار في المستقبل . وهـٰكذا في التقاء الأحبة الآن بين الحيوان المذكر مع البويضة يكمن المستقبل الذي تكمن فيه هو الآخر معاني الأمومة والأبوة والأخوة بين البشر عندما تأتي الآن المستقبلية في وقت النضج العقلي والعاطفي والوجداني للبشر من مرحلة الطفولة المبكرة إلىٰ مرحلة الشيخوخة المتأخرة .

إن ما وقع في الآن الماضي سيكون بالضرورة حاضراً في الآن المستقبل ، ولهـٰذا لا يمكن أن يكون الماضي ولا المستقبل إلاّ في الآن ، فالمؤمن الذي يعمل صالحاً في دنياه يعمل في حقيقة الأمر من أجل المستقبل ، ومستقبله سواء أكان سالباً أو موجباً ، هو ما كان له حاضراً في الماضي . إذاً الماضي كأحداث وأفعال سيكون حاضراً في المستقبل (الحاضر المستمر) ويُسأل صاحبه عليه حتىٰ يعاقب أو يجازىٰ به ، فيقول ٱلله تعالىٰ في سورة آل عمران : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [2] .

تؤكد هـٰذه الآية علىٰ أن كل عمل ماض هو من أجل المستقبل ، وهـٰكذا عمل الحاضر الذي هو الآخر سيقع في الزمان الماضي إلىٰ أن يجد نفسه في

(1) الأعراف ، 175ـ178 .
(2) آل عمران ، 30 .

الزمن المستقبل ، وذلك لأنه لم يكن من أجل الماضي ، بل إنه العمل الذي قد تم من أجل المستقبل ، ولذلك يكون الماضي كالخزينة المملوءة التي لم تفتح بعد الفتحة النهائية ، بل إنها في الحياة الدنيا لا تفتح إلا بمقدار استدعاء المعلومات التي يمكن أن تفيد في صنع تاريخ قريب ، ولهٰذا ينبغي أن نعمل في حاضرنا خيراً لكي يكون لنا مستقبلٌ خيِّر . وكل الأعمال التي تقع في الزمن الآن تمسي في الماضي وتصبح علىٰ خير المستقبل ، وحتىٰ إن نسيها أصحابها فلا يضيع منها شيء بالنسبة إلىٰ سجل الزمان والحركة ، ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (1) . تؤكد هٰذه الآية علىٰ أن كل شيء وجد يمكن إحصاؤه ، ولٰكن لقصور القدرات البشرية عن ذلك عجزت عن إحصائه مع أنه محصي من قبل الخالق عز وجل ، ولهٰذا كل عمل قد حدث سيكون حاضراً في المستقبل لتتم المسألة ويتحقق له الجزاء .

الوقت منتظم في الزمان كانتظام حبات المسبحة في خيطها ، وبالتالي يمكن التعرف علىٰ الأوقات وحصرها وعدها ، ولٰكنه من غير الممكن عد الزمان ، فعندما تعد واحدة من حبات المسبحة المتكونة من المائة حبة تصبح هٰذه الأولىٰ في الماضي ، وتكون الحبة الثانية الواقعة بين أصابعك في الآن ، وتكون 98 حبة واقعة في المستقبل ، ولٰكن إذا قررت أن تكرر التسبيح أو عد حبات المسبحة أكثر من مرة واحدة ، تكون الحبة التي وقعت في الزمان الماضي هي الأخرىٰ واقعة في المستقبل وذلك لأنها هي الأخرىٰ سيتم عدها أو التسبيح بها مرة ثانية ، وفي هٰذه الحالة لن يكون عدد الحبات المتبقية للتسبيح كما سبق وأن ذكرنا هي 98 حبة ، بل يكون عدد الحبات المتبقية 99 حبة ، وعلىٰ هٰذا النحو يكون عدد الحبات في جميع الدورات هو 99 حبة

(1) المجادلة ، 6 .

عندما تكون الاستمرارية في التسبيح علىٰ أن تكون في كل دورة تسبيحية حبة واحدة في الآن بين الأصابع ، ولا يكون العد التناقصي إلىٰ الصفر إلاّ في الدورة التسبيحية الأخيرة ، وعليه كل الماضي هو واقع في المستقبل المعلوم بما أنه سيكون حاضراً ، مصداقاً لقوله تعالىٰ في سورة آل عمران : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ .

إذاً كل ما قمنا به من أعمال سيكون حاضراً في المستقبل ونكون نحن مساءلين عنه ، ولهـٰذا لن ينتهي الماضي بعد ، لأن نهايته هي في الآن المستقبلية وليست في الآن الماضية التي كنا نعتقد بأنها النهاية . ويكون قولنا إن الزمان كالخيط والأوقات منظومة عليه كحبات المسبحة هو المثال القريب لتوضيح أحداث الماضي التي وقعت في الآن الحاضرة وأصبحت في الماضي وفق دورة الحركة والزمان فلكياً . وستكون جميعها في المستقبل قبل المساءلة والمراجعة ، وتكون بالضرورة في المستقبل عند بدء المراجعة ، وكل حاضر منها سيكون هو الآخر في الماضي بعد إتمام عملية المراجعة أو المساءلة . فعند دراسة الحالات الفردية من الناحية السلوكية والاجتماعية والصحية . تتطلب بالضرورة مراجعة سجل الماضي الذي يتعلق بالحالة ، والذي يتضمن الأحداث والأفعال والظروف التي أثرت في السلوك أو أثرت في الحالة الصحية ، أي دراسة الماضي لمعرفة الأسباب والعلل التي تحتويها الحالة مما يجعل هـٰذه الحالة بالنسبة إلىٰ الباحث أو الأخصائي قبل بدء الدراسة هي في المستقبل ، وفي أثناء التشخيص والتحليل تكون في الحاضر ، وبعد العلاج تصبح الحالة في الماضي .

ومع أن الزمان لم يكن له شكل ولا صورة كما هو حال الأجسام الأخرىٰ المتحركة ، إلاّ أنه هو الآخر في حالة حركة ، يقول ٱلله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟

فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ﴾ [1] . ولو لم يكن هناك ليل ونهار ما كانت الأيام ولا كانت الشهور ولا السنون والدهور ، ولا كانت هناك حركة ، أي لم يكن لدينا ما نعد من الزمان ونحن علىٰ سطح الأرض ، أما رواد الفضاء عندما يخرجون عن قوانين حركة الأرض فقد تناسبهم مقاييس فيزيائية أخرىٰ لا تعتمد علىٰ حركة الأرض ، ولذلك لم يقل ٱلله عز وجل لتعلموا عدد الزمان بل قال : ﴿ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ ﴾ ، ولهـٰذا قلنا : الزمان والحركة لا يعدان ، بل الذي يعد هو المتحرك الأرض والقمر والشمس وبقية الكواكب كل في فلكه ، وهـٰذه جميعها قابلة للمشاهدة والملاحظة ، وهـٰكذا حال الليل والنهار والفجر والمغرب كمواقيت تشاهد وتلحظ وبالتالي فهي تعد . والفارق بين الأجسام والمواقيت هو أن الأجسام قابلة للمس المادي ، أما المواقيت الزمنية كالليل والنهار والفجر فلا يمكن لمسها مادياً ، ولهـٰذا من الممكن الاحتفاظ بشيء ما من الأجسام المادية كالأهلة والساعات الذرية في قوارير المعامل والمختبرات ، ولا يمكن الاحتفاظ بشيء ما من المواقيت الزمنية في قوارير المعامل والمختبرات . وعليه لو لم يكن الزمان في حالة حركة ما كان الليل والنهار ، وما كان الفجر والمغرب ، وما عرفنا عدد السنين والحساب ، وما عرفنا الوقت الذي تستغرقه الكواكب والنجوم والأجسام في حركتها الذاتية في مجال فلكها الذي تسبح فيه أو تمتد إليه .

والحركة والزمان شيئان لا يمكن مشاهدتهما مع أنهما يلاحظان بسهولة ويسر ، فالذي يشاهد هو المتحرك وليست الحركة ، الكواكب تُلمس وتشاهد وتلحظ حركتها ، أما الليل والنهار والفجر والمغرب فمع أنها تشاهد وتلحظ إلاّ أنها لا تُلمس ، ومع ذلك كل ما يشاهد يعد حتىٰ لو لم يُلمس كالليل

(1) الإسراء ، 12 .

والنهار ، وذلك لأن لكل منهما بداية ونهاية يمكن رصدهما وتحليلهما وتسجيلهما .

الحركة والزمان كما سبق وأن وضحنا لا يمكن مشاهدتهما ولا لمسهما ولا ذوقهما ولا شمهما مع أنهما يلحظان ، ولذلك يمكننا التمييز بين الحركة والمتحرك ، وبين الحركة والامتداد . فالامتداد هو مجال حركة الجسم أو الشكل ، فالمثلث هو امتداد بين نقاط زواياه الثلاث ، ولو لم يحدث بينها امتداد ما كان للمثلث صورة أو شكل متصل ، وهـٰكذا مجال تكوين الشكل الدائري أو الرباعي أو أي شكل من الأشكال الهندسية ، فالامتداد يكون في تكوين الشكل وفي تحديد اتجاه حركة الشكل ، كاتجاه حركة الأرض في دورانها حول نفسها ، ودورانها حول الشمس ، فهي لا تمتد إلاّ في مجالها الفلكي ، ولهـٰذا فالامتداد هو الذي يرسم شكل الدائرة ، أما الحركة فهي الطاقة التي بها يمتد المتحرك سواء أكان المتحرك قلماً لرسم مستقيم أو منحنىٰ ، أو أي شكل ، أو حركة كوكب ، أو حركة كائن من الكائنات .

الزمان والحركة متناهيان حيث أنهما محصوران بين قوة الأول والآخر اللذين خلقهما وجعل لهما امتداداً ، ولذلك فهما المخلوقان في الآن والمكان الواحد ، مما يجعل لهما أجلاً واحداً (نهاية واحدة) ولو لم نؤمن بأن الزمان متناه فكيف نؤمن إذاً باليوم الآخر ؟ فاليوم الآخر هو الذي لا يكون فيه الليل والنهار والفجر والمغرب (المعروفات) في حساباتنا ، والتي بها تعد أيامنا وشهورنا وأعوامنا ودهورنا ، والتي جميعها ستنتهي ليكون اليوم الآخر ، واليوم الآخر هو الذي لم يكن مثل يومنا هـٰذا الذي نعرفه ، ولأنه الآخر فهو المختلف بالضرورة عما عرفناه في يومنا الأول . وبما أن للزمان بداية وللحركة بداية إذاً ممّا لا شك فيه ستكون لهما نهاية .

حركة الزمان تماثل حركة الأجسام في قوتها وانتظام سرعتها ، ولهـٰذا تنتظم حركة المواقيت وتتزامن مع حركة الكواكب ، فلا يأتي الليل مرتين في

اليوم الواحد ، ولا تتأخر حركة الأرض عن ميقاتها ومكانها ليتأخر الشروق عن النهار ويتضاعف زمن الليل ، بل الكل في فلك يسبحون وفق سرعة ثابتة ومدارات ثابتة . فاليوم هو اليوم في كل دورة للأرض حول نفسها وحول الشمس ، وذاك اليوم من العام الماضي لا يختلف عن هـٰذا اليوم الذي يماثله من عامنا هـٰذا ، الاختلاف بينهما في المحتوىٰ الذي تتضمنه الأيام ، فمحتوىٰ هـٰذا اليوم قد لا يماثل محتوىٰ العام الماضي من حيث درجة حرارته أو برودته أو من حيث الأحداث التي وقعت فيه ، وعليه زمن اليوم لا يختلف وفق كل دورة سنوية ، والمحتوىٰ اليومي مختلف بين الحين والآخر ، فاليوم الذي ولد فيه محمد رسول ٱلله ﷺ هو اليوم الذي توفي فيه ، ولذلك قلنا : اليوم واحد والمحتوىٰ مختلف .

الزمان دائرة متصلة يتواجد فيها الماضي جنباً إلىٰ جنب مع الحاضر والمستقبل ، ولو عُدنا إلىٰ الماضي البعيد إلىٰ أن نصل إلىٰ النقطة الآن فلا نجد ماضياً علىٰ الإطلاق ، بل نجد الاثنين معاً الآن والمستقبل ، ولا نجد الماضي ، وذلك لعدم تكوّنه بعد ، وبعد أن قُضيت الآن أصبحت ماضياً وحدها ، وكل ما عداها مستقبل ، ولهـٰذا كان المستقبل هو الأكثر والأوفر الذي لا يقارن بأي وقت آخر ، لا بالماضي الذي في تعداده إلاّ الآن الواحدة ، ولا بالحاضر الذي لا يمتلك إلاّ اللحظة الآنية ، وعليه بداية الحياة مستقبل ونهايتها مستقبل ، فالمستقبل الأول هو المتكون من الحياة الدنيا ، والمستقبل الآخر هو المتكون من نهايتها ، ممّا يجعل نهاية الحياة الدنيا بداية للحياة الآخرة ، والتي يكون فيها كل الماضي كمحتوىً هو المستقبل الحسابي لمن وجد في اليوم الأول (الحياة الدنيا) ، ولهـٰذا لا يتم الاتفاق مع أرسطو ومؤيديه بأن كل ما هو ماضٍ قد فسد ، فالزمان الماضي لم يفسد بل إنه في السجل المحفوظ الذي فيه حسابنا ما ثقل وما خف منه .

وعليه من مستوجبات نجاح الخليفة في ممارسة حقوقه وأداء واجباته

وحمْل مسؤولياته أن يراعي الزمن ولا يهدره فيما لا يرضي الوكيل ، الذي به آمن وأولىٰ أمره إليه ، وهـٰذا لا يعني أن يترك أمره للوكيل وهو علىٰ حالة من الاتكالية ، فالوكيل قال اعملوا وأنتم متوكلون فيما تعملون علىٰ ٱلله الذي بيده الأمـــر والملـــك . ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ

(1) الأنعام ، 132 ـ 135 .
(2) التوبة ، 105 ـ 106 .
(3) الكهف ، 110 .

ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ
سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ
مَتَابٗا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا
ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ
أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ
ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا
وَمُقَامٗا ﴿٧٦﴾ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا﴾ (1) .

والمتوكل علىٰ ٱلله صبور ولهـٰذا فالصبر والتوكل صفتان لا تجتمعان إلا مع العلم بٱلله وقدرته والعلم بما سوىٰ ٱلله وضعفه ، فمن العلم بٱلله يعلم الخليفة أنه تعالىٰ الرازق ذو القدرة المطلقة علىٰ الرزق في كل مكان وكل وقت ، وعالم بما سوىٰ ٱلله فغير ٱلله زائل وهـٰذا يجعل الأمر يهون عليه ، فيلزم الصبر علىٰ الزائل الذي لا يدوم ، ومن يؤذىٰ في مكان ما ويضيق عليه رزقه فليخرج صبراً وتوكلاً علىٰ ٱلله ، لذلك الناس قسمان :

ـ قسم قادر علىٰ الخروج وهو متوكل علىٰ ربه ، يترك الأوطان ويفارق الأهل والإخوان طلباً للرزق بصبر وتوكل ، قال تعالىٰ : ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ (2) ، وقال رسول ٱلله ﷺ : « الْبِلادُ بِلادُ الله وَالْعِبَادُ عِبَادُ الله فَحَيْثُمَا أَصَبْتَ خَيْرًا فَأَقِمْ » (3) .

---

(1) الفرقان ، 58ـ77 .
(2) النحل ، 126ـ128 .
(3) مسند أحمد ، ج 3 ، ص 355 .

والإقامة برفق لأنه لا رزق بغلظة ، فروي في الإحياء « البلاد بلاد ٱلله والعباد عباد ٱلله فأي موضع رأيت فيه رفقاً فأقم » (1) .

ـ وقسم خانع خاضع عاجز وهو يصبر بتواكل لا بتوكل . قال تعـالـىٰ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (2) .

وفي الجمع بين الصبر والتوكل ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ذكر ما يساعد علىٰ التوكل وهو بيان حال الدواب ، ويأتيها كل يوم برزق جديد ، والمطلوب منا أن نتخطىٰ درجة الدواب فنسعىٰ صبراً وتوكلاً بالعمل علىٰ الله الوكيل .

والرزق يتطلب الشكر ، والشكر فيه الزيادة فيضاً من ٱلله علىٰ الشاكر المتوكل علىٰ ٱلله سبحانه ، قال تعالىٰ : ﴿ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ﴾ (3) .

ويوضح ٱلله تعالىٰ أن الرزق المعنوي أفضل من الرزق المادي ، والرزق المعنوي عند ٱلله ، فقد خلق الرزق المادي للاختبار في دار الفناء ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (4) .

ولهـٰذا أخبر تعالىٰ أن المال والبنين ، زينة الحياة الدنيا ، أي : ليس وراء ذلك شيء ، وأن الذي يبقىٰ للإنسان وينفعه ويسره ، الباقيات الصالحات ، وهـٰذا يشمل جميع الطاعات الواجبة والمستحبة من حقوق ٱلله ، وحقوق عباده ، من صلاة ، وزكاة ، وصدقة ، وحج ، وعمرة ، وتسبيح ، وتحميد ،

(1) تخريج أحاديث الإحياء ، ج 2 ، ص 284 .
(2) العنكبوت ، 60 .
(3) سبأ ، 15 .
(4) الكهف ، 46 .

وتهليل ، وتكبير ، وقراءة ، وطلب علم نافع ، وأمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، وصلة رحم ، وبر والدين ، وقيام بحق الزوجات ، والمماليك ، والبهائم ، وجميع وجوه الإحسان إلىٰ الخلق ، وكل أعمال الخير والإصلاح في الأرض والإعمار فيها ، وكل هٰذا من الباقيات الصالحات ، فهٰذه خير عند ٱلله ثواباً وخير أملاً فثوابها يبقىٰ ، ويتضاعف ، ويؤمل أجرها وبرها ونفعها عند الحاجة ، فهٰذه التي ينبغي أن يتنافس عليها المتنافسون ، ويستبق إليها العاملون ، ويجد في تحصيلها المجتهد ، و ضرب ٱلله مثل الدنيا وحالها و ذكر أن فيها نوعين :

ـ نوع من زينتها ، يتمتع به قليلاً ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبه ، بل ربما لحقته مضرته وهو المال والبنون .

ـ ونوع يبقىٰ وينفع صاحبه علىٰ الدوام وهو (الباقيات الصالحات) .

ولمقارنة المادي بالمعنوي يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ (1) .

فٱلله يزيد المهتدين بالإيمان به والتوكل عليه بما ينزل عليهم من الآيات والدلائل التي تؤدي إلىٰ تمسك المؤمن بما أنزل ٱلله والعمل بما أراد ليحقق الخلافة علىٰ الأرض ، مع العلم واليقين ببقاء الأعمال والأقوال الصالحة التي يرجو بها الخليفة طاعة ربه ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ لأنها بلا أدنىٰ شك ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ في الدنيا وفي الآخرة .

ومن التوكل علىٰ ٱلله تسليم الأمر إليه وحده والاعتماد عليه في كل شيء من أمر الدنيا والآخرة ، لذا فنحن نعيش في نعمة ٱلله الوكيل لأننا مسلمون له قد

(1) مريم ، 76 .

أسلمنا أمرنا لله « وهـٰذا المعنىٰ في كتب اللغة ، وَكِلَ بٱلله وتوَكَّل عليه واتَّكل استَسْلم إليه » [1] .

ومن التوكل في أبهىٰ صوره ما جاء علىٰ لسان أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [2] .

فإن من يرغب ﴿عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ أبي الأنبياء بعد ما عرف من فضله لأنه الداعي الىٰ التوحيد والتسليم لله والتوكل عليه ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ ومن السفاهة الجهل بحقيقتها التي خلقت من أجلها ، فالنفس لا تطمئن إلا بالرجوع إلىٰ ربها ومن الرجوع : رجوع اختياري في الدنيا فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

ورجوع إجباري بدعوة ٱلله لها بأن ترجع إليه ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [3] .

---

(1) لسان العرب ، ج11 ، ص 734 .
(2) البقرة ، 127ـ133 .
(3) الفجر ، 27ـ30 .

وهـٰذه الدعوة الطيبة لا تتأتىٰ إلا من خلال توجه الإنسان للهدف الذي خلقه ٱلله من أجله وهو التسليم والتوكل عليه ، لا بجهل قيمة نفسه وامتهانها بالبعد عن منهج الخلافة من تسليم وتوكل علىٰ ٱلله ، كما أنه لا أرشد ولا أكمل ممن رغب في ملة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي اختاره ٱلله في الدنيا .

﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ فأسلم لله وتوكل عليه لذلك قد أثابه في الآخرة ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ الذين لهم أعلىٰ الدرجات بتوكلهم علىٰ ربهم .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ﴾ وهـٰذا أمر ٱلله لمن يريد الثواب في الدنيا والفوز في الآخرة ، والجواب بما قاله نبي ٱلله إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي قَالَ امتثالاً وطاعة لله رب العالمين : ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أسلمت إخلاصاً ، أسلمت توحيداً ، أسلمت محبة ، أسلمت إنابة ، أسلمت توكلا عليك يا رب فأنت حسبي ونعم الوكيل ، ثم أورث ذلك اليقين والتوكل والتسليم في ذريته ، ووصاهم بالإسلام والتوكل علىٰ ٱلله رب العالمين ، وجعلها كلمة باقية في ذريته ، وتوارثت فيهم ، حتىٰ وصلت لنبي ٱلله يعقوب فوصىٰ بها بنيه ، وتكررت الدعوة إلىٰ الإسلام بترك الأمر لله والتوكل عليه والخروج من الحول والقوة والحسب والنسب إلىٰ حول ٱلله وقوته وأمره وحكمه لأنه سبحانه وتعالىٰ صاحب الأمر فـ : ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ (1) ، ولأنه صاحب الأمر فهو الوكيل الذي يلجأ الكل إليه ويسلمون أمرهم له لأن إرادته أن يسلم له الخلق ، فجعل دينه الإسلام ولا خلاف علىٰ ذلك ولا حجة إلا القول (أسلمت وجهي لله) وهـٰذه الدعوة للعالم بأن يعودوا إلىٰ الانقياد لله والتوكل عليه كما قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟

(1) الروم ، 3 .

﴿ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ﴾ (1) .

ومن التوكل علىٰ ٱلله والتسليم له والانقياد لأمره و اليقين بأن لله تعالىٰ ما سكن في الليل ، وتحرك في النهار ، وهـٰذا يدل علىٰ الاستغراق الزمني والمكاني ، وبما أن له أمر ما سكن فله بالتالي أمر المتحرك في الزمان والمكان كما سبق أن أوضحنا ، وحال المؤمن المتوكل علىٰ ٱلله يقول في عجب : هل أتخذ من دون ٱلله ولياً وهو خالق السمـٰوات والأرض ؟ وهو يطعم الخلق جميعاً ، الساكن والمتحرك ، ولا يطعمه أحد فيحفظ الخلق لأنه وكيل عليهم حافظ لهم ، وهو جلت قدرته لا حاجة له فيهم إلا نفعهم ، ونفعهم في عبادته ، وهـٰذا ما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ (2) ومن يعرف ذلك لابد وأن يسلم لله ويعلن انقياده التام له ويبتعد عن الشرك به ولا يتخذ من دونه وكيلاً ، تصديقاً لقوله تعالىٰ : ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ (3) ، ويظهر ذلك التسليم في قول ٱلله تعالىٰ : ﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ (4) .

والمراد هو المنع من اتخاذ غير ٱلله تعالىٰ ولياً ووكيلاً . لأنه فاطر السمـٰوات والأرض وهو الذي يطعم ولا يطعم . ومتىٰ كان الأمر كذلك امتنع

---

(1) آل عمران ، 19 ـ 20 .

(2) الذاريات ، 56ـ 58 .

(3) الإسراء ، 2 .

(4) الأنعام ، 13ـ 16 .

اتخاذ غيره ولياً وكيلاً . أما بيان أنه فاطر السمـٰوات والأرض ، فلأن ما سوىٰ الواحد ممكن لذاته ، والممكن لذاته لا يقع موجوداً إلا بإيجاد غيره ، فنتج أن ما سوىٰ ٱلله فهو حاصل بإيجاده وتكوينه . فثبت أنه سبحانه هو الفاطر لكل ما سواه من الموجودات . وأما بيان أنه يطعم ولا يطعم فهـٰذا لأن الإطعام عبارة عن إيصال المنافع ، وعدم الاستطعام عبارة عن عدم الانتفاع . ولما كان هو المبدئ لكل ما سواه من المخلوقات ، كان لا محالة هو المبدئ لإيصال جميع المنافع . ولما كان واجباً لذاته كان لا محالة غنياً ومتعالياً عن الانتفاع بشيء آخر فثبت بالدليل القاطع صحة أنه تعالىٰ فاطر السمـٰوات والأرض ، ولهـٰذا امتنع في العقل اتخاذ غيره ولياً لأن ما سواه محتاج في ذاته وفي جميع صفاته وفي جميع ما تحت يده إلىٰ ٱلله الغني القوي . وٱلله سبحانه وتعالىٰ هو الغني لذاته الجواد لذاته ، وترك الغني الجواد ، والذهاب إلىٰ الفقير المحتاج ضرب من مخالفة العقل والمنطق .

فقوله تعالىٰ : ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا ﴾ يمنع القرب من غير ٱلله تعالىٰ . وهـٰذا يقتضي ممن أراد الخلافة تنزيه القلب عن الالتفات إلىٰ غير ٱلله تعالىٰ فلا يجعل في قلبه يقيناً إلا بٱلله ، وقطع العلائق عن كل ما سوىٰ ٱلله تعالىٰ . ثم قال تعالىٰ : ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَ ﴾ ذلك أن النبي ﷺ سابق أمته في الإسلام لقوله ﴿ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ (1) .

والنبي ﷺ أول المتوكلين المسلمين لله ، أمره ربه بقوله : ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (2) وهـٰذه الآية الكريمة تدلُّ علىٰ أنَّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ مؤدِّي العِبَادة مع الإخْلاص ، وأكد ٱلله ذلك بقوله تبارك وتعالىٰ : لاَ شَرِيكَ لَه ، وهـٰذا من أقْوَىٰ الدَّلائل علىٰ أنَّ شَرْط صحة الصَّلاة أن

(1) الأنعام ، 163 .
(2) الأنعام ، 162 .

يُؤتَىٰ بها مَقْرُونةً بالإخْلاصِ ، والإخلاص علىٰ وجهين :

ـ الإخلاص في الحياة بأن يكون الهدف منها طاعة ٱلله بالإسلام له والتوكل عليه ، واستنفاد العمر كله في جعل كلمة ٱلله هي العليا وكلمة الباطل هي السفلىٰ ولا يتأتىٰ ذلك إلا بالعمل الصالح .

ـ الإخلاص في الممات بالخروج من الدنيا والقلب غير متعلق بها وقد استفرغها المؤمن من قلبه بالكلية ، وملأ قلبه بطاعة ٱلله ، فلا يتوجه إلا لله في الصلاة والحياة والممات والنسك والفروض والنوافل .

ومن التوكل علىٰ ٱلله ما ورد في حشد من الآيات نذكر منها قوله تعالىٰ :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٨١ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (1) ، وهي دعوة صريحة للجوء إلىٰ الوكيل الناصر وهو فعل أمر واجب التنفيذ ، يا مريد الخلافة هلا اتخذت المنهج وتدبرت تفاصيله الذي لا يوجد فيه اختلاف لأن هـٰذا المنهج من لدن حكيم خبير .

ولأنه الوكيل المطلق ، فلا توكل إلا عليه جل جلاله ، ومن يتوكل علىٰ غيره يُذل حيث لا اعتماد إلا علىٰ الوكيل المطلق ، فالبشر هم في دائرة النسبية ، متقلبون إلا من آمن بالوكيل المطلق فلا يسلم أمره لغيره ، ولذا لا وكالة بالمطلق إلا للحق المطلق ، والوكيل هو المهتم بالأمر دون مقابل لحاجة ، إنه الخلاق الرزاق ذو العرش المجيد .

ـ وفي التوكل الكفاية لأنه الكافي الذي يكفي من توكل عليه .

ـ ومن التوكل تدبر القرآن لأنه المنهج الأمثل للمتوكل ، لأنه من لدن حكيم خبير وليس من فعل بشر أو من تلقين معلم لذا فلا مجال لنقص فيه من خلاف وتعارض .

---

(1) النساء ، 81 ، 82 .

ويقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ (1) .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ وذلك لكونه غنياً عزيزاً لا يجب العوز والحاجة في صفاته ، و جميع المخلوقات تذل بحاجتها إلىٰ غناه ، وتدل بهـٰذه الحاجة أنه الغني المطلق ، ولهـٰذا لا يجب التوكل إلا عليه ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ في تدبير أمور الخلق في كل الأمور فلا بد من أن التوكل عليه لا علىٰ أحد غيره ، وهـٰذا ما يقوم به الخليفة المتخلق بالاسم الوكيل فلا يعرف اعتماداً ولا استناداً إلا عليه .

ويخبر تعالىٰ عن ملكه العظيم الواسع المستلزم تدبيره بجميع أنواع التدبير ، وتصرفه بأنواع التصريف قدراً وشرعاً ، فتصرفه الشرعي أن وصىٰ الأولين والآخرين من أهل الكتب السابقة ومن اللاحقين ـ أمة الإسلام ـ بالتقوىٰ المتضمنة للأمر والنهي ، وتشريع الأحكام ، والمجازاة لمن قام بهـٰذه الوصية بالثواب ، والمعاقبة لمن أهملها وضيعها بأليم العذاب ، ولهـٰذا قال : ﴿ وَإِن تَكْفُرُوا۟ ﴾ بأن تتركوا تقوىٰ ٱلله والعمل بكتابه والإسلام له والتوكل عليه ، وتشركوا بٱلله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ، فإنكم لا تضرون بذلك إلا أنفسكم ، ولا تضرون ٱلله شيئاً ولا تنقصون من ملكه ، وله عبيد خير منكم وأعظم وأكثر ، مطيعون له خاضعون لأمره . ولهـٰذا ترتب علىٰ ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ فللّه الجود الكامل والإحسان الشامل الصادر من خزائن رحمته التي لا ينقصها الإنفاق ولا يغيضها نفقة ، سحاء بالليل والنهار ، لو اجتمع أهل السمـٰوات وأهل الأرض أولهم وآخرهم ، فسأل كل واحد منهم ما بلغت أمانيه ما نقص

---

(1) النساء ، 132 ـ 134 .

من ملكه شيئاً ، ذلك بأنه جواد واجد ماجد ، إنما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون . وهـٰذا ما ذكره النبي ﷺ فيما يرويه عن رب العزة : « عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَن النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَىٰ عَن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ قَالَ : « يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلا تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ الله وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ » (1) .

ومن تمام غناه أن له الكمال المطلق إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه ، لكان فيه نوع افتقار إلىٰ ذلك الكمال ، بل له في كل صفة من صفاته الكمال المطلق فيها ، ومن ذلك فهو الغني المطلق والوكيل المطلق ، ومن تمام غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، ولا شريكاً في ملكه ولا ظهيراً ، ولا معاوناً له علىٰ شيء من تدابير ملكه لأنه لا يتوكل علىٰ أحد فالكل فقير إليه ويتوكلون عليه لأنهم يحتاجون إليه وهو لا يحتاج إلىٰ أحد (2) .

---

(1) صحيح مسلم ، ج 12 ، ص 455 .

(2) تفسير السعدي ، ج 1 ، ص 207 .

وهو الوكيل علىٰ كل شيء ، القائم علىٰ شؤون خلقه بتدبير أمورهم علىٰ وجه الكمال والتمام بما تقتضيه حكمته البالغة وعلمه المطلق ، وقدرته النافذة لأنه له جنود السمٰوات والأرض و ذلك من كمال الوكالة ، فإن الوكالة تستلزم العلم بما هو وكيل عليه ، وامتلاك القوة والقدرة علىٰ التنفيذ والتدبير ، ولكون ذلك التدبير علىٰ وجه الحكمة والمصلحة بمنافع من يتوكلون عليه ، فلا ينقص من مصالحهم شيء لأن الوكيل هو ٱلله وٱلله تعالىٰ منزه عن كل نقص .

ومن النص المقدس الذي يرشدنا إلىٰ شرف التوكل علىٰ ٱلله ما ورد في قضية الصراع الذي لا ينتهي إلا بصرف المؤمن إلىٰ الجنة والكافر إلىٰ النار ، الصراع بين الحق والباطل ، الحق بتولي ٱلله له والتعهد بأن يكون وكيلاً عنه ، والباطل الذي مازال يعمل علىٰ ظهور الباطل ومحق الحق ، وهي القصة التي تثير البحث وتدفعه نحو القضية المحورية التي يرتكز عليها الخلافة المثلىٰ علىٰ الأرض وهنا تهب علينا نفحات من الاسم الوكيل وفيه يتجلىٰ بفرض وكالته علىٰ عباده والذين منهم الخليفة بلا شك ، فهو الرب صاحب الملك الكافي لعباده شر ما يهمهم ويؤرقهم ويؤلمهم ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (1) .

وٱلله هو الوكيل والرب والمهيمن علىٰ الكون وما فيه فيقول للنبي ﷺ والحديث في الوقت ذاته للخليفة ولمن أراد أن يحقق الخلافة نفسه أو في

(1) الإسراء ، 61ـ65 .

الآخرين : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (1) .

قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ﴾ للرسل بالتبليغ شاهداً علىٰ الخلق كلهم يوم القيامة (ومبشراً) لمن آمن بأنه سيدخل بالجنة (ونذيراً) لمن كذب بالرسل وبحق الله في العبادة وبأنه الواحد الأحد فسيكون مصيرهم النار (وداعياً إلىٰ ٱلله) داعياً إلىٰ توحيده وطاعته والتسليم له والتوكل عليه (بإذنه) بأمر ٱلله وإرادته (وسراجاً منيراً) سراجاً منيراً لأنه ﷺ نوره جلا ظلمات الشرك واهتدىٰ به الضالون كما يجلىٰ ظلام الليل بالسراج المنير ، وقد أمد ٱلله بنور نبوته نور البصائر كما يمد بنور السراج نور الأبصار ووصفه بالنور لأن من السراج ما لا ينير . وسماه سراجاً ، ولم يسمه شمساً والشمس أشد إضاءة من السرج وأكثر نوراً ، لأن نور الشمس لا يمكن أن يؤخذ منه مقدار ويوضع في شيء آخر بخلاف نور السراج فإنه يؤخذ منه أنوار كثيرة ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ ولأنه البشير طلب منه ﷺ أن يبشر المؤمنين بزيادة فضل ٱلله عليهم والفضل هو الثواب وتفضيل الأمة المحمدية علىٰ سائر الأمم ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ فيما يقولون ويفعلون واصبر عليهم حتىٰ تعد لهم العدة وتنتصر عليهم ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ واعتمد عليه وانتصر به وله واكتفِ بقوته وقدرته ، فهو الحافظ لك ولمن اتبعك الذي يملك القوة المطلقة وهو الرب الذي يعتمد عليه .

ومن معاني الوكيل كما بدأنا في أول البحث في هٰذا الاسم الشريف ، الرب صاحب الملك ومالكه والمتصرف فيه ، ويتجلىٰ ذلك في أم الكتاب في قوله تعالىٰ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

---

(1) الأحزاب ، 1 ـ 3 .

نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (1) ، فهو رب العالمين ومن يتوكل عليه ويجعل اعتماده مستنداً إليه لا يخاف من معلوم أو مجهول لأنه رب العالمين العالم بالمرئي وغير المرئي ، ولا يخشىٰ المتوقع ولا غير المتوقع لأنهما جميعاً في دائرة ملكه ، ومن يعش وهو يعلم أنه في ملكه يكن أسعد الخلق لأنه يعتمد ويتوكل علىٰ رب العالمين .

ورب العالمين من ملكه الواسع رحمته الواسعة التي وسعت كل شيء فلأنه رب العالمين فهو عالم الشهادة الذي نعيش فيه وعالم الغيب الذي لا نعرف عنه إلا ما أخبرنا ٱلله به ، ومن الذي أخبرنا به إنه مالك يوم الدين فهنيئاً لمن يتخذه وكيلاً في الدنيا فيكفيه ويحميه ويهديه للعمل الصالح النافع وهنيئاً لمن يتخذه وكيلاً فيرحمه برحمته في يوم لا يملك فيه أحد أن يتكلم إلا بإذنه لأنه رب السمٰوات والأرض وصاحبهما : ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾ (2) . ولا ينجو في ذلك اليوم إلا من عرف أنه مالك يوم الدين وقال وعمل : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ فنحن نعبدك ونوحدك بتخصيص العبادة لك لأنك رب العالمين مالك الدنيا والمتصرف فيها والمتوكل عليك والمعتمد عليك في الدنيا والمرجوة رحمتك في الآخرة والذي لا استغناء عن جودك وكرمك و رحمتك في عالم الشهادة وفي عالم الغيب ، ونقول كما قال المصطفىٰ ﷺ في الدعاء الجميل العذب الذي ينسال خشوعاً وخضوعاً لرب العالمين بعدما تعرّض ﷺ لأذىٰ الكفار في ثقيف لما أراد هدايتهم فأبوا

---

(1) الفاتحة ، 1ـ7 .

(2) النبأ ، 37ـ39 .

إلا الكفر فلجأ عليه الصلاة والسلام إلىٰ الرب الوكيل العظيم ، وهـٰذا ما ورد في سيرته العطرة (السيرة النبوية) فقام رسول ٱلله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف ، وقد قال لهم ، فيما ذكر ، إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا علي . وكره رسول ٱلله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيذئرهم ذلك عليه . فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتىٰ اجتمع عليه الناس وألجؤوه إلىٰ حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه . فعمد إلىٰ ظل عنب فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما يلقىٰ من سفهاء أهل الطائف . فلما اطمأن قال فيما ذكر : « اللهُمَّ إليك أشكو ضعف قوتي وهواني علىٰ الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلىٰ من تكلني ، إلىٰ بعيد يتجهمني ، أم إلىٰ عدو ملكته أمري ؟ ! إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولـٰكن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل علي سخطك ، لك العتبىٰ حتىٰ ترضىٰ ، لا حول ولا قوة إلا بك »[1] .

وفي نص آخر به زيادة « وقلة حيلتي » :

فَلَمّا اطْمَأَنّ رسول الله ﷺ قَالَ : اللّهُمّ إلَيْك أَشْكُو ضَعْفَ قُوّتِي ، وَقِلّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَانِي عَلَىٰ النّاسِ يَا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ أَنْتَ رَبّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبّي ، إلَىٰ مَنْ تَكِلُنِي ؟ إلَىٰ بَعِيدٍ يَتَجَهّمُنِي ؟ أَمْ إلَىٰ عَدُوّ مَلّكْتَهُ أَمْرِي ؟ إنْ لَمْ يَكُنْ بِك عَلَيّ غَضَبٌ فَلا أُبَالِي ، وَلَكِنّ عَافِيَتَك هِيَ أَوْسَعُ لِي ، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِك الّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظّلُمَاتُ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَك ، أَوْ يَحِلّ عَلَيّ سُخْطُكَ لَك الْعُتْبَىٰ حَتّىٰ تَرْضَىٰ ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوّةَ إلاّ بِك[2] .

---

(1) ابن كثير ـ ج 2 ، ص 150 .

(2) سيرة ابن هشام ، ج 1 ، ص 420 .

ومن تمام التوكل علىٰ الوكيل لجوء المكروب المضطر إليه فيكفله الوكيل ويحميه ، وقد علمنا الرسول الأعظم أن نلجأ إلىٰ الوكيل عند الشدة ومن ذلك تعليمه لنا كلمات المكروب فيقول :

« اللهُمَّ رحمتك أرجو ، فلا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين ، وأصلح لي شأني كله ، لا إلـٰه إلا أنت » (1) .

عن النبي ﷺ أنه قال في دعاء المضطر « اللهُمَّ رحمتك أرجو فلا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين ، وأصلح لي شأني كله لا إلـٰه إلا أنت » ، وقال في حديث آخر : « إنك إن تكلني إلىٰ نفسي تكلني إلىٰ ضعف وعورة وذنب وخطيئة ، وإني لا أثق إلا برحمتك فاغفر لي ذنوبي كلها إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وتب علي إنك أنت التواب الرحيم » (2) .

وقال النبي ﷺ للسيدة الزهراء عليها السلام ، عن أنس بن مالك قال : قال النبي ﷺ لفاطمة ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به أو تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين » (3) .

ومن دعاء النبي ﷺ يوم أحد : « يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث ، اكفني كل شيء ولا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين » (4) .

ومن التوكل علىٰ ٱلله الانتصار به وله ، ومن توكل عليه حفظه ونصره وهـٰذا ما حدث في بدر وحدث في مواطن كثيرة وسيحدث إن شاء ٱلله في مواطن يحتاج إليها المتوكلون عليه .

---

(1) مصنف ابن أبي شيبة ، ج 7 ، ص 21 .
(2) شعب الإيمان للبيهقي ، ج 2 ، ص 322 .
(3) السنن الكبرىٰ للنسائي ، ج 6 ، ص 147 .
(4) الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم ، ج 8 ، ص 276 .

قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ (1) .

وكانت قريش أعلىٰ الناس شجاعة وأوفاهم قوة وأعرقهم أصالة فكانوا كأنهم جميع الناس ، فكان التعبير بصيغة الجمع في قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ أي : نعيم أو ركب عبد القيس ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ ﴾ يعني قريشاً ﴿ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ ﴾ أمدح للصحابة رضي ٱلله عنهم من التعبير عمن أخبرهم ومن جمع لهم بخاص اسمه أو وصفه .

ولما كان الموجب لإقدامهم علىٰ اللقاء بعد هـٰذا القول الذي لم يشكوا في صدقه ثبات الإيمان وقوة التيقن قال تعالىٰ : (فزادهم) أي هـٰذا القول إيماناً لأنه ما ثناهم عن طاعة ٱلله ورسوله ، وقالوا ، ازدراء بالخلائق اعتماداً علىٰ الخالق (حسبنا) أي كافينا ٱلله ، أي الملك الأعلىٰ في القيام بمصالحنا .
ولما كان ذلك هو شأن الوكيل وكان في الوكلاء من يذم قال : (ونعم الوكيل) أي الموكول إليه المفوض إليه جميع الأمور ؛ روىٰ البخاري في التفسير عن ابن عباس رضي ٱلله عنهما قال : « هـٰذه الكلمة قالها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين

---

(1) آل عمران ، 166 ـ 173 .

ألقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا : إن الناس قد جمعوا لكم . وقال : كان آخر كلمة قالها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين ألقي في النار : « حسبي ٱلله ونعم الوكيل » . ولما كان اعتمادهم علىٰ ٱلله سبباً لفلاحهم قال : (فانقلبوا) أي فكان ذلك سبباً لأنهم انقلبوا ، أي من الوجه الذي ذهبوا فيه مع النبي ﷺ (بنعمة) وعظمها بإضافتها إلىٰ الاسم الأعظم فقال : (من ٱلله) أي الذي له الكمال كله (وفضل) أي من الدنيا ما طاب لهم من طيب الثناء بصدق الوعد ومضاء العزم وعظيم الفناء والجرأة إلىٰ ما نالوه . عند ربهم حال كونهم (لم يمسسهم سوء) أي من العدو خوفوه ولا غيره (واتبعوا) أي مع ذلك بطاعتهم لرسول ٱلله ﷺ بغاية جهدهم (رضوان ٱلله) الذي له الجلال والجمال فحازوا أعظم فضله وٱلله الذي لا كفء له عظيم في الدارين علىٰ من يرضيه ، فستنظرون فوق ما تؤملون ، فليبشر المجيب ويغتم ويحزن المتخلف ، ولعظم الأمر كرر الاسم الأعظم كثيراً ، ولما جزاهم سبحانه علىٰ أمثال ذلك بما وقع لهم من فوزهم بالسلامة والغنيمة بفضل من حاز أوصاف الكمال وتنزه عن كل نقص بما له من رداء الكبرياء والجلال ، ورغبهم فيما لديه لتوليهم إياه ، أتبع ذلك بما يزيدهم بصيرة من أن المخوف لهم مَن كيده ضعيف وأمره هين خفيف واهٍ سخيف وهو الشيطان ، وساق ذلك مساق التعليل لما قبله من حيازتهم للفضل وبعدهم عن السوء بأن وليهم ٱلله وعدوهم الشيطان فقال التفاتاً إليهم بزيادة في تنشيطهم أو تشجيعهم وتثبيتهم : (إنما ذلكم) أي القائل الذي تقدم أنه الناس (الشيطان) هو الطريد البعيد المحترق [(1)] .

ومن آيات ٱلله يمكن أن نستخلص بعضاً من صفات الوكيل بالإضافة كما يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ

(1) نظم الدرر للبقاعي ، ج 2 ، ص 143 .

يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (1) .

ـ الإيمان بألله رباً واحداً مالكاً للملك وكيلاً معيناً .

ـ الخوف من ٱلله الذي سيحاسب الإنسان علىٰ ما قدمت يداه ، ويراقبه من الميلاد حتىٰ الوفاة في مدة الاختبار والابتلاء ، فيستشعر الخليفة هٰذا المعنىٰ العظيم فيخاف منه حباً فيه لأنه سبحانه لا يستحق المعصية بعدما أوجد الإنسان وسخر له الأرض وما فيها وما عليها ليقيم الخلافة الإلٰهية عليها .

ـ التوكل علىٰ ٱلله في كل شيء لأنه الحافظ القيوم الرازق القوي المتين .

ـ إقامة الصلاة ، فهي الصلة بين الإنسان وربهِ دون حجاب ودون واسطة فبها ينتقل المرء من عالم الملك علىٰ عالم الملكوت وتسمو روحه وتحلق في أنوار لا حصر ولا وصف لها .

ـ الإنفاق من رزق ٱلله الذي وكلهم عليه ومن ذلك حسن التوظيف للمال و توجيهه لمساعدة المستحق للمساعدة ، وتتعدد جوانب الإنفاق حسب الحاجة ، لأنه بعدم الإنفاق يكون الهلاك للبخيل الممسك وللفقير المحتاج وصدق ٱلله في قوله : ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (2) .

عن ابن عباس : « ولا تُلقوا بأيديكم إلىٰ التهلكة » ، قال : ليس التهلكة أن يُقتل الرجل في سبيل ٱلله ، ولٰكن الإمساك عن النفقة في سبيل ٱلله (3) .

وسبيل ٱلله في مصارف عديدة ، ومن هنا فالبخل هلاك للنفس وللغير ،

---

(1) الأنفال ، 1ـ4 .
(2) البقرة ، 195 .
(3) تفسير الطبري ، ج 3 ، ص 584 .

للنفس بحرمانها من طيبات ٱلله في الدنيا ومن نعيم ٱلله في الآخرة ، فمن يملك المال في مكان ما ويكنزه مع حاجة المكان لبناء مدرسة أو مستشفىٰ أو مسجد أو مصنع أو مسكن ويقصر في ذلك بحجب المال ومنعه بكنزه أو بالانتفاع الشخصي به فهو قد أهلك نفسه وغيره .

وجزاء من يؤمن بٱلله ويخافه وينفق في سبيله ولا يبخل بالنفس والمال رزق من ٱلله ومغفرة .

وفي مجال الإنفاق فقد جعل ٱلله الغني وكيلاً علىٰ المال بشرط عدم البخل علىٰ الفقراء لأنهم عيال ٱلله أي عالته المسئولون منه لذا فقد جعل الثواب الجزيل للمنفق في سبيل ٱلله في صور الإنفاق المختلفة .

والوكيل بالإضافة الذي يعلم تمام العلم أن الرزق بيد ٱلله فلا يخشىٰ بأس أحد أو ظلم أحد فيأخذ في أسباب السعي للحصول علىٰ الرزق وهـٰذا من صور التوكل التي عرفنا إياها الحبيب ﷺ فقال : « لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَىٰ الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً » [1] .

لذا التوكل هو الأخذ بالأسباب ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [2] .

أَيْ تَزَوَّدُوا وَاتَّقُوا أَذَىٰ النَّاس بِسُؤَالِكُمْ إِيَّاهُمْ وَالإِثْم فِي ذَلِكَ ، وَالتَّوَكُّل لا يَكُون مَعَ السُّؤَال وَإِنَّمَا التَّوَكُّل الْمَحْمُود أَنْ لا يَسْتَعِين بِأَحَدٍ فِي شَيْء ، وَهُوَ قَطْع النَّظَر عَنِ الأَسْبَاب بَعْدَ تَهْيِئَة الأَسْبَاب ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصلاة والسَّلام : « اِعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ » [3] ، ولذا تؤخذ الأسباب بالتوكل علىٰ ٱلله الوكيل المطلق جل جلاله الذي آمن به المستخلفون في الأرض وأولوه أمرهم

(1) سنن ابن ماجه ، ج 12 ، ص 199 .
(2) البقرة ، 197 .
(3) فتح الباري لابن حجر ، ج 5 ، ص 161 .

طاعة تامة لا شريك له بيده الخير وهو علىٰ كل شيء قدير .

نعم فمن التوكل المحمود عدم الاستعانة إلا بٱلله فنحن نقول ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ فأنت الوكيل علينا ولما كنت أنت الوكيل علينا فقد سلمنا لك أمرنا إليك و﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ عليك لا علىٰ غيرك مع الأخذ بالأسباب كما أمرتنا ، فنلقي البذرة في الأرض بعد حرثها وتهيئتها ونرويها بالماء ونتوكل عليك في إخراجها وكذا في كل أمور حياتنا إخلاصاً في العبادة وإفراداً في التوكل والاستعانة .

وعَنْ رسول الله ﷺ : « أَنَّ دَاوُدَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصلاة والسَّلام كَانَ لا يَأْكُلُ إلاَّ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ » (1) .

وعن ابْن عَبَّاس ، قَالَ : « كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحُجُّونَ وَلا يَتَزَوَّدُونَ ، وَيَقُولُونَ : نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ ، فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ ، فَأَنْزَلَ الله : ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ ﴾ » . تزودوا فلا تؤذوا الناس بسؤالكم إياهم ، واتقوا الإثم في أذاهم بذلك .

وفيه : أن التوكل لا يكون مع السؤال ، وإنما التوكل علىٰ ٱلله دون استعانة بأحد في شيء ، ويبين ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب ، وهم الذين لا يسترقون ، ولا يكتوون ، ولا يتطيرون ، وعلىٰ ربهم يتوكلون » . فهٰذه أسباب التوكل وصفاته (2) .

وقَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ : « يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفاً بِغَيْرِ حِسَابٍ قَالُوا وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ ٱلله قَالَ هُمُ الَّذِينَ لا يَكْتَوُونَ وَلا يَسْتَرْقُونَ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ فَقَامَ عُكَّاشَةُ فَقَالَ ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ قَالَ أَنْتَ مِنْهُمْ قَالَ فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا نَبِيَّ ٱلله ادْعُ ٱلله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ قَالَ سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ » .

---

(1) فتح الباري لابن حجر ، ج 6 ، ص 382 .

(2) شرح ابن بطال ، ج 7 ، ص 225 .

وَقَوْله ﷺ : (وَعَلَىٰ رَبّهمْ يَتَوَكَّلُونَ) اِخْتَلَفَتْ عِبَارَات الْعُلَمَاء مِنْ السَّلَف وَالْخَلَف فِي حَقِيقَة التَّوَكُّل ، فَحَكَىٰ الإمَامُ أَبُو جَعْفَر الطَّبَرِيُّ وَغَيْره عَنْ طَائِفَة مِنْ السَّلَفِ أَنَّهُمْ قَالُوا : لاَ يَسْتَحِقّ اسْم التَّوَكُّل إلاَّ مَنْ لَمْ يُخَالِط قَلْبه خَوْف من غَيْر الله تَعَالَىٰ مِنْ سَبُع أَوْ عَدُوّ حَتَّىٰ يَتْرُك السَّعْي فِي طَلَب الرِّزْق ثِقَة بِضَمَانِ الله تَعَالَىٰ لَهُ رِزْقه ، وَقَالَتْ طَائِفَة : حَدّه الثِّقَة بِاَلله تَعَالَىٰ وَالإتْقَان بِأَنَّ قَضَاءَهُ نَافِذ وَاتِّبَاع سُنَّة نَبِيّه ﷺ فِي السَّعْي فِيمَا لا بُدَّ مِنْهُ مِنَ الْمَطْعَم وَالْمَشْرَب وَالتَّحَرُّز مِنَ الْعَدُوّ كَمَا فَعَلَهُ الأنْبِيَاء صَلَوَات الله تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ . قَالَ الْقَاضِي عِيَاض : وَهَذَا الْمَذْهَب هُوَ اخْتِيَار الطَّبَرِي وَعَامَّة الْفُقَهَاء .

ولا يَصِحّ التَّوَكُّل مَعَ الالْتِفَات وَالطُّمَأْنِينَة إلَىٰ الأسْبَاب ، بَلْ فِعْل الأسْبَاب سُنَّة الله وَحِكْمَته وَالثِّقَة بِأَنَّهُ لا يَجْلِب نَفْعًا وَلا يَدْفَع ضُرًّا وَالْكُلّ مِنَ الله تَعَالَىٰ وَحْده . قَالَ الإمَام أَبُو الْقَاسِم الْقُشَيْرِيُّ رَحِمَهُ الله تَعَالَىٰ : اِعْلَمْ أَنَّ التَّوَكُّل مَحَلّه الْقَلْب ، وَأَمَّا الْحَرَكَة بِالظَّاهِرِ فَلا تُنَافِي التَّوَكُّل بِالْقَلْبِ بَعْد مَا تَحَقَّقَ الْعَبْد أَنَّ الثِّقَة مِنْ قِبَل الله تَعَالَىٰ ، فَإِنْ تَعَسَّرَ شَيْء فَبِتَقْدِيرِهِ ، وَإِنْ تَيَسَّرَ فَبِتَيَسُّرِهِ [1] .

التوكل طاعة :

وفي هـٰذا قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [2] .

والتوكل علىٰ ٱلله طاعة لله ولرسوله لأن ٱلله قد عرفنا في كتابه أن لكل شيء سبباً فلا ننصرف عن التوكل بالتواكل .

ونأخذ بأسباب النصر بإعداد الجيوش .

وبأسباب الشفاء بإعداد الدواء .

وبأسباب الطعام بشق الأنهار وتعمير الأرض وزراعتها .

---

(1) السابق .

(2) الأنفال ، 46 .

وبأسباب القوة في كافة أشكالها بإعداد الإنسان الخليفة .

ونستلهم قول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ (1) .

فالتوكل علىٰ ٱلله هداية ، وعدم التوكل علىٰ ٱلله ضلال ، لأنه الخالق المالك الذي يملك النفع والضر ، ولا يملك كشف الضر سواه ، ولا يملك رحمة بخلقه سواه ، لذا فإن ٱلله هو الكافي الذي لا كافي غيره وهو ملاذ وملجأ المتوكلين ، ومن يتوكل علىٰ ٱلله فٱلله كافيه ، وهـٰذا قوله تعالىٰ لنبيه وبشراه لكل من يتخذه وكيلاً ويصدق بكلامه وأنبيائه : ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (2) .

وسنختم بحثنا في اسم ٱلله الوكيل وعلاقته بمعنىٰ الخلافة وأن الخليفة هو من يتوكل عليه والاعتماد عليه مع الأخذ بأسباب النجاح وهـٰذا ما تمثل في سيرة النبي ﷺ في حياته بشكل عام وفي الهجرة بشكل خاص ، مع أننا نجد التوكل في أسمىٰ صوره في كل لمحة من ملامح حياته ومواقفه ﷺ ، ففي الهجرة صور ٱلله لنا هـٰذا التوكل في قوله تعالىٰ في الحوار بين الصديق والحبيب بقوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (3) .

---

(1) الكهف ، 83ـ85 .

(2) الزمر ، 37ـ38 .

(3) التوبة ، 40 .

فمعية ٱلله في التوكل عليه والأخذ بأسبابه ، فلا حزن لمن كان ٱلله معه ، ولا هزيمة لمن كان ٱلله ناصره ، ولا فقر لمن كان ٱلله رازقه ، والسكينة لمن يستأنس به ، والكفاية لمن يكتفي به ، فحسبنا ٱلله ونعم الوكيل .

اللهُمَّ يا الوكيل علىٰ كل شيء في هٰذا الكون الكبير لا توكل علينا من لا يخافك ولا يخشاك واجعل اللهُمَّ يا وكيل الخير وكيلاً فينا علىٰ الشر فلا يعتري أفعالنا نقص أو تقصير أو ضعف أو ظلم أو أي تصرف من التصرفات التي لا ترضيك، واجعلنا يا الوكيل ممن وكلتهم علىٰ الأرض بالخلافة فيها لا للإفساد !

وسدد يا الوكيل أمرنا إلىٰ ما فيه خيرنا وخير البلاد والعباد ولما فيه عزة ورفعة الإسلام والمسلمين في كل مكان واجعلهم ممن ينصرون دينك الحنيف ضد الشرك والمشركين ! اللهُمَّ يا الوكيل أعزنا بعزك وانصرنا بنصرك ولا تكلنا لأحد غيرك !

اللهُمَّ يا الوكيل بك آمنا وعليك توكلنا وأولينا أمرنا إليك فاجعلنا ممن تحققوا بمعنىٰ الخلافة فأقاموها متوكلين عليك منيبين إليك مقتدين بكتابك عاملين بسنة نبيك مخالفين من خالفك موالين من والاك ! اللهُمَّ يا الوكيل لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت علىٰ نفسك ، اللهُمَّ يا نعم المولىٰ ونعم الوكيل والنصير تولنا في الأمور كلها ، إنك ولينا والحمد لك !

اللهُمَّ يا الوكيل إننا نركع ونسجد لك فلا تجعلنا من الراكعين والساجدين لغيرك ، إنك وليُّنا لا إلـٰه إلا أنت خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ نعْبُدُك وأنت عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لا تُدْرِكُك الأَبْصَارُ وَأنت تُدْرِكُ الأَبْصَارَ خالق الأشجار والليل والنهار وعالم الأسرار إنك الواحد القهار وإنك اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ وإنك بنا وكيل !

✍ ✍ ✍

القويّ جل جلاله

القوي : هو الذي لا مكان للضعف فيه ، وهو القادر بقوته علىٰ أن يفعل ما يشاء متىٰ شاء وكيف ما يشاء ، ولذا فالقوي المطلق يمتلك معطيات القوة في ذاته ، يغلب ولا يُغلب ، يقهر ولا يُقهر ، يكيد ولا يكاد ، ويَمكر ولا يُمكر به . قال تعالىٰ : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [1] .

القوي : « من أسمائه ومعناه : الموصوف بالقوة » [2] .

الْقَوِيُّ : « قَدْ يَكُونُ بِمَعْنَىٰ الْقَادِرِ ، وَمَنْ قَوِيَ عَلَىٰ شَيْءٍ فَقَدْ قَدَرَ عَلَيْهِ ، وَقَدْ يَكُونُ مَعْنَاهُ التَّامَّ الْقُوَّةِ الَّذِي لا يَسْتَوْلِي عَلَيْهِ الْعَجْزُ فِي حَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ ، وَالْمَخْلُوقُ وَإِنْ وُصِفَ بِالْقُوَّةِ ، فَإِنَّ قُوَّتَهُ مُتَنَاهِيَةٌ ، وَعَنْ بَعْضِ الأُمُورِ قَاصِرَةٌ » [3] .

القوي : « هو الكامل القدرة علىٰ الشيء تقول هو قادر علىٰ حمله فإذا زدته وصفاً قلت هو قوي علىٰ حمله ، وقد وصف نفسه بالقوة فقال عز قائلاً إن ٱلله هو الرزاق ذو القوة المتين » [4] .

القوي : اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ ، والقوة صفة لازمة للذات الإلـٰهية

---

(1) آل عمران ، 54 .

(2) شرح أسماء ٱلله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة ، ج 1 ، ص 22 .

(3) الأسماء والصفات للبيهقي ، ج 1 ، ص 117 .

(4) تفسير أسماء ٱلله الحسنىٰ ، ج 1 ، ص 54 .

وهي صفة أزلية أبدية مطلقة اختص بها ٱلله سبحانه وتعالىٰ وهي من متممات القدرة القاهرة التي يسير بها الكون وما فيه من أجرام وكواكب سيارة وما في السمٰوات والأرض من مخلوقات صامتة وصائتة . فالمخلوقات الصامتة كالجبال والبحار والرياح والسحاب والأرض وما أقلت والسماء وما أظلت وما بينهما من أمطار وعواصف وأعاصير وهٰذه الكواكب ومداراتها والنجوم ومساراتها وتقلب الليل والنهار إن هي إلا مُسيَّرة بقدرة القوي الذي أنزل في الكتاب العزيز قوله : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (1) وأما المخلوقات الصائتة فالإنسان والحيوان والطير وما دبَّ علىٰ الأرض وما طنَّ في السماء وما انساب في الماء بإذن ربّه فهي قوة نسبية سخرها ٱلله لمخلوقاته لقضاء حوائجهم وإعمار الأرض وإقامة الدين سواء أكانت قوة مادية تتجلىٰ في الجهد والسعي والعمل أم قوة معنوية كالعقل والفكر والتأمل التي تدرك بها قوة ٱلله المطلقة وعظمته وبقية صفاته جلّ شأنه حتىٰ يعلم الإنسان أن ٱلله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . فهو جلَّ شأنه ليس كمثله شيء لا في العلم ولا في السمع ولا في الإبصار و لا في القوة بل ولا في جميع صفاته التي يكون العلم بها عن طرق ثلاثة هي الحس والعقل والخبر .

1 ـ **الحس** : وهو الشعور بالحرارة والبرودة وسير الرياح وشدتها .

2 ـ **العقل** : الذي يدل علىٰ أن وجود الموجود لابد له من واجد .

3 ـ **الخبر** : وهو النبوءات التي جاء بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهٰذه أدلة قطعية علىٰ إدراك القوة المطلقة لله تعالىٰ ، سواء أدرك

(1) البقرة ، 164 .

البشر ذلك أم لم يدركوا لأن صفات ٱلله تعالىٰ ثابتة لا تتوقف علىٰ العلم بها ومن هنا نستطيع القول : إن العقل ليس أصلاً لإثبات صفة من صفات الذات الإلـٰهية ، ولا معطياً لها صفة لم تكن ، ولا مفيداً لها صفة كمال ، وهـٰذا يعني أن صفة القوة مطابقة للمعلوم المستغني عن العلم به تابعة له ليست مؤثرة فيه ، ولهـٰذا فإن علم ٱلله صفة لازمة غير مؤثرة علىٰ عكس القوي التي هي صفة لازمة مؤثرة مدركة وإن جحدها الجاحدون أو لم يعلموا بها ؛ ذلك أن عدم العلم ليس علماً بالعدم وإنما هو جهل بالعلم .

فٱلله سبحانه وتعالىٰ دلل علىٰ وجوده وقوته بآياته التي خلقها للناس من أجل التفكر والتدبر للوصول الىٰ حقيقة الوجود الإلـٰهي أولاً ومن ثم إدراك قوة ٱلله تعالىٰ من خلال هـٰذه الآيات قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (1) .

ومن هنا فمظاهر القوة الإلـٰهية متعددة وتظهر في الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يدل علىٰ السمـٰوات والأرض وما هما عليه من إبداع مع ما فيهما من أعاجيب العِبَر وبدائع الصنع تعجز عن فهمها عقول البشر وهي دلالة أيضاً علىٰ قوة ٱلله وقدرته في إبداع خلقه ، لاسيما إذا علمنا أن الإبداع هو الخلق علىٰ غير مثال يحتذىٰ ، فهو لا ينقل عن سابق ولا يقلد مثالاً ولا يشاور عاقلاً ولا يستنير برأي ، وإنما يبدعه فيكمل خلقه علىٰ أحسن صورة لهـٰذا الخلق المراد ، لأن أي تبديل أو تغيير أو تحوير أو تطوير أو تجميل فإنه سوف يكون ناقصاً لا محالة من جانبين :

---

(1) آل عمران ، 190 .

1 ـ جانب الخلق المتكامل من حيث الشكل والصورة أي من الناحية الجمالية لهـٰذا الشكل ، فأي نقص سيكون تعطيلاً للمهمة أو لجزء من هـٰذه المهمة التي أبدع من أجلها هـٰذا الخلق .

2 ـ لهـٰذا فإن ٱلله تعالىٰ أعطىٰ كل شيء خلقه فأحسن إبداعه وتصويره ، وكان في أعلىٰ مراتب الخلق حيث قال تعالىٰ : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (1) وأحسن تقويم هو تقويم الشخص أو الإنسان نفسه وليس المقصود هو عملية مفاضلة بين إنسان وإنسان أو بين رجل ورجل أو بين امرأة وامرأة ، وإنما هو الشخص نفسه في الهيئة التي خلقه ٱلله عليها من الشكل والصورة واللون والبنية والطول وتناسب الأبعاد ، فإن طرأ علىٰ هـٰذا الشكل طارئ تغيرت هـٰذه الأبعاد والنسب مما يؤدي الىٰ تشويه الصورة التي جعلها ٱلله في أحسن تقويم لها ، وسواء أكان هـٰذا الطارئ طبيعياً كقطع يد أو جدع أنف أو فقء عين ، أم كان مقصوداً مثل ما نشهده في هـٰذه الأيام من عمليات التجميل ، لا لعلة مرضية وإنما لتغيير خلق ٱلله تعالىٰ باتباع الشيطان وأمره مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ (2) .

إن الآيات تدل المتأملين والمتفكرين علىٰ قوة ٱلله وعظمته في الخلق والتمييز بين أنواع هـٰذه المخلوقات وجواهرها ومعادنها وما لهـٰذه المخلوقات من تباين حتىٰ في اللفظ ، فقد جمع السمـٰوات وأفرد الأرض ، لأن كل سماء ليست من جنس الأخرىٰ ، ولذا فلك كل واحدة غير فلك الأخرىٰ والأرضون

---

(1) التين ، 4 .

(2) النساء ، 117 ـ 119 .

كلها من جنس واحد وهو التراب ، واختلاف الليل والنهار ، أي في تعاقبهما في الذهاب والمجيء يخلف أحدهما صاحبه إذا جاء أحدهما جاء الآخر خلفه أي بعده وفي الزيادة والنقصان والظلمة والنور وهـٰذه الفلك التي تجري في البحر لا ترسب تحت الماء وهي ثقيلة كثيفة والماء خفيف لطيف وتقبل وتدبر بريح واحدة أي تجري مصحوبة بالأعيان والمعاني التي تنفع الناس فإنهم ينتفعون بركوبها والحمل فيها للتجارة فهي تنفع الحامل لأنه يربح والمحمول إليه لأنه ينتفع بما حمل إليه فهـٰذه سمات ومظاهر القوة المطلقة التي اتصف بها ٱلله تعالىٰ ولا يمكن السؤال عن أسبابها لأنه ينتفي فيها الكم والكيف علىٰ عكس الخليفة الذي يختاره ٱلله لإعمار الأرض فيجب أن يكون قوياً وأن يأخذ بأسباب القوة لنصرة الحق وإقامة العدل فإن عارضه معارض أو عانده معاند كان معذوراً إن انتفض لإعادة الأمور إلىٰ نصابها ووضع الموازين في أقساطها إذ أنه من حق الخليفة أن يستنهض جميع أسباب القوة المادية والمعنوية لأن يردع كل من خرج عن طاعة ٱلله سبحانه ولو بإعلان الحرب واستحضار القوة التي منحها ٱلله تعالىٰ للخليفة من أجل إقامة العدل وبسط سلطانه ، ودحر الظلم والجور وإزهاقه ، وبهـٰذا يكون الخليفة قد أدىٰ ما عليه من حق ٱلله تعالىٰ في إطاعة أوامره باستخدام هـٰذه القوة بما يحبه ٱلله ويرضىٰ عنه ويرضىٰ هو عن نفسه بإقامة العدل وإعمار الأرض وصلاح العباد ونشر الأمن والطمأنينة في نفوس البشر وفي ديارهم وبلدانهم ، وبهـٰذا يكون أدىٰ ما عليه من حق هـٰذه القوة المستمدة من قوة القوي العزيز بالكلمة والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن تم الأمر بهـٰذه الوسائل فقد كفىٰ ٱلله المؤمنين القتال ، وإن كان غيره فبالقوة القاهرة وإعلان الحرب حتىٰ يعود الحق إلىٰ نصابه .

و ليس شيء أجل من الحرب ، لأنه يبين فيها فضل القوة والتدبير ، وفضل الرأي وفضل الحزم ، وفضل الاحتياط ، وفضل التعبئة ، وفضل المكيدة ، وفضل الاحتراس ، وفضل النجدة ، وفضل البأس ، وفضل

الجلد ، وفضل الشجاعة ، وفضل جميع ما ذكر من الشمائل لأن جميع هـٰذه الصفات والقيم إنما تعبر عن شكل من أشكال القوة ، فمن عدم من شيء من هـٰذا عرف موضع تقصيره لأن خطأها لا يستقال ، والعجز فيها متلف للمهج ، والجهل مبيح للحمىٰ ، وترك الحزم ذهاب الملك ، وضعف الرأي جلب للعطب ، والتقصير سبب الهزيمة ، وقلة العلم بالتعبئة داعية الانكشاف ، وقلة المعرفة بالمكيدة تهور إلىٰ الهلكة ، وترك الاحتراس نهزة للعدو ، فإن أصاب ظفر وإن أخطأ هلك ، فمن أخذ بهـٰذه الأسباب فقد امتلك مجامع القوة ورأس هـٰذا كله وعموده الذي يقوم عليه هو قوة الإيمان ، ولهـٰذا يجب أن يكون الخليفة قوياً يستمد قوته من إيمانه بصاحب القوة العزيز الجبار الذي أوكله بإعمار هـٰذه الأرض والدفاع عنها ومنع المارقين من إظهار فسادهم في الأرض وإن اقتضىٰ ذلك أن يجمع لهم الجموع وأن يسير لهم الجيوش وذلك من أجل منع الإفساد في الأرض وقهر الذين يحاربون ٱلله ورسوله ، فهـٰذا من أوليات مهام الخليفة القوي ذي السطوة علىٰ أعداء ٱلله الذين لا يريدون للأرض إصلاحاً ولا للعباد صلاحاً ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (1) . ومن هنا يمكن أن نستنتج أن المحاربة مع ٱلله تعالىٰ غير ممكنة فيجب حمله علىٰ المحاربة مع أولياء ٱلله ، والمحاربة مع الرسل ممكنة ، فلفظة المحاربة إذا نسبت إلىٰ ٱلله تعالىٰ كانت مجازاً ، لأن المراد منها المحاربة مع أولياء ٱلله ، وإذا نسبت إلىٰ الرسول كانت حقيقة فلذلك استمد الخليفة القوة والسلطان من صاحب القوة حتىٰ يقيم العدل ويبسط الأمن في الحفاظ علىٰ مصالح الرعية الدنيوية والدينية في الأولىٰ والآخرة ويعمر الأرض بهـٰذه القوة

(1) المائدة ، 33ـ34 .

وهي قوة مسخرة لفعل الخيرات ودحر المنكرات وإعلاء كلمة التوحيد ورفع راية الإيمان وبسط سلطان العدل الذي أمر به القوي المتين والذي جعل من قوته عوناً لأوليائه وحرباً علىٰ أعدائه : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [1] .

وانظر إلىٰ قوة القوي العزيز في إيضاح القوة المتنامية لخلقه بالتدرج من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ حتىٰ تبلغ الأوج والقمة ، بحيث لا تكون هـٰذه القوة الممنوحة للخلق دفعة واحدة ، وإنما هو الذي يتولاها ويرعاها وبعد ذلك تأخذ بالانحدار حتىٰ تتلاشىٰ وتعود الىٰ خالقها ومانحها ، ويقرب ٱلله تعالىٰ لنا هـٰذه الصورة بأن ضرب مثلاً من الأرض الهامدة حتىٰ إذا ما أصابها الماء اهتزت وهـٰذا الاهتزاز إنما هو قوة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [2] .

فمن مظاهر القوة التي يضفيها ٱلله علىٰ مخلوقاته بثّ الحياة في أنواع النبات الذي يقوم علىٰ سوقه خضراً نضراً من الأشجار والزروع علىٰ وجه الأرض ثابتاً قوياً يصمد في وجه الرياح والعواصف ، وبث فيها هـٰذه الحيوانات المتنوعة من كل دابة ومن كل حيوان يدب علىٰ وجهها من العقلاء وغيرهم وهو إن بث الدواب يكون بعد حياة الأرض بالمطر لأنهم ينمون بالخصب ويعيشون بالمطر حالهم حال هـٰذه النباتات والزروع وكذلك تصريف الرياح بهـٰذه القوة

(1) الحج ، 40 .
(2) الحج ، 5 .

العجيبة أي في تقليبها في مهابها إقبالاً وإدباراً وشمالاً وجنوباً وفي كيفيتها حارة وباردة وفي أحوالها عاصفة ولينة وفي آثارها عقماً ولواقح وفي إتيانها تارة بالرحمة وتارة بالعذاب وهـٰذا من أعظم مظاهر قوة ٱلله وقدرته أنه جعل السبب الواحد أصلاً للمتناقضات فقد قال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [1] .

ومن مظاهر القوة التي يمد بها ٱلله خلفاءه في الأرض وأولياءه وعباده الصالحين موقف أبي بكر الصديق رضي ٱلله عنه عندما بلغ عمر بن الخطاب رضي ٱلله عنه أن قوماً يفضلونه علىٰ أبي بكر الصديق فوثب مغضباً حتىٰ صعد المنبر فحمد ٱلله وأثنىٰ عليه وصلىٰ علىٰ نبيه ﷺ ثم قال : « أيها الناس سأخبركم عني وعن أبي بكر أنه لما توفي رسول ٱلله ﷺ ارتدت العرب ومنعت شاتها وبعيرها فأجمع رأينا كلنا أصحاب محمد ﷺ أن قلنا له يا خليفة رسول ٱلله إن رسول ٱلله كان يقاتل العرب بالوحي والملائكة يمده ٱلله بهم وقد انقطع ذلك اليوم فالزم بيتك ومسجدك فإنه لا طاقة لك بقتال العرب فقال أبو بكر : أوكلكم رأيه علىٰ هـٰذا ؟ فقلنا نعم . فقال وٱلله لئن أخرّ من السماء فتخطفني الطير أحب إلي من أن يكون رأيي هـٰذا ثم صعد المنبر فحمد ٱلله وكبّره وصلىٰ علىٰ نبيه ﷺ ثم أقبل علىٰ الناس فقال : أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد ٱلله فإن ٱلله حيٌّ لا يموت أيها الناس أئن كثر أعداؤكم وقل عددكم ركب منكم الشيطان هـٰذا المركب ؟ وٱلله ليظهرنّ ٱلله هـٰذا الدين علىٰ الأديان كلها ولو كره المشركون قوله الحق ووعده الصدق ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [2] . وقال

(1) الحاقة ، 6ـ8 .

(2) الأنبياء ، 18 .

تعالىٰ : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (1) . أيها الناس وٱلله لو منعوني عقالاً لجاهدتهم عليه واستعنت عليهم ٱلله وٱلله خير معين » (2) . فهٰذا أبو بكر الصديق رضي ٱلله عنه خليفة ٱلله في الأرض وخليفة المسلمين الذي كان يسمع نشيجه من شدة البكاء عند تلاوة القرآن من خلف صفوف المصلين رقة وضعفاً وخشية ورحمة ينتفض طوداً عالياً وبحراً عاتياً قوياً صلباً لا تأخذه في الحق لومة لائم مستمداً قوته من القوي العزيز .

ومن مظاهر قدرة ٱلله إبراز تلك القوة في زلزلة الساعة وما فيها من قوة تأخذ بالعقول وتذهب بالأبصار وتحير كل ذي لب في رسم مشاهد يوم القيامة من تصوير ذلك الهول العظيم وشدة الموقف وذهول الخلائق من قوة ٱلله وقــدرتــه وبطشه وجبروته حتىٰ يذعن الخلق لإرادته فقد جسد ذلك في قوله جل جلاله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ (3) .

---

(1) البقرة ، 249 .
(2) تهذيب الكمال ، ص 8 .
(3) الحج ، 1 ـ 5 .

إن من أعظم مظاهر القوة والقدرة في امتلاك الشأن والأخذ بنواصي جميع المخلوقات العاقل منها وغير العاقل والأرض والجبال والبحار والسمٰوات والكواكب والأجرام والنطف المخلقة وغير المخلقة ولا يرد بأس ٱلله عن خلقه إلا رحمته سبحانه وتعالىٰ وتقوىٰ من اتقىٰ وخشي الرحمٰن بالغيب لأن التقوىٰ منجاة من بطش ٱلله وجبروته التي تتمثل في صفة القوي باجتناب محارمه والإقبال علىٰ طاعته ، ففي هٰذا دليل علىٰ أن الإنسان يكون قوياً بطاعته لله ضعيفاً بمعصيته له وعلىٰ هٰذا فإن التقوىٰ من أبواب القوة التي منحها ٱلله للعبد .

واعلم أنه تعالىٰ أمر الناس بالتقوىٰ فدخل فيه أن يتقي كل محرم ويتقي ترك كل واجب وإنما دخل فيه الأمران ، لأن المتقي إنما يتقي ما يخافه من عذاب ٱلله تعالىٰ فيدع لأجله المحرم ويفعل لأجله الواجب ، فإذا تصور زلزلة الساعة يكون أشد خشية لله وأكثر تقوىً له وهو بالتالي أشد قوة في تمسكه بالإيمان رغبة ورهبة من زلزلة الساعة وخاصة أن هٰذه الزلزلة تكون في الدنيا وهي التي يكون معها طلوع الشمس من مغربها . وقيل هي التي تكون معها الساعة . وروي عن رسول ٱلله ﷺ في حديث الصور « إنه قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات : نفخة الفزع ، ونفخة الصعقة ، ونفخة القيام لرب العالمين ، وإن عند نفخة الفزع يسير ٱلله الجبال وترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ، قلوب يومئذ واجفة ، وتكون الأرض كالسفينة تضربها الأمواج أو كالقنديل المعلق ترجرجه الرياح »[1] فالقوي هو القادر علىٰ الفعل العظيم ، ويقوىٰ علىٰ الفعل حقاً من غير عجز ولا ضعف ، ويقدر علىٰ غيره من الأفعال الكبيرة شأنا وقدراً .

وٱلله تعالىٰ هو الْقَوِيُّ حقاً : لأنه هو القادر النافذ أمره ولا معنىً للعجز

(1) تفسير ابن أبي حاتم ، ج 5 ، ص 136 .

وللضعف في ساحة قدسه وملكه في حال من الأحوال ، وٱلله تعالىٰ له القدرة المطلقة التي لا تحد ولا تأخذه سنة ولا نوم ، فهو القوي والقادر علىٰ كل شيء ولا يعجزه شيء لا في تكوين خلقه ولا في هدايته وإيصال نعمه له مما يقويه ، ولا في إتمام حجته البالغة علىٰ عباده ، ولا ضد يمنعه ، ولا عظيم خلق ودقة يعجزه عن إيجاده ونفوذ أمره فيه ، وهـٰذا كل شيء في الوجود مجرات وكواكب وسماوات وأرضين وما فيها من الخلق الكبير والصغير حتىٰ الذرة وما فيها من خلقه يشهد له بوجوده وبكل صفاته وأفعاله إن خالقه هو ٱلله القوي القدوس ومالك الملك . فٱلله تعالىٰ وحده لا شريك له هو القوي وذو القوة المتين : لأنه له العلم والقدرة والخبرة والحكمة في خلق كل شيء وهدايته ومَده بنعمه وتقويته ليبقىٰ ويفعل لغايته ، ومع دقة الصنع والمتانة المتناهية ، في إحكام وجود كل شيء . ومن منحه ٱلله القوة وتجلىٰ عليه بالاسم الحسن القوي بالتجلي الخاص يكون له الهمة المتعالية النافذة في معرفة هدىٰ ٱلله وبإيمان راسخ لا يزيله شيء ، وعنده الدليل المحكم علىٰ تفنيد أقوىٰ الشبه ، ويكون قوياً بتطبيق دينه وإطاعة ربه لا يعجز ولا يضعف عن كثرة العبادة لله تعالىٰ ، كما تكون له قوة بدنية لا يطيقها أحد ولا يستطيعها أحد لأن هـٰذه القوة من ٱلله القوي من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل ودحره بحول ٱلله وقوته حيث لا حول ولا قوة إلا بٱلله القوي المتين .

والخليفة : قوي في دينه له إيمان راسخ لا يزول ، وقوي في تطبيق تعاليم ٱلله وإقامة العبودية لله وبإطاعته بكل أوامره ، وقوي في مقاومة الشبهات عن معرفة ، وقوي في مقاومة الشهوات والمغريات عن يقين ، وقوي في مقاومة زينة الحياة الدنيا ، وقوي في جهاد أعداء ٱلله ، وبهـٰذا يُعرف أنه قد تجلىٰ عليه اسم ٱلله القوي ، وإلا من يرىٰ في نفسه ضعف إيمانٍ أو عجزٍ في تعلم دينه ومعارفه ، أو عنده تساهل في تطبيق الدين والطاعة والعبودية لله وأمام أعداء ٱلله ؛ عليه أن يتوجه لله القوي ويتوسل باسم ٱلله القوي القادر حتىٰ يقويه

في دينه وبدنه ليخلص له العبودية والدين ، كما لابد أن يتعلم من الأقوياء في دينهم وطاعتهم لرب العالمين ويتدبر بأقوالهم بأنه ٱلله القوي هو صاحب القدرة التامة البالغة الكمال غالب لا يغلب فقوته فوق كل قوة ، والحمد لله رب العالمين .

القوي : ورد في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ [1] .

ومعناه : ذو القوة التامة الذي لا يلحقه العجز في حال من الأحوال .

ٱلله تعالىٰ له القدرة المطلقة ، إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل . وهـٰذا ليس لأحدٍ سواه سبحانه وتعالىٰ القوي المتين .

القوي المتين من أسماء ٱلله تعالىٰ جل شأنه ، وورد في الحديث النبوي الجامع لأسماء ٱلله الحسنىٰ وفي أكثر من آية قرآنية .

والقوي المتين اسمان من الأسماء الجلالية لله تعالىٰ والتي تشير إلىٰ معاني السلطان والعظمة والجبروت والقهر والغلبة والقوة ، وجميعها تذكر لله تعالىٰ علىٰ سبيل الإطلاق ، فلا حدود لها ولا قيود عليها . والجمع بينهما فيه تأكيد ؛ لأن لله ـ عز وجل ـ القوة المطلقة والمتانة المطلقة والقدرة المطلقة والتي بها يدبر ٱلله أمر الكون وينظم حركاته وسكناته وظواهره ، الجليل منها والدقيق .

فٱلله تعالىٰ هو وحده الذي خلق كل ما في الكون وبيده وحده الأمر كله ، لا يشاركه في ملكه أحد ولا ينازعه فيه أحد ، فلابد أن يكون قوياً متيناً قادراً علىٰ كل شيء ؛ لأنه إلـٰه واحد وخالق واحد ومدبر واحد ، وهـٰذا كله ليس لأحد غير ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ القوي المتين الذي لا يعجزه شيء في الأرض

---

(1) هود ، 66 .

ولا في السماء . فإذا أراد شيئاً ما كبر أم صغر فإنه يقول له كن فيكون ؛ لأن له القدرة والقوة المطلقة الشاملة لكل شيء والخارقة التي عجز الواصفون عن وصفها والمتانة المطلقة التي بها يخلق ما يشاء كيفما يشاء .

والقوي يدل علىٰ القدرة التامة ، والمتين يدل علىٰ شدة القوة ، والجمع بين الاثنين يدل علىٰ العظمة اللامتناهية ، فٱلله تعالىٰ من حيث إنه بالغ القدرة تامّها قوي ، ومن حيث إنه شديد القوة متين . وذلك كله يرجع إلىٰ عدة معان من أهمها القدرة ، وكذلك معاني السلطان الأعظم والجبروت الأكبر والقهر الأجل والكبرياء المطلق والعزة السامية والجلال المحكم ، وهي جميعها ليست إلا لله وحده علىٰ سبيل الإطلاق والانفراد ، فٱلله القوي المتين انفرد بقوته وقدرته وسلطانه وتنزه عن كل مخلوق ، فهو قدوس سبوح رب الناس والملائكة خالق الإنس والجن ومسيّر الكون بما فيه .

ولكي نفهم معنىٰ القوي المتين لابد من أن نفهم معنىٰ القدرة وهي عبارة عن المعنىٰ الذي به يوجد الشيء مقدراً بتقدير الإرادة والعلم ، فٱلله تعالىٰ قوي متين قادر إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل .

القوي المتين . هـٰذان الاسمان بينهما مشاركة في أصل المعنىٰ ، القوة تدل علىٰ القدرة التامة ، والمتانة تدل علىٰ شدة القوة وٱلله القوي صاحب القدرة التامة البالغة الكمال ، وٱلله المتين شديد القوة والقدرة وٱلله متم قدره وبالغ أمره واللائق بالإنسان أن لا يغتر بقوته ، بل هو مطالب أن يظهر ضعفه أمام ربه ، كما كان يفعل عمر الفاروق حين يدعو ربه فيقول : (اللهُمَّ كبرت سني وضعفت قوتي) لأنه لا حول ولا قوة إلا بٱلله ، هو ذو القوة أي صاحبها وواهبها ، وهـٰذا لا يتعارض مع حق ٱلله أن يكون الخلفاء في الأرض أقوياء بالحق وفي الحق وبالحق .

هو تعالىٰ كامل القوة عظيم القدرة شامل العزة ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْعِـزَّةَ

لِلَّهِ جَمِيعًاۚ ﴾ (1) وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ (2) فمعاني العزة الثلاثة كلها كاملة لله العظيم .

1 ـ عزة القوة الدال عليها من أسمائه القوي المتين ، وهي وصفه العظيم الذي لا تنسب إليه قوة المخلوقات وإن عظمت . قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ (3) ، وقال : ﴿ وَٱللَّهُ قَدِيرٌۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (4) وقال عز وجل : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ ﴾ (5) وقال تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ (6) وقال عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ (7) .

2 ـ وعزة الامتناع فإنه هو الغني بذاته ، فلا يحتاج إلىٰ أحد ولا يبلغ العباد ضره فيضرونه ، ولا نفعه فينفعونه ، بل هو الضار النافع المعطي المانع .

3 ـ عزة القهر والغلبة لكل الكائنات فهي كلها مقهورة لله خاضعة لعظمته منقادة لإرادته ، فجميع نواصي المخلوقات بيده ، لا يتحرك منها متحرك ولا يتصرف متصرف إلا بحوله وقوته وإذنه ، فما شاء ٱلله كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا حول ولا قوة إلا به . فمن قوته واقتداره أنه خلق السمٰوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وأنه خلق الخلق ثم يميتهم

---

(1) يونس ، 65 .
(2) هود ، 66 .
(3) الذاريات ، 58 .
(4) الممتحنة ، 7 .
(5) الأنعام ، 65 .
(6) الكهف ، 45 .
(7) القمر ، 54 ـ 55 ،

ثم يحييهم ثم إليه يرجعون : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (1) وقوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ (2) .

ومن آثار قدرته أنك ترىٰ الأرض هامدة ، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ومن آثار قدرته ما أوقعه بالأمم المكذبين والكفار الظالمين من أنواع العقوبات وحلول المثلات ، وأنه لم يغن عنهم كيدهم ومكرهم ولا جنودهم ولا حصونهم من عذاب ٱلله من شيء لما جاء أمر ربك ، وما زادوهم غير تتبيب ، وخصوصاً في هٰذه الأوقات ، فإن هٰذه القوة الهائلة والمخترعات الباهرة التي وصلت إليها مقدرة هٰذه الأمم هي من إقدَار ٱلله لهم وتعليمه لهم ما لم يكونوا يعلمونه ، فمن آيات ٱلله أن قواهم وقدراتهم ومخترعاتهم لم تغن عنهم شيئاً في صد ما أصابهم من النكبات والعقوبات المهلكة ، مع بذل جدهم واجتهادهم في توقي ذلك ، ولٰكن أمر ٱلله غالب ، وقدرته تنقاد لها عناصر العالم العلوي والسفلي . ومن تمام عزته وقدرته وشمولهما : أنه كما هو الخالق للعباد فهو خالق أعمالهم وطاعاتهم ومعاصيهم ، وهي أيضاً أفعالهم ، فهي تضاف إلىٰ ٱلله خلقاً وتقديراً وتضاف إليهم فعلاً ومباشرة علىٰ الحقيقة ، ولا منافاة بين الأمرين ، فإن ٱلله خالق قدرتهم وإرادتهم ، وخالق السبب التام خالق للمسبب ، قال تعالىٰ : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (3) .

ومن آثار قدرته ما ذكره في كتابه من نصره أوليائه ، علىٰ قلة عددهم وعدَدِهم علىٰ أعدائهم الذين فاقوهم بكثرة العدد والعدة ، قال تعالىٰ : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (4) ومن آثار

(1) لقمان ، 28 .
(2) الروم ، 27 .
(3) الصافات ، 96 .
(4) البقرة ، 249 .

قدرته ورحمته ما يحدثه لأهل النار ولأهل الجنة من أنواع العقاب وأصناف النعيم المستمر الكثير المتتابع الذي لا ينقطع ولا يتناهىٰ . فبقدرته أوجد الموجودات ، وبقدرته دبّرها ، وبقدرته سوّاها وأحكمها ، وبقدرته يحيي ويميت ، ويبعث العباد للجزاء ، ويجازي المحسنين بإحسانهم والمسيء بإساءته ، وبقدرته يقلب القلوب ويصرفها علىٰ ما يشاء الذي ﴿ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [1] .

والقوي خلاف الضعيف ، وهو الذي يَغلب ولا يُغلب ، والقوي المستمر بالقوة دون تعب أو نقصان مما يجعل قوته عز وجل مغالبة لكل قوة .

والقوي هو اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ ، يثبت لله كمال القدرة علىٰ الشيء فلا يستولي عليه العجز في حال من الأحوال ، وهو إحدىٰ صفات العظمة والكمال الدالة علىٰ القوة والجبروت ولقد سمىٰ الحق تبارك وتعالىٰ نفسه القوي فقال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ [2] فإن حملنا القوة في حق اللّه تعالىٰ علىٰ كونه كامل التأثير في الممكنات كان معنىٰ القوة هو القدرة ، وإن حملنا القوة في حق ٱلله تعالىٰ علىٰ كونه غير قابل للأثر من غيره كان معنىٰ قوته هو كونه واجب الوجود لذاته ، وذلك لأنه كلما كان واجب الوجود لذاته كان واجب الوجود من جميع جهاته ، وكل ما كان كذلك لم يقبل الأثر من غيره البتة ، لا بتحصيل شيء فيه كان معدوماً ، ولا بإعدام شيء كان موجوداً ، فكمال حال الشيء في أن يؤثر يسمىٰ قوة ، وكمال حال الشيء أن لا يقبل الأثر من الغير يسمىٰ أيضاً قوة ، فهو اسم يوحي بالغلبة والمنعة والسلطان التام ، ونفاذ الأمر في جميع المخلوقات بلا رد ، ولا معارضة ، ولا تعقيب وقد ورد اسم القوي في القرآن الكريم مقترناً ومصاحباً لاسمه تعالىٰ المتين ، قال

---

(1) يس ، 82 .

(2) الشورىٰ ، 19 .

تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ (1) .

وهـٰذه المصاحبة تؤدي معنىٰ ثبات هـٰذه القوة ودوامها ، فهو يؤثر ولا يتأثر ، يغير ولا يتغير ، مع الرفعة والتنزه ، وقد ورد مصاحباً لاسمه تعالىٰ العزيز في عدة مواضع ، يقول تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ (2) وقال تعالىٰ : ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (3) .

وقال عز وجل : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (4) إلىٰ غير ذلك من الآيات التي ورد فيها اسم القوي مصاحباً لاسم العزيز ، وهي مصاحبة تدل علىٰ القوة القاهرة لا يعتريها وهن ولا يلحقها فتور ، فهو قوي بنعمته ، قوي بنصرته ، قوي بعلمه ، قوي بنفاذ إرادته . ومن اسم القوي يعلم العباد ممن يستمدون قوتهم المادية والمعنوية وممن يبتغون العزة ، قال تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ (5) .

والقوي في اللغة صفة مشبهة للموصوف بالقوة ، وقد قَوِيَ وتَقَوَّىٰ فهو قَوِيّ يقال : وقَوَّىٰ ٱلله ضعفَك أَي أَبدَلَك مكان الضعف قُوَّة ، فالقُوَّةُ نقيض الضعف والوهن والعجز ، وهي الاستعداد الذاتي والقدرة علىٰ الفعل وعدم العجز عنه عند القيام به ، قال تعالىٰ لموسىٰ عليه الصلاة والسلام عن التوراة والألواح : ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ۚ ﴾ (6) أي خذها بقوة في

(1) الذاريات ، 56ـ58 .
(2) الشورىٰ ، 19 .
(3) الحج ، 74 .
(4) المجادلة ، 21 .
(5) النساء ، 139 .
(6) الأعراف ، 145 .

دينك وحجتك ، وقال ليحيىٰ عليه الصلاة والسلام : ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ (1) أي خذ الكتاب بجد وعون من ٱلله تعالىٰ . والقوي في أسماء ٱلله معناه أنه الموصوف بالقوة ، وصاحب القدرة المطلقة ، لا يغلبه غالب ولا يرد قضاءه راد ، ولا يمنعه مانع ولا يدفعه دافع ، وهو القوي في بطشه القادر علىٰ إتمام فعله ، له مطلق المشيئة والأمر في مملكته ، والقوي سبحانه قوي في ذاته لا يعتريه ضعف أو قصور ، قيوم لا يتأثر بوهن أو فتور ، ينصر من نصره كما قال : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (2) وكتب الغلبة لنفسه ولرسله بقوته وعزته فقال سبحانه : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (3) .

فمن قوته واقتداره أنه خلق السمٰوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وأنه خلق الخلق ثم يميتهم ثم يحييهم ثم إليه يرجعون ، ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ (4) وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (5) .

ومن قوة ٱلله تعالىٰ تأييده لرسله بالمعجزات الخارقة التي يكون فيها إظهار الحق ودحض الباطل التي لا تخضع لقانون السبب والمسبب مما اعتاد عليه العقل بالمنطق والحجة المقنعة .

ذلك أن قوانين الواقع الطبيعي نسبية غير مطلقة ، ولٰكن هٰذه الخوارق والمعجزات لا تعني بالنتيجة احتمال سبب مبدئي لا مسبب له ، ولٰكن هٰذه

---

(1) مريم ، 12 .
(2) الحج ، 40 .
(3) المجادلة ، 21 .
(4) لقمان ، 28 .
(5) الروم ، 27 .

الخوارق تحدث أشياء بغير أسبابها التقليدية ، ويصعب علىٰ العقل أن يضع لها قانوناً ينسحب علىٰ منطق الأشياء ، ولا يمكن أن نكتشف قانوناً منطقياً يضع نتائج هـٰذه الخوارق ضمن ذلك الإطار لأنها خاضعة للقوة الإلـٰهية التي اختص بها ٱلله تعالىٰ ،حيث أبطل فعل النار الذي خلقت له ، وهي الدفء والمنفعة والعذاب ، إلىٰ برد وسلام علىٰ إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ومع كونها حارقة ولا خلاف في ذلك . قال تعالىٰ : ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴾ (1) ومهما اجتهد مجتهد علىٰ أن يبرر إبطال فعل النار وفق القوانين الطبيعية لكان من الكاذبين ، ذلك أن عدم إحراق النار لمن يجلس في وسطها لا مبرر له سوىٰ القدرة الإلـٰهية التي هي جزء من القوة المطلقة التي اتصف بها سبحانه وتعالىٰ وكانت من أسمائه الحسنىٰ ألا وهو القوي المتين .

فإذا أخذنا الأمر بالتدرج نزولاً من القوي صاحب القوة المطلقة إلىٰ القوي نسبياً الذي أضفيت عليه قوة من القوي مطلقاً ، مقارنة مع أقرانه من بني البشر لبزهم جميعاً بقوته التي استمدها من إيمانه بٱلله تعالىٰ أنه هو القوي صاحب القدرة ، ولهـٰذا أصبح إبراهيم عليه الصلاة والسلام قوياً في نفوس وقلوب من شهد عملية إحراقه ، وأن النار لم تعمل به عملها مع بقية المخلوقات فكانت قوته مدعاة لأن يؤمن به الناس أنه نبي ، وكان قوياً في نفسه عندما حمل الرسالة فقد أيقن أنه خليفة ٱلله في الأرض فاستنهض همته وحزم أمره وشحذ عزيمته معتمداً علىٰ قوة الإيمان وقوة ٱلله فانطلق من العراق إلىٰ فلسطين مروراً بمكة قبل أن يستقر به المقام في مصر لفترة ثم قفل راجعاً إلىٰ مكة وأودع زوجته وابنه بواد غير ذي زرع وهـٰذا بفضل ما يتمتع به من قوة ، قال تعالىٰ : ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ

(1) الأنبياء ، 68ـ70 .

مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (1) فالذي يترك زوجته وابنه بواد غير ذي زرع ولا ضرع ولا مؤنس ولا أنيس فإنما هو معتمد علىٰ قوته التي يستمدها من إيمانه . فهو قوي بقوة ٱلله وحوله ، وقوي بثقته بالقوي العزيز ، وقوي بعقله وتفكيره بأنه لا يسلمه إلا لخير لأنه معتمد علىٰ القوي المتين صاحب السلطان الأسمىٰ والقوة الأسنىٰ والسلطة الجامعة المانعة ، وبهٰذه الثقة انطلق يصلح الأرض بعد أن أفسدها المفسدون سلباً ونهباً في إفشاء الظلم وأكل الحقوق واستعباد الناس ، وبإيمانه بقوة ٱلله وقدرته علم أن ٱلله تعالىٰ يدفع عنه ما سوف يراوده من الوسوسة فيما يبتغي من الحق وإظهاره والعدل ونشره وهو يدفع الضد بالضد أي دفع الضد الضار بالضد النافع ، فالعدل ضد الجور والحق ضد الظلم والرحمة ضد العذاب ، وهٰذا ما أيقن به إبراهيم عليه وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام عندما تمتع بقوة الخليفة المكلف في إعادة الحق إلىٰ نصابه ، فلأنه قوي يستطيع أن ينصر الحق ويدفع الظلم ، ولأنه قوي يستطيع أيضاً أن يبسط سلطان العدل ويطوي بساط الجور الذي بسطه المضلون في أذىٰ الناس وضرهم من أجل استعبادهم ، ولأنه قوي فإنه حتماً سيكون رحيماً ولا يرضىٰ بالشقاء للضعفاء والمساكين ، لأنه هو نصيرهم والمدافع عنهم وهو الذي إليه يأوون والحصن الذي به يمتنعون ، ومن اتكل علىٰ القوي العزيز وهو ينشر الفضائل ويدحر الرذائل ويبسط العدل ويسحق الظلم ، ويأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر ، ويعمل الصالحات وينهىٰ عن السيئات خشية من القوي الحي القيوم فإنه لا يخشىٰ غوائل الدهر ولا يخاف عواقب ما يقترفه المبطلون ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ

---

(1) إبراهيم ، 37 .

﴿ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [1] إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد أيقن بكلّيته حقيقة القوي ومعرفته حيث تخللت المعرفة جميع أجزائه من حيث ما هو مركب فلم يبق جوهر فرد إلا وقد حلت فيه معرفة ربه عز وجل فهو عارف به بكل جزء منه لأنه آت بالأعمال الصالحة علىٰ الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفي مستلزم لحسنها الذاتي ، ولمعرفته اليقينية بقوة ٱلله وقدرته فقد أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له لا يعرف لها رباً ولا معبوداً سواه ، ولما كانت قوة إبراهيم مستمدة من قوة ٱلله تبارك وتعالىٰ فكانت لفظة الخليل معبرة عن إرادة ٱلله تعالىٰ في اصطفائه واختصاصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله ، وهٰذا علىٰ مراتب القوة البشرية التي يمنحها ٱلله تبارك وتعالىٰ لأنبيائه وأوليائه وعباده الصالحين ، لأنه يعلم سرائرهم ويعلم أنهم مسخرون لما خلقوا له من فعل الخير بقدرته جلّ شأنه وتعالىٰ عزه وعظم سلطانه تبارك وتعالىٰ عمّا يقولون علواً كبيراً .

وكما أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ خصّ بعض البشر بنوع من القوة الإلٰهية كذلك خص بعض الملائكة بقوة تتناسب مع معدن خلقهم وجوهرهم ، فقد خلق الجان من مارج من نار وخلق الإنسان من صلصال كالفخار أو من سلالة من طين وخلق الملائكة من نور ، ولتفاوت أصل الجوهر ومعدن الخلق للمخلوقات المكلفة فقد تفاوتت أنواع القوىٰ التي منحها ٱلله تعالىٰ لمخلوقاته المتفاوتة في معدن الخلق ، ولما كانت الملائكة مخلوقة من أجسام نورانية شفّافة كانت القوة التي أكرمهم ٱلله بها تتناسب مع أصل الجوهر الذي خلقوا منه ، ولما كانت سرعة الضوء الذي هو جزء من النور تساوي ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية الواحدة ، فلا بد لقوة الملائكة أن تتناسب مع أصل جوهرهم الذي يتصف بخواص تفتقدها بقية مخلوقات ٱلله تبارك وتعالىٰ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا

(1) النساء ، 124 ، 125 .

يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴾ (1) فقوة الملائكة قياساً إلىٰ طبيعة خلقهم وجوهر النور الذي خلقوا منه يتناسب تماماً مع القوة التي خصهم بها ٱلله سبحانه وتعالىٰ .

ومن مظاهر القوة التي منحها القوي العزيز لمخلوقاته من أجل تسخيرها في إعمار الأرض ونشر الهدىٰ والدعوة إلىٰ سبيل الرشاد ما سخره ٱلله سبحانه وتعالىٰ لنبييه سليمان عليه الصلاة والسلام حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣ فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴾ (2) .

لقد اختص ٱلله تعالىٰ بالقوة وجعلها اسماً من أسمائه الحسنىٰ جل شأنه وتفضل علىٰ بعض خلقه بأن منحهم من هٰذه القوة ما يقيمون به الدين والدنيا فيما أمر به تعالىٰ سواء لإظهار قدرة ٱلله بالمعجزات علىٰ أيدي الأنبياء ودعوة الناس إلىٰ الطريق المستقيم وسبيل الهدىٰ والرشاد ليخرجهم من الظلمات إلىٰ النور بإذنه أم لقضاء حاجاتهم التي يعجزون عنها بالقوة التقليدية أم لإظهار عجز الآخرين أمام قوة ٱلله تعالىٰ علىٰ الرغم من القوة الهائلة التي منحها لهم ، حيث أن الجن أوتوا القوة النسبية ومع ذلك فهم ضعفاء أمام قوة ٱلله وقدرته حيث نجد قوتهم الهائلة من خلال قوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣٨ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ٣٩ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ

---

(1) فاطر ، 1 .
(2) سبأ ، 12ـ14 .

﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (1) ذلك أن سليمان عليه الصلاة والسلام يعرف قوة الجن وقدرتهم علىٰ القيام بأعمال ، فطلب من الحضور ممن يمتلك القوة التي تمكنه من أن يأتي بعرشها ، فقال أحدهم أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وهـٰذا يعني أنه يمتلك قوة هائلة وسرعة شديدة علىٰ القيام بهـٰذا العمل ، غير أن الذي عنده علم من الكتاب وهو المؤمن الصالح قال أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك حتىٰ رآه مستقراً عنده . فإذا تأملنا الحوار الذي دار بين سليمان عليه الصلاة والسلام وبين الحضور من الجن والصالحين منهم ومن غيرهم فالذي عنده علم من الكتاب لم تتضح صفته سوىٰ قدرته علىٰ امتلاك القوة الأسرع ، ولهـٰذا لم نجد فاصلاً زمنياً يفصل بين القول والفعل لأنه رأىٰ عرش بلقيس مستقراً عنده حقيقة ، وهـٰذا يعني انعدام الزمن بين القول والفعل لعظم القوة ولشدة القدرة الطاوية للسرعة والسبب ، ونستنتج من هـٰذا أن العلم أعلىٰ مراتب القوة ، إذاً فالعلم قوة ، ومن يمتلكه يمتلك القوة ، ولهـٰذا فالخليفة دائماً قوي بما أنه المؤمن بالحق وإحقاقه ولو كره المجرمون والمنافقون .

ولكي لا يغتر مخلوق بقوته تبقىٰ قوة القوي العزيز هي القوة المطلقة التي تسيِّر كل شيء وتسيطر علىٰ كل شيء ، وحتىٰ لا يعلو أحد من الخلق علىٰ الآخرين بما أوتي من قوة بالتكبر والجبروت والطغيان تبقىٰ قوة ٱلله هي القاهرة المسيطرة وفق نظام هـٰذا الكون الذي قدره ٱلله تقديراً ، ويضرب ٱلله الأمثال في ذلك لتتعظ جميع مخلوقاته وتعلم أنها مهما أوتيت هـٰذه المخلوقات من القوة وأسبابها تبقىٰ ضمن قوة ٱلله وإرادته التي يريدها لهـٰذه المخلوقات من إنسها وجنها وحيوانها وطيرها والملائكة التي تتفاوت فيما أوتيت من قوة لتبقىٰ ضمن إطار القانون الإلـٰهي حتىٰ لا يبغي بعضها علىٰ بعض وقد رأينا القوة التي أتت

---

(1) النمل ، 38 ـ 40 .

بعرش بلقيس ، ومع هـٰذا فقد أراهم ٱلله حجم قوتهم أنها لا تفيدهم شيئاً ولا تقدم لهم منفعة ولا تدفع عنهم ضراً إلا بمشيئة ٱلله وإرادته ، فكل تلك القوة التي كانوا يتمتعون بها هي قوة نسبية وليست مطلقة ، ولهـٰذا ضعفت قوة الجن أمام الذي عنده علم من الكتاب ، وحتىٰ الذين عندهم علم من الكتاب سيظلون ضعافاً أمام قوة القوي المطلق جل جلاله ، ويظلون هم في حاجة لقوة من قوته تمدهم وتناصرهم علىٰ إظهار آياته العظام وإحقاق الحق في الأرض التي استخلفهم فيها ، ولذا فالجن لم يعلموا أن سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد مات حتىٰ أذن لهم ٱلله أن يعلموه عن طريق أضعف مخلوقاته وهي حشرة الأرضة ، قال تعالىٰ : ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ (1) وهنا دليل علىٰ أن قوة ٱلله فوق كل قوة وأن عظمة سليمان وتسخير الريح والروح له بيَّن أنه لم ينج من الموت ، وأنه قضىٰ عليه الموت ، تنبيهاً للخلق علىٰ أن الموت لا بد منه ، ولو نجا منه أحد لكان سليمان أولىٰ بالنجاة ، ولذا فالموت مظهر من مظاهر إظهار القوة التي لا تواجهها قوة .

وهـٰذا يعني أن مآل القوة جميعاً ومرجعها إلىٰ ٱلله تعالىٰ لأنه هو الذي وهبها وهو الذي يقبضها ، ومن أي صنف كان هـٰذا القوي مؤمناً أو كافراً إنسياً أو جنياً ، نبياً أو غير ذلك وطائعاً كان أم عاصياً فإنه لا مرد لقضاء ٱلله في استرجاع وديعته مهما كان نوع هـٰذه الوديعة من مال أو روح أو قوة ، ومهما يكن صاحب هـٰذه القوة علىٰ درجة من الطاعة والإيمان حيث كان سليمان عليه الصلاة والسلام يقف في عبادة ٱلله ليلة كاملة ويوماً تاماً وفي بعض الأوقات يزيد عليه ، وكان له عصا يتكئ عليها واقفاً بين يدي ربه ، ثم في بعض الأوقات كان واقفاً علىٰ عادته في عبادته إذ توفي ، فظن جنوده أنه في العبادة وبقي كذلك أياماً وتمادىٰ شهوراً ، ثم أراد ٱلله إظهار الأمر لهم بإظهار قوته في

---

(1) سبأ ، 14 .

من يعتقدون أنه ضعيف لا يقدر علىٰ شيء مما حدث شاهداً أمام أبصارهم وهم ينظرون ، فقدر أن أكلت دابة الأرض عصاه فوقع وعلم حاله ، وهـٰذا يعني أن قوة الجن المادية والعلمية محدودة ضمن ما أراده ٱلله لهم من العلم والقوة حيث كانت الجن تعلم ما لا يعلمه الإنسان فظن أن ذلك القدر علم الغيب وليس كذلك ، بل الإنسان الذي لم يؤت من العلم إلا قليلاً فهو أكثر الأشياء الحاضرة علماً ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ (1) بطبيعة الحال من يقرأ باسم ربه يقرأ خيراً كثيراً ، ومن يقرأ باسمه فلن يجد للقوة سبيلاً ، أي من قرأ مما علمه ٱلله كانت له مكرمة من عنده جل جلاله ، أي أنه يقرأ الحق بالحق ، وهـٰذه عين البيِّنة ، أما أولـٰئك الذين غفلوا عن ذلك كفراً وطغياناً يجدون أنفسهم وما يقولون أو يقرؤون في حالة وهن وضعف ، ولأن الإنسان قوة فهو القوي بالإضافة الذي يعلم أن وراء كل ظاهر باطناً وسراً ، ووراء كل سرٍ ظاهر يمكن أن يشاهد ، ومن هنا يمكن لبني آدم إدراكه واستقراءه واستنباطه ، والجن لا تعلم إلا الأشياء الظاهرة وإن كانت خفية بالنسبة إلىٰ الإنسان ، وتبين لهم الأمر بأنهم لا يعلمون الغيب إذ لو كانوا يعلمونه لما بقوا في الأعمال الشاقة ظانين أن سليمان عليه الصلاة والسلام حي لم يمت .

إن أعلىٰ مراتب القوة التي يمنحها ٱلله تبارك وتعالىٰ لعباده إنما هي خاضعة لقانون القوة الإلـٰهي ، وقد خص ٱلله تعالىٰ قسماً من عباده بهـٰذه القوة وهم الأنبياء والأولياء والصالحون والملائكة ، فهو يعلم سرائرهم وأنهم

---

(1) العلق ، 1ـ19 .

مسخرون لما خلقوا له من الأفعال التي يريد ٱلله تعالىٰ أن يمضي بها مشيئته لأجل مسمىٰ ، وهم مترفعون عن الماديات إلىٰ الروحانيات في عملية التسامي والتجرد عن الواقع إلىٰ عالم الفضيلة التي أمر بها ٱلله تعالىٰ ، والتسامي والترفع لا يكون إلا لذي قوة قد اصطفىٰ ٱلله بها نوعاً من الخلق لأمر يريد نفاذه بمشيئته فيسخِّر من يشاء من عباده ويجعلهم أسباباً لهـٰذه المشيئة ، فهـٰؤلاء يتمتعون ببصيرة نافذة وذهن متقد وقوة عظيمة وأخلاق فضيلة ، وبهـٰذا يحمل من يمتلك هـٰذه القيم صفة الخليفة الذي يخلف ٱلله في الأرض لإقامة العدل وإظهار الحق ونشر الرحمة وبسط الخير ، وأعلىٰ درجات القوة هي الصبر حيث قال تعالىٰ : ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ (1) . ويراد بأولي العزم بعض الأنبياء قيل هم نوح صبر علىٰ أذىٰ قومه وكانوا يضربونه حتىٰ يغشىٰ عليه ، وإبراهيم علىٰ النار وذبح الولد ، وإسماعيل علىٰ الذبح ، ويعقوب علىٰ فقدان الولد وذهاب البصر ، ويوسف علىٰ الجب والسجن ، وأيوب علىٰ الضر ، وموسىٰ الذي قال له قومه كما جاء في الكتاب العزيز : ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (2) .

إن كل الرسل أولو عزم ولم يبعث ٱلله رسولاً إلا كان ذا عزم وحزم ، ورأي ورجاحة عقل ، وهـٰذا أمر من ٱلله تعالىٰ لنبيه ﷺ بقوله اصبر كما صبر

(1) الأحقاف ، 35 .
(2) الشعراء ، 61ـ68 .

الرسل من قبلك علىٰ أذىٰ قومهم ، ووصفهم بأولي العزم لصبرهم وثباتهم ، ومن أعطي نعمة الصبر فقد أعطي العزم ، ومن ملك العزم فقد ملك القوة التي هي مصدرها الصبر ، ولهٰذا فإن الصبر من أعلىٰ مراتب القوة ، لذلك كان أمر ٱلله تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ بالصبر هو مدعاة للقوة حيث ثبته بهٰذه القوة علىٰ المضيّ لما قلّده من عبْء الرسالة ، وثقل أحمال النبوّة ، وأمره بالعزم علىٰ النفوذ لذلك والاقتداء بأولي العزم من قبله من رسله الذين صبروا علىٰ عظيم ما لَقُوا فيه من قومهم من المكاره ، ونالهم فيه منهم من الأذىٰ والشدائد ، لذلك كان الخطاب بالأمر بالصبر علىٰ ما أصابه ﷺ في ٱلله من أذىٰ مكذّبيه من قومه الذين أرسله ٱلله إليهم بالإنذار فقال : ﴿ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ علىٰ القيام بأمر ٱلله ، والانتهاء إلىٰ طاعته من رسله الذين لم ينههم عن النفوذ لأمره ، ما نالهم فيه من شدّة . و إن أولي العزم منهم ، هم الذين امتُحِنوا في ذات ٱلله في الدنيا بِالمحَن ، فلم تزدهم المحن إلا جدّاً في أمر ٱلله .

ولا تتجلىٰ قوة ٱلله القوي بشكل من الأشكال ولا بمثل من الأمثال ولا بصورة من الصور ، وإنما هي قوة جامعة مانعة لكل مظاهر القوة التي نعلمها والتي لا نعلمها من أنواع القوة التي لم يطلع ٱلله تعالىٰ عليها أحداً من خلقه ، غير أننا ندرك قوة ٱلله تعالىٰ في جميع آياته ومخلوقاته ، لأنه سبحانه وتعالىٰ وصف نفسه بأنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (1) .

وقوة ٱلله تعالىٰ وإن جحدها الجاحدون فهي تتجلىٰ في جميع مخلوقاته التي تعطي الأدلة الكافية علىٰ إثبات هٰذه القوة التي ذكرنا منها صوراً تجسد قوته عز وجل ، فإننا هنا سنعمد إلىٰ بعض الأدلة الظنية الترجيحية والأدلة القطعية اليقينية التي لا تدع مجالاً للشك فيما نقول وفق قاعد جلية في المنهج العلمي خاصة وفي نظريات المعرفة بصفة عامة ، وهو ضرورة الملازمة بين

(1) الشورىٰ ، 11 .

الدليل والمدلول ، حتىٰ يصح لنا أن نستدل بوجود الدليل علىٰ وجود المدلول ، وذلك مثل التلازم الضروري بين وجود الشمس ووجود النهار ، ومثل دلالة وجود الابن علىٰ وجود أبيه ، ودلالة وجود الكتابة علىٰ وجود الشخص الكاتب ، ففي هـٰذه الأمثلة وغيرها نجد نوعاً من التلازم الضروري بين وجود أحدهما ووجود الآخر ، فإذا انتفىٰ أحدهما انتفىٰ الآخر ، بمعنىٰ إذا انتفىٰ السبب انتفىٰ المسبب ، وهـٰذا يساوي تماماً وجود الخلق فإنه يستلزم بالضرورة وجود خالق بالقوة ، وهـٰذا يعني ضرورة وجود صفات الخالق من القوة والقدرة والمشيئة والإرادة والتصوير لتكوين هـٰذا الخلق ، ولما كان وجود الخلق يستلزم وجود الخالق كانت أول آية من القرآن تلفت نظر الإنسان إلىٰ هـٰذا الدليل القطعي ، حيث قال تعالىٰ : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [1] .

وقضية الخلق من الخالق بقوته وقدرته وخاصة خلق الإنسان فإنه من أعظم آيات ٱلله التي تدل علىٰ القوة والقدرة معاً التي ضرب بها المثل حيث قال تعالىٰ : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [2] . ورؤية هـٰذه الآيات تدلل علىٰ قوة الخالق وعظمته في الآفاق والنواحي أي سنريهم آياتنا في النواحي عموماً من مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها ، وفيه أن هـٰذه الرؤية كائنة لا محالة حق لا يحوم حولها ريبة ، وأن نطلعهم علىٰ شيء من خفايا هـٰذا الكون ومن خفايا أنفسهم علىٰ السواء . فقد كشف العلم عن أمور كثيرة عن الأرض وما عليها ، وعن النظام الشمسي وما فيه ، وأن هـٰذه الأرض وما حولها ما هي إلا ذرة صغيرة تابعة للشمس ، التي هي وما حولها ذرة صغيرة تسبح في هـٰذا الكون

(1) العلق ، 1ـ2 .
(2) فصلت ، 53 .

الفسيح ، وعرف الناس عن الجسم البشري وتركيبه وخصائصه وأسراره الشيء الكثير ، وأن كل هـٰذه المعلومات والاكتشافات التي وقف الإنسان علىٰ حقيقتها ، تسلم بهـٰذه القوة التي أبدع ٱلله بها هـٰذا الكون وبقوته عز وجل و أحكم سيطرته عليه ، لأن هـٰذه الآفاق هي أقطار السمواتِ والأرضِ من الشمسِ والقمرِ والنجومِ وما يترتبُ عليها من الليلِ والنهارِ والأضواءِ والظلالِ والظلماتِ ومن النباتِ والأشجارِ والأنهارِ وفي أنفسهم من لطيفِ الصنعة وبديعِ الحكمةِ في تكوينِ الأجنةِ في ظلماتِ الأرحامِ وحدوثِ الأعضاءِ العجيبةِ والتركيباتِ الغريبةِ من العقل والدورة الدموية والشبكة العصبية وما إلىٰ ذلك مما لا نعلم .

فمظاهر قوة ٱلله تتجلىٰ في آياته ومخلوقاته فٱلله تعالىٰ الذي خلق السمـٰوات والأرض بقوته ، فهو بهـٰذه القوة جل شأنه يمسكها أن تقع ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ (1) .

إن ٱلله تعالىٰ يحفظ السمـٰوات والأرض أن تزولا فهو الذي قضىٰ بإمكان وجودهما ، وهما محتاجتان للموجد لإخراجهما من الممكن بقوته وإرادته وهـٰذا دليل علىٰ واجب الوجود ، لذلك فإن الممكن كما يحتاج إلىٰ الواجب سبحانه حال إيجاده يحتاج إليه حال بقائه ، بمعنىٰ أن المخلوق الممكن إيجاده فهو بالضرورة محتاج لمن يوجده في عالم الوجود ، وهـٰذا يعني أن الواجد هو واجب الوجود ضرورة وبالقوة ، وكما احتاج الموجود للموجد ، فهو أيضاً محتاج له لبقائه وديمومته واستمراره ، ومن هـٰذا نستنتج أن القوي ، قوي أبداً ، قبل إبداعه الخلق وأثناء الخلق وبعد وجود الخلق وبهـٰذه القوة يمنعهما من أن تزولا ، أي : يمنع سبحانه زوال السمـٰوات والأرض ، و الزوال

(1) فاطر ، 41 .

بالانتقال عن المكان أي : إن ٱلله تعالىٰ يمنع السمـٰوات من أن تنتقل عن مكانها فترتفع أو تنخفض ويمنع الأرض أيضاً من أن تنتقل .

إن إمساك السمـٰوات والأرض يبين لنا يد ٱلله القوية القادرة كيف تمسك بالسمـٰوات والأرض أن تزولا وكيف تحافظ علىٰ ثباتها وبقائها علىٰ الحالة التي أمرها ٱلله بها ، أي أمرها أن تبقىٰ علىٰ هـٰذه الحالة وهـٰذه الهيئة بالقوة الإلـٰهية ، وليس بمعنىٰ الإمساك المعروف من قبلنا نحن بني البشر ، لأننا إذا أمسكنا بالشيء فإننا نحتاج إلىٰ الممسك حتىٰ نسيطر علىٰ الممسوك ، وهو حالة مادية كاليد للأشياء الصغيرة ، أو ما نصنعه ليكون معيناً علىٰ الإمساك بالأشياء التي هي أعظم من قدراتنا ، وهـٰذا يتطلب عملاً وجهداً ومشقة وتكلفة ، أما الإمساك من قبل الذات الإلـٰهية فهي قوة بمعنىٰ القدرة والإرادة ، لأنه سبحانه وتعالىٰ مريد ، وبإرادته جل شأنه يمتنع العمل والجد والمشقة والتكلفة والزمن حيث قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [1] فمتىٰ تعلقت إرادته بوجود شيء أوجده . وهو خالق هـٰذا العالم بسمائه وأرضه وكل هـٰذا الكون وما فيه وجد بكلمة (كن) وهي الكلمة القوة بالمطلق ، فما شاء ٱلله كان وما لم يشأ لم يكن بالقوة ، و إيجاده ذلك الخلق كله لم يتوقف علىٰ سبق مادّة ولا آلة ولا إجالة فكرة ولا طول روية ولا عدم كما يظن البعض ، كما قدر علىٰ الإيجاد ابتداء بقوته وجب أن يكون قادراً علىٰ الإعادة بتلك القوة ، قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [2] .

إن إمساك السمـٰوات والأرض أن تزولا لهو قوة قاهرة لا يتصورها عقل بشري لما في هـٰذه السمـٰوات من النجوم والكواكب السيارة التي لا تتوقف أبداً

(1) النحل ، 40 .
(2) الأنبياء ، 104 .

وهـٰذه المجرات الكونية التي تتألف كل مجرة منها من مليارات النجوم والكواكب التي تسير علىٰ مداراتها فأية قوة هـٰذه التي تحكم سيطرتها علىٰ هـٰذا الكون بما فيه ، ولنا أن نتصور قوة ٱلله القوي العزيز عندما اكتشف علماء الفلك أن هناك ثقباً في الكون تندفع إليه ملايين من هـٰذه الكواكب والنجوم وهو يسحبها بقوة هائلة إلىٰ داخله لا يعلم مستقرها إلا ٱلله ، علماً أن هـٰذا الذي سموه ثقباً لبعد مسافته حيث يقع علىٰ بعد أربعمئة سنة ضوئية من الأرض ، فإذا كانت الوحدة الضوئية الواحدة وهي المسافة التي يقطعها الضوء من الشمس الىٰ الأرض تساوي مئة وخمسين مليون كيلو متر في ثماني دقائق فما هو الزمن المستغرق للوصول إلىٰ ذلك الثقب الذي يبتلع المجرات ، وهـٰذا مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾ (1) . فبنيان السماء من القوي المتين كان ولا يزال بقوة وشدة عظيمة لا يقدر قدرها أحد ولا يعلم مبتداها ولا منتهاها أحد ، ولما كانت السماء أليق لعظمتها وطهارتها بصفات الإلـٰهية وذكر القوة والقدرة علىٰ الإتساع اللامتناهي وهو القوي القادر علىٰ خلق سعة لا تتناهىٰ بأيدٍ أي بقوة ، والقوة هنا بمعنىٰ القدرة فإن القوة عبارة عن شدة البنية وصلابتها المضادة للضعف ، وٱلله تعالىٰ منزه عن ذلك ، فله الأسماء الحسنىٰ التي نعلمها وله أسماء حسنىٰ قد لا نعلمها .

وأمـا الأسمـاء التـي لا نعلمهـا فقـد ورد فـي الحـديـث قَـالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ وَحَزَنٌ اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجِلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي إِلاَّ أَذْهَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا » (2) .

(1) الذاريات ، 47 ـ 48 .
(2) مسند أحمد ـ 55 ، مجلد 8 ، ص 63 .

فقوله ﷺ : أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، لهو دليل علىٰ أن لله تعالىٰ أسماء حسنىٰ لا نعلمها ، لأنه جل جلاله استأثر بها في علم الغيب ، ولأنه مطلق الصفات والأفعال فهي بطبيعة الحال لا تعد ولا تحصىٰ ، أي أن المطلق لا يمكن إحصاؤه ولا عده عداً ، إضافة إلىٰ ذلك فجميع الخلق لا تحسن الثناء عليه عز وجل كما أثنىٰ هو علىٰ نفسه ، وهـٰذا فيه دليل علىٰ أننا لا نمتلك من مفردات الحمد والتمجيد ما يرقىٰ إلىٰ الذي أثنىٰ به علىٰ نفسه ، فأنزل تسعاً وتسعين اسماً نمجده بها ونحمده بها ونسبح ونشكر ونذكر ما شاء ٱلله أن نفعل ذلك ، واستأثر بباقي الأسماء رحمة منه لنا ورأفة بنا وشفقة علينا ، فهو رؤوف رحيم ، وهو قوي بالرأفة وقوي بالرحمة وقوي بالرزق حيث قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ (1) .

وهنا نجد أنه تعالىٰ قرن الرزق بالقوة والمتانة ذلك أن الرزق لبني البشر يحتاج منهم إلىٰ السعي والجهد والعمل من أجل تأمين هـٰذا الرزق ولـٰكنه سبحانه هو الذي يرزق كل مفتقر إلىٰ الرزق لا غيره سبحانه استقلالاً ، أو اشتراكاً ويفهم من ذلك استغناؤه عز وجل عن الرزق لأنه ذو القوة المتين ، « لأن من يطلبه يكون عاجزاً لا قوة له فكأنه قيل : ما أريد منهم من رزق لأني أنا الرزاق وما أريد منهم من عمل لأني قوي متين ، لأن المقام يقتضيه ولذا جيء بالمتين بعده ولم يكتف به عن الوصف بالقوة ؛ و لما كان المقصود تقرير ما تقدم من عدم إرادة الرزق وعدم الاستعانة بالغير جيء بوصف الرزق علىٰ صيغة المبالغة لأنه بدونها لا يكفي في تقرير عدم إرادة الرزق وبوصف القوة بما لا مبالغة فيه لكفايته في تقرير عدم الاستعانة فإن من له قوة دون الغاية لا يستعين بغيره لـٰكن لما لم يدل ذو القوة علىٰ أكثر من أن له تعالىٰ قوة مَا زيد

(1) الذاريات ، 58 .

الوصف بالمتين وهو الذي له ثبات لا يتزلزل ، و أن القوي أبلغ من ذي القوة والعزة أكمل من المتانة وقد قرن الأكمل بالأكمل وما دونه بما دونه » [1] .

إن قوة ٱلله العزيز لا تتجلىٰ بشكل من الأشكال أو بمثل من الأمثال ولا بصورة من الصور ، وإنما هي قوة جامعة مانعة ندركها في جميع آيات ٱلله ومخلوقاته لأنه سبحانه وتعالىٰ وصف نفسه بأنه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ ولأنه تبارك وتعالىٰ ليس له شبيه ولا مثيل ولا نظير ، فلذلك لا يمكن أن يبلغ مدحته القائلون ولا يؤدي حقه المجتهدون ولا يحصي نعماءه العادون ولا يدرك قوته المتأملون حيث فطر الخلائق بقدرته ونشر الرياح بقوته ووتد بالجبال ميدان أرضه ، فمن أراد أن يدرك قوة ٱلله تعالىٰ ويعلمها فعليه معرفته ، وأول المعرفة بتمام الدين والإيمان ، وتمام هـٰذه المعرفة يكون بتصديق آياته ، وكمال التصديق هو الإخلاص له ، وكمال الإخلاص له توحيده جل شأنه ، وكمال توحيده نفي الصفات عنه ، فمن وصفه فقد حدّه ، ومن حدّه فقد عدّه ، ومن عدّه فقد جزّأه ، ومن جزّأه فقد كفر ، وهو الذي وصف نفسه سبحانه وتعالىٰ ليس شيء مثله لا في الكمال و لا في التمام ولا في القوة و لا في الرحمة ولا في الجبروت ولا في السطوة ولا في السلطان والمطلقية .

لذلك عندما يضرب ٱلله الأمثال للناس فإنها تكون بمستوىٰ استيعاب العقل بقدر ما أوتي هـٰذا العقل من التأمل في استيعاب الصورة الذهنية الناتجة عن التخييل ، لأن صفات ٱلله تعالىٰ مجردة عن الواقع إلا في حال تقريب الصورة إلىٰ الواقع حتىٰ يتسنىٰ لهـٰذا العقل أن ينطلق من التجريب والمشاهدة إلىٰ التجريد ، ومن الواقع إلىٰ التسامي حتىٰ يغادر الدنيا في عملية التأمل وصولاً إلىٰ الآخرة مما صوره القرآن الكريم من مشاهد يوم القيامة ، أو مما وصف ٱلله تعالىٰ به نفسه من صفات لا نستطيع إدراكها إلا من خلال صورة

---

(1) تفسير الآلوسي ، ص 523 .

واقعية ننطلق منها إلىٰ صورة ذهنية مجردة عن الواقع ، ويتضح هـٰذا في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [1] .

فقد وصف نفسه عز وجل بأنه نور السمـٰوات والأرض ، ولـٰكن كيف يستطيع الإنسان إدراك هـٰذا النور الإلـٰهي ، ومهما أوتي من شدة البصر لا يستطيع أن يرىٰ مسافة مسير ساعة من نهار ، فقرب ٱلله تعالىٰ هـٰذه الصورة بما هو مألوف لنا ومعروف لدينا فقال : مثل نوره ولم يقل مثله كأنه ثرياً هائلة ركب فيها مصباح عظيم ، وهـٰذا مما هو معلوم لنا فتنزل بالصورة من التجريد الغيبي الذي لا نعلمه إلىٰ التجريب الواقعي الذي نألفه حتىٰ ندرك أوليات هـٰذا النور ، وهـٰذا المصباح الذي ذكره ، جعله في زجاجة ، والزجاج هو البلور وهو أشد المعادن التي تعكس الضياء والنور حتىٰ تكاد تتوهج ، وهـٰذه الصور المفردة جمعها كلها في صورة مركبة من تلك الصور وجعلها كوكباً درياً ، ومعدن الدر في بريقه ولمعانه يضاهي البلور أضعافاً كثيرة ، ذلك أن البلور معدن شفاف فإذا سقط عليه الضوء ، فإن قسماً منه ينفذ من الجهة الأخرىٰ ولا ينعكس نوره ، بيد أن الدر معدن غير شفاف ، فكل ما يسقط عليه من الضوء سوف ينعكس نوراً ، ولما كان في عرف الناس أن النور لا يأتي إلا من مصدر حراري وطاقة ناتجة عن ذلك المصدر الذي يتقد ناراً ، ذكر أن الاتقاد من أجل التوهج يكون من شجرة مباركة كثيرة الخير تنزيهاً لله تعالىٰ ، وضرب الزيتون مثلاً لما فيه من منافع للناس ، فهو كثير الخير كثير البركة لأن منه ما يكون طعاماً من الحب نفسه ومن الزيت بعد عصره ، ويكون هـٰذا الزيت

---

(1) النور ، 35 .

دواء وعلاجاً واستخداماً للإنارة ، فبه تسرج السرج والمصابيح ، فقرب الصورة لواقع الذهن والعقل البشري من أجل استيعاب المثل لنور ٱلله تعالىٰ ، ثم قال إن هـٰذه الزيتونة لا هي شرقية ولا هي غربية ، وإنما هي قوة وقدرة إلـٰهية من القوي القادر الذي يكون نوره وضياؤه لاعن مصدر حراري ولا عن نار متقدة ولا ينسب لأحد ، ولـٰكنه نور علىٰ نور ، ثم جعل هـٰذا النور هداية لمن يريد الهدىٰ ، فمن عرف نور ٱلله تبارك وتعالىٰ ، فقد عرف القوي العزيز وقد اهتدىٰ إلىٰ النور وخرج من الظلمات ، وهـٰكذا يضرب ٱلله الأمثال للناس ، فجلت قوته وجلت عظمته وجلت قدرته ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ (1) .

وبناء علىٰ ما تقدم : فإن جدلاً قد يدور بالقوة بين محققات التطور ومحققات الموانع ، وخير ما ندرجه للحوار بالقوة هو الذي به يتم كل حوار وهو العقل الذي ميز ٱلله به بني آدم عن غيرهم مما خلق جل جلاله .

العقل قوة الاستخلاف في الأرض :

من خلال معرفتنا العامة يقال : إن الإنسان خطّاء ، ولـٰكن بالمعرفة العلمية من الذي سيخطئ ؟ هل هو الإنسان العاقل مالك القوة ، أم غير العاقل فاقدها ؟

العاقل هو المعرض للأخطاء ، أمّا غير العاقل فإن خطأه أمر طبيعي . وبما أن العاقل هو الذي قد يخطئ ، إذاً الذي يفكر بالقوة قد لا يخطئ ، بمعنىٰ لو فكّر العاقل في النتائج المترتبة علىٰ الموضوع الذي يفكر فيه ، قد لا يخطئ ، ويحقق أهدافاً . أما غير العاقل فهو (الحر) الذي لا يعرف الخطأ ، وحتىٰ إذا اتُّهم به نال البراءة .

---

(1) الإسراء ، 43 .

ولهـٰذا إذا انحرف العاقل عن اتجاه عقله تحرر من اتجاهه . فنحن الذين خلقنا بعقل ، ونحن الذين سجنّا به . إذاً السجن ليس الجدران والقضبان ، بل إنه العقل الذي يفكّر . ولهـٰذا كل من لا يفكر حر بطبعه . ولـٰكن هل العقل قيد (سجن) في حد ذاته أم أن القيود خارجة عنه ؟ إذا أجبنا بأن القيود خارجة عنه قد يسأل البعض : لو كان الإنسان غير عاقل ، فهل يمكن أن يفكر في وضع قيود عليه ؟ إذا كانت الإجابة بلا ، إذاً الإنسان العاقل هو الذي قيد نفسه بالقوة العاقلة . وهو الذي نقل لنا ما في ذهنه من موانع إلىٰ صور وأشكال مادية سميت بالسجون المحاطة بالجدران والقضبان الحديدية والحراس المزودين بالهراوات والأسلحة الحديثة . ولأن الإنسان العاقل قد يتهرب من ضميره كضابط عام فوضع لنفسه قانوناً لضبطه ، وشرطة تقبض عليه متىٰ ما خالف ذلك ، وبعد تنفيذ القانون عليه أحس بأنه قد وضع علىٰ نفسه ضميراً ورقيباً خارجاً عنه وقيداً عليه ، فبدأ يفكر بالقوة في كيفية خداعه والتهرب منه ، مما جعل العلاقة بين البوليس والمواطن الذي تنازل عن ضميره علاقة عدم ثقة ومطاردة ، ولهـٰذا لم يؤت من العلم إلا قليلاً ، ولو أُوتي علماً كثيراً لعرف بأن التنازل عن الضمير هو تنازل عن العقل والحرية ، ولذلك لم يتطور إلا بالقليل . فالطفل ولد كغيره من الكائنات الأخرىٰ حراً يصرخ متىٰ يشاء ويصمت متىٰ يشاء ، ولا يخاف أحداً ، ويبول وهو عار ومتىٰ يشاء علىٰ كل من يحمله بين يديه إذا شاء ، دون خشية أو حشمة حتىٰ من والديه ، ولـٰكن لماذا كل ذلك ؟ لأنه ولد والحرية فيه والعقل لم ينضج بعد .

وهـٰذه النتيجة قد تجرنا إلىٰ سؤال آخر هو : هل ينبغي أن ننمي في الطفل معطيات الحرية ، أم معطيات العقل ؟ إنه خيار صعب ، خيار بين أن تكون إنساناً قوياً كما أرادك ٱلله تعالىٰ ، وبين أن تكون حراً . فإذا أردت أن تكون إنساناً قوياً ، عليك أن تتمسك بعقلك الذي يميزك عن غيرك ، وإذا أردت الحرية عليك أن تقبل التنازل عن عقلك لتفعل ما تشاء ومتىٰ تريد ، وحينها

تعرف أن للحرية ثمناً مقابل نيلها ، وإذا أردت الاثنين معاً فعليك أن تقبل بحياة المساجين الأحرار التي يشار إليها بالقضية الآتية :

كل (أ) ليست (أ) .

وقد يتساءل البعض : هل هناك قيود أخرىٰ تعيق حركة الإنسان الحر إلىٰ التطور ؟ قبل أن نحكم علىٰ مواضيع أو قضايا من وجهة نظرنا بأنها قيود ، ينبغي أن تطرح هـٰذه المواضيع والقضايا للنقاش ، هل هي قيود أم لا ؟ فإذا اتفقنا بأنها قيود حينها تصدر بها الأحكام بالقوة ويحق لنا الاستشهاد بها أو البرهنة عليها . وبعض هـٰذه الأسئلة هي :

هل الدين قيد علىٰ الحرية ، أم دعم لها ؟

هل القانون قيد علىٰ حرية العقل أم لا ؟

هل الأمومة والأبوة والمجتمع قيود علىٰ حرية العقل أم لا ؟

هل كلمة لا قيد علىٰ الحرية أم لا ؟

هل السجون قيد من أجل الحرية أم قيد عليها ؟

هل الحكومة قيد علىٰ المحكومين أم لا ؟ .

وهل يمكن أن تتحقق الحرية إذا اعتبرنا هـٰذه قيوداً ؟

وبناء علىٰ هـٰذه الأسئلة أتساءل : متىٰ سيتحرر البشر ، وكيف ؟

لا إجابة إلا بالعقل القوة الذي به يتم الاستخلاف والذي يفكر ويتذكر ويميز بين الحق والباطل . فلولا العقل ما عرفنا المرغوب والممنوع والحلال والحرام ، ولولاه ما استعملنا كلمة قف ، وسر ، ولا ، ونعم .

نعم لما نريد ، ولا لما لا نريد .

وعليه ينبغي أن يكون الإنسان في عقله لكي يكون حراً ، وإذا خرج منه

سيوضع فيه من قبل الآخرين بالقوة ، وعليه أن يفكر . وإذا كان العقل سجناً فهل يمكن أن يحقق التطور ؟

السجن درجات ، منه الانفرادي ومنه الجماعي ومنه الاجتماعي . في الدول التي تهدف إلىٰ التقدم لا يسجن المجتمع ، بل يسجن الأفراد والجماعات الذين يحاولون إعاقة حركة المجتمع إلىٰ التطور والتقدم من أجل الجميع بالقوة ، أما في الدول المتخلفة فيسجن المجتمع بكامله تحت الأوامر والنواهي التي تعيق حركته إلىٰ التطور .

إذاً العقل الذي يحقق التطور هو العقل العام ، والعقل العام هو عقل المنافع الفردية والجماعية والمجتمعية ، أمّا العقل الذي لا يفكر في محيطه فهو أناني ، ولهٰذا لا يحقق التطور .

وإذا عُدنا مرة ثانية للإجابة علىٰ السؤال السابق كيف يكون العقل سجناً بالقوة ويحقق التطور ؟ إذا سلمنا بأن العقل هو الذي قيَّد نفسه ، ألا نسلّم بأنه قادر علىٰ فك قيده ؟ إذا كانت الإجابة بنعم ، هل يمكن أن يعيش الإنسان الحرية ويمارسها بكامل عقله ، ويكون خلوقاً ومتديناً ومطيعاً في وقت واحد ؟

في اعتقادنا أن الإنسان بطبعه يغضب ويطرب ، ويقبل ويرفض ، ولهٰذا يكون عنده لكل شيء حدود ، وفي هٰذه الحالة قد يصعب الالتزام بالحدود ، وبما أنه من الصعب الالتزام بها ، فإنه من الصعب أيضاً ألا يسجن . ولذلك يتأكد لنا بأن العقل سجن وعلينا احترامه لكي لا نُسجن . ومع ذلك لو كان تفكيرنا في مستوىً واحد يجوز ألاّ نختلف ، ولٰكن لوجود فروق فردية بيننا اختلفنا ، ولهٰذا بدأ البعض يخالف البعض ، وبدأ الجدال وبدأ الصراع . الصراع علىٰ السلطة والثروة والسلاح ، والصراع بين الرجل والمرأة ، والصراع بين المتعلم وغير المتعلم ، والصراع بين الفقير والغني ، والصراع بين البشر المحكومين وبين الحكام ، ومحاولات السيطرة علىٰ مصادر الثروة ، وجاء الاستعمار ، ورُفض الاستعمار ، والسبب في كل ذلك العقل الذي يتذكر

ماضيه ، ويفكر في حاضره ومستقبله إلىٰ النهاية من أجل أن يتحرر ويتطور .

وبالعقل يستقيم السلوك الإنساني وبه ينحرف ، به يصدق وبه يكذب ، ولنا قصة علىٰ ذلك بعنوان :

(سرقت الليمونة مع أنها لازالت في الشجرة) .

قرر مجموعة من اللصوص سرقة الليمونة من الشجرة ، كل وفق الفرصة التي تمكنه من النجاة بها .

فالأول : قرر السرقة ونفذ قراره . وقبض عليه متلبساً في حالة سرقة وجُرم وفق القانون بالقوة .

والثاني : قرر السرقة ولـٰكنه لم ينفذ قراره ، وبالتالي لم يتهم بالسرقة . ولـٰكن بما أنه قرر سرقة الليمونة وهو عاقل ، ألا يعد بالنسبة للعقل سارقاً ؟

مضمون القصة هنا تأثر بالزمن وحدوث المتغيرات . إنه قرر السرقة والوقت كان منتصف النهار تقريباً ، وفي قراره أنه سيسرق الليمونة في الليل ، وعندما جاء المساء علم بأن الأول قد قبض عليه أثناء قيامه بسرقة الليمونة المستهدفة ، وبالتالي الليمونة التي يود سرقتها قد سرقت ، مما جعله لا ينفذ قراره . إنه في هـٰذه الحالة ووفق المدركات العقلية مثله مثل السارق الذي قبض عليه ، مع أنه لم يتهم بالسرقة لعدم قيامه بها . ولا فرق في هـٰذه الحالة بين السارق الأول والثاني ، إلا أن الأول قد نفذ قراره ولم ينج ، والثاني لم تتح له فرصة التنفيذ فنجا من القبض ، وقد يعتقد البعض أنه خال من عيوب السرقة . ولـٰكن لو لم ينفذ الأول قراره في ذلك اليوم ، يجوز أن يكون الثاني هو السارق الذي قبض عليه .

أما الثالث : فهو الذي قرر سرقة الليمونة من شجرة الجيران ، وفق خطة تتضمن بدائل لتنفيذ عملية السرقة . الخطوة الأولىٰ : يقوم بسرقة الليمونة عندما يكون جيرانه خارج المنزل ، وهـٰذه تتطلب منه مراقبة الجيران عند

خروجهم من المنزل . والبديل الثاني : إذا لم يخرج الجيران جميعهم من المنزل قرر أن يكوِّن علاقة مع الحارس والكلب الذي قد يعيقه أثناء تنفيذه قرار السرقة . والبديل الثالث : أن يقتل الحارس والكلب .

كل هـٰذه العملية الحسابية عملية عقلية ، وغير عفوية ، لأنها وفق خطة وإصرار علىٰ دخول المخاطرة ، وبعقل مدبر . وما التنفيذ إلا خطوة من خطوات الخطة ، ولهـٰذا لم تكن المشكلة في فعل السرقة ، بل المشكلة في العقل الذي قرر السرقة ووضع لها خطة . وعليه ينبغي أن يستهدف الإصلاحُ والعلاجُ العقلَ .

والرابع : قرر سرقة الليمونة ، ولـٰكنه تراجع نتيجة خوفه من أن يقبض عليه . في هـٰذه الحالة لا يختلف عن سابقيه . إنه سارق ولـٰكن الخوف حال بينه وبين ارتكاب فعل السرقة ، والخوف قوة ، لأنه مولود منها أي (أنه مولود العقل القوة) . لم تمنعه الأخلاق ، ولا القيم والأعراف ، ولا الدين ، بل شيء أخر أنتج الخوف . إنه العقل المدبر الذي يقرر ، ويخطط ، ويغير قراراته وخططه وفق المواقف ، والظروف ، والمتغيرات .

وبهـٰذا تعد الليمونة في كل الحالات مسروقة ، وتعتبر سرقت منذ أن اتخذ قرار سرقتها ، وما التنفيذ إلا خطوة لاحقة لذلك . هـٰذه القصة تذكرني بقصة أخرىٰ بعنوان (ذبح الخروف ليلاً وأصبح بخير) .

ذبح الخروف ليلاً وأصبح بخير .

حضر الضيف إلىٰ المدينة ، واتصل بصديقه من الفندق ، ليبلغه بوصوله ، فدعا الصديق المقيم صديقه الزائر إلىٰ وجبة الغذاء ليوم الغد . وقرر ذبح الخروف الذي اشتراه يوم الأمس لهـٰذه الضيافة . وصدر قرار ذبح الخروف ليلاً ، علىٰ أن ينفذ صباحاً لتتمكن الزوجة من إعداد وجبة الغذاء في وقتها المناسب . في هـٰذه الحالة يعد الخروف مذبوحاً وفقاً لقرار ذبحه ، سواء

بالنسبة للخروف أو لمالكه ، ولـٰكن من الناحية التنفيذية لازال الخروف علىٰ قيد الحياة . إن التنفيذ في حقيقته ما هو إلا تأكيد علىٰ اتخاذ القرار .

في الصباح الباكر اتصل الصديق الزائر بصديقه يعتذر له عن عدم حضوره وجبة الغذاء التي اتفقا عليها نتيجة ظروف طارئة اضطرته إلىٰ المغادرة في الحال . إنه متغير تابع أثر علىٰ تنفيذ القرار المتخذ بشأن ذبح الخروف . وعليه مع أن العقل قد قرر ذبح الخروف ، إلا أن الظروف جعلته لا يزال حياً ، ولهـٰذا ذبح الخروف ليلاً وأصبح بخير .

لم يذبح الخروف بالرغم من قرار ذبحه ذلك بأسباب القوة المطلقة التي لم تقرر ذبح الخروف في ذلك اليوم ، ولهـٰذا لا تقارن القوة إلا بقوة تماثلها ، والقوي المطلق لا مثيل ولا شبيه له سبحانه جل جلاله .

تطور الفكر بين القوة والإرادة :

الفكر المجرد هو نتاج القدرات العقلية من استقراء وتأمل واستنباط ، مما يجعله غير قابل للمشاهدة ، وقابل للملاحظة من خلال عمليات التغيّر الطارئة علىٰ الأحوال والظروف . أما الفكر الإنساني فهو نتاج عام يتطور بجهود مشتركة تكون فيها مكانة للقوة والإرادة . ولهـٰذا أتساءل : هل الوجود بالقوة أم بالإرادة ؟

فلو كان بالإرادة ، هل بإرادتنا وجدنا ؟ هل بإرادتنا اخترنا لوننا ، أو جنسنا (النوع) ؟ وهل كان لنا رأي في اختيار لوننا ، أو جنسنا حتىٰ ولو لم يؤخذ به ؟ ومع أننا نعرف بأن أبانا واحد ، وأمنا واحدة ، إلا أننا نحتاج إلىٰ معرفة لماذا اختلفت ألواننا ؟ هل لأن أحد أبوينا أبيض ، والآخر أسود ، أم أن لونهما واحد ، ونحن الذين اختلفنا ، ولماذا ؟ وبما أن أبانا آدم وأمنا حواء ، فلماذا ينادي البعض بالتفرقة بيننا سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ؟ أي لماذا وجد الحاكم والمحكوم بين أفراد الأسرة الممتدة من أب واحد وأم واحدة ؟ ، وهل

كانت هناك وصية تحرم بعض الأبناء من حق التملك مما جعل بين أفراد الأسرة الواحدة غنياً وفقيراً ، وقوياً وضعيفاً ، وحاكماً ومحكوماً ؟

إذاً لا مكان للإرادة في وجودنا كل شيء بالقوة ، ولهٰذا أتساءل : ما علاقة القوة بالإرادة ؟

لا إرادة إلا بالقوة ، فمن لا قوة له لا إرادة له ، أمام من يمتلك القوة والإرادة . والقوة فكرية عقلية ومادية ، وقد تتوحدان في الكائن الحي ، وقد تنفصلان ، ومن يمتلك القوة والإرادة ، قد يشكل خطراً علىٰ من لا يمتلكهما ، أو يمتلك الإرادة فقط ، والعلاقة أيضاً بينهما أنهما يتحدان في القدرة ، فلا قوة إلا بقدرة ، ولا إرادة إلا بها ، ولهٰذا خلقنا بالقوة ، والقادر هو المستخدم لها والمتحكم فيها . وإذا تساءل أحد علىٰ سبيل المثال : هل للمثلث أو للمربع أو للمستطيل ، أو أي شكل إرادة في وجوده ؟

فالجواب إن كل الأشكال لم توجد بإرادتها بل وجدت بالقوة القادرة وبما فيها الإنسان .

ومع أن شخصية الإنسان تتكون من الشيء ونقيضه إلا أن للتربية دوراً هاماً في صقلها وتكوينها . فالشخصية الواحدة تنام وتصحو ، تغضب وتطرب ، تحب وتكره ، تصدق وتكذب ، تفشل وتنجح ، تضحك وتبكي ، ترفض وتقبل ، وإلىٰ النهاية تتكون شخصية الإنسان من الشيء ونقيضه ، مما يجعلها تتغير وتتطور بين الحين والآخر ، ولكل نقيض أهمية في حياتنا . للفرحة أهمية وللحزن أهمية ، والحمد لله الذي جعل بينهما توازناً لتستهدفه المجتمعات في تربية أجيالها ، لأنه إذا تغلَّب الشيء علىٰ نقيضه انهزمت الشخصية وانهدم البناء الاجتماعي والإنساني . وإلا هل يمكن أن يكون البشري إنساناً إذا لم يغضب (الغضب من العار ، ومن أجل الشرف ومن أجل الكرامة) ؟ ولهٰذا فالغضب قوة موجبة عندما يكون في محله . وهل يمكن أن يكون البشري إنساناً إذا لم يحب (يحب الأبوين والأخوة والأبناء والزوجة وكل حبيب وحبيبة ، ويحب

الوطن) ؟ ومن أجل الحب نغضب ونثور ونحزن ونتألم ، وإلا من أجل ماذا يحدث كل ذلك عندما يمرض لنا حبيب أو يموت ، أو عندما يستعمر الوطن ؟ ولهٰذا يكون للحب معنىً وأهمية ، ولولا الحب ما حزنا ، ولولا الحزن ما أحببنا ، ونتيجة ذلك أصبح الحزن واجباً بين المحبين فقط .

ومن أجل الحب يستمر الصراع بين البشر إلىٰ النهاية ، نهاية البشر أو نهاية الموضوع المتصارع عليه ، ولهٰذا الحب قوة تمد الإنسان بالكرامة والشهامة والغيرة علىٰ النفس والوطن والدين والعرض ، ولٰكن بما أن البشر يحبون البشر ، إذاً فلماذا يستمر الصراع بينهم إلىٰ النهاية ؟

نعم إنهم يحبون بعضهم البعض ، ونعم إنهم يختلفون مع بعضهم البعض . يحبون بعضهم عندما يتوحدون معاً في الموضوع الحق ، ويتصارعون مع بعضهم عندما يختلفون عليه فيميل البعض عن الحق ، والحب ليس هو عواطف ومشاعر مجردة فقط ، بل هو مصير ومستقبل ، منه الأمل وإليه الطموح . فلا حب لمن يريد أن يقيد حريتك ، ولا حب لمن يريد أن يحتكر سلطتك ، ولا حب لمن يحتكر ثروتك ويحرمك من حق التملك ، ولا حب لمن يمتلك السلاح لِيُخِيفَكَ به ويحرِمَك من امتلاكه . ولهم الحب جميعاً عندما يشاركونك في كل أمر يتعلق بك وبهم . ولهم الحب عندما يراعون خصوصيتك التي تميزك عن غيرك ، كما هم يتميزون عنك بخصوصياتهم التي تستوجب منك التقدير .

ولأن العقل هو القوة الكبرىٰ التي يمتلكها الإنسان ، إذاً توجيه القوة هو الذي يحدد نوعها وفوائدها ومضارها ولنا في ذلك علىٰ سبيل المثال : الحرب والجهاد أمران مهمان في حياة المستخلفين في الأرض ، إذ لا حرب ولا جهاد إلا في سبيل قضية . وبرغم ذلك ، فإن الدين الإسلامي لم تكن الحرب وسيلته في الانتشار . أما الجهاد وهو بذل الجهد الذهني والعضلي وتحمل المشاق في سبيل قضية فيرتبط بانتشار الرسالة .

والجهاد يشمل الحرب ، والحرب لا تشمل الجهاد ، لأن نزول الوحي علىٰ رسول ٱلله ﷺ وإيمان بعض العرب المسلمين به في مكة لم يكن بالقوة القتالية ، يل كان بقوة الحجة ، ولهٰذا كل من آمن به آمن بالقتال دونه . وعليه لو كان إسلام الناس بالقوة والإكراه ، ما تكونت عندهم الشخصية القتالية دونه ، وما استمر التبشير به في المدينة قبل الهجرة من قبل قلة آمنت به عند لقائها بمحمد ﷺ وبايعته عند العقبة (البيعة الأولىٰ) ، وبعثت له فريقاً آخر بايعه عند العقبة (البيعة الثانية) [1] .

لقد خاض المسلمون معارك عدة ، منها ما انتصروا فيها ومنها ما انهزموا فيها قتالياً . وبرغم ذلك لم يتوقف الدين الإسلامي عن الانتشار لأن القتال كان من أجل الدفاع عن النفس والأرض والدين ، ولم يكن من أجل إكراه الناس علىٰ الدين حيث ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [2] .

وإذا نظرنا اليوم إلىٰ خريطة العالم ، نلحظ أن الدين الإسلامي منتشر في آسيا ، وأفريقيا ، وأوروبا ، والأمريكتين ، وأستراليا ، فأي قوة نشرته إذاً ؟ هل دخل المسلمون بقوتهم العسكرية الجرارة إلىٰ هٰذه القارات الخمس ؟ لقد انتشر الدين بقوة العقيدة (قوة الحجة) عند المبشرين بها وبقوته الفكرية والروحية بالدعوة والتبشير لا بالقوة العسكرية ، فكل ما ينتشر بالقوة العسكرية يزول بزوالها مثله مثل الاستعمار . والجهاد هو نتيجة الإيمان بصدق الرسالة التي توحد العقيدة مع السلوك عندما تتجسد في النفس . أما الحرب فهي التي يدخلها المقاتل كرهاً لأنها تهديد للوجود وتدمير للحق ولا مفر من ذلك إلا أن تخاض دفاعاً عن النفس البريئة .

---

(1) سيادة البشر ، عقيل حسين عقيل ، ص 203 .
(2) البقرة ، 254 .

الجهاد أمر يخص كل من يحرص علىٰ معتقده ومصيره مما جعل الرسول ﷺ يستشير المسلمين في أمرهم ، وكان يأخذ برأيهم حول كل أمر في السلم أو في الحرب . فعندما سمع الرسول ﷺ أن كفرة قريش كانوا يستعدون لمحاربة رسالته والمؤمنين بها قبل غزوة بدر جمع الناس وأخبرهم بالأمر ، فكان من بين المتكلمين أبوبكر الصديق وعمر بن الخطاب والمقداد بن عمرو الذي قال : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون ، مما جعل المسلمين يقررون بأجمعهم قتال الأعداء الذين يعدون لهم العدة لمقاتلتهم . وكان عدد المقاتلين الذين خرجوا مع الرسول في غزوة بدر ثلاثمئة وثلاثة عشر مقاتلاً ، منهم مئتان وسبعة من الأنصار ، ومائة وستة من المهاجرين . وفي أثناء الاستعداد للمعركة تقدم المنذر بن الحباب يناقش الرسول لتغيير المكان الذي يوجد فيه العرب المسلمون ، وعمل القوم برأيه وتم تغيير المكان . بعد انتهاء المعركة اجتمع المجاهدون للتشاور في الأمر المتعلق بالأنفال والأسرىٰ فتباينت الآراء حيث رأىٰ الرسول وأبو بكر وطائفة من المسلمين أخذ الفداء ، بينما رأىٰ آخرون وعلىٰ رأسهم عمر بن الخطاب رفض الفداء ، وهـٰكذا تباينت الآراء حتىٰ نزل قول ٱلله تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ (1) . بعدها كان الرأي بالإجماع بعدم أخذ الفداء .

وفي معركة أخرىٰ حينما علم الرسول بقدوم كفرة قريش ومن معهم لقتال المسلمين ، جمعهم للتشاور في الأمر ، فكانت آراء الأغلبية منهم الخروج إليهم لملاقاتهم خارج المدينة ، وكان من بينهم حمزة بن عبد المطلب ، وسعد بن عبادة ، والنعمان بن مالك . أما الرأي الآخر فكان علىٰ رأسه رأي الرسول الذي أكد علىٰ البقاء في المدينة نتيجة حصانتها ، ولـٰكن في النهاية

---

(1) محمد ، 4 .

اقتنع الجميع بمن فيهم الرسول بالرأي الأول فخرج حوالي 1000 ألف مجاهد لمقاتلة المعتدين [1] .

لقد كانت الشورىٰ هي القوة التي ساندت الحق في فترة رسول ٱلله وستظل قوة مهابة ومقدرة من بعده عند المستخلفين في الأرض ، ولهـٰذا كان الرسول ﷺ أكثر التزاماً بها حتىٰ ولو كان القرار المترتب عليها مخالفاً لرأيه . ففي غزوة الأحزاب طرح الرسول علىٰ المسلمين الأمر بينهم شورىٰ حتىٰ يقرر كل منهم بإرادته الخروج أو عدم الخروج لملاقاة الأعداء . وعندما خرج المجاهدون منهم للجهاد تشاوروا في أفضل الخطط القتالية ، مما جعل سلمان الفارسي يطرح فكرته الحربية التي تعلمها من الفرس وهي حفر خندق كبير شمال المدينة المنورة ، وأقرها الجميع مما جعل النصر حليفهم [2] . وعليه فرأي الفرد قوة ورأي الجميع أكثر قوة .

إن أمر الحرب شورىٰ بين من يخصهم الأمر ، فلا يجوز فيه الإجبار من أحد مما جعل الرسول لا يتجاوز التحريض علىٰ الجهاد بعد أن أُذن له وللمؤمنين بذلك ، ومن لا يرغب في ذلك يكون مع الخوالف . ولهـٰذا لم يكن للرسول جيوشاً نظامية كما هو حال المجتمعات من بعده ، لأن الجيوش عبارة عن موظفين مأجورين من قبل الدولة للدفاع عنها ، وعندما تكتب عليهم الحرب يدخلونها متثاقلين غير راضين وليس لهم حرية التخلف عن تنفيذ الأوامر التي تصدر لهم ، وهم لا رأي لهم فيها مما يجعل الهزائم العسكرية علامة من علامات الجيوش النظامية . ولهـٰذا لا خير في متباطئ متثاقل مصداقاً

---

(1) فرج محمد ألهوني ، النظم الإدارية والمالية في الدولة العربية الإسلامية . طرابلس ، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، الطبعة الثانية ، 1987م ، ص 36 .

(2) يعقوب محمد المليجي ، مبدأ الشورىٰ في الإسلام . الإسكندرية ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، ص 93 .

لقوله تعالىٰ للرسول ﷺ : ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ (1) . إن المسلمين لم يخوضوا المعارك إلا في حالة إكراههم علىٰ ذل أو باطل ، ولهٰذا حاربوا الفرس لأن كسرىٰ أرسل إلىٰ عامله في اليمن يأمره بتأديب الرسول أو ضرب عنقه وإرسال رأسه إليه ، وحاربوا الروم لأنهم أرسلوا طلائعهم إلىٰ تبوك (2) .

برغم الخسارة الحربية للمسلمين في بعض المعارك التي خاضوها ضد زبانية العصر الجاهلي (الكفار) إلا أن الانتصارات كانت هي الحليف الأكثر تكراراً لهم وذلك نتيجة الإيمان بالقضية التي جاهدوا في سبيلها بالقوة ، قوة العقيدة وقوة التوحيد وقوة الحجة وقوة النفس وقوة الإرادة . والفرق كبير بين من يقاتل من أجل قضية ومن يقاتل من أجل حكومة . فالذي يقاتل من أجل قضية دينية أو وطنية فهو يقاتل في حقيقة الأمر من أجل كرامة شخصية يكون لها اعتبار بين الناس ويكون لها اعتبار في المستقبل الخالد مما يحقق للمقاتل النصر أو الاستشهاد ، أما الذي يقاتل بغير قضية فلا يكون له اعتبار لا في الحاضر ولا في المستقبل ، مما يجعله في حالة استسلام وهزيمة ويكون الندم له رفيقاً .

من خلال العرض السابق تتضح أسباب إعلان الحرب بالقوة في الآتي :

1 ـ أي اعتداء من العدو علىٰ الأمة أو الوطن يستوجب الدفاع علىٰ كل مواطن ومواطنة ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ (3) .

---

(1) النساء ، 84 .

(2) عباس محمود العقاد ، بحوث إسلامية . بيروت ، المجلد الخامس ، دار الكتاب العربي ، 228 .

(3) البقرة ، 194 .

2 ـ الدفاع عن الدين واجب لا خيار عنه والقتال من أجله جهاد والموت في سبيله استشهاد ، ﴿ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ [1] .

3 ـ نقض العهد : في حالة توقيع اتفاق صلح أو عهد أمان بين الأمة وغيرها من الأمم الأخرىٰ ، ثم تنقض الأمم الأخرىٰ عهدها مع الأمة بالخداع أو النفاق ، يحق عليهم القول وهو إعلان الحرب ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ [2] .

4 ـ إذا حاول الأعداء إشعال نار الفتنة بين أبناء الأمة ، كما هو حال اليهود عندما حاولوا الفتنة بين الأوس والخزرج (بين المهاجرين والأنصار) حيث وجب قتالهم مصداقاً لقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [3] .

5 ـ في حالة الردة : إذا ارتدت أي أمة من الأمم الإسلامية أو أي طائفة من الطوائف أو الجماعات عن الدين وجب قتالها ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [4] . وقد سبق وأن ارتدت عن

---

(1) النساء ، 74 ـ 75 .
(2) التوبة ، 12 .
(3) البقرة ، 192 .
(4) المائدة ، 54 .

الدين الإسلامي منذ بداية ظهوره ثلاث فرق من العرب وهم بنو مُدلج وكان رئيسهم ذو الحمار الأسود العنسيّ الذي تنبأ في اليمن ، وبنو حنيفة أصحاب مسيلمة الكذاب تنبأ وحاربه أبوبكر رضي ٱلله عنه بجند المسلمين وهلك ، وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد ، تنبأ فبعث له رسول ٱلله ﷺ خالد بن الوليد إلىٰ أن أسلم بعد هروبه إلىٰ الشام وحسن إسلامه [1] .

وعليه فالقوي هو الذي تستمد القوة منه ، والقوي هو الذي لا يقارن وذلك لانعدام الشبيه والمثيل .

والأحاسيس قوة إيقاظ المشاعر بما يدور في المحيط النفسي والمحيط الاجتماعي والمحيط البيئي ، من خلال كل ما يُلحظ أو يُشاهد أو يُسمع أو يُلمس أو يُشم أو يُذاق . إنها القوة المعرفية التي تمد الإنسان بالطاقة التي تجعله في حالة استيعاب أو في حالة إقصاء وتحديد مواقف قد تُتخذ في محلها وقد لا تتخذ في محلها ، ولتوضيح ذلك أقول :

ـ الإحساس قوة ، تحقق الفطنة وترتبط بالمدركات الواعية التي تجعل الأفراد والجماعات يميّزون ويتمكنون من الاختيار الحر .

ـ التمييز الحسي قوة ، تكمن في درجة التبيّن ، التي تُمكّن من اكتشاف نقاط التداخل والخصوصية والاستقلالية بين المتغيرات الدخيلة والمتداخلة .

ـ التمييز الحسي قوة مقارنة بها تُصنَّف المعلومات وفقاً للدرجة والنوع والجنس ، وبما يميز كل خصوصية عن غيرها ، وبما يؤدي إلىٰ كشف نقاط التمركز المشتركة مع بعض الخصوصيات الأخرىٰ وكذلك نقاط التشتت عنها .

ـ التمييز الحسي قوة استيضاح للكلمة التي تحمل دلالة ومعنىٰ ومدىٰ

---

(1) محمد أحمد كنعان ، مواهب الجليل من تفسير البيضاوي . بيروت ، دار العلم للملايين ، 1984م ، ص 148 .

علاقتها بالموضوع حتىٰ يتم فرز المتشابهات عن غيرها من المخالفات .

ـ بقوة الحس يتم التعرف علىٰ ما هو سلبي والعمل علىٰ تفاديه ، وما هو إيجابي والعمل عليه أو العمل به .

ـ الحس قوة استدلالية تربط المشاهد المحسوس بالملاحظ المجرد الذي يُمكن من ربط علاقات بين الأشياء كما يُمكِّن من فصلها بمستدلات إثباتية .

ـ الحس قوة برهنة ، يستند علىٰ معطيات ويصل إلىٰ نتائج تُدرك بقوة المنطق والحُجّة .

ـ الحس قوة لغة وتفاهم بها تُكتب الكلمات بالملامسة ، وبها تُقرأ حتىٰ من قبل فاقدي البصر .

ـ ترتبط الأحاسيس بالوجدان الكامن الذي يتألم بما يترك أثراً سالباً علىٰ النفس ، وبما يترك أثراً موجباً عليها ، ولكل منهما استجابة تختلف باختلاف الأثر ونوعه ودرجة حدته أو درجة مرونته .

ـ الأحاسيس قوة تأهب تستقبل المعلومة وتقدمها للترجمة الفورية التي تمكنها من التمييز لتستجيب سلبياً أو تستجيب إيجابياً ، وفي كلا الحالتين فالعقل هو الذي يتخذ القرار المناسب لكل فعل وفقاً لقاعدة (لكل فعل رد فعل) .

ـ قوة الأحاسيس قوة دافعة لتكوين علاقات مع الآخرين ، ولذا كلما سلمت الحواس التي بها يتم الإدراك تكوّنت علاقات موجبة بين الأنا والآخر ، فالحب المتبادل بين الأطراف قوة ترابطية تجعل لغة مشتركة ومنطقاً مشترك بين المثنىٰ والجمع وكأنهما طرف واحد ما يجعل لغة (النحن هي اللغة السائدة بينهما) وجعل كل منهما يحس بالآخر وكأنه في وسط صدره . ويجعلهما علىٰ حالة من التأهب لاستقبال بعضهما في المكان والزمان المناسبين للمقام الذي جعلهما في حالة وحدة مرضاة لله تعالىٰ ، وجعل الشوق

بينهما شعوراً ظاهراً . ولهٰذا عندما تُحب أحداً تجد مكانه في القلب ، وعندما تكرهه أيضاً ستجده مكروهاً في القلب . ولذا فإن القلب في مثل هٰذه الحالات لا يعد مجرد مضخة للدم ، بل إنه المركز الذي فيه يعيش الود بين المحبين وهو الذي فيه يحدث الفراق ، لتبقىٰ فيه الأحزان من بعده كامنة . ولذلك في القلب المكامن التي تُستثار بما يُفرح وتُستثار بما يُحزن ، ولهٰذا فلكل منهما أثره السالب وأثره الموجب علىٰ الفعل والسلوك . ولكي تتأكد ضع يديك أو إحداهما علىٰ منتصف صدرك ستجد من تُحب بقوة الإحساس إنه متمركز هناك ، وإذا ما حدث لحبيب مكروه لا قدر ٱلله فلا تحس به إلا حيث وضعت يديك علىٰ صدرك . وإلا هل هناك من يحس بحبيبه في رأسه ؟

ولذا فإن القاعدة هي :

1 ـ اتزان الأحاسيس .

2 ـ قوة الأحاسيس .

والاستثناء هو :

1 ـ عدم اتزان الأحاسيس .

2 ـ ضعف الأحاسيس .

القوي هو المقوي لكل قوة وهو المضعف لها ، وهو المتوازن علىٰ ملكه والمسيطر عليه دون مخافة ، وهو الحق الدامغ للباطل والزاهق له ، إنه خالق القوة بقوته ، وهو الذي تستمد منه كل قوة . ولأنه لا قوي إلا بقوة منه ، فالقوة ذوق رفيع من يستمده يزداد رفعة ويزداد ثقة بنفسه وعلىٰ هٰذا الأمر كان الخليفة صاحب الذوق الرفيع بقوته العقلية التي منحه ٱلله إياها ، فالذوق ملكة عقلية وقوة يتمكن من خلالها المتذوق من المعرفة الوافية ، التي تُمكنه من كشف العلاقات التي تتجسد في المُذاق ، وكشف العلائق التي تربطه بالمجرد ، فهي

لا تقتصر عند حد المشاهدة ، بل تمتد لتشمل ما هو ملاحظ ، ولذا ترتبط هـٰذه الملكة الذوقية بقوة الإحساس مع ملكتي التفكر والتذكر .

في الملكة الذوقية تنعدم الغفلة وتسود الفطنة ، حتىٰ تتمكن كل خلية من التناغم مع جميع الخلايا المتماثلة معها في المكون البشري ، مما يجعل الذوق محقق الرفعة بين الأنا والآخر بالتماثل .

ولهـٰذا تتوحد الأحاسيس والمشاعر مع الخيال الذي يسعىٰ إلىٰ طي الهوة مع الأمل حتىٰ تتم ملامسة القيم التي تُعزز الإرادة ، وتحقق التفاعل الوجداني ، بين الرغبات والطموحات التي تُمكن الفرد من اكتشاف الحُسن الممتد في المسافة بين المشاهد والمجرد .

والذوق مكوّن قيمي ، له من المعايير والمقاييس ما يمد الإنسان بوضوح الرؤية ونضج القرار المترتب علىٰ ذلك ، ولهـٰذا الجمال قيمة ذوقية لا يكمن في ذاته ، بل يكمن في الجميل مشاهداً أو مُجرداً ، حركة أو سكوناً ، إظهاراً أو إدغاماً ، تجويداً أو لحناً ، لوناً أو نغمة ، وعليه لا يمكن أن يوصف الجمال بذاته ، بل يوصف بالجميل الذي توحّد أو اشتمل فيه .

وعليه :

ـ تذوق وفطِّن الآخرين إلىٰ ذلك ، فالذوق حاسة عقلية وملكة تنمو كلما تُنشَّط وتُستثار ، وتضعف وتنتهي كلما تُهمل .

ـ لا تستغرب فالذوق قوة ذهنية تستفز كل من يفكر ذوقياً حتىٰ تجعله متوجاً علىٰ قمم التأمل وتُمكنه من التقييم الموضوعي بعد تعمق وانتباه عميقين .

ـ ميّز بذوقٍ رفيع فالإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يميز بين ما فيه رفعة وبين ما لا رفعة فيه .

ـ عليك بمراعاة الذوق العام واحترامه إذا أردت أن تنال الاحترام والتقدير من الآخرين .

ـ اعتبر الخصوصيات الاجتماعية التي يرتسم الجمال فيها كما هو يرتسم بها ، ولا تغفل عمّا يُدخل البهجة والفرحة في النفوس ، ولا تُعمم معاييرك الخاصة ومقاييسك الفنية وتفرضها علىٰ معايير ومقاييس الآخرين .

ـ اعتمد الذوق قيمة لتبعث في نفوس العباد القوة التي تمدهم بالرفعة ولا تنظر للناس بنظرة دونية خالية من كل ذوق ، فاحترم الناس تنال الاحترام منهم .

ـ إبدأ مع الناس من حيث هم بلطف ولباقة ذوقية إذا أردت أن تغير أحوالهم أو حالاتهم إلىٰ ما يجب أن يكونوا عليه .

ـ كُن فطناً فالذوق قوة قيمية يتمركز علىٰ كل الأشياء الجميلة التي نتفاعل معها .

ـ اعرف جيداً أن الإحساس بأثر القيم التي تُشكِّلها ملكة الذوق ، تختلف من شخص لآخر مما يترتَّب عليه تفاوت في درجات التذوق لها ، فالشخصية الواقعية مثلاً : هي التي تعتمد علىٰ العقل في تقدير وتقييم الأشياء فتقْدِم علىٰ أداء الأفعال بعد أن تتبيّن وتعرف ما يجب وما لا يجب ، فتكون العلاقة بينها وبين الآخرين علاقة أخذ وعطاء . أما الشخصية الأنانية ، هي التي تعتمد علىٰ المصلحة الخاصة ، تقيّم الأمور برؤاها دون مراعاة للمحيطين بها ، مما يجعل علاقتها معهم علاقة مصلحة .

ولهـٰذا فالقاعدة هي :

قوة الذوق .

والاستثناء هو :

ضعف الذوق .

وعلىٰ الخليفة أن لا يغفل عن الحاسة التامة التي تتداخل فيها جميع الحواس ، البصر والبصيرة والاستماع والإنصات والذوق والتذوق والحس والإحساس والشم واللمس .

ولذا فهي العملية التفاعلية للحواس ، حول ما يُشاهد أو يُلحظ أو يُدرَك أو يُستمَع له أو يُذاق أو يُشم أو يتم التفكير فيه . إنها الحاسة (القمَّة) التي فيها تعمل جميع الحواس في وقت واحد وبكل قوة ، حتىٰ تتجسد الحركة في الفعل والسلوك الذي يجعل المتحركين في حالة نشوة ، ويقوي الإدراك ، وتقوىٰ البصيرة ، ويتحقق التفاعل ، ويتحقق الرقي الذوقي الذي يجعل الإنسان قمة .

وعندما يتم التداخل بين الحواس ، يكون الشيء الذي نفكر فيه ذا قيمة . ولهـٰذا لا تحدث النقلة بحاسة واحدة ، بل تحدث بسلامة الحواس واكتمالها في وحدة واحدة تامة .

وعليه ، فالمس مع عقلٍ ، واسمع مع بصرٍ ، وشُم مع ذوقٍ ، وتذكّر مع تفكرٍ ، وشاهد مع ملاحظة حتىٰ تكون في نُزهة ورفعة عالية وتنال الاعتراف والتقدير من الآخرين وأنت قوة في مرضاة ٱلله تعالىٰ .

ولذا فإن القاعدة هي :

الحاسة التامة .

والاستثناء هو :

الحاسة القاصرة .

ومع أن القاعدة هي : الحاسة التامة ، والاستثناء هو : الحاسة القاصرة . إلا أنّ بعض الحالات قد أظهرت نجاحات هائلة باستخدامها الحاسة الرئيسة فقط . وهـٰذه تذكرنا بالشاب الألماني الذي أصيب في حادث بشلل رباعي تعطّلت عنده معظم حواسه ، وبإصراره تمكّن من أن يكون من أكبر مستحدثي برامج الكمبيوتر ، فهو يعقد الصفقات مع الشركات والمؤسسات ،

وهو ملقىً فوق سريره لا يستطيع التحرك ولا يستطيع التحدث ، فقط يبرمج جهاز الحاسوب بعقله ، ووفقاً لمتطلبات عملائه ، ولهٰذا الإنسان قوة بعقله وبقدرته علىٰ توجيه الملكة العقلية تجاه عمليتي التفكر والتذكر مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (1) .

والقوي المطلق هو الذي جعل بقوته النفس بين قوة وضعف ، فهي تقوىٰ حتىٰ تبلغ الطمأنينة كما هو حال نفس الخليفة ، وتضعف حتىٰ تبلغ الضلال كما هو حال المفسدين في الأرض ، النفس قوة باطمئنانها ، وبتأديتها للعمل الصالح ، وإقدامها علىٰ قول الحق وسلوكها لأفعال الخير ، وكذلك عندما تحسن التصرف والمعاملة وتهتدي إلىٰ الطريق المستقيم . قال تعالىٰ : ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ (2) وفي مقابل ذلك تأتي النفس الضعيفة الأمارة بالسوء وإلحاق الضرر بالآخرين ، وعندما تُظهر مالا تخفي ، وعندما تَشُح في وقت ينبغي أن يكون فيه العطاء ، وكذلك عندما تركُن إلىٰ إصدار الأحكام الظنية بغير حق . قال تعالىٰ : ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ (4) ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ﴾ (5) .

تكمن قوة الأنفس في قدرات قابلة للنمو ، واستعدادات مهيأة للعمل الفعّال ، ومشاعر يخشاها الخوف .

---

(1) السجدة ، 27 .
(2) الفجر ، 27ـ30 .
(3) يوسف ، 53 .
(4) النساء ، 128 .
(5) النساء ، 157 .

ولذا فالقاعدة هي :

1 ـ قوة النفس .

2 ـ قدرات قابلة للنمو .

3 ـ استعدادات مهيأة للعمل الفعّال .

4 ـ مشاعر يخشاها الخوف .

والاستثناء هو :

1 ـ ضعف النفس .

2 ـ قدرات غير قابلة للنمو .

3 ـ استعدادات غير مهيأة للعمل الفعّال .

4 ـ مشاعر يُداهمها الخوف .

ولهٰذا يجد الخليفة أمامه قوة إذا أراد أن يعمل من أجل الخير والإصلاح في الأرض إما موجبة يستفيد من طاقاتها وإمكاناتها ، فيسخرها في خلق النُقلة للأفضل . وإما قوة سالبة ، يعمل علىٰ تصحيح معلوماتها الخاطئة بمعلومات صائبة ، وكذلك يعمل علىٰ تعديل سلوكها وتقويمه إلىٰ ما يجب . ومع ذلك قد لا يُوفق ما لم يعرف مصادر القوة عند العباد الذين يستهدفهم بالإصلاح والهداية للحق .

وعليه تستمد النفس قوتها من قوة العقل وقوة الحواس وسلامتها ؛ فالأفراد والجماعات الذين يُفكرون بوعي سليم يستطيعون تحديد أهداف واضحة ويرسمون خططهم بموضوعية ويحشدون الإمكانات المتاحة ويسعون إلىٰ البحث عن المزيد المفيد .

ولذا فالإرادة قوة من يمتلكها يمتلك زمام أمره . فهي النشاط الواعي الذي يقدم عليه الإنسان الحر عن وعي وإدراك سابقين لأجل بلوغ غايات

بعزيمة وإصرار وبدون تردد ، ولذلك فاتخاذ القرار عن وعي وتنفيذه بكل وعي وتحمّل ما يترتب عليه من أعباء يدل علىٰ ممارسة الفعل الإرادي بين الأفراد والجماعات والمجتمعات البشرية ، ومع ذلك لا إرادة إلا بقدرة ، وقرار ، وتنفيذ ، ومسؤولية ، وتهيؤ نفسي .

ولهٰذا قوة الإرادة will هي التي تُمكِّن الإنسان من ممارسة الحرية .

وعليه فالقاعدة هي :

1 ـ قوة الإرادة .

2 ـ اتخاذ القرار .

3 ـ تنفيذ القرار .

4 ـ حمْل المسؤولية .

5 ـ تنمية القدرة .

6 ـ التهيؤ النفسي .

والاستثناء هو :

1 ـ ضعف الإرادة .

2 ـ عدم اتخاذ القرار .

3 ـ عدم تنفيذ القرار .

4 ـ التخلي عن حمْل المسؤولية .

5 ـ عدم تنمية القدرة .

6 ـ عدم التهيؤ النفسي .

وعليه أقول : قوة الإرادة تقوّي المناعة :

وبما أن قوة الإرادة تقوّي المناعة .

إذاً القاعدة هي :

1 ـ قوة الإرادة .

2 ـ قوة المناعة .

والاستثناء هو :

1 ـ ضعف الإرادة .

2 ـ ضعف المناعة .

ووفقاً لقاعدة المتوقع خذ بالقاعدة .

ووفقاً لقاعدة غير المتوقع لا تهمل الاستثناء .

ولهٰذا كلما قويت إرادة العملاء قويت مناعتهم .

فالمناعة immunity سياج دفاعي يُحصِّن الأفراد والجماعات والمجتمعات من الانهيار ، والاستسلام لِما لا يجب . ولهٰذا علىٰ الخليفة أن يستثمر قوة الإرادة من أجل تقوية بناء شخصية أبناء المجتمع الإسلامي علىٰ مبادئ وقيم تجعلهم علىٰ حالات من الاعتبار والرقي في المهارة والمسلك ، حتىٰ لا يكونوا علىٰ حالة انسحاب وضعف ووهن وركون إلىٰ كل سالب . وفي هٰذا الأمر تكمن قوة القرار في اتخاذه بمسؤولية ، وفي درجة الوعي والإلمام به وبالمعطيات التي تستوجب إقراره . ولذلك كل قرار يُتخذ سيظل نوايا وتصميمات مجردة إلىٰ أن يتم الإقدام علىٰ تنفيذه ، حينها يصبح القرار نافذاً وذلك بتماثل العزيمة والإصرار مع الإرادة الفاعلة .

ولهٰذا فالقاعدة هي :

1 ـ قوة القرار .

2 ـ الإلمام بالمعطيات .

3 ـ التنفيذ الإرادي .

والاستثناء هو :

1 ـ ضعف القرار .

2 ـ عدم الإلمام بالمعطيات .

3 ـ التنفيذ غير الإرادي .

وعليه : لا تحدث الأشياء إلا بقرار . ولا تنجز المهام والأعمال إلا به .

ولهٰذا القرار في دائرة الممكن المتوقع هو الوعي بما يجب .

والقرار في دائرة الممكن غير المتوقع هو عدم الوعي بما يجب ، مما يجعل البعض من بني آدم يقدمون علىٰ أداء ما لا يجب ، وهٰذه معيبة لا تنال رضا ٱلله ولا تقدير المستخلفين فيها بالحق الذي به يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويصلحون ولا يفسدون ولا يسفكون الدماء فيها بغير حق . ولذا لو لم يكن القرار سابقاً علىٰ وجود الأشياء والمخلوقات ما كانت ، ولهٰذا كان الوجود بقرار ، والعدم بقرار ، وإصدار الأمر بقرار ، والنهي بقرار .

وبما أن كل شيء بقرار .

إذاً لا شيء بدونه .

وبما أننا نعرف أن كل شيء يقع في دائرة الممكن . إذاً لا داعي للاستغراب .

وعليه : (كل شيء بقرار) ، يســاوي (كل شيء ممكن) .

ولهٰذا لا ممكن إلا بقرار .

ولا قرار إلا بممكن .

وبما أنه لا مستحيل في دائرة الممكن . إذاً علينا بقبول تحدي الصعاب دون خوف ودون تراجع .

ولذا فإن القاعدة هي :

1 ـ اتخاذ القرار .

2 ـ تحدي الصعاب .

والاستثناء هو :

1 ـ عدم اتخاذ القرار .

2 ـ عدم تحدي الصعاب .

ومن لا يتحدىٰ الصعاب لا يُمكن أن يكون له مستقبل رفيع . وكذلك في عصر العولمة من لا يسرع إلىٰ تحدي الصعاب لن يجد له مكاناً ليضع قدميه عليه ، أمام الحركة السريعة للمتنافسين . مما يجعل البعض علىٰ الرصيف جالسين في دائرة المستقبل .

ولهـٰذا كلما كان القرار الإرادي قوياً وكان تنفيذه قوياً ، تجاوز أصحابه العقبات التي تحول دون إحداث النُقلة .

ولكي نتمكن من اتخاذ القرار عن وعي علينا بمعرفة العلاقة التي تربط قوة القرار بقوة اتخاذه .

ولذا فإن قوة القرار تكمن في الآتي :

ـ ما يحققه ويترتب علىٰ إنجازه .

ـ قوة الالتزام بتنفيذه .

ـ استيعابه كل من يتعلق الأمر بهم أفراداً أو جماعات أو مجتمعات .

ـ استيعابه للمتغيرات ذات العلاقة بالموضوع .

- تجاوز محققاته لِما كان متوقعاً .
- إحداثه للمفاجأة الموجبة التي تُحدث استغراباً لكل من لا يتوقع .

أما قوة اتخاذ القرار فتكمن في :

- قوة القرار ذاته .
- قوة المعايير والقواعد والأسس والمبادئ .
- قوة التنفيذ .
- قوة الهدف .
- قوة الخطة .
- قوة إعداد البرامج .
- وضوحه والمستهدف من ورائه .
- الإصرار علىٰ تجاوز السلبيات .
- الاقتناع وعدم التردد بمبررات اتخاذه .
- بما يتركه من أثر موجب .

بناء علىٰ ما تقدم فإن اتخاذ القرار قوة تُمكِّن المستخلفين في الأرض من إحداث النقلة ، وبما أن اتخاذ القرار قوة تُمكِّن الخليفة من إحداث النقلة .

ولأجل ذلك ينبغي أن تُحدد الأهداف بكل وضوح ، وأن تُرسم السياسات المنفذة لذلك ، وأن تُحشد الإمكانات الهائلة وتستثمر علىٰ أفضل السبل ، وأن يكون التطلُّع إلىٰ المستقبل أملاً متطوراً جنباً إلىٰ جنب مع تطوّر الحاجات ، حتىٰ يتحقق الإشباع المرضي مع توفر الاختيارات لكل رغبة وفقاً للقيم والفضائل الاجتماعية والإنسانية .

ولذا فإن قوة القرار في وضوحه ووضوح المستهدف منه ، وبما أن قوة القرار في وضوحه ووضوح المستهدف منه .

إذاً ضعف القرار في غموضه والتباس المستهدف منه .

وتأسيساً علىٰ ذلك تكون القاعدة هي :

1 ـ وضوح القرار .

2 ـ وضوح الأهداف .

والاستثناء هو :

1 ـ غموض القرار .

2 ـ غموض الأهداف .

ولهٰذا فإن الإصلاح الذي يستهدفه الخليفة في الأرض هو إحداث النقلة ، ولهٰذا فالمجتمع الذي يجتاز الصعاب يزداد قوة ، وبما أن المجتمع الذي يجتاز الصعاب يزداد قوة .

إذاً المجتمع الذي لم يتمكن من اجتياز الصعاب يزداد ضعفاً .

وعليه :

ـ اقبل بتحدي الصعاب فأنت قوة .

ـ لا تخف فالضعيف لا يستطيع الصمود .

ـ نمِّ قدراتك .

ـ اغتنم الفرصة فهي قد لا تتكرر .

ـ اعمل علىٰ النجاح فهو أيسر من الفشل .

ـ بادر وتقدم بعد كل نهاية ، لتستأنف مرحلة أخرىٰ وأنت تعيش النقلة إلىٰ الأفضل والأجود والأحسن والأنفع والأكثر فائدة .

اللهُمَّ يا القوي أنت القوي وحدك ولا قوي غيرك فأنت القادر علىٰ كل شيء ولا شيء خارج عن نطاق قدرتك فلا متصرف في الكون إلا أنت ! اللهُمَّ اجعلنا أقوياء بقوتك ولا تجعلنا مستضعفين في الأرض ولا ضعفاء يوم اللقاء !

اللهُمَّ اجعل لنا حظاً من قوتك حتىٰ نصبر علىٰ طاعتك وعبادتك فنتقوىٰ بفضلك من أجل طاعتك فيما أمرتنا والابتعاد عما نهيتنا !

اللهُمَّ قوِّ الفطنة فينا علىٰ الغفلة والعقل علىٰ السفه والحمق وقوِّ الحلم فينا علىٰ التسرع والتهور الذي لا يليق !

اللهُمَّ يا القوي قوِّ هيبتنا وقوِّ حجتنا وفرج كربتنا ، وانهض غلبتنا وتوّجنا بفرحتنا أنت القوي سبحانك جل جلالك !

المَتِينُ جَلَّ جَلَالُهُ

المتين : اسم لله عز وجل يتضمن الشدة والقوة والقدرة والعظمة ، وتنص المعاجم علىٰ أن كل صلب شديدٍ فهو متين [1] ، والمتين عز وجل كذلك فهو : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [2] .

المتين : « من وصفه العظيم الذي لا تنسب إليه قوة المخلوقات وإن عظمت » [3] .

المتين : هو الذي يملك النهاية في القدرة وهـٰذا يعني : أن قدرته لا تتناهىٰ ، والمتانة هي بلوغ القدرة إلىٰ النهاية والغاية [4] .

المتانة : « تدل علىٰ شدة القوة ، وٱلله سبحانه وتعالىٰ من حيث إنه بالغ القدرة تامها قوي ومن حيث إنه شديد القوة متين » [5] .

المَتِينُ : هو ذو الاقتدار الشديد ، والمَتِينُ في صفة ٱلله (القَوِيُّ) قال ابن الأَثير : « هو القوي الشديد الذي لا يلحقه في أَفعاله مشقةٌ ولا كُلْفة

---

(1) جمهرة اللغة ، ج1 ، ص196 .

(2) فصلت ، 41ـ42 .

(3) شرح أسماء ٱلله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة ، ج 1 ، ص48 .

(4) المواقف ، ج 3 ، ص310 .

(5) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص129 .

ولا تعَبٌ » ، والمَتانةُ الشِّدَّة والقُوَّة ، فهو من حيث أَنه بالغ القدرة التامَّة قَوِيّ ، ومن حيث أَنه شديد القُوَّة متِينٌ [1] .

المتين : ليس بصلب ولا لين ، بل هو الذي لا يغفل بعلمه وحكمته ووحدانيته ، وهو الذي بيده الأمر والملك الدائم الذي لا يفلت أبداً ، ولذا فهو المتين القادر جل جلاله .

المتين : هو الموثوق فيه الذي يتم الاعتماد عليه بالقوة والقدرة والوحدانية دون أن يغفل أو يكل أو يمل من أن يفعل ما يريد متىٰ ما أراد ، ودون أن يكون المفعول علىٰ حساب آخر .

والمتين بالإضافة : هو خليفة في الأرض للمتين المطلق ، فلا يخون ولا يرتد عن إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، متين في عبادته وفي نزاهته وفي رجاحة رأيه يتدبر الأمر ثم يقدم عليه وهو مُتبيِّن له ومُتبيِّن به من أجل مستقبل أفضل .

المتين : هو الثابت علىٰ القوة المتماسكة دون أن يكون للنقص مكانة ، وهو الراسخ في الظاهر والباطن ، بقاؤه ثابت وديمومته ثابتة ، إنه المتين بسمعه ، وبصره ، وبقدرته وقوته ، وحكمته وهيمنته ، وعلمه وخبرته ، وبملكه ورزقه ، وبإحيائه وإماتته وبعثه ، وبثوابه وعقابه .

المتين : هو من يفوق بقوته قوة الآخرين ولو اجتمعت وهو المتأصل في القوة ، والخليفة المتين هو الذي يمتلك القوة التي تجعله علىٰ الفضائل والقيم المرضية لله تعالىٰ وللذات والمجتمع الذي ينتمي إليه في مرضاة ٱلله وطاعته ، وهو المتين بعلمه وبحكمته وبسلامة عقله وتفكيره وتدبره للحياة من تحمل المسؤولية وحمل الأمانة التي التزم بها وإن كانت ذات أعباء حتىٰ يكون

---

(1) لسان العرب ، ج 13 ، ص 398 .

خليفة لله تعالىٰ في إحقاق الحق وإزهاق الباطل وإرساء العدل بين الناس ، وهو الذي لا يكون متصلباً علىٰ باطل وصلباً في التمسك بالحق وممارسته مع مخافة ٱلله تعالىٰ في كل ما يفعله أو يسلكه أو يقدم علىٰ أدائه من واجبات .

المتين بطبيعة الحال لا يمكن أن يكون ضعيفاً ، ولذا فالقوة سابقة علىٰ المتانة والمتانة تأصل في القوة ، وثبات عليها في جميع أوجه استخداماتها أو إظهارها . ولهٰذا فالضعيف هو في حاجة لامتلاك القوة ، والقوي في حاجة للمتانة التي تجعله لا يحيد عن معطيات القوة أبداً .

وعليه فالخليفة هو القوي المتين بإيمانه وتوحيده لله وعدم إشراكه به وبحسن أقواله وأفعاله التي تصلح ولا تفسد ولا تسفك دماء في الأرض بغير حق .

والمتين هو : الذي في إحقاق الحق لا يلين ، وفي إزهاق الباطل لا يلين ، وفي حفظه وهيمنته لا يلين ، وهو الذي برحمته لا يكون صلباً ، وبوده لا يكون صلباً ، وبعزته ومجده لا يكون صلباً ، وبرزقه وإحسانه لا يكون صلباً . وهو الذي بحكمه يكون عدلاً ، وفي قسطاسه يكون عدلاً ، وفي مكياله يكون عدلاً . وهو الذي بعباده رحيم ، وهو الذي بعفوه رحيم ، وهو الذي بنفعه رحيم ، وهو الذي بإجابته رحيم ، وهو الذي بعلمه وحكمته رحيم . سبحانه إنه المتين ربُّ العالمين الذي به آمنا وعليه توكلنا وأولينا أمرنا وأسرنا وما نملك إليه .

ولأنه في إحقاقه للحق لا يلين ، قال تعالىٰ : ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ [1] .

(1) الأنفال ، 6ـ8 .

ولأنه في إزهاق الباطل لا يلين ، قال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (2) .

ولأنه في حفظه وهيمنته لا يلين ، قال تعالىٰ : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (4) .

ولأنه هو الذي برحمته لا يكون صلباً : قال : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ

(1) الأنبياء ، 16 ـ 23 .
(2) الإسراء ، 81 .
(3) هود ، 57 ـ 58 .
(4) آل عمران ، 118 ـ 120 .

سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (1) .

ولأنه ودود فلا يكون صلباً : قال تعالىٰ : ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ (2) .

ولأنه بعزته وحمده فلا يكون صلباً ، قال تعالىٰ : ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ (3) . وقال تعالىٰ : ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (4) .

ولأنه برزقه وإحسانه لا يكون صلباً ، قال : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ (5) . وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ

---

(1) الأنعام ، 54ـ 58 .
(2) هود ، 89 ـ 90 .
(3) إبراهيم ، 1ـ 3 .
(4) سبأ ، 4ـ 6 .
(5) الذاريات ، 55ـ 58 .

نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ (1) .

ولأنه بحكمه يكون عدلاً ، قال : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (2) ، ولأنه كذلك فهو يود أن يكون الخليفة من بعده عادلاً في حكمه ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (3) .

ولأن المتين في قسطاسه عدل ، قال : ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (4) . وقال تعالىٰ : ﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (5) .

ولأن المتين في مكياله عدل ، قال : ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (6) .

---

(1) النساء ، 124 ـ 125 .
(2) المائدة ، 49 ـ 50 .
(3) النساء ، 58 ـ 59 .
(4) الإسراء ، 35 .
(5) الشعراء ، 182 ـ 183 .
(6) هود ، 84 ـ 85 .

ولأنه هو الذي بعباده رحيم : قال : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (1) .

ولأنه هو الذي بعفوه رحيم ، قال : ﴿ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ (2) وقال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (3) .

ولأنه هو الذي بنفعه رحيم : قال : ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ

---

(1) النساء ، 110 ـ 113 .

(2) النساء ، 149 .

(3) النساء ، 98 ـ 99 .

(4) المائدة ، 119 .

يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ (1) .

ولأنه هو الذي بإجابته رحيم : قال : ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٦٤) قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ (٦٦) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (2) .

ولأنه هو الذي بعلمه رحيم ، قال : ﴿ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ

---

(1) الرعد ، 16ـ18 .

(2) النمل ، 61ـ73 .

يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (1) .

ولأنه هو الذي بحكمته رحيم : قال : ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (2) . وقال : ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ (3) .

ولأنه المتين فهو الشديد ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (5) .

ولأنه المتين فهو الفعَّال ، قال : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ (6) .

ولأنه متين خلق الإنسان في أحسن تقويم .

ولأنه متين قوله حق ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(1) النساء ، 12ـ14 .

(2) البقرة ، 269 .

(3) الإسراء ، 39 .

(4) المائدة ، 98 .

(5) الأنفال ، 13 .

(6) هود ، 106ـ108 .

وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ (2) .

ولأنه متين فعله حق ، قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (5) .

ولأنه متين استخلافه حق ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (6) .

ولأنه متين جعل الحركة والسكون ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا

(1) الأنعام ، 73 .
(2) الأحزاب ، 4 .
(3) هود ، 107 .
(4) البقرة ، 147 .
(5) البقرة ، 117 .
(6) البقرة ، 30ـ35 .

وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [4] .

ولأنه متين جعل لكل بداية نهاية ، قال : ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [5] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [6] ، وقال تعالىٰ : ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾

(1) الحجر ، 19ـ24 .
(2) الأنبياء ، 104 .
(3) مريم ، 8ـ11 .
(4) البقرة ، 245 .
(5) يونس ، 56 .
(6) الأنعام ، 94 .

﴿ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ (1) .

أما شدته عز وجل فتتجلىٰ في صور كثيرة يرتهب منها الذين آمنوا ، ويغفل عنها الغافلون ، فهو :

أ ـ **التشديد في القوة** : يرد في موضع الحاجة إليه ، وهو تشديد علىٰ صفتين :

الأولىٰ : **التشديد المادي** : ويتجلىٰ في عقاب الذين كفروا وأصروا علىٰ ذلك ، كقصة أصحاب الفيل ، فالمتين قادرٌ علىٰ صرفهم عن غايتهم قبل البدء لٰكنه أراد إظهار الشدة مع مثل تلك النوايا لتكون للمتين بالإضافة عبرة يهتدي بها في التصرف مع مثل هٰذه النوايا وما علىٰ شاكلتها ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ۝٢ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ۝٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ﴾ (2) .

الثانية : **التشديد المعنوي** : لا سيما في مجال الجدل ، فعندما أُنزل القرآن علىٰ العرب واجهوه بالجدل الرافض فقابل المتين عز وجل فعلهم هٰذا بعلم شديد القوىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ﴾ (3) .

ب ـ **عذابه شديد** ، المتين سبحانه أرسل الرسل والأنبياء لهداية الناس ، وأمهلهم ليؤمنوا وكتب علىٰ نفسه الرحمة : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ (4) ، لكي يكون ذلك حجة علىٰ الناس : ﴿ رُّسُلٗا

(1) يس ، 79 ـ 83 .
(2) الفيل ، 1 ـ 5 .
(3) النجم ، 4 ـ 5 .
(4) الأنعام ، 12 .

مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (1) ، فإذا انتفع الإنسان بالهدىٰ فاز ، وإذا أنكر خسر وكان العذاب الشديد عقاب المتين له ، وهـٰؤلاء هم :

* للكافرين عذاب شديد : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ (2) .

* للمشركين عذاب شديد ، ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾ (3) .

* للكاذبين عذاب شديد : ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (4) .

ج ـ **بأسه شديد** : قال تعالىٰ : ﴿ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ (5) .

د ـ **امتحانه الشديد القويم** : ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (6) ، أي عند ذلك امتحن ٱلله المؤمنين فتميز الصادق عن المنافق ، والامتحان من ٱلله ليس لاستبانة الأمر له بل لحكمة أخرىٰ وهي أن ٱلله تعالىٰ عالم بما هم عليه لـٰكنه أراد إظهار الأمر في الزمن الذي يتم الاعتراف فيه

---

(1) النساء ، 165 .
(2) يونس ، 69 ـ 70 .
(3) ق ، 26 .
(4) المجادلة ، 14 ـ 15 .
(5) الكهف ، 2 .
(6) الأحزاب ، 11 .

بالخطيئة أو الذنب ، وفي المكان الذي لا تحجب فيه الشهادة وقول الحق .

هـ ـ **حسابه الشديد** : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ (1) .

و ـ **حرسه الشديد** : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ (3) .

ز ـ **عقابه الشديد** : ﴿ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (4) .

ح ـ **أخذه الشديد** : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (5) ، الأَخْذ خلاف العطاء وهو التناول ، وقد يكون الأخذ حقاً ، وقد يكون اعتداء علىٰ حق ، ولكل جزاؤه . إنه تعالىٰ لما بين كيفية أخذ الأمم المتقدمة ثم بين أنه إنما يأخذ جميع الظالمين علىٰ ذلك الوجه أتبعه بما يزيده تأكيداً وتقوية ، فقال : ﴿ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ ، فوصف ذلك العذاب بالإيلام وبالشدة ، وأخذ ٱلله عودة إليه بالأمر حتىٰ يكون العود من البعض طوعاً ، ويكون من البعض كرهاً .

ط ـ **محاله شديد** : ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ

---

(1) الطلاق ، 8 .
(2) الجن ، 8 .
(3) الحجر ، 16ـ18 .
(4) البقرة ، 211 .
(5) هود ، 102 .

فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ [1] ، وشدة المحال شدة قدرة وقوة مع ثبات علىٰ الأمر عند إحقاقه ، وبالتالي لا أحد يفلت من هيمنته وجبروته .

وعلىٰ الخليفة أن يفهم معنىٰ الشدة من ذلك ويعي الحاجة إليها في مواضعها ، وأن يعمل بها موقناً بجدواها في موضع الحاجة لتستقيم الأمور المتعلقة بالحياة من رزق حلال وقول حق ، وفعل حق ، وإصلاح في الأرض وحكم عدل ، وأسرة علىٰ أخلاق وقيم وفضائل ربانية ، وعلاقات بين الأفراد والجماعات والمجتمعات علىٰ الطاعة والتعاون المفيد والنافع .

وأن يكون الخليفة متيناً في إيمانه ومتيناً في سلوكه ، ومتيناً في علمه وحكمته ، ومتيناً في تفكيره وتذكره ، ومتيناً مع الشدة الوافرة في مكابدة الأعداء إذا ما تجرؤوا علىٰ الدين أو تطاولوا علىٰ رب العباد خالق الحياة والممات ، أو تطاولوا علىٰ أنبيائه ورسله ، وأن يكون شديداً ومتماسكاً في نفسه حتىٰ لا يغرها الهوىٰ ، وأن يكون متيناً في مكاشفة الباطل حتىٰ يزهقه ، ومتيناً في مناصرة الحق حتىٰ به ينتصر .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [2] فنعت الرزاق بالقوّة لوجود الكفران بالنعم سبب مانع يمنع النعمة فلا يرزق الكافر مع وجود الكفر منه لما رزقه إلا من له القوة ؛ فلهٰذا نعته بذي القوّة المتين فإن المتانة في القوّة تضاعفها ، فما اكتفىٰ سبحانه بالقوّة حتىٰ وصف نفسه بأنه المتين فيها إذ كانت القوة لها طبقات في التمكن من القوىٰ فوصف نفسه بالمتانة وهٰذه الصفة في مستوىٰ الخليفة تقال لأهل الفتوّة فإن الفتوّة ليس فيها شيء من الضعف إذ هي حالة بين الطفولة والكهولة وهو عمر الإنسان من زمان بلوغه إلىٰ تمام الأربعين

(1) الرعد ، 13 .
(2) الذاريات ، 58 .

من ولادته ، يقول ٱلله تعالىٰ في هـٰذا المقام : ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ (1) ، وذلك حال الفتوّة وفيها يسمىٰ فتىً وما قرن معها شيئاً من الضعف ، ثم قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ (2) . وعليه علينا أن نميز بين قوتين :

القوة الأولىٰ : قوة الإيمان ، وهـٰذه تزداد مع تقدم العمر .

والقوة الثانية : قوة البدن ، وهـٰذه تضعف مع تقدم العمر ، وهـٰذا الأمر هو الذي ورد معناه في الآية الكريمة السابقة .

وبناء علىٰ ذلك فإن القوة الباقية هي قوة الإيمان والقوة الفانية هي قوة البدن وهـٰذه من طبيعة الحياة الدنيا ، أما الحياة الباقية فالبقاء فيها دائم لا يلاحقه المرض ولا يلاحقه الموت ، ولهـٰذا ستكون القوة دائمة وباقية في الحالتين قوة الإيمان وقوة البدن ، والحمد لله رب العالمين .

والمتين قوي لقيامه بأمر الدنيا والآخرة دون عناء أو نصب ، أما أمر الدنيا فهو الذي تدبر أمره بقوته : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ (3) ، فالمتين بقوته سخر للإنسان كل هـٰذه الظواهر الطبيعية لتكون بخدمته بقوة منه ولو تركت لحال شأنها لفسدت ، فتصور إمساك السماء عن المطر أو مطرها دون توقف ، وتصور أن تكون الرياح سائبة دون قوة تسيرها فهل كان بالإمكان سير السفن بأمان في البحار ؟ أو أن ينتفع الإنسان من البحر لولا تسخير المتين بقوته : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا

---

(1) الروم ، 54 .
(2) الروم ، 54 .
(3) إبراهيم ، 32 ـ 33 .

وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ (1) ، وقيام المتين علىٰ أمر الدنيا يتطلب قوة لا يملكها إلا هو ، وتتجلىٰ أعظم الدلائل في قانون التعاقب الزمني فكل شيء يتحرك بهـٰذا النظام المُسيطر عليه بقوة المتين ولولا ذلك لكان أمر الدنيا في اضطراب شديد : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (2) ، وهو الذي : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾ (3) ، هـٰذا كله من قيام المتين بأمر الدنيا وعلىٰ الخليفة المستخلف علىٰ الأرض التأمل في هـٰذا القيام لأخذ العبرة وتعلم الدرس في كيفية قيامه بأمر الخلافة فيكون قوياً يسخر كافة الإمكانات لخدمة البشر المستخلف عليهم .

أما أمر الآخرة فالمتين قوي قادر ، يبدأ من أمره للأرض : ﴿ إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾ (4) ، والمتين قوي فهو المالك لأمر الآخرة وليس لأحد غيره ولو حتىٰ بكلام : ﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ﴾ (5) . وقيل الروح خلق أعظم من الملائكة وأشرف منهم وأقرب لرب العالمين وقيل : هو

(1) النحل ، 14 .
(2) الأعراف ، 54 .
(3) لقمان ، 10 .
(4) الزلزلة ، 1ـ8 .
(5) النبأ ، 38 .

ملك ، ما خلق ٱلله عز وجل بعد العرض خلقاً أعظم منه . فالمتين في أسمائه مبالغة في الوصف بأنه قوي وهو في ٱلله توسع لأن المتانة في الأصل نقيضة الرخاوة فاستعملت في نقيض الضعف للمبالغة في صفة القوة [1] .

والْمَتِينُ الذي له القدرة كلها ، فهو القادر ، الذي أوجد بها الأجرام العظيمة ، السفلية والعلوية ، وبها تصرف في الظواهر والبواطن ، ونفذت مشيئته في جميع البريات ، فما شاء ٱلله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا يعجزه هارب ، ولا يخرج عن سلطانه أحد ، ومن قدرته ، أنه أوصل رزقه إلىٰ جميع العالم ، ومن قدرته وقوته ، أنه يبعث الأموات بعد ما مزقهم البلىٰ ، وعصفت بترابهم الرياح ، وابتلعتهم الطيور والسباع ، وتفرقوا وتمزقوا في مهامه القفار ، ولجج البحار ، فلا يفوته منهم أحد ، ويعلم ما تنقص الأرض منهم ، فسبحان المتين [2] .

وقدرة المتين ظاهرة في خلقه في السمـٰوات وفي البحار وفي الجبال وهو بعد ذلك قادر عليها : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [3] ، والمتين له من القدرة ما يختص بها وحده سبحانه فهو الذي يحيي ويميت : ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [4] ، ثم إنه الوحيد القادر علىٰ القيام بأمر الروح في نوم الإنسان فهو الذي يمسك هـٰذه الروح في منام الآدمي ثم يطلقها إن شاء وكل ذلك إلىٰ أجل يعلمه وحده سبحانه : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم

---

(1) الفروق اللغوية ، ج 1 ، ص 476 .
(2) تفسير السعدي ، ج 1 ، ص 813 .
(3) الزمر ، 67 .
(4) يونس ، 55 ـ 56 .

بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ (1) .

ومن قدرة المتين التي لا يشترك فيها غيره كتبه السماوية التي ينزلها علىٰ رسله ليبلغوا الناس بالحق ، ولو تأمل المتأمل في هـٰذا الأمر لوجد أن هـٰذه الكتب فيها من السمات ما يجعلها تفوق كل مؤلف غيرها فهي خالدة إلىٰ يوم البعث المعلوم ، وهي تامة من حيث الاعتبار الموضوعي فلا تكاد تجد فيها أمراً من أمور الدنيا إلا وتجد له موضعاً لاسيما في القران الكريم الذي لم يمسه التحريف ، ولا تجد خبراً مهماً من أخبار من سبق من الأقوام والحضارات إلا ووجدت له ذكراً : ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ﴾ (2) ، وهي كاملة بمطلقيتها ومعجزاتها التي لا تفوق سعتها دوائر المقارنات ، ومن حيث الاعتبار التسلسلي فهي كتب مكملة لبعضها في إطار تسلسلي تبدأ بصحف إبراهيم ثم بتوراة موسىٰ وزبور داوود : ﴿ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾ (3) ، وصولاً إلىٰ القرآن الكريم الذي نزل علىٰ سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام : ﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴾ (4) .

والمتين هو القادر الذي لا يدخله باطل ، فبقدرة المتين تبقىٰ المياه دون اختلاط بين العذب منها والمالح : ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴾ (5) ، ودلالة هـٰذا علىٰ كمال قدرته عز

---

(1) الأنعام ، 60 .
(2) طه ، 99 .
(3) الإسراء ، 55 .
(4) الأنعام ، 114 .
(5) الفرقان ، 53 .

وجل كونه علىٰ خلاف مقتضىٰ الطبيعة فإن مقتضىٰ طبيعة الماء أن يكون متضام الأجزاء مجتمعاً غامراً للأرض محيطاً بها من جميع جهاتها إحاطة الهواء به ، ومقتضىٰ طبيعة الأرض أن تكون متضامة الأجزاء أيضاً لا غور فيها ، ثم جعل بينهما برزخاً عظيماً حيث إنه مع كثرة مرور الدهور لا يتخلله ماء أحد البحرين حتىٰ يصل إلىٰ الآخر فيغير طعمه ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أي وتنافراً مفرطاً كأن كلاً منهما يتعوذ من الآخر بتلك المقالة ، والمراد لزوم كل منهما لصفته من العذوبة والملوحة فلا ينقلب البحر العذب ملحاً في مكانه ولا البحر الملح عذباً في مكانه ، وذلك من كمال قدرته تعالىٰ وبالغ حكمته عز وجل ، فإن العذوبة والملوحة ليستا بسبب طبيعة الأرض ولا بسبب طبيعة الماء وإلا لكان الكل عذباً أو الكل ملحاً ، وذكر في حكمة جعل البحر الكبير ملحاً أن لا نتن بطول المكث وتقادم الدهور [1] .

والمتين ذو الشأن الرفيع العظيم ، وعظم شأنه سبحانه أنه حي قيُّوم لا تأخذه سنة ولا نوم : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [2] ، وهو الذي ترنو إلىٰ رحمته الخلائق فيرحم ويغفر ويرزق ويشفي سبحانه وتعالىٰ عما يشركون ، فهي شؤون المتين التي وصفها بقوله سبحانه : ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [3] فكل أهل السمٰوات والأرض مفتقرون إليه ، فيسأله أهل السمٰوات ما يتعلق بدينهم ، وأهل الأرض ما يتعلق بدينهم ودنياهم ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ أي كل وقت وحين يحدث أموراً ويجدّد أحوالاً .

(1) تفسير الآلوسي ، ج 14 ، ص 119 .
(2) البقرة ، 255 .
(3) الرحمٰن ، 29 .

وعن عبد ٱلله بن طاهر أنه دعا الحسين بن الفضل وقال له : أشكلت علي ثلاث آيات ، دعوتك لتكشفها لي : قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴾ (1) ، وقد صح أنّ الندم توبة ، وقوله تعالىٰ : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ وقد صح أنّ القلم قد جف بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة . وقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ (2) فما بال الأضعاف ؟ فقال الحسين : يجوز أن لا يكون الندم توبة في تلك الأمّة . ويكون توبة في هـٰذه الأمّة ؛ لأنّ ٱلله تعالىٰ خص هـٰذه الأمّة بخصائص لم يشاركهم فيها الأمم ، وقيل إن ندم قابيل لم يكن علىٰ قتل هابيل ، ولـٰكن علىٰ حمله ، وأما قوله : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ فمعناه : ليس له إلا ما سعىٰ عدلاً ، ولي أن أجزيه بواحدة ألفاً فضلاً ، وأما قوله : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ فإنها شؤون يبديها لا شؤون يبتدئها (3) .

ومن عظيم شأن المتين أنه يحتسب لنفسه ما هو لعباده ، فيجعل الإنفاق له وهو لعبده ويجزي به مضاعفاً إكراماً للمحتاج من عباده : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ (4) ، إنه تعالىٰ أكد بهـٰذه الآية ترغيب الناس في أن ينفقوا أموالهم في الأوجه التي ترضي ٱلله بتركهم خيراً في الدار الدنيا ، من مناصرة للحق حتىٰ إحقاقه ، ودمغ للباطل حتىٰ إزهاقه . والأجر الكريم هو الذي يتحقق في الدار الآخرة مكرمة من الكريم المطلق جل جلاله .

وسمي ذلك الإنفاق قرضاً ؛ لأنه في الدار الدنيا التي فيها المكاسب المدخلة للجنة ، وفي هـٰذا الأمر تشبيه لضمان الجزاء الأوفىٰ من الكريم جل جلاله ، ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ

(1) المائدة ، 31 .
(2) النجم ، 39 .
(3) تفسير الزمخشري ، ج 6 ، ص 468 .
(4) الحديد ، 11 .

وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ (1) ، القرض جاء مطلقاً ، لا تحديد فيه ، وبالتالي فهو الذي يحتوي علىٰ كل أفعال التطوع الحسان من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلىٰ الجهاد في سبيل ٱلله بالمال والنفس ، وهـٰذا يعني أن القرض عطاء ، والعطاء في أساسه لا يكون إلا من ٱلله عز وجل ، وبهـٰذه الصفة التي منحها ٱلله لخلفائه أنْ فتح أمامهم أبواب العطاء ، وهـٰذا لا يعني التسوية به ، بل تعني تحفيزهم علىٰ الإقدام علىٰ الأفعال الحسان التي هي من بعد الإيمان بٱلله ورُسُله وأداء الفرائض من صلاة وزكاة وحج وصوم ، ولهـٰذا قال تعالىٰ : ﴿ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (2) ، ولأن القرض من بعد الإيمان بٱلله ورسله وبعد العبادات فجاء ترتيب الآية بالفرائض أولاً ، في قوله : ﴿ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ ﴾ ثم جاء من بعدها في الترتيب إقراض القرض الحسن ، وهـٰذا يدل علىٰ أن القرض من خارج رأس المال أي أنه من الفوائد والمكاسب الحلال ، ولهـٰذا جاء لاحقاً لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسل صلوات ٱلله عليهم فقال : ﴿ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا ﴾ ولأنه قرض فالقرض بطبيعته استثمار للمال الحلال المكتسب شرعاً الذي باستثماره لا يكون علىٰ حساب الحاجة ومشبعاتها الأساسية ، أي عندما تمتلك رغيفاً من الخبز وأنت في حاجة لسد رمقك به ، فهـٰذا لا يستثمر بل يستهلك في إشباع الحاجة ، أما الزائد من الرغيف فهو الذي يمكن استثماره بما يفيد وينفع المستثمرين له في طاعة ٱلله .

---

(1) البقرة ، 245 .

(2) المائدة ، 12 .

ومن هـٰذه الأفعال الحسان التي تعد قرضاً حسناً :

1 ـ **الجهاد في سبيل ٱلله** : الجهاد بذل كل ما هو ممكن ومتاح في سبيل إعلاء كلمة الحق ، وهو القرض المستثمر والمحقق لدخول الجنة ، وفي الجهاد مكابدة وتحمُّل للعبء والمسؤولية المترتبة عليه ، وهو دائماً من أجل غاية كريمة وشريفة وهي بلوغ الجنة . قال تعالىٰ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [1] .

الجهاد حقيقة قرض حسن يدخل صاحبه الجنة ، وله جانبان ، جانب سلوكي ظاهر أو مشاهد ، وجانب عقلي كامن أو ملاحظ ، فعند الإقدام علىٰ تنفيذ الفعل الجهادي ، يعرّض الشخص المجاهد نفسه إلىٰ مواجهة الموت التي بالضرورة ستفوز عليه في نهاية الأمر الطبيعي ، ومع ذلك يكتب له الاستشهاد ويعد شهيداً ، فالعرب تقول : من يطلب الموت تكتب له الحياة ، وتعتبر الشهيد حياً ، لقيامه بأعمال التمجيد ، التي تجعله علىٰ الألسن الشاكرة والمثنية عليه ، ولمقارعته الموت دون خوف أو تردد ، وكل من يستشهد علىٰ الحق بإرادة واعية ، يعترف له الجميع بأنه شهيد الحق والواجب ، ويشهد له ٱلله بذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [2] . في سبيل ٱلله ، تعني : في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، ومن يلتزم بما أمر ٱلله ويضحي في سبيله بالمال والنفس يعد مجاهداً .

والجانب الثاني هو الجانب المعرفي الإيماني ، الذي يكوّن عند المجاهد القناعة بما يقوم به من فعل وسلوك جهادي بأنه الحق ، والقاعدة المعرفية الإيمانية هي التي مكنته من قبول التحدي للموت ، ومن الناحية الإيمانية يعد المجاهد منتصراً منذ قبوله تحدي الموت الذي يفوز عليه أولاً عندما أصبح

---

(1) التحريم ، 9 .

(2) آل عمران ، 169 .

بالنسبة له لم يعد مصدر خوف كما كان ، ويفوز عليه ثانية عند دخوله ميدان القتال حيث إنه يعرف لا مجال له إلا الفوز أو الاستشهاد . وفي كلتا الحالتين يعد المجاهد منتصراً ، بتحقيق النصر ، أو الاستشهاد في سبيله .

المجاهد متحدٍّ للموت لا يخيفه خاصة عندما يصبح مطلباً ، ولكي يثبت المجاهد للموت أنه لا يخافه يعلن دخوله ساحات الحرب إلىٰ أن ينتصر أو يستشهد ، وكأنه يود أن يقول للموت سيأتيك الدليل من بعدي فافعل ما تستطيع ، فأنا لا أخشاك .

هـٰذه وجهة النظر بالنسبة للمجاهد ، أما بالنسبة للمشاهد فإن الأمر قد لا يكون كذلك ، فالمشاهد قد يعتبر الشهيد قَدّم نفسه للتهلكة ، وأنه مذنب بفعل ما ارتكب ، وذلك لأنه لم يعرف المبررات الإيمانية والمعرفية التي جعلت من الخائف مخيفاً ، ولتوضيح ذلك علينا أن نعرف الفروق بين الأفعال الآتية :

1 ـ **الموت** : الموت بالنسبة للإنسان لا غاية من ورائه فهو أمر لابد وأن يُنفذ ، ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ فالموت أمر طبيعي لابد منه مادامت الحياة ، ويعد الموت حقاً لأن الجميع متساوون في حق تملكه بالحياة ، وبالتالي لن يأخذ أحد هـٰذا الحق من الآخر أو حتىٰ يعتدي عليه ، أو ينوب عنه فيه ، إذاً الموت آتٍ لا محالة ، وبما أنه كذلك فلا خوف منه ، لأنه لن يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك الفعل ، ومرة واحدة ، ولن يتكرر ، ومع العلم عندما يؤدي الموت وظيفته بالقضاء علىٰ الحياة ، فلا بد له من أن يُقتل ويُقبر هو الآخر ، ويوم موته ستنبعث الحياة من جديد ويصبح للحياة معنىً وأهمية لأنها بلا مخاوف .

الموت الذي كان يخيف الأحياء لم يعد علىٰ قيد الحياة ولن يبعث من جديد معنا ، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ أي بعد البعث كل من عمل عملاً يجده في انتظاره ليجازىٰ به ،

وعليه إذاً لا مفر من الموت ، وبأعمالنا يمكن الفرار إلىٰ الجنة أو الجحيم . ما أجمل المنطق الذي تحتويه الآية السابقة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ لن يعاقب ٱلله أحداً إلا بما قدمت يداه ، وهـٰذا منطق يجب أن يقبله المتحاورون لتكون القدوة بينهم بالتماثل .

2 ـ **الانتحار** : الإصرار والإقدام علىٰ التخلص من الحياة في أوقات الحاجة إليها ، ويعد الانتحار آخر عمل سيئ في حياة الإنسان ، ولا يمكن أن يتم فعل الانتحار في زمن استخدام المنطق ، والمجتمعات التي تتفشىٰ فيها ظاهرة الانتحار هي بطبيعة الحالة مجتمعات تعاني من أزمات روحية أو فراغ روحي ، فراغ لا يجيب علىٰ تساؤلات المنتحرين . إذاً الانتحار لم يكن في سبيل قضايا ولا في سبيل معتقدات ، بل هو في حقيقة الأمر هروب من واقع أو عُسرة . والمنتحر ليس له جزاء في اليوم الآخر ، بل له عقاب ، والمُقدم علىٰ فعل الانتحار لن ينتظر إلا التخلص من الحالة النفسية التي يختنق بها ، دون أن يكون بيده الحل ، فبدل أن يلتجئ للآخر للمساعدة وفك الطوق النفسي الذي يختنق به ، ينطوي علىٰ نفسه ويقبل بالانتحار الذي يثبت ضعفه أمام مواجهة المواقف التي تستوجب التصدي . إنه تنفيذ مطلب الموت بدون مقابل يستوجب الجزاء . في هـٰذه الحالة عندما يقارن مشكلته بالموت يفضل قبول الموت والاستسلام لها وعدم مواجهة المشكلة التي تتحداه وتخيفه إذا استمر في الحياة . إذاً الفرق كبير بين المجاهد الذي تحدىٰ الموت وبين المنتحر الذي تحدته الحياة . مع أن الاثنين أصبحا في حالة موت ، إلا أن المنتحر أسباب موته الخوف والانسحاب ، الخوف من المشكلة والمترتب عليها ، أما الشهيد فإن حالة موته الشجاعة والإقدام .

وبناء علىٰ ذلك علينا أن نميز بين المجاهد المتين ، وبين المنتحر الضعيف ، فالأول له الجزاء الأوفىٰ ، والثاني له العذاب . اللهُمَّ احفظنا وزوجاتنا وأولادنا وإخواننا المسلمين والمسلمات ولا تذيقنا وإياهم العذاب

واجعلنا من المستخلفين في الدار الدنيا والوارثين فيها وفي الجنة .

3 ـ **القتال** : القتال فعل قد يُكتب علىٰ الناس وهو كره لهم ، وعندما يكتب كرهاً ، يصبح الإقدام عليه ليس باختيار ، ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [1] إذاً عندما يقاتلونكم كرهاً فلا بد من مقاتلة من يقاتلونكم ، ولا خيار في ذلك ، فالقتال هنا دفاع عن النفس ، أو عن البلد ، أو عن الدين والشرف ، فالقتال واحد والدفاع مختلف ، والأسباب هي التي تحدد نوع الدفاع ، الاعتداء علىٰ الوطن يستوجب الدفاع عنه ، والاعتداء علىٰ الشرف والكرامة يستوجب الدفاع عنهما ، وهٰكذا . عندما تتعرض للسرقة ، قد تدفعك الأسباب إلىٰ مقاتلة المعتدي ، وعندما يستنجد بك مستنجد هي الأخرىٰ قد تجعلك في حالة مقاتلة من لا تعرفه علىٰ الإطلاق ، وتجد نفسك في مواجهة قتالية لم تكن في الحسبان ، وذات نتائج لا تحمد عقباها .

القتل قد يكون عقاباً علىٰ فعل ، القاتل يُقتل ، إذاً عندما تَقتل ظلماً ليس لك من مفر من أن تُقتل كعقاب علىٰ ارتكابك الفعل المحرّم ، فالمقاتلة قد تكون واجبة عندما تكون لأجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وقد تكون تنفيذ حكم المعاقبة ، وقد تكون هٰكذا أمراً واقعاً . وعلىٰ المتحاورين أو القضاة أن يميزوا بين هٰذا وذاك ، لكي يكون الحكم عادلاً .

4 ـ **الحرب** : عندما يتم الاعتداء علىٰ الحقوق والواجبات والمسؤوليات ، تصبح حالة البلد بكامله حالة حرب ، أي محاربة الناس في ما يجب أن يكون لهم ، والحرب عادة تعد لها العدة ، وتُسخّر لها الجيوش ، وينفِّر الناس للمواجهة ، لإيقاف عجلة تقدم المعتدين التي قد تداهم الأخضر واليابس ، والمحاربون في كثير من الأحيان يُدرّبون علىٰ خوض المعارك ،

---

(1) البقرة ، 190 .

ويتقاضون المعاشات والمرتبات مقابل ذلك ، أي أن الجيوش النظامية في جميع أنحاء العالم هم معدون ومدربون علىٰ خوض المعارك التي تُرسم وتخطط مسبقاً من قبل المعتدي ، والتي تواجهها خطط الدفاع من قبل المعتدي عليه . أجرة تدفع للمحارب أيام السلم وأيام الحرب ، ولهٰذا لم يكن المحارب في حالة اختيار ، بل إنه في حالة تنفيذ أوامر عسكرية ، ومن يتأخر عن أداء المهام الحربية قد يجد نفسه في مواجهة العقاب بالموت . وقد يتساءل البعض : لماذا في معظم المعارك الحربية يحدث الاستسلام ؟ المحارب في ميدان المعركة ، إذا لم يكن شريكاً في اتخاذ قرار الحرب ومقتنعاً بأنه علىٰ حق ، لا يمكن أن يكون محارباً ، فإذا عرف أن خوض الحرب من أجل الحرية ، ومن أجل الجميع سيخوضها ببسالة ، ولٰكن إذا عرف أن خوض الحرب سيطيل عمر الحاكم الدكتاتور ، أو الحاكم غير الديمقراطي أو غير الإنساني ، فليس له بد من أن يستسلم للآخر حتىٰ لا يلقي بنفسه إلىٰ التهلكة ، وفي هٰذه الحالة يعتبر نفسه قد هزم الحاكم في عقر داره دون أن يعلن عن ذلك .

في الحروب تنشط وسائل الإعلام في تناقل أخبار المعارك ، وفي تزوريها وتشويهها ، وفي كثير من الأحيان تُطمس الحقيقة ، وذلك نتيجة اعتمادها علىٰ اللغة وليس علىٰ المنطق ، فالمنطق من مسؤولياته إظهار الحقيقة وتبيانها من أي زيف ، أما اللغة في مثل هٰذه الظروف تتجرد من كل منطق ، لأجل أن تؤجج نار الحرب التي في كثير من الأحيان تتخذ بقرارات سياسية ووجهات نظر السياسيين وليس بقرارات موضوعية ، اللغة تعتمد علىٰ المغالطة وتزوير الحقائق ، والمنطق يعتمد علىٰ التصحيح والتصويب إلىٰ ما يجب أن يكون . إذاً اللغة الإعلامية تهدف إلىٰ إيقاد نار الحرب ، ومنطق الحوار يسعىٰ إلىٰ إطفائها .

5 ـ **الجهاد** : الجهاد عمل تطوعي مؤسس علىٰ الرغبة ، والجهاد

لا يخوضه إلا الواعون بالمترتب عليه ، عاجلاً أم آجلاً ، عاجلاً قبول الاستشهاد (الموت) الاستشهاد تعني أن الشهيد قد كان شاهداً علىٰ المظالم وأقدم علىٰ مقاومتها بكل ما يملك من المال والنفس ، لم يجبره أحد علىٰ ارتكاب الفعل الاستشهادي وبدون مقابل ، وإذا كان بمقابل كان قتالاً أو حرباً ، ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [1] أي ادفعوا مما تمتلكون أو تكتنزون ، وادفعوا بأرواحكم في سبيل إحقاق الحق ، إذاً الشهيد هو الذي يدفع لا أن يدفع له مقابل الشهادة .

الجهاد وعي بالفعل وبمخاطره ، وبعناصره ، وبالمترتب عليه ، وهو آخر وسيلة يتم استخدامها ، بعد أن ينفذ منطق الحوار مع الظالم ، فلا بد من المواجهة العلنية ، التي تقصي المعتدي ، والذي يقدم علىٰ الفعل الاستشهادي يكون راضياً علىٰ ما يقوم به ، وفي معظم الأحيان يكون فرحاً بما يقدم عليه ، وتكون أسرته راضية علىٰ استشهاده إلىٰ درجة المفاخرة به ، ويسجله المجتمع الذي ينتمي إليه في سجلات أبطال التاريخ ، ويكتب عند ٱلله شهيداً .

في المجاهدة مكابدة ، وتحمّل مسؤولية ، الوطن الذي تمتلك فيه الحقوق وتؤدىٰ فيه الواجبات وتتحمل فيه المسؤوليات ، الجهاد في سبيله ضرورة قيمية ، المساس بالدين الذي من عند ٱلله تعالىٰ ، أو الاعتداء عليه ، ليس بالأمر الهين كما يعتقد البعض ، في سبيله يجاهد المؤمنون بأموالهم وأنفسهم ، وذلك لأنه مصدر التمييز بين أحكام إحقاق الحق وأحكام إبطال الباطل . من صحابة رسول ٱلله ﷺ هناك من جاهد بربع ماله وهناك من جاهد بثلث ماله ، وهناك من جاهد بكل ماله ، وهناك من جاهد بنفسه ، ومنهم من جاهد بماله ونفسه ، هـٰؤلاء القدوة الحسنة يعدّون مثالاً حياً في أذهان المؤمنين ويعد الشهداء أحياء عند ٱلله وعند المؤمنين .

---

(1) التوبة ، 41 .

المجـاهـد لا يظلـم ، ولا يعتـدي ظلمـاً ، ولا يسعـىٰ مـن وراء الفعـل الجهادي لأي مصلحة آنية ، بل في حاجة للجزاء الأوفر الذي لم يكن من البشر الذين قد يمنون عليه في يوم من الأيام . لقد اتضح الفارق بين من يقدِم علىٰ الانتحار وفي كثير من الأحيان ينتهي وهو غير مأسوف عليه ، وبين الذي يموت في ميادين التفضيلات ، وبين الذي يموت في مواقف الرذيلة ، وبين الذي يموت بانتهاء أيام الحياة ، وبين المجاهد الذي كان له الاختيار وكانت له الإرادة الواعية ، وكان بيده القرار ، وهزم الموت الذي يخيف الغالبية ، وانتصر عليه في معركة التحدي بالاستشهاد .

الحجّة ، المال ، النفس :

ثلاثة عناصر في منطق الحوار ، من يلم بها ويعرفها يعرف معنىٰ الجهاد ، ومن لم يعرفها ، لن يعرف معنىٰ الجهاد . عندما تكون هناك قضية دينية وإنسانية ، أو قضية اجتماعية ووطنية ، يكون هناك موضوع للحوار ، وقبل أي اعتداء أو قتال ينبغي أن يكون اللقاء الذي تُعرض فيه الحجج المنطقية ، دون إعلان عداء من طرف علىٰ آخر ، وإذا لم يتم ذلك مباشرة لا عيب في تدخل وسطاء المنطق ، لا وسطاء اللغة ، وسطاء الحكمة لا وسطاء السياسة ، وعلىٰ الجميع توخي الحذر ، ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ قال تعالىٰ : جادلهم ولم يقل حاورهم ، فالمجادلة فيها مكابدة ودرجة عالية من التحمل ، وعدم الإسراع في الخروج من الموضوع ، إلىٰ أن تتحقق القناعات بعد مكاشفات ، وحجج دامغة ، ليس فيها تزوير أو تهرّب من إحقاق الحق ، وعلىٰ المحاور أن لا يُستفز من قبل المحاور الآخر ، فالاستفزاز قد يُنهي زمن المجادلة التي لا ينبغي أن تُهزم بالاستفزازات غير المسؤولة من قبل الآخر . أما حاورهم فيها شيء من التخفيف إذا ما قورنت بالمجادلة ، في المجادلة إصرار ، وعدم إعطاء الفرصة لمن يريد أن ينهي الجدل قبل الوصول إلىٰ نتائج مقنعة ، وفيها التحذير والإنذار ، وفيها التوعد إذا لم يتم الاتفاق ، وفيها معرفة العواقب .

أما الحوار فقد لا تكون فيه مكابدة ، يعتمد علىٰ قوة الحجة ، التي لا تستوجب الوعيد والتهديد ، وفي الحوار شفافية ومنطق اعتبار الأنا والآخر .

في حالة التعنّت وفشل المجادلة ، يتم تسخير الإمكانات لكف من يمتلك القوة المهددة للحق عما يهدف إليه من مشاكل أو مآسي ، والإمكانات في كثير من الأحيان وقائية ، وفي البعض الآخر قتالية حيث يتم استخدامها إذا ما اشتعلت نار الحرب ، وعندما تشتعل نار الحرب يصبح استخدام السلاح مبرراً ، ولأجل الحق وإعلائه يستوجب مواجهة من يريد للباطل أن يسود ، فالذي يحارب من أجل إبطال الحق لا يعد شهيداً ، والذي يحارب من أجل إعلاء كلمة الحق يعد شهيداً .

يعتبر المال والنفس العنصرين التاليين في الاستخدام بعد عدم التفهم لِما دار من حوار بين المتجادلين بالحجة ، والمتجادلون عندما يفقدون قواعد الركون إلىٰ المحاجة المنطقية ، قد يضطروا إلىٰ الخصام الذي لا طائل من ورائه إلا الاختلاف . إذاً الأساس أن يتم التجادل والحوار بالتي هي أحسن ، وعندما يصل الحوار والمجادلة إلىٰ طريق مسدود فلا بد من المواجهة العلنية بما هو أسوأ حيث ينقسم الناس علىٰ فئتين ، فئه مع الحق ، وفئه مع الباطل . وعندما يحدث الصراع قد يمتد من أصحاب الحق إلىٰ المناصرين لهم من جهة ، وبين أصحاب الباطل والمناصرين لهم من جهة أخرىٰ . فحدود الحرب عندما تبدأ قد تكون معروفة ولٰكن عندما تستمر قد لا تُعرف حدودها ، ولذا فعلىٰ المتحاورين أن يضعوا في اعتباراتهم في الحوار المنطقي حدوث المتوقع وغير المتوقع حتىٰ لا يتم الاستغراب بعدما تحدث المفاجأة .

إذاً القبول بالمحاجة قبول بالسلام ، والخروج عنها خروج عن السلام ، وعندما يخرج أطراف الحوار عن حدود المجادلة دون تفهّم لبعضهم البعض ، أو دون تفهّم لقضاياهم ولِما يجب وما لا يجب تجاهها ، فقد يحدث بينهم الصدام الذي تُسخّر له كل الإمكانات والقوة اللازمة للمواجهة أو للتصدي ،

وبطبيعة الحال المواجهة لن تكون إلا بالأنفس المؤيدة والمعارضة للفكرة (موضوع الاختلاف) .

عندما تغيب الحجة يُفسَح المجال للخصام والصدام ، الذي يتطلب حشد الإمكانات المادية من مال وعتاد ، ثم بعد ذلك تحشد الأنفس القادرة علىٰ خوض الحرب ، وعندما تشتعل نار الحرب ، تقدم الأنفس فداء للفكرة التي تم الاعتراض عليها ، أو فداء ضد الفكرة التي لا يود لها أن تنتشر وتسود بين الناس . وبرغم ذلك لابد للحرب أن تتوقف بالمغالبة أو بالتحاور لوقف سفك الدماء ، ولأجل ذلك ينبغي أن يعود أطراف الحوار إلىٰ طاولة التفاوض ، ولن يُنهي الصدام إلا الحوار المنطقي الذي يستوجب التعرف علىٰ القيم التي تحرك كل طرف من الأطراف أو التي يدافع عنها كل طرف من الأطراف المتصادمة ، ووضع معايير ومقاييس للتحكيم المنطقي والموضوعي .

والجهاد درجات أو أنواع منه :

أ ـ **جهاد الكلمة** : دائماً الحديث بين الناس كلمة ، وهـٰذه الكلمة قد تكون طيبة لينة هادئة ، وقد تكون قاسية ظالمة ، وقد تكون مؤدية إلىٰ الإصلاح وقد تكون مؤدية إلىٰ الإفساد ، قد تكون معمِّرة وقد تكون مدمِّرة ، ولكل كلمة فعل ورد فعل ، ومع ذلك سيظل الحوار والجدل قائماً بين الناس حتىٰ بلوغ الفهم والتفهُّم الذي يؤدي إلىٰ التعاون والتوحد والتكيف والتوافق ، وقد تكون نتائجه عدائية بعد أن تكشف الكلمة الحقيقة فيكون الصدام والخصام وقد يؤدي ذلك إلىٰ الاقتتال بغير حق ، مما يجعل للمجاهدين بالكلمة دوراً فعَّالاً في إطفاء نار الفتنة ، أو كبح جماح الكلمات الفاسدة التي تخرب ولا تصلح .

وعندما تشب نار الحرب بين المسلمين وغيرهم من الكفرة والمشركين سيكون للكلمة المحرِّضة علىٰ الجهاد دور جهادي ، ودائماً الكلمة المحرضة علىٰ الحق كلمة حق يجازي ٱلله عليها قائليها ويحسبها لهم قرضاً متضاعفاً مع فائق المغفرة .

قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (1) .

ب ـ **جهاد المال** : المال المكتسب بالحلال مال حلال ، أولاً : لأنه من عند ٱلله ، وثانياً : لأنه بأسباب الكد والجد بالعرق الذهني أو البدني ، ولهٰذا كله حلال ، وبالتالي من يجاهد بماله الحلال فهو في حقيقة الأمر يجاهد بنتاج عرقه الذي هو نتاج ما بذله من جهد وكد . قال تعالىٰ : ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (2) .

ج ـ **جهاد النفس** . قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (3) . بالتأكيد المستفيد من القرض الحسن هو قارضه ، خاصة وأن القرض مقدم في سبيل ٱلله ، والمجازي هو ٱلله عز وجل ، وعليه فالقرض يزيد مقرضه تمتناً في الدارين خليفة في الدار الدنيا ، ووارثاً في الدار الآخرة .

وجهاد النفس يبلغ ذروته بالجهاد بها في سبيل ٱلله تعالىٰ ، دفاعاً عن الدين وعن الشرف والكرامة والوطن إذا تعرض لغزاة آتين لسفك الدماء فيه أو هتك أعراض مواطنيه .

2 ـ **العتق** : العتق تحرير من قيود وتبعية وهٰذه التبعية في معظمها

---

(1) التوبة ، 73 ـ 74 .
(2) التوبة ، 88 ـ 89 .
(3) العنكبوت ، 6 .

تؤدي للتهلكة ، فعندما يكون العبد كافراً فلا يمكن أن يسمح له بالإسلام حتىٰ وإن رغب وأحب ، ولذا فمن اشترىٰ عبداً لأجل أن يعتقه قد قدم لنفسه قرضاً حسناً مباركاً قابلاً للمضاعفة من ٱلله تعالىٰ .

قال تعالىٰ : ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ (1) . العقبة تعني مما تعني الصعاب الوعرة في القول أو في الفعل أو في السبل التي تقطع من مكان إلىٰ مكان ، ولـٰكن العقبة في الآيات الكريمة السابقة هي محددة بفك الرقبة ، أي تحرير إنسان وعتقه من العبودية التي يركن تحتها بالبيع في سبيل الحاجة فيكون عبداً قابلاً للذل ، والتحرير هو تحرير من الذل ، والانقياد لغير ٱلله ، ولهـٰذا جاء التحرير من عند ٱلله لكل الناس الذين يودهم أن يكونوا مستخلفين في الأرض ووارثين في الجنة .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴾ ، المسغبة هي المجاعة ، ومن يطعم قريباً ليحيده عن ما ألم به من عوز وفاقة ، ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ أي افتقارٌ وحيثُ كانَ المرادُ باقتحامِ العقبةِ هـٰذهِ الأمورَ ، فإن الذين يقومون بالأفعال الحسان تجاه من ذكر وهم ضامرون الخير والطاعة التامة لأمر ٱلله واستجابته فإن ذلك يعد قرضاً في موازينهم وتمتّن به أعمالهم مضاعفة .

وإلىٰ جانب ما ذكر فإن للعتق أسباباً وأوجهاً منها ما جاء في الآيات التالية : قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ

---

(1) البلد ، 11ـ18 .

وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (3) .

3 ـ **العفو** : العفو لا يتم إلا من قادر ومالك للأمر ، ومن العفو يتحقق التخلص من دينٍ قد يُدخل صاحبه إلىٰ النار أو يؤدي إلىٰ قتله إن لم يتم العفو عنه من قبل المعني الذي ارتكب بشأنه الجرم الذي يستوجب العقاب في الدارين إن لم يتمكن من الحصول علىٰ العفو . قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ

---

(1) النساء ، 92 ـ 93 .
(2) المجادلة ، 3 ـ 4 .
(3) المائدة ، 89 .
(4) البقرة ، 178 ـ 179 .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [2] .

4 ـ **فك دين المدينين** : الدين قيد علىٰ المدين ، وقد يُرهن أو يُستعبد الإنسان بدين لا يستطيع رده ، أو تحتل البلاد من قبل غازٍ بأسباب دين لم يرد ، وبهٰذا فالدين حمل وعبء علىٰ من اقترضه وهو يعتقد أنه سيرجِّعه في وقته الذي قيد به ، ولأسباب ومفاجآت عائقة لنجاحه في ذلك يتعرض الإنسان أحياناً إلىٰ مواجهة من قبل الدائن له قد تكون علىٰ حساب حياته أو حياة أولاده أو حريته وحريتهم ، ولذا جاء الدين الإسلامي ليحرر المدينين بمباركته الأعمال التي تؤدي إلىٰ تخليص وفك دين المدينين في مقابل مرضاة ٱلله تعالىٰ ، وبهٰذا العمل يتمكن فاك الدين من بلوغ الجنة إذا كان غرضه بفك دين المدين الفوز بها .

5 ـ **الدفاع عن المظلومين** : الظلم من أفعال التجني علىٰ الآخرين ، والدفاع عن المظلومين دفاع عن الحق ، وإزهاقاً للباطل ، وبالتالي فإن إحقاق الحق واجب وإزهاق الظلم واجب ، ولٰكن إذا لم يستطع الفرد أن يدافع عن نفسه فالدفاع عنه وهو مظلوم يعد قرضاً حسناً من قام به تضاعفت حسناته من ٱلله تعالىٰ . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا

(1) البقرة ، 109 .
(2) البقرة ، 219 .

كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [1] .

الظلم له عذاب شديد عند ٱلله ، ولهٰذا فمن يطع ٱلله يقاوم ظلماً ، ويتقي ٱلله ربه ، ويعمل صالحاً يرضاه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [2] .

6 ـ **إطعام المساكين** : الذين في حاجة ولا عائل لهم يسهم في إشباع حاجاتهم هم في حاجة لمن يقدم لهم المساعدة الهادفة التي تنقذ حياتهم من الهلاك والضياع ، فمن عمل تجاههم خيراً جازاه ٱلله خيراً مضاعفاً ، ولهٰذا فمن يحث علىٰ إطعام المساكين ويعمل علىٰ إطعامهم يقرضه ٱلله قرضاً حسناً ، قال تعالىٰ : ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [3] . من هنا يأخذ الخليفة قدوته الحسنة ، وذلك بإطعام المسكين والأخذ بيده حتىٰ يكون قادراً علىٰ عول نفسه وحمايتها من التهلكة ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ

(1) العنكبوت ، 31 ـ 38 .
(2) فاطر ، 36 ـ 37 .
(3) الكهف ، 79 .

﴿خَيْرٌ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (1) .

7 ـ **رد كيد الكائدين** : الكيد امتلاء بالكره والحقد والظلم ، وفي الكيد مخادعة قد تكون متوقعة وقد لا تكون ، وفيه مغالبة ، فمن فزع لأجل مناصرة مغلوب ناصره ٱلله بالحق ، وكتب له حسنة مضاعفة ، وفي هـٰذا الأمر تشبيه بالقرض الذي يضاعفه ٱلله لمن تصدق وعمل عملاً صالحاً فيه إنقاذ للنفس من الهلاك أو الضياع ، لأجل أن يعيدها إلىٰ ما يجب أن تكون عليه . قال تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٧ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ (4) .

8 ـ **التصدق الجاري** : التصدق إعطاء بدون منة ، وبدون انتظار مقابل من المتصدق عليه ، وأن يكون بنية الطاعة لله تعالىٰ ، الذي أوجب التصدق علىٰ المحتاجين ، والاحتياج نقص يتطلب إشباعاً ، وإن لم تتم عمليات الإشباع قد يخرج المحتاج عن طوره فيعتدي أو يسرق أو يقتل في سبيل إشباع حاجة ، والاحتياج ابتلاء لأجل غايات نافعة ، يعلمها ٱلله ويدركها المؤمنون الذين هم في امتحان هـٰذا الابتلاء ، وذلك لاختبارهم من حيث :

ـ هل هم مدركون لأهمية الصدقة ؟

---

(1) البقرة ، 183 ـ 184 .

(2) النساء ، 76 .

(3) الأنفال ، 17 ـ 18 .

(4) الطارق ، 13 ـ 17 .

ـ هل هم مؤمنون بها حقاً ؟

ـ هل هم يحسون بحال من هو في حاجة وهم في حالات الإشباع ؟

ـ هل هم مدركون حقاً حق ٱلله فيما يملكون أو أنهم غافلون ؟

ـ من هو الذي يقرض ٱلله قرضاً حسناً ، ومن الذي لا يقرضه قرضاً حسناً ؟

ولأن الصدقات نص من عند ٱلله تعالىٰ فإنها ستظل مع المستخلفين في الأرض ما بقوا فيها ، ولهٰذا فإعطاء الصدقات سيظل رفيقاً للأحياء ، ولهٰذا من يقرض ٱلله قرضاً حسناً يضاعفه له ، والفقر والغنىٰ آيات من ٱلله تعالىٰ : تؤكد أنه بإمكانه أن يجعل الفقير غنياً ، وبإمكانه أن يجعل الغني فقيراً ، ولذا تصدقوا فإن التصدق رافع للبلية . قال تعالىٰ : ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [1] وللصدقات أوجه كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [3] .

الصدقات الجارية متعددة منها بناء المساجد ، ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومنها بناء المستشفيات والمدارس والمنارات الشرعية ، ومنها بناء بيوت الأيتام وعولهم ، وغيرها كثير .

---

(1) البقرة ، 276 .

(2) التوبة ، 60 .

(3) التوبة ، 104 ـ 105 .

قال تعالىٰ : ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ [1] ، أي يجب أن تؤتىٰ الأموال في محبة ٱلله من خلال الأوجه التي يرتضيها ، ليكون صرفها أو إنفاقها علىٰ الحق ، ولا تكون في أوجه التبذير ، وذلك لأن المبذرين إخوان الشياطين مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ [2] . ولهـٰذا فمن تصدق خيراً له ومن يمتلك ولا يتصدق فقد يكون ما يملكه نقمة عليه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ ﴾ [3] ، والمتصدق الذي يسجل له قرضاً حسناً هو الذي لا يتبع ما أعطىٰ وتصدق به مناً ولا أذىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [4] ، وذلك لأن الأعمال بالنيات فمن ابتغىٰ وجه ربه نال قرضاً مضاعفاً مقابل ما أعطىٰ وأوفىٰ ابتغاء وجه ربه الأعلىٰ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [5] . ومن يعطي لوجه ٱلله ويتصدق مع خالص النية الصافية لا يمكن أن يمنن ويستكثر ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ [6] ، والإنفاق الكريم والمفضل عند ٱلله أن يكون الإنفاق مما يحب الخليفة ، ومن هنا تكون المباركة والزيادة في مضاعفة الأجر والخيرات الحسان ، قال تعالىٰ : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ ﴾ [7] .

وعليه فالمتين جل جلاله مالك العلم والحكمة ولهـٰذا فهو مالك الحجة الدامغة والزاهقة للباطل ، ومن هـٰذه الحجج :

---

(1) البقرة ، 177 .
(2) الإسراء ، 27 .
(3) البقرة ، 271 .
(4) البقرة ، 264 .
(5) الليل ، 20 ـ 21 .
(6) المدثر ، 6 .
(7) آل عمران ، 92 .

1 ـ **ضرب الأمثال** : كقوله سبحانه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [1] ، ويلحظ أن غالب الأمثال في القرآن كانت من الأمثال المادية المحسوسة وهـٰذا من قوة المجادلة لأن ذلك من شأنه تقريب المعنىٰ وتأكيده ، كما أنه يخاطب العقل البشري المحدود القدرة أمام قدرته فاستخدم ما يناسب هـٰذا العقل مع قدرته سبحانه علىٰ الإتيان بغير ذلك ، يقول المتين : ﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [2] .

وضرب الأمثال مصدره معرفة المتين بخلقه في حبهم للمجادلة والمراء ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [3] ، يقول جلَّ ذكره : ولقد مثلنا في هـٰذا القرآن للناس من كلّ مثل ، ووعظناهم فيه من كلّ عظة ، واحتججنا عليهم فيه بكل حجة ليتذكَّروا فينيبوا ، ويعتبروا فيتعظوا ، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ .

2 ـ **الاستدراج** : وذلك بأن يقدم المجادِل ما يقر به المُجادَل فيستدرجه للقبول بالحجة والمنطق الذي له علاقة بالواقع وله أمد بعيد بأسباب الحكمة التي من ورائه . كما فعل المتين مع اليهود والنصارىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ

(1) الحج ، 73 .
(2) النحل ، 75 ـ 76 .
(3) الكهف ، 54 .

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ (1) ، والخطاب لأهل الكتاب ، لأنهم آمنوا ببعض الكتب والرسل وكفروا ببعض . وروي : أنه لعبد ٱلله بن سلام ، وأسد وأسيد ابني كعب ، وثعلبة بن قيس ، وسلام بن أخت عبد ٱلله بن سلام ، وسلمه ابن أخيه ، ويامين بن يامين ، أتوا رسول ٱلله ﷺ وقالوا : يا رسول ٱلله ، إنا نؤمن بك وبكتابك وموسىٰ والتوراة وعزير ونكفر بما سواه من الكتب والرسل ، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ : « بل آمنوا بٱلله ورسوله محمد وكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله ، فقالوا : لا نفعل ، فنزلت ، فآمنوا كلهم . وقيل : هو للمنافقين ، كأنه قيل : يا أيها الذين آمنوا نفاقاً آمنوا إخلاصاً (2) . فإن قلت : كيف قيل لأهل الكتاب ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ (3) ، وكانوا مؤمنين بالتوراة والإنجيل ؟ قلت : كانوا مؤمنين بهما فحسب ، وما كانوا مؤمنين بكل ما أنزل من الكتب ، فأمروا أن يؤمنوا بالجنس كله ، ولأن إيمانهم ببعض الكتب لا يصح إيماناً به ، لأن طريق الإيمان به هو المعجزة ، ولا اختصاص لها ببعض الكتب دون بعض ، فلو كان إيمانهم بما آمنوا به لأجل المعجزة لآمنوا به كله ، فحين آمنوا ببعضه علم أنهم لم يعتبروا المعجزة ، فلم يكن إيمانهم إيماناً . وهٰذا الذي أراد عز وجلّ في قوله : ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ (4) .

3 ـ **الإفحام** : الإفحام لا يكون إلا بحجة شاهدة لا يمكن أن يغض النظر عنها ، وعندما تقال جدلاً ، بها يُبهت المجادل بالباطل ، ولذا فإن الإفحام هو الإتيان بحجة لا يمكن ردها كما علّم المتين نبيه إبراهيم عليه

---

(1) النساء ، 136 .

(2) تفسير الزمخشري ، ج 1 ، ص 475 .

(3) النساء ، 136 .

(4) النساء ، 150 ـ 151 .

الصلاة والسلام في مجادلة النمرود : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (1) .

4 ـ **إبطال النقيض** : وهو الذي يتجه فيه إلىٰ إثبات المطلوب بإبطال نقيضه ، كما في قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ (2) ، وهي إشارة إلىٰ برهان التمانع كقوله تعالىٰ : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (3) .

5 ـ **القص** : وهي من أدلة المجادل لاسيما إذا كانت مما يؤمن به الخصم ومما كان في حدود معرفته ، كما فعل المتين مع العرب بقصه لقصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو يعلم أن إبراهيم جد من أشرف أجداد العرب وقد افتخروا به وانتسبوا إليه ، فقص عليهم نبأه مع أبيه ليكون حجة عليهم مع ما يتبعون من دين آبائهم : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ (4) .

---

(1) البقرة ، 258 .
(2) الإسراء ، 42 .
(3) الأنبياء ، 22ـ 24 .
(4) مريم ، 41 ـ 47 .

وعليه فالمتين هو القيوم علىٰ كل قول وفعل من أجل الاستقامة التي تجعل العبد من المستخلفين في الأرض والوارثين في الجنة ، ولذا فالمتين يدعو للاستقامة ويثيب عليها ويحاسب علىٰ خلافها ، فصراطه مستقيم : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (1) ، وإن هـٰذا القرآن الذي أدعوكم إليه ، وأدعوكم به إلىٰ ما يحييكم ، هو صراطي ومنهاجي الذي أسلكه في مرضاة ٱلله ، لا يَضِلُّ سالكه أبداً ، ولا يهتدي تاركه إلا بعد استغفار وعودة إليه ، فلا تتبعوا الطرق الباطلة المضلّة التي نهاكم ٱلله عنها ، حتىٰ لا تتفرقوا شيعاً وأحزاباً ، وتبعدوا عن صراط ٱلله المستقيم ، وقد جعل ٱلله تعالىٰ المستقيم واحداً والسبلَ المخالفة متعددة ؛ لأن الحق واحدٌ والباطل كثير . ولما كان اتباع الصراط المستقيم وعدم التفرق فيه يجمع الكلمة ويعز أهل الحق ، كان التفرق فيه سبب الضَّعف (2) .

ويعلمنا المتين أن ندعوه ليهبنا المعرفة بالصراط المستقيم : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (3) ، الصراط المستقيم هو أن يكون الإنسان معرضاً عما سوىٰ ٱلله مقبلاً بكلية قلبه وفكره وذكره علىٰ ٱلله بما أمر فيتبع وينتهي عما نهاه عنه ويتعظ ، إهدنا الصراط المستقيم المراد أن يهديه ٱلله إلىٰ الصراط المستقيم الموصوف بالصفة المذكورة ، مثاله أن يصير بحيث لو أمر بذبح ولده لأطاع كما فعله إبراهيم عليه السلام ، ولو أمر بأن ينقاد ليذبحه غيره لأطاع كما فعله إسماعيل عليه الصلاة والسلام ؛ ولو أمر بأن يرمي نفسه في البحر

(1) الأنعام ، 153 .
(2) تفسير القطان ، ج 2 ، ص 22 .
(3) الفاتحة ، 6 ـ 7 .

لأطاع كما فعله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ولو أمر بأن يتلمذ لمن هو أعلم منه بعد بلوغه في المنصب إلىٰ أعلىٰ الغايات لأطاع كما فعله موسىٰ مع الخضر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، ولو أمر بأن يصبر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علىٰ القتل والتفريق نصفين لأطاع كما فعله يحيىٰ وزكريا عليهما الصلاة والسلام ، فالمراد بقوله إهدنا الصراط المستقيم هو الاقتداء بأنبياء ٱلله في الصبر علىٰ الشدائد والثبات عند نزول البلاء ؛ ولا شك أن هـٰذا مقام شديد هائل ؛ لأن أكثر الخلق لا طاقة لهم به .

كما إن دلائله مستقيمة : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [1] ، أي دللناهما علىٰ طريق الحق عقلاً وسمعاً ، وأمددناهما بالتوفيق والعصمة ، ونجيناهما ومن تبعهما من قومهما من الشدائد التي كانوا يعانون ويلاتها من فرعون ومن تبعه من الضالين .

ولأن ميزانه مستقيم قال : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴾ [2] ، نحضر الموازين العادلة التي توزن بها صحائف الأعمال كما يقضي بذلك حديث السجلات والبطاقة التي ذكره مسلم وغيره أو نفس الأعمال كما قيل ، وتظهر بصور جوهرية مشرفة إن كانت حسنات ومظلمة إن كانت سيئات ، وجمع الموازين ظاهر في تعدد الميزان حقيقة ، فقيل : لكل أمة ميزان ، وقيل : لكل مكلف ميزان ، وقيل : للمؤمن موازين بعدد خيراته وأنواع حسناته ، والأصح الأشهر أنه ميزان واحد لجميع الأمم ولجميع الأعمال كفتاه

---

(1) الصافات ، 114 ـ 118 .
(2) الأنبياء ، 47 .

كأطباق السمٰوات والأرض لصحة الإخبار بذلك [1] ، لذلك فالمتين يدعو عباده لإقامة الموازين المستقيمة التي لا ميل ولا اعوجاج فيها : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [2] .

الاستقامة من أهم ما نبه المتين عباده إليه لما فيها من فائدة للبشر ، وأنبياء ٱلله كانوا ممن نبههم ٱلله إلىٰ ذلك بقوله تعالىٰ :

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [3] ، عندما بين المتين أمر المختلفين في التوحيد والنبوة ، وأطنب سبحانه في شرح الوعد والوعيد أمر رسوله ﷺ بالاستقامة مثل الاستقامة التي أمر بها وهٰذا يقتضي أمره ﷺ بوحي آخر ولو غير متلو كما قاله غير واحد ، والظاهر أن هٰذا أمر بالدوام علىٰ الاستقامة وهي لزوم المستقيم وهو المتوسط بين الإفراط والتفريط ، وهي كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل وسائر الأخلاق فتشمل العقائد والأعمال المشتركة بينه ﷺ وبين سائر المؤمنين والأمور الخاصة به عليه الصلاة والسلام من تبليغ الأحكام والقيام بوظائف النبوة وتحمل أعباء الرسالة وغير ذلك ، وقد قالوا : إن التوسط بين الإفراط والتفريط بحيث لا يكون ميل إلىٰ أحد الجانبين قيد عرض شعرة ، قال تعالىٰ : ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [4] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ أَوْفُوا۟

(1) تفسير الآلوسي ، ج 12 ، ص 398 .
(2) الإسراء ، 34ـ38 .
(3) هود ، 112 .
(4) الإسراء ، 35 .

ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (1) .

ولأن الكمال لله تعالىٰ فقد كاد الرسول الكريم صلوات ٱلله وسلامه عليه أن يركن إليهم ثم عصم بالتشبث بالحق ، أي لولا أن ثبّتناك يا محمد بعصمتنا إياك عما دعاك إليه هـٰؤلاء المشركون من الفتنة لكدت أن تركن إليهم .

ومن شدة عناية المتين بجعل عباده علىٰ الاستقامة في القول والعمل جعل للاستقامة نصيباً في الجزاء في الدنيا ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ (2) ، وفي الآخرة فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (3) .

فالمتين هو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم : ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (4) ، فالمتين القيوم نزّل القرآن مصدقاً لما جاءت

---

(1) الشعراء ، 181ـ183 .
(2) الجن ، 14ـ17 .
(3) فصلت ، 30 .
(4) آل عمران ، 1 ـ 7 .

به الكتب السماوية من قبل التوراة والإنجيل ، ولأنه قيوم فإنه لا يخفىٰ عليه صغيرة أو كبيرة في الأرض أو في السماء ، وكيف تخفىٰ عليه وهو الخالق الذي يصور الإنسان في الأرحام كيف يشاء فهو العالم الذي يعلم الظاهر والخفي : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ (1) .

والمتين قيوم محيط بكل المعارف والمعلومات ، ومعرفته شاملة ودائمة بالمطلق ، قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (2) ، وصفه تعالىٰ بإحاطة علمه بجميع المعلومات الخفية والجلية المعلومة من باب أولىٰ للإيذان بانطواء ما أنزله علىٰ أسرار مطوية عن عقول البشر مع ما فيه من التعريض بمجازاتهم بجناياتهم المحكية التي هي من جملة معلوماته تعالىٰ ، أي ليس ذلك كما تزعمون بل هو أمر سماوي أنزله ٱلله تعالىٰ الذي لا يعزب عن علمه شيء من الأشياء وأودع فيه فنون الحكم والأسرار علىٰ وجه بديع لا تحوم حوله الأفهام حيث أعجزكم قاطبة بفصاحته وبلاغته وأخبركم بمغيبات مستقبلة وأمور مكنونة لا يهتدي إليها ولا يوفق إلا بتوفيق ٱلله تعالىٰ العليم الخبير عليها ، وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ فهو للتنبيه علىٰ أنهم استوجبوا العذاب علىٰ ما هم عليه من الجنايات لـٰكنه جل جلاله أخر عنهم ذلك ، فهو سبحانه أزلاً وأبداً مستمر في المغفرة والرحمة ولذا فلا يُعجِّل بالعقوبة .

المتين : هو القوي العظيم الذي لا يُقْهَر ولا يغلب ، وهو الذي يقهر من في السمـٰوات والأرض ولا يقهره أحد سبحانه ، قال : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ (3) .

---

(1) طه ، 7 .
(2) الفرقان ، 5 ـ 6 .
(3) الأنعام ، 61 .

المتين هو الذي يده فوق أيدي الجميع ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [(1)] ، ومما يؤكد أن المراد ذلك أن قوله وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ مشعر بأن هـٰذا القهر إنما حصل بسبب هـٰذه الفوقية ، والفوقية المفيدة لصفة القهر هي الفوقية بالقدرة لا الفوقية بالجهة ، إذ المعلوم أن المرتفع في المكان قد يكون مقهوراً .

وتقرير هـٰذا القهر من وجوه :

الأول : أنه قهار للشيء بالوجود من لا شيء .

الثاني : أنه قهار للوجود بالإفناء ، ولذا فلا وجود إلا بإيجاده ولا عدم إلا بإعدامه في الممكنات .

الثالث : أنه قهَّار لكل ضد بضده فيقهر النور بالظلمة والظلمة بالنور ، والنهار بالليل والليل بالنهار . وتمام تقريره في قوله : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [(2)] .

---

(1) الفتح ، 10 ـ 15 .
(2) آل عمران ، 26 .

وتأمل في سائر الأحوال والصفات لتعرف أن حصول التضاد بينها يقضي عليها بالمقهورية والعجز والنقصان ، وحصول هـٰذه الصفات في الممكنات يدل علىٰ أن لها مدبراً قادراً قاهراً منزهاً عن الضد والند ، مقدساً عن الشبيه والشكل . كما قال : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (1) .

الرابع : أن هـٰذا البدن مؤلف من الطبائع الأربع ، وهي متنافرة متباغضة متباعدة بالطبع والخاصة ، فاجتماعها لا بد وأن يكون بقسر قاسر ، وأخطأ من قال إن ذلك القاسر هو النفس الإنسانية ، لأن تعلق النفس بالبدن إنما يكون بعد حصول المزاج واعتدال الأمشاج ، والقاهر لهـٰذه الطبائع علىٰ الاجتماع سابق علىٰ هـٰذا الاجتماع ، والسابق علىٰ حصول الاجتماع مغاير للمتأخر عن حصول الاجتماع . فثبت أن القاهر لهـٰذه الطبائع علىٰ الاجتماع ليس إلا ٱلله المتين جل جلاله ، فقال : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ ﴾ وأيضاً فالجسد بلا روح ونفس طاهرة كثيف سفلي ظلماني فاسد عفن ، والروح لطيف علوي نوراني مشرق باق طاهر نظيف ، فبينهما أشد المنافرة والمباعدة . ثم إنه سبحانه جمع بينهما علىٰ سبيل القهر والقدرة ، وجعل كل واحد منهما مستكملاً بصاحبه منتفعاً بالآخر . فالروح تصون البدن عن العفونة والفساد والتفرق ، والبدن يصير آلة للروح في تحصيل السعادات الأبدية ، والمعارف الإلـٰهية ، فهـٰذا الاجتماع وهـٰذا الانتفاع ليس إلا بقهر ٱلله تعالىٰ لهـٰذه الطبائع ، وأيضاً فعند دخول الروح في الجسد أعطىٰ الروح قدرة علىٰ فعل الضدين ، ومكنة من الطرفين ، إلا أنه يمتنع رجحان الفعل علىٰ الترك تارة والترك علىٰ الفعل أخرىٰ إلا عند حصول الداعية الجازمة الخالية عن المعارض . فلما لم تحصل تلك الداعية امتنع الفعل والترك فكان إقدام الفاعل علىٰ الفعل تارة وعلىٰ الترك أخرىٰ بسبب

(1) الأنعام ، 17 ـ 18 .

حصول تلك الداعية في قلبه من ٱلله يجري مجرىٰ القهر فكان قاهراً لعباده من هـٰذه الجهة ، وإذا تأملت هـٰذه الأبواب علمت أن الممكنات والمبدعات والعلويات والسفليات والذوات والصفات كلها مقهورة تحت قهر ٱلله مسخرة تحت تسخير ٱلله تعالىٰ [1] .

المتين هو الظاهر الذي يعلم بكل أمر ظاهر أو باطن ، وهو المسيِّر لكل مسيَّر ، ولذا فهو المثبت بوجوده الحق ، الذي لولاه ما كان الوجود والحياة والممات والبعث ، ولولا وجوده ما كان الغيب الذي لا نعلمه ، ولذا فلو لم يكن المتين ما كان الغيب ، الذي وحده يعلم أمره ، وهنا يكون الإعجاز الكبير الذي لا يمكن للخليفة من بلوغه ، فالخليفة يعلم علم المستقبل ولا يعلم علم الغيب ، ولهـٰذا فعلم المستقبل الذي هو من علم الإنسان هو كما يلي :

المستقبل هو الوقت المنتظر الذي يحتوي علىٰ الآمال وهو غير قابل للتذكُّر مع أنه قابل للتفكُّر ، والتفكُّر لا يهتم باستدعاء المعلومات الجاهزة ، بل هو المتطلع إلىٰ ما هو متوقع ، نتيجة استنتاجه واستقرائه لمضمون الماضي الذي تكمن فيه المعلومات والتجارب وتتراكم فيه الخبرة ، ولذلك يستمد المستقبل تطوره وتجديده من الماضي الذي يرتبط به في الآن ، ولذلك تتداخل المعلومات كما يتداخل الزمان مع الحركة ، مما يجعل الحياة نسيج الأفعال في الزمان والحركة ، فلا زمان بلا حركة ، ولا حركة بلا زمان ، ولا حياة بدونهما .

المستقبل لا يحصىٰ ، وذلك لعدم تسجيله بعد في سجلات التاريخ ، مع أنه مسجل كوقت في الزمان والحركة ، ولهـٰذا سيأتي بالقوة الفاعلة من خلال قوة الزمان والحركة الفلكية ، فبما أن اليوم قد دخل والحركة مستمرة إلىٰ النهاية مع الزمان ، فبالضرورة سيأتي غد لا محالة ، وغد قد يكون نهاية

(1) تفسير الرازي ، ج 6 ، ص 313 .

لما سبق وقد يكون استمراراً له ، وهـٰذه بالنسبة إلينا غير معلومة مع أنها متوقعة .

المستقبل هو الذي سيأتي بعد كتابة هـٰذه الكلمة في حالة مواصلتي الكتابة ، وهو الفكرة التي ستأتي بعد ما أفكر فيه ، وهو الزمان الذي فيه طموحاتنا وما نتوقع ، والذي من أجله نتنفس ، ونشرب ، ونأكل ، ونفكِّر ، ونتعلم ، ونعمل ، ونتصدق ، ونصلي ، ونحب ، ونتزوج ، وندَّخر وفق حاجاتنا ، ونؤمِّن علىٰ أرواحنا وممتلكاتنا ، ونخاف ، وهو نهاية البداية وثبات الحركة ، وعليه كل حركة من أجل المستقبل .

يتكوّن كل من المستقبل والحركة من زمان وفعل (محتوىٰ ومضمون) . وعليه لا يمكن أن يتحقق المستقبل بدون زمان وفعل ، ولا يمكن أن تكون الحركة بدون زمان وفعل ، وعندما تصل الحركة إلىٰ لحظة النهاية ، يكون العدم ، وينتهي المستقبل بالنسبة إليها مادامت في حالة عدم ، وعليه يستمر المستقبل كلما كانت هناك حركة ، وتستمر الحركة كلما كان هناك مستقبل .

ولو لم يكن هناك مستقبل ما كان هناك أمل ، ولا أمانٍ ، وما فكرنا فيما ينبغي أن نفكر فيه وهو ما يشغلنا . وبناء علىٰ ذلك ينبغي أن تكون مناهجنا مستقبلية ، لكي نعرف من نحن ، وما يجب علينا القيام به ، ونعرف من أجل ماذا نُفكّر ، ومن أجل ماذا نتعلم ؟ ومن أجل ماذا نعمل ، ونحلل ، ونعالج ؟ ولماذا طرحت هـٰذه الأسئلة ؟ وهل ينبغي أن يتجاوز تفكيرنا الزمان ، أم ينبغي أن يقتصر عليه ؟

إذا كانت الإجابة بتجاوزه فإننا نفكر ، وإذا كانت بالاقتصار عليه فإننا نتذكر وننتظر ، نتذكر الماضي ، وننتظر حتىٰ يأتي الغد في لحظة الآن المستقبلية ، أي نعطل قدراتنا ومواهبنا ولا نفكر ، لأن الغد لم يأتِ بعد . كل هـٰذه وتلك الأمثال تجعلنا نتذكر كما قال تعالىٰ في سورة الحشر : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، وكذلك يقول تعالىٰ في سورة

الأعراف : ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

المستقبل يكمن في الزمان والحركة كما تكمن الشجرة في البذرة ، مما يجعل الشجرة تكمن في الزمان المستقبل في البذرة الآن ، مع أن هـٰذه البذرة كانت في الماضي من الشجرة ، وعندما تصبح البذرة شجرة مثمرة تكون البذرة في الماضي ، وتكون الشجرة في الآن ، وتكون الثمار في المستقبل . وهـٰكذا في التقاء الأحبة الآن بين الحيوان المذكر مع البويضة يكمن المستقبل الذي تكمن فيه هو الآخر معاني الأمومة والأبوة والأخوة بين البشر عندما تأتي الآن المستقبلية في وقت النضج العقلي والعاطفي والوجداني للبشر من مرحلة الطفولة المبكرة إلىٰ مرحلة الشيخوخة المتأخرة .

إن ما وقع في الآن الماضي سيكون بالضرورة حاضراً في الآن المستقبل ، ولهـٰذا لا يمكن أن يكون الماضي ولا المستقبل إلا في الآن ، فالمؤمن الذي يعمل صالحاً في دنياه يعمل في حقيقة الأمر من أجل المستقبل ، ومستقبله سواء أكان سالباً أو موجباً ، هو ما كان له حاضراً في الماضي . إذاً الماضي كأحداث وأفعال سيكون حاضراً في المستقبل (الحاضر المستمر) ويُسأل صاحبه عليه حتىٰ يعاقب أو يجازىٰ به ، فيقول ٱلله تعالىٰ في سورة آل عمران : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ .

تؤكد هـٰذه الآية علىٰ أن كل عمل ماض هو من أجل المستقبل ، وهـٰكذا عمل الحاضر الذي هو الآخر سيقع في الزمان الماضي إلىٰ أن يجد نفسه في الزمن المستقبل ، وذلك لأنه لم يكن من أجل الماضي ، بل إنه العمل الذي قد تم من أجل المستقبل ، ولذلك يكون الماضي كالخزينة المملوءة التي لم تفتح بعد الفتحة النهائية ، بل إنها في الحياة الدنيا لا تفتح إلا بمقدار استدعاء المعلومات التي يمكن أن تفيد في صنع تاريخ قريب ، ولهـٰذا ينبغي أن نعمل في حاضرنا خيراً لكي يكون لنا مستقبلٌ خيِّرٌ . وكل الأعمال التي تقع في الزمن

الآن تمسي في الماضي وتصبح علىٰ خير المستقبل ، وحتىٰ إن نسيها أصحابها فلا يضيع منها شيء بالنسبة إلىٰ سجل الزمان والحركة ، ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ . تؤكد هـٰذه الآية علىٰ أن كل شيء وجد يمكن إحصاؤه ، ولـٰكن لقصور القدرات البشرية عن ذلك عجزت عن إحصائه مع أنه محصي من قبل الخالق عز وجل ، ولهـٰذا كل عمل قد حدث سيكون حاضراً في المستقبل لتتم المسألة ويتحقق له الجزاء .

الوقت منتظم في الزمان كانتظام حبات المسبحة في خيطها ، وبالتالي يمكن التعرف علىٰ الأوقات وحصرها وعدها ، ولـٰكنه من غير الممكن عد الزمان ، فعندما تعد واحدة من حبات المسبحة المتكونة من المائة حبة تصبح هـٰذه الأولىٰ في الماضي ، وتكون الحبة الثانية الواقعة بين أصابعك في الآن ، وتكون 98 حبة واقعة في المستقبل ، ولـٰكن إذا قررت أن تكرر التسبيح أو عد حبات المسبحة أكثر من مرة واحدة ، تكون الحبة التي وقعت في الزمان الماضي هي الأخرىٰ واقعة في المستقبل وذلك لأنها هي الأخرىٰ سيتم عدها أو التسبيح بها مرة ثانية ، وفي هـٰذه الحالة لن يكون عدد الحبات المتبقية للتسبيح كما سبق وأن ذكرنا هي 98 حبة ، بل يكون عدد الحبات المتبقية 99 حبة ، وعلىٰ هـٰذا النحو يكون عدد الحبات في جميع الدورات هو 99 حبة عندما تكون الاستمرارية في التسبيح علىٰ أن تكون في كل دورة تسبيحية حبة واحدة في الآن بين الأصابع ، ولا يكون العد التناقصي إلىٰ الصفر إلاّ في الدورة التسبيحية الأخيرة ، وعليه كل الماضي هو واقع في المستقبل المعلوم بما أنه سيكون حاضراً ، مصداقاً لقوله تعالىٰ في سورة آل عمران : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ .

إذاً كل ما قمنا به من أعمال سيكون حاضراً في المستقبل ونكون نحن مساءلين عنه ، ولهـٰذا لن ينتهي الماضي بعد ، لأن نهايته هي في الآن

المستقبلية وليست في الآن الماضية التي كنا نعتقد بأنها النهاية . ويكون قولنا إن الزمان كالخيط والأوقات منظومة عليه كحبات المسبحة هو المثال القريب لتوضيح أحداث الماضي التي وقعت في الآن الحاضرة وأصبحت في الماضي وفق دورة الحركة والزمان فلكياً . وستكون جميعها في المستقبل قبل المساءلة والمراجعة ، وتكون بالضرورة في المستقبل عند بدء المراجعة ، وكل حاضر منها سيكون هو الآخر في الماضي بعد إتمام عملية المراجعة أو المساءلة . فعند دراسة الحالات الفردية من الناحية السلوكية والاجتماعية والصحية . تتطلب بالضرورة مراجعة سجل الماضي الذي يتعلق بالحالة ، والذي يتضمن الأحداث والأفعال والظروف التي أثرت في السلوك أو أثرت في الحالة الصحية ، أي دراسة الماضي لمعرفة الأسباب والعلل التي تحتويها الحالة مما يجعل هـٰذه الحالة بالنسبة إلىٰ الباحث أو الأخصائي قبل بدء الدراسة هي في المستقبل ، وفي أثناء التشخيص والتحليل تكون في الحاضر ، وبعد العلاج تصبح الحالة في الماضي .

ومع أن الزمان لم يكن له شكل ولا صورة كما هو حال الأجسام الأخرىٰ المتحركة ، إلاّ أنه هو الآخر في حالة حركة ، فيقول ٱلله سبحانه وتعالىٰ في سورة الإسراء : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ . ولو لم يكن هناك ليل ونهار ما كانت الأيام ولا كانت الشهور ولا السنون والدهور ، ولا كانت هناك حركة ، أي لم يكن لدينا ما نعد من الزمان ونحن علىٰ سطح الأرض ، أما رواد الفضاء عندما يخرجون عن قوانين حركة الأرض فقد تناسبهم مقاييس فيزيائية أخرىٰ لا تعتمد علىٰ حركة الأرض ، ولذلك لم يقل ٱلله عز وجل لتعلموا عدد الزمان بل قال : ﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ ﴾ ، ولهـٰذا قلنا : الزمان والحركة لا يعدان ، بل الذي يعد هو المتحرك الأرض والقمر والشمس وبقية الكواكب كل في فلكه ، وهـٰذه جميعها قابلة للمشاهدة

والملاحظة ، وهـٰكذا حال الليل والنهار والفجر والمغرب كمواقيت تشاهد وتلحظ وبالتالي فهي تعد . والفارق بين الأجسام والمواقيت هو أن الأجسام قابلة للمس المادي ، أما المواقيت الزمنية كالليل والنهار والفجر فلا يمكن لمسها مادياً ، ولهـٰذا من الممكن الاحتفاظ بشيء ما من الأجسام المادية كالأهلة والساعات الذرية في قوارير المعامل والمختبرات ، ولا يمكن الاحتفاظ بشيء ما من المواقيت الزمنية في قوارير المعامل والمختبرات . وعليه لو لم يكن الزمان في حالة حركة ما كان الليل والنهار ، وما كان الفجر والمغرب ، وما عرفنا عدد السنين والحساب ، وما عرفنا الوقت الذي تستغرقه الكواكب والنجوم والأجسام في حركتها الذاتية في مجال فلكها الذي تسبح فيه أو تمتد إليه .

والحركة والزمان شيئان لا يمكن مشاهدتهما مع أنهما يلاحظان بسهولة ويسر ، فالذي يشاهد هو المتحرك وليست الحركة ، الكواكب تُلمس وتشاهد وتلحظ حركتها ، أما الليل والنهار والفجر والمغرب فمع أنها تشاهد وتلحظ إلاّ أنها لا تُلمس ، ومع ذلك كل ما يشاهد يعد حتىٰ لو لم يُلمس كالليل والنهار ، وذلك لأن لكل منهما بداية ونهاية يمكن رصدهما وتحليلهما وتسجيلهما .

الحركة والزمان كما سبق وأن وضحنا لا يمكن مشاهدتهما ولا لمسهما ولا ذوقهما ولا شمهما مع أنهما يلحظان ، ولذلك يمكننا التمييز بين الحركة والمتحرك ، وبين الحركة والامتداد . فالامتداد هو مجال حركة الجسم أو الشكل ، فالمثلث هو امتداد بين نقاط زواياه الثلاث ، ولو لم يحدث بينها امتداد ما كان للمثلث صورة أو شكل متصل ، وهـٰكذا مجال تكوين الشكل الدائري أو الرباعي أو أي شكل من الأشكال الهندسية ، فالامتداد يكون في تكوين الشكل وفي تحديد اتجاه حركة الشكل ، كاتجاه حركة الأرض في دورانها حول نفسها ، ودورانها حول الشمس ، فهي لا تمتد إلاّ في مجالها

الفلكي ، ولهٰذا فالامتداد هو الذي يرسم شكل الدائرة ، أما الحركة فهي الطاقة التي بها يمتد المتحرك سواء أكان المتحرك قلماً لرسم مستقيم أو منحنىً أو أي شكل ، أو حركة كوكب ، أو حركة كائن من الكائنات .

الزمان والحركة متناهيان حيث أنهما محصوران بين قوة الأول والآخر اللذين خلقهما وجعل لهما امتداداً ، ولذلك فهما المخلوقان في الآن والمكان الواحد ، مما يجعل لهما أجلاً واحداً (نهاية واحدة) ولو لم نؤمن بأن الزمان متناه فكيف نؤمن إذاً باليوم الآخر ؟ فاليوم الآخر هو الذي لا يكون فيه الليل والنهار والفجر والمغرب (المعروفات) في حساباتنا ، والتي بها تعد أيامنا وشهورنا وأعوامنا ودهورنا ، والتي جميعها ستنتهي ليكون اليوم الآخر ، واليوم الآخر هو الذي لم يكن مثل يومنا هٰذا الذي نعرفه ، ولأنه الآخر فهو المختلف بالضرورة عما عرفناه في يومنا الأول . وبما أن للزمان بداية وللحركة بداية إذاً ممّا لا شك فيه ستكون لهما نهاية .

حركة الزمان تماثل حركة الأجسام في قوتها وانتظام سرعتها ، ولهٰذا تنتظم حركة المواقيت وتتزامن مع حركة الكواكب ، فلا يأتي الليل مرتين في اليوم الواحد ، ولا تتأخر حركة الأرض عن ميقاتها ومكانها ليتأخر الشروق عن النهار ويتضاعف زمن الليل ، بل الكل في فلك يسبحون وفق سرعة ثابتة ومدارات ثابتة . فاليوم هو اليوم في كل دورة للأرض حول نفسها وحول الشمس ، وذاك اليوم من العام الماضي لا يختلف عن هٰذا اليوم الذي يماثله من عامنا هٰذا ، الاختلاف بينهما في المحتوىٰ الذي تتضمنه الأيام ، فمحتوىٰ هٰذا اليوم قد لا يماثل محتوىٰ العام الماضي من حيث درجة حرارته أو برودته أو من حيث الأحداث التي وقعت فيه ، وعليه زمن اليوم لا يختلف وفق كل دورة سنوية ، والمحتوىٰ اليومي مختلف بين الحين والآخر ، فاليوم الذي ولد فيه محمد رسول ٱلله ﷺ هو اليوم الذي توفي فيه ، ولذلك قلنا : اليوم واحد والمحتوىٰ مختلف .

الزمان دائرة متصلة يتواجد فيها الماضي جنباً إلىٰ جنب مع الحاضر والمستقبل ، ولو عُدنا إلىٰ الماضي البعيد إلىٰ أن نصل إلىٰ النقطة الآن فلا نجد ماضياً علىٰ الإطلاق ، بل نجد الاثنين معاً الآن والمستقبل ، ولا نجد الماضي ، وذلك لعدم تكوّنه بعد ، وبعد أن قُضيت الآن أصبحت ماضياً وحدها ، وكل ما عداها مستقبل ، ولهـٰذا كان المستقبل هو الأكثر والأوفر الذي لا يقارن بأي وقت آخر ، لا بالماضي الذي في تعداده إلاّ الآن الواحدة ، ولا بالحاضر الذي لا يمتلك إلاّ اللحظة الآنية ، وعليه بداية الحياة مستقبل ونهايتها مستقبل ، فالمستقبل الأول هو المتكون من الحياة الدنيا ، والمستقبل الآخر هو المتكون من نهايتها ، ممّا يجعل نهاية الحياة الدنيا بداية للحياة الآخرة ، والتي يكون فيها كل الماضي كمحتوىً هو المستقبل الحسابي لمن وجد في اليوم الأول (الحياة الدنيا) ، ولهـٰذا لا يتم الاتفاق مع أرسطو ومؤيديه بأن كل ما هو ماضٍ قد فسد ، فالزمان الماضي لم يفسد بل إنه في السجل المحفوظ الذي فيه حسابنا ما ثقل وما خف منه .

والمتين الظاهر هو البادي بكل شيء فقد خلق السمـٰوات والأرض وما فيهما ولم تكن شيئاً من قبل : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [1] .

وحجج المتين تليق به فهي نابعة من قدرته وحكمته لذا جاءت في الغالب لتناسب من أرسلت له من الأقوام ولو ارتفعت علىٰ مستوىٰ إدراكهم لعجزوا عن الفهم ولو كانت دون ذلك لاستهزؤوا بها ، وحججه مقترنة برسالاته المرسلة بالأنبياء والرسل ، فموسىٰ جاء بما يفوق سحر قومه دون أن يكون مثله : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا

(1) الأعراف ، 54 .

جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [1] ، فعندما أرادوا أن يعارضوا معجزة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنواع من السحر ، ليظهروا عند الناس أن ما أتىٰ به موسىٰ من باب السحر ، فجمع فرعون السحرة وأحضرهم قَالَ لَهُمُ موسىٰ أَلْقُواْ مَا أَنتُمْ مُّلْقُونَ ، فإن قيل : كيف أمرهم بالكفر والسحر والأمر بالكفر كفر ؟

موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمرهم بإلقاء الحبال والعصي ، ليظهر للخلق أن ما أتوا به عمل فاسد وسعي باطل ، لا علىٰ طريق أنه عليه الصلاة والسلام أمرهم بالسحر ، فلما ألقوا حبالهم وعصيهم قال لهم موسىٰ : ما جئتم به هو السحر الباطل . قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [2] .

وكانت حجة عيسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ من قريب علم قومه وسعيهم للتفوق فيه ، وقد غلبهم لأن حجته من المتين فشفىٰ من الأمراض ما عجز عنه القوم : ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [3] .

أما حجة المصطفىٰ محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقد اختارها المتين بذات المستوىٰ لكل حججه أي من قريب الفهم مع تفوق واضح ، فإذا كان

---

(1) يونس ، 80 ـ 81 .
(2) يونس ، 79ـ82 .
(3) آل عمران ، 49 .

العرب أصحاب لغة بلاغة وأسلوب فقد جاء القرآن ليتغلب علىٰ كل ملكاتهم وأفحمهم عندما دعاهم إلىٰ الإتيان بسورة من مثله : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (1) .

وعلىٰ الخليفة أن يكون من العارفين بالحجج وبتأثيرها وأن يختار الأقوىٰ والأوضح منها وهو يحاجج من يشاء في أمور الوحدانية وأمور الرسالة الخاتمة وأمور الدين ، وان لم يلم بذلك فعليه الاستعانة بالصالح ليقوم بأمر الإفهام والتمييز لأهمية ذلك ، فالحجج من أكثر ما يوقع في النفس الإنسانية الأثر علىٰ سبيل القبول أو الرفض ، وعليه بالمجادلة بالتي هي أحسن ، قال تعالىٰ : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (2) .

المتين يبطش بأعداء الدين المستحقين لذلك بكفرهم وعنادهم وإصرارهم علىٰ الكفر ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ (3) .

وبطش المتين موقوت أحياناً ، قال تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ (4) .

وقد نبه المتين عباده إلىٰ هٰذا النوع من البطش رحمة منه بالعباد ولكي لا تكون للناس علىٰ ٱلله حجة قال : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم

---

(1) البقرة ، 23 .
(2) النحل ، 125ـ128 .
(3) البروج ، 12 .
(4) هود ، 82 ـ 83 .

﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (1) ، ولو سأل سائل عن حكمة ذلك يكون الجواب أن في الإمهال رحمة من الرحمـٰن عسىٰ أن يكون العود عن الكفر والإلحاد فتنزل الرحمة بدل العذاب ، أما البغتة فهي مرحلة بعد البلاغ والتنبيه ، وقاعدة المتين في ملكه وعدله سبحانه أنه يقرن بطشه بالتنبيه المسبق : ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (2) ، وعلىٰ الخليفة فهم ما في الوعي والتنبيه للرعية من أهمية في سير أمور الحياة وتمييز الخبيث من الطيب والمطيع من العاصي لكي تستقيم له أمور دينه ودنياه فيقوم بأمر الخلافة علىٰ أكمل وجه .

اللهُمَّ يا المتين يا من جعلت صلاتك رحمة علىٰ سيدنا محمد اجعلنا عليه دائماً من المصلين والمسلمين ، اللهُمَّ أنت المتين ذو الاقتدار الكامل وذو القوة التامة ، وأنت خير الرازقين ترزق من تشاء بغير حساب ، سبحانك رزقك ما له من نفاد ، بيدك الخير إنك علىٰ كل شيء قدير ، فارزقنا قوة منك نكون بها عوناً علىٰ الخير ، ودرءًا للشر ، واجعلنا في الخير بنياناً مرصوصاً وسداً محفوظاً ندفع بأهل الخير إلىٰ الخير ، ونمنع أهل الشر عن الشر ، حتىٰ تتحقق خلافتك علىٰ الأرض .

اللهُمَّ يا المتين متن الإيمان في قلوب المسلمين حتىٰ تطمئن قلوبهم ، ومتّن القول الحق في ألسنتهم حتىٰ يدمغ الباطل ، ومتن العلم في عقولهم حتىٰ تُنار دروبهم وتستقيم أعمالهم ، ومتن اسمك في عقولهم وقولك في إنصاتهم حتىٰ يرشدوا ، إنك أنت المتين جل جلالك !

✍ ✍ ✍

---

(1) الزمر ، 55 .
(2) الإسراء ، 15 .

الوَلِيُّ جل جلاله

الولي : اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ ، وهو من يتولىٰ الأمر ويتولىٰ الخلق ومن يتولىٰ الحياة والموت والبعث . وفي مختار الصحاح جاء اسم الوَلِيِّ بمعنىٰ القريب ، وهو ما يقاربك [1] .

الوليُّ : في أَسماء ٱلله تعالىٰ : الوَلِيُّ هو الناصِرُ ، والمُتَوَلِّي لأُمور العالم والخلائق ، والقائمُ بها . والولاية : النصرة ، ولا يملكها إلا ٱلله الولي جل جلاله .

والولي المطلق ٱلله ومن يتبعه يكون وليّاً بالإضافة متخلقاً بأخلاق هـٰذا الاسم العظيم ، فيتداخل المعنىٰ الإلـٰهي بوجه الإطلاق مع المعنىٰ الإنساني بوجه الاستحقاق إن أطاع الولي بالإضافة الولي المطلق ، ومن هـٰذا التداخل الذي لا يصعب علىٰ صاحب الذوق السليم والفكر المستنير أن يعرف الفروق بين المطلق والمضاف .

الولي : « هو الذي يتولىٰ عباده عموماً بتدبيرهم ونفوذ القدر فيهم ، ويتولىٰ عباده بأنواع التدبير ، وهو الولي الذي صرف لخلقه ما ينفعهم في دينهم ودنياهم وأخراهم ، وقد سمىٰ ٱلله نفسه بهـٰذا الاسم فهو من الأسماء الحسنىٰ » [2] .

(1) الصحاح في اللغة ، 2 ، 295 .

(2) شرح أسماء ٱلله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة ، ج 1 ، ص 106 .

الولي من العباد : هو المستخلف في الأرض وهو من يحب ٱلله عز وجل ويحب أولياءه وينصره وينصر أولياءه ويعادي أعداءه ، ويحق الحق ويعمل علىٰ إزهاق الباطل [1] .

الولي النصير . وفي القرآن العزيز : ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [2] ، والولي بالإضافة المطيع ، وهو التابع إيماناً لمن أولىٰ أمره إليه .

في عرف أهل أصول الدين : « هو العارف بٱلله تعالىٰ ، بأسمائه ، وصفاته ، علىٰ حسب ما يمكنه ، المواظب علىٰ الطاعات ، المجتنب للمعاصي ، المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات » [3] .

فالولي اسم من أسماء ٱلله تعالىٰ بمعنىٰ الناصر أو النصير ، وهو المتولي لجميع أمور الخلائق والمتصرف فيها .

والناصر بالإطلاق هو ٱلله سبحانه وتعالىٰ الذي ينصر من يواليه ومن ينصره ، ولا يوجد من يوالي ٱلله مثل الخليفة سيد الخلق ﷺ الذي أوقف حياته لنصرة الحق ولنصرة الدين الحنيف ، لذا فٱلله ينصر من ينصره ، وإن ظن البعض أن ٱلله لن ينصر النبي ﷺ فهـٰذا الظن وهم محض ، يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ [4] .

والولي هو المتولي لأوامر الولي المطلق (ٱلله) سبحانه وتعالىٰ ، وهو الخليفة الذي أخذ علىٰ عاتقه حمل الأمانة فيدعو إلىٰ المعروف وينهىٰ عن المنكر .

---

(1) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص 130 .
(2) آل عمران ، 68 .
(3) القاموس الفقهي ، ج 1 ، ص 390 .
(4) الحج ، 15 .

ومعلوم : أن البشر كثيرون ، ولـٰكن الذي حمل الأمانة ، وتولىٰ مشقتها واحد ، وهو الإنسان الذي يتسم بصفات الإنسان الأمثل أو النموذج الأصوب وهو بهـٰذا المعنىٰ إنسان واحد فرد في كل زمان يصلح ٱلله به فساد المفسدين من جنسه ، ويمكن أن يتبعه آخرون علىٰ درجات متفاوتة من صلاحه ورغبته في التعمير بشكل إنساني يؤدي الأمانة التي استخلفه ٱلله عليها ، ألم نسمع قول ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (1) فالأمانة هي مجموع أوامر ٱلله ونواهيه التي لم يقدر علىٰ حملها المخلوقات العظيمة من سموات وجبال وأراض فحملها الإنسان وتولىٰ أمرها فتولاه ٱلله بالعناية والرعاية والحفظ والنصرة وكان سميعاً قريباً منه لأنه سبحانه الولي النصير ، فمن ظلم نفسه بكفره ونفاقه فلن يتولاه ٱلله لأنه خالف معنىٰ الأمانة ، ومن آمن فسيؤيده ٱلله ويرحمه ويغفر له تقصيره إن قصّر وينصره ويقويه مع كل توفيق .

فٱلله ينصر من ينصره في الدنيا وهـٰذا من المتوقع المشاهد مشاهدة عينية نصراً ملموساً مادياً ، أما النصر في الآخرة فكيف يكون وما هيأته ؟ بالتأكيد سيكون نصراً مؤزراً ، وهـٰذا في تصورنا سيكون بالمقام المحمود الذي لا ينبغي إلا لعبد من عباد ٱلله ، وبالجنة التي ترضىٰ من تولىٰ ٱلله ونصر دينه في الدنيا ، فيكون المقام المحمود للنبي صاحب المنهج الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ورضا ٱلله بحسن ثوابه لمن اتبع ذلك المنهج وعمل به في إصلاح الأرض محل الخلافة رغم الشدائد والمصاعب التي واجهت من أراد أن ينصر ٱلله .

---

(1) الأحزاب ، 72 ـ 73 .

ولذا فالولي هو الناصر في الشدائد ، وعند تأزم المواقف عندما تبلغ القلوب الحناجر عندما تتوقف أسباب الأرض ، تتنزل أسباب الولي الناصر الذي لا تمنعه أسباب ، ولا توصد أمام نصره أبواب ، وهـٰذه كلمته لمن يواليه يطمئنهم ويثبت قلوبهم : ﴿ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ (1) . وهـٰذا الارتباط التلازمي بين المولىٰ اسم الفاعل من الولي المزيد بالهمزة والنصير صيغة المبالغة التي تدل مع المشتق السابق (المولىٰ) علىٰ التمكن واكتمال الفعل ، وهـٰذا نجده في عموم القرآن ليدل دلالة لا لبس فيها علىٰ أن نصر الولي لا انفكاك فيه لأولياء الولي الذين اتبعوه ونصروه ، وهـٰذا الوعد الذي يأتي من قدير كبير جليل هو ما جعل المؤمنين الذين طردوا وشردوا ونهبت أموالهم يلوذون بجناب الوليّ ، حتىٰ أن الناس قد جمعوا ليكيدوهم ويهزموهم فما زادهم ذلك إلا ثباتاً وإيماناً ، يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ (2) . وهـٰذا الموقف الثابت لا يفسره إلا الإيمان بقوله تعالىٰ الذي يخاطب به المؤمنين : ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (3) . فالنفي والاستثناء بما وإلا يؤكدان في صرامة أن ٱلله هو الولي الذي ينصر المؤمنين به المنفذين لمنهجه المتبعين لنبيه ﷺ .

فالمنهج الواضح البيّن الذي لا شك فيه ولا لبس في معانيه هو الذي ارتضاه ٱلله منهجاً لتحقيق الخلافة المثلىٰ علىٰ الأرض بعد الزيف الذي لحق بما أرسل به الأنبياء إلىٰ الأمم السابقة ، لذا يؤكد ٱلله علىٰ هـٰذه الجزئية ويخاطب الأمة جميعها من خلال خطابه للمثل الأعلىٰ والقدوة الحسنة

---

(1) الأنفال ، 40 .
(2) آل عمران ، 173 .
(3) البقرة ، 107 .

للأمة ـ للنبي ﷺ ـ فيقول موجهاً ومؤكداً علىٰ عدم الانحراف ولو قليلاً نحو المناهج السابقة لأنه لا فائدة فيها ولن يتحقق من ورائها صلح بين المناهج ، ولن يرضىٰ أصحاب تلك المناهج حتىٰ باتباع منهجهم لأنها لا تعترف إلا بنفسها : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (1) .

و ٱلله الولي ينصر من اتبع المنهج الصحيح الذي أنزله ٱلله علىٰ الأنبياء السابقين الذين اجتمع أمرهم في سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أبي الأنبياء من بعده ، لذا ستكون الحجة الواهية لمن خالف وأفسد أنهم يتبعون ملة إبراهيم ، لـٰكن ٱلله الولي يبطل حجتهم ويقول : ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (2) . فالذين يتبعون النبي الخاتم هم أولىٰ الناس بإبراهيم لأنهم يقيمون التوحيد الخالص وهو أول وأهم ركن لوجود الإنسان علىٰ الأرض ، وهـٰذا الركن لن يتحقق بصفاء ونقاء إلا باتباع المنهج الصحيح الذي يتأتىٰ بالإيمان المطلق بٱلله رباً واحداً أحداً ناصراً ولياً للمؤمنين الذين آمنوا بالنبي الخاتم .

ولأن ٱلله ولي من والاه ونصير من نصره فهو يبعد الظالمين عن مدار رحمته لأنهم ظلموا أنفسهم فليس لهم بسبب ظلمهم من وليٍّ ولا نصير ، لذا يبطل السؤال لماذا لم يجعل ٱلله الناس أمة واحدة ؟

والولي هو المدبر الحكيم للعالم وما فيه . فليتتبع الإنسان ببصره في ملك ٱلله ، سواءً كان هـٰذا الملك في داخل الإنسان أو خارجه ليتبين أن ٱلله الذي تولىٰ أمر الكون قد جعل كل ما فيه بحكمة ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ

(1) البقرة ، 120 .
(2) آل عمران ، 68 .

ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [1] . يا لها من قدرة تدعو إلىٰ السجود الروحي والقلبي والجسدي لمن يتأمل ويستشعر برهبة وعظمة وجلال حكمة ٱلله وتدبيره لأمر العالم وما فيه ، فلن تجد العيون نقصاً تلحقه بتدبير الولي القدير الحكيم ، ومحتم عليها أن تعود حسيرةً طائعةً لرب العالمين إن كانت لأصحاب قلوب مؤمنة ، أو تعود صاغرة ذليلة إن كانت لأصحاب القلوب الكافرة .

ومن تتوهم نفسه أن العالم ليس له مدبر يتولىٰ أمره فلن يعود ذلك عليه إلا بالكد والتعب البدني والنفسي والحسرة ، فولي العالم ومدبره قال وقوله الحق : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ [2] . سنري هٰؤلاء المشركين دلائلنا علىٰ صِدقك ، وأنّه وعدُ ٱلله لعباده جميعاً ، وذلك بأن نطلعهم علىٰ شيء من خفايا هٰذا الكون ومن خفايا أنفسهم علىٰ السواء . فقد كشف العلم عن أمور كثيرة عن الأرض وما عليها ، وعن النظام الشمسي وما فيه ، وأن هٰذه الأرض وما حولها ما هي إلا ذرات صغيرة في الكون العظيم ، وأن كل المعلومات المتعارف عليها والاكتشافات ما هي إلا ذرة من علم ٱلله الواسع . ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [3] . وكذلك سنري هٰؤلاء المشركين وقائعنا بالبلاد والفتوحات التي تمت علىٰ يدي الرسول الكريم عليه صلوات ٱلله وسلامه ، وعلىٰ يدي خلفائه وأصحابه الكرام ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [4] وأن كل ما جاء به الرسول الكريم هو الحق .

---

(1) الملك ، 1 ـ 4 .
(2) فصلت ، 53 ـ 54 .
(3) الإسراء ، 85 .
(4) فصلت ، 53 .

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ كفىٰ بٱلله شهيداً علىٰ أفعال عباده وأقوالهم ، وعلىٰ صدق محمد فيما أخبر به عنه ، ألم تكفِهم هـٰذه الدلائل الكثيرة التي أوضحَها سبحانه في هـٰذه السورة وفي كل القرآن ، وفيها البيان الكافي لإثبات وحدانيته ، وتنزيهه عن كل نقص ! ! ثم بيَّن ٱلله سببَ عنادهم واستكبارهم بعد كل ما تقدم من حججٍ وبيّنات فقال تعالىٰ : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ إنهم في شك عظيم من البعث والجزاء ولقاء ربهم ، ولذلك كفروا ، وٱلله تعالىٰ محيطٌ بكل صغير وكبير ، لا يفوته شيء في هـٰذا الكون الكبير ، وإليه مردّ الجميع .

والولي من الناس : هو من ينصر ٱلله وينصر شرعه علىٰ الأرض وهو ما يدور البحث في معنىٰ من معانيه ، وكما سبق أن أوردنا تعريفاً له من القاموس الفقهي : « هو العارف بٱلله تعالىٰ ، بأسمائه ، وصفاته ، علىٰ حسب ما يمكنه ، المواظب علىٰ الطاعات ، المجتنب للمعاصي ، المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات » (1) .

وٱلله الولي المطلق ينصر وليّه الذي من صفاته موافقة ما أمر به ٱلله ، واجتناب ما نهىٰ عنه ٱلله ، فيقول ٱلله في الحديث القدسي الذي يرويه النبي ﷺ قَالَ رسول الله ﷺ : إنَّ اللهَ قَالَ : « مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لأَعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ » (2) .

---

(1) القاموس الفقهي ، ج 1 ، ص 390 .
(2) صحيح البخاري ، ج 20 ، ص 158 .

وٱلله سبحانه وتعالىٰ قريب الذات والفعل ، أما قريب الذات فهو يقول عن نفسه جل وعلا : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (1) . والسؤال الوارد في الآية إما أنه كان سؤالاً عن ذات ٱلله تعالىٰ ، أو عن صفاته ، أو عن أفعاله .

* **أما السؤال عن الذات** : فهو أن يكون السائل ممن يجوز التشبيه ، فيسأل عن القرب والبعد بحسب الذات .

* **وأما السؤال عن الصفات** : فهو أن يكون السائل سأل عن أنه تعالىٰ هل يسمع دعاءنا فيكون السؤال واقعاً علىٰ كونه تعالىٰ سميعاً ، أو يكون المقصود من السؤال أنه تعالىٰ كيف أذن في الدعاء ، وهل أذن في الدعاء ، وهل أذن في أن ندعوه بجميع الأسماء ، أو ما أذن إلا بأن ندعوه بأسماء معينة ، وهل أذن لنا أن ندعوه كيف شئنا ، أو ما أذن بأن ندعوه علىٰ وجه معين ، كما قال تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ (2) .

* **وأما السؤال عن الأفعال** : فهو أن يكون السائل سأل ٱلله تعالىٰ أنه إذا سمع دعاءنا فهل يجيبنا إلىٰ مطلوبنا ، وهل يفعل ما نسأله عنه فقوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (3) هٰذا الأمر يحتمل كل هٰذه الوجوه ، إلا أن حمله علىٰ السؤال عن الذات أولىٰ لوجهين :

---

(1) البقرة ، 186 .
(2) الإسراء ، 110 ـ 111 .
(3) البقرة ، 186 .

الوجه الأول : أن ظاهر قوله : (عَنّي) يدل علىٰ أن السؤال وقع عن ذاته لا عن فعله .

والوجه الثاني : أن السؤال متىٰ كان مبهماً والجواب مفصلاً ، دل الجواب علىٰ أن المراد من ذلك المبهم هو ذلك المعين ، فلما قال في الجواب : ﴿ فَإِنِّي قَـرِيبٌ ﴾ علمنا أن السؤال كان عن القرب والبعد بحسب الذات [1] .

وهو قريب الفعال ومنها ما ذكر سبحانه :

1 ـ **علمه قريب** : ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ [2] ، أي المحتضر المفهوم من الكلام ﴿مِنكُمْ﴾ من أولـئك الذين يظنون أنهم أقرب إلي المحتضر ، والأقرب دائماً هو ٱلله جل جلاله بأمره وبقدرته وبجنده المسخرين الذين يروننا ولا نراهم نحن ، وهو علىٰ كل شيء قدير ، والمراد بالقرب أيضا علمه الكامل بكل شيء ، وما يلم بالشيء من معاناة ومن حساب وعذاب وثواب ، سبحانه إنه الولي الأقرب ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [3] .

2 ـ **علمه بأمر الساعة** : قال تعالىٰ : ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [4] ، لما بين حالهم في الدنيا أنهم يلعنون ويهانون ويقتلون أراد أن يبين حالهم في الآخرة فذكرهم بالقيامة وذكر ما يكون لهم فيها فقال : يسألك الناس عَنِ الساعة ، أي عن وقت القيامة ﴿ قُلْ

---

(1) تفسير الرازي ، ج 3 ، ص 109 .
(2) الواقعة ، 83 ـ 85 .
(3) ق ، 16 .
(4) الأحزاب ، 63 .

إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ علمها لا يتبين ، ولذا فإن ٱلله أخفاها لحكمة هي امتناع المكلف عن الاجتراء وخوفهم منها في كل وقت . ثم قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ إشارة إلىٰ التخويف ، وذلك لأن قول القائل ٱلله يعلم متىٰ يكون الأمر الفلاني ينبئ عن إبطاء الأمر ، ألا ترىٰ أن من يطالب مديناً بحقه فإن استمهله شهراً أو شهرين ربما يصبر ذلك ، وإن قال له اصبر إلىٰ أن يقدم فلان من سفره يقول ٱلله يعلم متىٰ يجيء فلان ، ويمكن أن يكون مجيء فلان قبل انقضاء تلك المدة ، فقال هـٰهنا : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ يعني هي في علم ٱلله فلا تستبطئوها فربما تقع عن قريب [1] .

3 ـ **قريب الإجابة** : والولي قريب الإجابة لكل عباده المحسن منهم والمسيء لأنه رب العالمين وليس رب الصالحين فقط ، وتكون الإجابة قريبة متىٰ حصل من العبد ما يقربها ويحبه الولي عز وجل وهو الاستغفار والتوبة ، يقول جل وعلا : ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [2] ، وكل من يدعو ٱلله مخلصاً تكون له الإجابة ، وخاصة المضطر الذي يعرف لا مُفرج للكرب غيره ، حتىٰ وإن كان غافلاً ثم عاد بعقله لعقله وأدرك أنه لا إلـٰه إلا هو القادر علىٰ كل شيء فتكون له الإجابة الشافية ، قال تعالىٰ : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [3] ، سبحانه لا إلـٰه إلا هو الملك المتعال القادر المجيب الفعَّال لما يريد .

وعليه : فإن الولي جل جلاله دائماً قريب بدعوة ، أو بدون دعوة ، وهو المجيب لمن دعاه ، واستغفره ، وتاب إليه سبحانه ، جل جلاله !

---

(1) تفسير الرازي ، ج 12 ، ص 383 .

(2) هود ، 61 .

(3) النمل ، 62 .

4 ـ **نصره قريب** : وذلك لمن آمن بٱلله ونصره حق الإيمان ولم ينفذ إلىٰ عقيدته شيء من الشك في نصر ٱلله : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ (1) ، أما إذا دخل الشك في نفس المؤمن فإن النصر ثابت القرب بقدر الولي ، ولـٰكن الذي يتأخر شعور المؤمن بهـٰذا النصر بقدر شكه في قرب نصر ٱلله ، وهـٰذا ما حصل في غزوة الخندق فالنصر حاصل وقريب ولـٰكن شك المؤمنين أبعدهم عن الشعور به ، قال تعالىٰ : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (2) ، فمعنىٰ الكلام : أم حسبتم أنكم أيها المؤمنون بٱلله ورسله تدخلون الجنة ، ولم يصبكم مثلُ ما أصاب مَن قبلكم مِن أتباع الأنبياء والرسل من الشدائد والمحن والاختبار ، فتُبتلوا بما ابتُلوا واختبروا به من« البأساء »ـ وهو شدة الحاجة والفاقة والضراء وهي العلل والأوصاب ، ولم تزلزلوا زلزالهم ـ يعني : ولم يصبهم من أعدائهم من الخوف والرعب شدة وجهدٌ حتىٰ يستبطئ القوم نصر ٱلله إياهم ، فيقولون : متىٰ ٱلله ناصرنا ؟ ثم أخبرهم ٱلله أن نصره منهم قريبٌ ، وأنه مُعليهم علىٰ عدوِّهم ، ومظهرهم عليه ، فنجَّز لهم ما وعدهم ، وأعلىٰ كلمتهم ، وأطفأ نار حرب الذين كفروا (3) ، بينما في بدر كان الإيمان بقرب النصر موجوداً فكان الإحساس بالنصر القريب المتحقق علىٰ الأرض : ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ

(1) الصف ، 12ـ14 .
(2) البقرة ، 214 .
(3) تفسير الطبري ، ج 4 ، ص 288 .

ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴾ (1) .

5 ـ **قريب المرحمة** : الولي سبحانه رحمان رحيم بجميع خلقه يثيبهم علىٰ أعمالهم الصالحة ويبدل لهم سيئاتهم حسنات : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (2) فلابد أن تكون رحمته قريباً بمصداق قول الولي عز وجل : ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (3) . والمعنىٰ إن الرحمة القريبة هي رحمة ٱلله ولأن ٱلله قريب مجيب الدعاء فهو يعلم بحركتنا وسكوننا ، لذا فلو لم يكن قريباً ما كان مجيباً ، ولأنه ذو المرحمة فهو القريب المجيب بها علىٰ دعوة الداعي واستغفاره وتوبته . ٱلله قريب من الداعين بلسان ذاكر شاكر وقلب حاضر طاهر سبحانه لا إلـٰه إلا هو جل جلاله قريب رحيم مجيب .

6 ـ **عذابه قريب** : ولأنه ٱلله تعالىٰ ولي أمرنا وحالنا فهو القريب الذي لا يغيب ، وهو السميع للقريب والبعيد ، أعني مجيب قريب للمؤمن وقريب من الكافر والمشرك وهو سميع عليم بكل سر وعلانية ، ولأنه كذلك فهو القريب الذي يملك الإجابة متىٰ ما شاء أجاب . ولذلك كان مع المؤمن رحيماً ، ومع الكافر والمشرك شديد العذاب ، ولهـٰذا فكما أن رحمته قريبة كذلك عذابه قريب ، وأكثر ما يكون العذاب القريب مع المصرّين علىٰ

---

(1) آل عمران 122 ـ 127 .
(2) الأعراف ، 95 .
(3) الأعراف ، 56 .

المعصية ، وهي معادلة طردية مفادها : كلما كان الاستغفار والتواب كانت الرحمة ، وكلما كان الإصرار والعند كان العذاب ، قال تعالىٰ : ﴿ وَيَـٰقَوۡمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ (1) ، أما في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنذَرۡنَـٰكُمۡ عَذَابًا قَرِيبًا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَـٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴾ (2) ، فالتقدير أن الإنسان مهما عاش وعمّر فإن زمن الحياة قصير بالقياس إلىٰ الخلود في العذاب ، فعذاب الكافر قريب وإن عمّر وهو عذاب الآخرة وقربه لتحقق إتيانه فقد قيل : ما أبعد ما فات وما أقرب ما هو آت . ولأن العذاب نتيجة عقاب علىٰ أفعال وأقوال كاذبة ، فإن الذين يظنون بأنه لن يلحقهم العذاب في الحياة الدنيا ، غفلوا عن زمانها إذا ما قورن بالزمن الذي سيقضونه في يوم العذاب الشديد ، وأعني باليوم ، اليوم الدائم يوم يكون المنافقون والكفرة الفجرة في النار ، ويكون الخلفاء الكرام مع الحي الدائم في الجنة .

7 ـ **سمعه قريب** : الولي هو من يتولىٰ الأمر مباشرة ، وهو الذي يعلم السر والعلانية ، وهو الذي يعلم الحال وما هو عليه وما سيكون عليه قبل أن يعلمه صاحبه ، ولأن الإنسان حواسه شاهدة عليه ، فهل يمكن أن يكون هناك شيء بعيد ؟ وإذا كانت حواسه جميعها شاهدة مع ٱلله الحق علىٰ كل قول وفعل يبدئ من الإنسان ، فكيف لله أن يكون بعيداً عن مسمعه ؟ قال تعالىٰ : ﴿ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلۡخَبِيثَـٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَـٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِۚ أُوْلَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾ (3) ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلۡ إِن

---

(1) هود ، 64 .

(2) النبأ ، 40 .

(3) النور ، 24ـ26 .

ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ (1) .

8 ـ **ثوابه قريب** : الثواب لا يكون إلا من محسن ، ولا يكون إلا من سميع ، ولا يكون إلا من مجيب ، ولا يكون إلا من غفور ودود وفعَّال لما يُريد ، والمثوبة لا تكون إلا في الحياة الدنيا ، فمن لا يثوب الولي عليه في الحياة الدنيا ، لن يجد ثواباً عليه من بعدها ، والثواب فعل مترتب علىٰ أفعال تحققه من صاحب الفضل الكبير ، قال تعالىٰ : ﴿ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (2) .

9 ـ **أجله قريب** : الولي هو الكفيل بالأمر وهو الذي بيده القرار ، وهو الذي بيده أمر الحياة في الوجود الحي وأمر الممات في عالم السكون ، وهو الذي بيده أمر الانبعاث من جديد والحركة الدائمة ، وهـٰذه آجال لا يعلمها إلا هو ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (4) . إذاً الأجل بيد ٱلله الولي الحي الدائم ، ولأن أمر الأجل بيده لذا فإن الأجل لم يكن ببعيد ، إنه بيده وحده جل وعلا . قال تعالىٰ : ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى

(1) سبأ ، 49 ـ 50 .
(2) النساء ، 16 ـ 18 .
(3) الأعراف ، 34 .
(4) النحل ، 61 .

مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [1] .

10 ـ **إحسانه قريب** : الولي بعباده رؤوف رحيم ، يغفر الذنوب ويتوب علىٰ من يُقدم حسنة في مرضاته جل جلاله ، ولذلك فهو المكافي بالحسنات في مقابل الحسنة الواحدة ، وهو لا يجازي السيئة إلا بمثلها ، قال تعالىٰ : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [2] .

برضا الوالدين ينال الأبناء رضا ٱلله عليهم ، وبطاعة الوالدين في غير معصية ٱلله ينال الأبناء رضا ٱلله عليهم ، بإعطاء الصدقات وإيتاء الزكاة ينال الإنسان رضا ٱلله عليه ، وبإحقاق الحق وإزهاق الباطل ينال الخليفة أجره حسنات مرضاة من ٱلله تعالىٰ ، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينال الخليفة رضا ٱلله عليه ، وبحكمه العدل إذا حكم بين الناس ينال رضا ٱلله عليه ، وبقول الحق ينال رضا ٱلله عليه ، وبالفعل الحق والعمل الحق والسلوك الحق ينال الخليفة رضا ٱلله عليه . لذا ألا يكون إحسانه قريباً جداً من المحسنين ؟ قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [3] .

11 ـ **فتحه قريب** : وهـٰذا الفتح الذي يَعِدُ الولي سبحانه بقربه له معان

---

(1) إبراهيم ، 44 ـ 47 .
(2) الأنعام ، 160 .
(3) الأعراف ، 56 ـ 57 .

متعددة فهو النصر . وفي حديث الحديبية جاء الفتح المبين مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ (1) ، وقال الزجاج : جاء في التفسير قضينا لك قضاءً مبيناً أَي حكمنا لك بإظهار دين الإسلام وبالنصر علىٰ عدوِّكَ . قال الأَزهري : قال قتادة : أَي قضينا لك قضاءً فيما اختار ٱلله لك من مُهادَنةِ أَهل مكة وموادعتهم عام الحديبية . وقوله تعالىٰ : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ (2) قيل : عنىٰ فتح مكَّة . وجاء في التفسير أَنه نُعِيَتْ إِلىٰ النبي نَفْسُه في هـٰذه السورة فَأُعْلِمَ أَنه إِذا جاء فتح مكّة ودخل الناس في الإِسلام أَفواجاً فقد قرب أجله فكان يقول : إِنه قد نُعِيَتْ إِليَّ نفسي في هـٰذه السورة فأَمر ٱلله أَن يكثر التسبيح والاستغفار . قال تعالىٰ : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٨ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ (3) قال مجاهد : يوم الفتح هاهنا يوم القيامة .

ولأن الولي علام الغيوب فهو يعلم النصر وأسبابه قبل أن يتحقق النصر ، ولهـٰذا قال تعالىٰ : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ

(1) الفتح ، 1 ـ 6 .
(2) النصر ، 1 ـ 3 .
(3) السجدة ، 28 ـ 29 .

ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ (1) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾ (2) أي فأجَبْنا الدعاء (3) ، ومنه أيضاً فتحه بمعنىٰ ألفة القلوب بين المؤمنين : ﴿ ۞لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴾ (4) وهو ما أجرىٰ ٱلله علىٰ أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم (5) وهـٰذه المعاني الدالة علىٰ الفتح خاضعة لقرينة القرب التي وعدنا به الولي فقال : ﴿ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (6) .

وفي القاموس المحيط جاء اسم الوَلِيِّ المُحِبّ باسم الودود (7) . ودلائل وده لعباده أكثر مما تُحصىٰ ، فالولي سبحانه وعلىٰ الرغم من كونه غنياً عن العالمين في كل شيء إلا انه يريد لهم الرحمة والخير ويكره أن يصيبهم العذاب : ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴾ (8) ، بل إن الولي الودود يجازي المذنب المستغفر رحمة وودا منه : ﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ

(1) الصف ، 13 ـ 14 .
(2) القمر ، 11 ـ 15 .
(3) لسان العرب ، ج 2 ، ص 536 .
(4) الفتح ، 18 .
(5) تفسير ابن كثير ، ج 7 ، ص 340 .
(6) الصف ، 13 .
(7) القاموس المحيط ، ج 3 ، ص 486 .
(8) النساء ، 147 .

صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴾ [1] ، ولو تأمل المتأمل في حال الولي سبحانه لأدرك أن ما من محب ودود يدنو من حدود وده لعباده ، فهل تجد من أحد يعفو عن إنسان وينسىٰ ما اقترف بحقه من ذنب نسياناً تاماً مطلقاً ؟ إلا الولي سبحانه لأنه مترفع عن صفات البشر من ثأر أو غل أو غيظ ، وهل لك أن تتخيل أحداً يقبل التوبة ثم يحسب لك ما اقترفت من الذنوب حسنات مبدلاً إياها لصالحك وداً منه ومحبة ؟ سوىٰ ٱلله المولىٰ سبحانه وتعالىٰ عما يصفون قال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٧٦﴾ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ﴾ [2] ، والتبديل إما يكون في الدنيا ، فيبدل ٱلله تعالىٰ قبائح أعمالهم في الشرك بمحاسن

---

(1) هود ، 89ـ94 .

(2) الفرقان ، 68ـ77 .

الأعمال في الإسلام فيبدلهم بالشرك إيماناً ، وبقتل المؤمنين قتل المشركين ، وبالزنا عفة وإحصاناً ، فكأنه تعالىٰ يبشرهم بأنه يوفقهم لهـٰذه الأعمال الصالحة فيستوجبون بها الثواب ، وأما السيئة بعينها لا تصير حسنة ، ولـٰكن التأويل أن السيئة تمحىٰ بالتوبة وتكتب الحسنة مع التوبة ، والكافر يحبط ٱلله عمله ويثبت عليه السيئات ، وإما أن ٱلله تعالىٰ يمحو السيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة بحكم هـٰذه الآية ، وهـٰذا قول سعيد بن المسيب ومكحول ، ويحتجون بما روىٰ أبو هريرة رضي ٱلله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « ليتمنين أقوام أنهم أكثروا من السيئات ، قيل من هم يا رسول ٱلله ؟ قال الذين يبدل ٱلله سيئاتهم حسنات » وعلىٰ هـٰذا التبديل في الآخرة ، وأما أنه تعالىٰ يبدل العقاب بالثواب فذكرهما وأراد ما يستحق بهما ، وإذا حمل علىٰ ذلك كانت الإضافة إلىٰ ٱلله حقيقة لأن الإثابة لا تكون إلا من ٱلله تعالىٰ [1] .

ومن علامات وده أن جعل الود آية من آيات خلقه وذلك بأن جعل الود صفة أساسية في المخلوق ليتمكن من إعمار الأرض وينجح استخلافه عليها : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [2] ، والقصد من خلق الأزواج والسكون إليها وإلقاء المحبة بين الزوجين ليس مجرد قضاء الشهوة التي يشترك بها البهائم بل تكثير النسل وبقاء نوع المتفكرين الذين يؤدي بهم الفكر إلىٰ المعرفة والعبادة

(1) تفسير الرازي ، ج 1 ، ص 452ـ453 .
(2) الروم ، 21ـ24 .

التي ما خلقت السمـٰوات والأرض إلا من أجلها . ومودة الولي لعباده واسعة ومنها الآيات التالية :

1 ـ جعل من الأنفس أزواجاً .

2 ـ وجعل بين الأنفس سكناً ووداً .

3 ـ وجعل بين الأنفس مودة ورحمة .

4 ـ خلقه للسمـٰوات والأرض نعمة علىٰ المخلوقين بالحركة والسكون التي تنقل السحب والرياح التي بها تتلاقح النعم التي فاض بها الولي علىٰ عباده في الأرض .

5 ـ جعل الاختلاف في الألسن والألوان آيات إعجازية لتبيان قدرته العظيمة التي أظهرها بين الذين خلقوا من نفس واحدة ، وفي هـٰذه الاختلافات رحمة بين الناس ليحمدوه علىٰ فضله ونعمه وحسن خلقه لهم جميعاً ، واختلاف الألوان والألسن علامات دالة علىٰ التنوع ولم تكن دالة علىٰ الفروق التي بها يتم التفريق بين الذين في أساس خلقهم حسن التقويم ، ولذا كيف يكون ذلك وٱلله تعالىٰ يقول : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾ (1) . وقوله الحق قال : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وهـٰذه صبغة ٱلله في خلقه الذين استخلفهم في الأرض وأورثهم فيها وفي الجنة ، ولأن الاستخلاف والتوريث بالأعمال الحسنة والأفعال الحسان ، اختلف الناس فمنهم من هو مؤمن مستخلف ومنهم من هو كافر ومشرك وضال ، ولهـٰذا فالذين هم في أحسن تقويم هم الذين أبقوا علىٰ طبيعة خلقهم في أحسن تقويم ، أما أولـٰئك الذين كفروا وظلوا كانوا هم في أسفل السافلين ، وذلك

(1) التين ، 4ـ8 .

بأسباب ضلالهم ، وبأسباب تفريقهم بين العباد باللون واللغة ، فاستعبدوا الناس وقهروهم ، وهـٰؤلاء هم الذين ردوا الناس في أسفل السافلين ، ولـٰكن المؤمنين حقاً هم الذين جاء استثناؤهم من الذين ردوا إلىٰ أسفل السافلين ، وهـٰذا الرد جاء من عند ٱلله . أما الذين ردوا الناس أو أشاروا إليهم بالنقيصة بأسباب اللغة أو اللون فهـٰؤلاء هم الباقون في أسفل السافلين ، وليس أولـٰئك الذين نُعتوا بما لم يكن فيهم بما أنهم حافظوا بإيمانهم علىٰ أحسن تقويم الذي هو أساس خلق الإنسان الذي كرمه ٱلله بهـٰذا الفضل الكبير .

ومع أن غيرنا شرح وفسَّر بأن أسفل سافلين يتعلق بالكبر والشيخوخة ، إلا أننا لا نتفق مع ذلك كثيراً ، فأعتقد أن ٱلله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم يريده أن يكون كذلك إلا إذا استثنىٰ نفسه بكفر أو شرك أو ضلالة من هـٰذا الحظ العظيم الذي عليه وبه خلق ، وإلا سيظل كبر العمر مرحلة عدائية بين حسن التقويم وبين الحفاظ عليه بحسن خُلق وقيم وفضائل حميدة ، وحسن طاعة وحسن هداية وحسن سيرة وحسن قول وحسن فعل . كيف يكون المؤمن الحق في مرحلة من عمره وهو يزداد في البقاء علىٰ الحق يكون علىٰ غير حسن تقويم ، ولنعلم جميعاً أن حسن التقويم هو : حسن صنعة وحسن قول وحسن فعل وحسن سيرة ، والكبار المؤمنون حقاً في معظمهم لا يفقدون ذاكرة من ذاكرتهم حتىٰ يودعوا الحياة وهم علىٰ أحسن تقويم بالطاعة والشهادة .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [1] .

---

(1) فصلت ، 30ـ34 .

6 ـ ومن مودة المولىٰ جل جلاله جعل الليل سكناً للنوم والراحة مودة من الولي العظيم فقال : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ ولهـٰذا جاء الليل سكناً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾ [3] .

7 ـ ومن آياته العظام وواسع رحمته بوده علىٰ المستخلفين في الأرض وذلك بإعطائهم من فضائله الكريمة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ والابتغاء مطلب وعمل وهو ما يكون في الظروف الطبيعية نهاراً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [4] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ [5] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ [6] .

8 ـ ومن مودته لعباده جعل من آياته البرق علامة دالة علىٰ قدوم الرحمة ونزول الخير ، وخوفهم من حدوث غير المتوقع من سيول جارفة قد تنقل حيواناتهم فيتخذون الحيطة خوفاً من الهلاك وطمعاً في غيثه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ

(1) الأنعام ، 95 ـ 96 .
(2) يونس ، 67 .
(3) الفرقان ، 47 .
(4) يونس ، 67 .
(5) الإسراء ، 12 .
(6) الفرقان ، 47 .

بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ .

وفي الفروق اللغوية : الولي هو مخلص المودة [1] ، وإخلاص الولي يتمثل في دوام الود ، فبالإضافة إلىٰ الود والرعاية في الدنيا يأتي الود الخالد إذ يمنح الولي الودود لمن صدقوا الود فأخلصوا الطاعة جائزته ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [2] .

وفي القاموس الفقهي : الولي : كل من ولي أمراً ، أو قام به فهو القائم بالأمر [3] ، ٱلله سبحانه قائم بأمر الدنيا والآخرة فهو المبدئ والمعيد وهو المحيي والمميت ، أما أمر الدنيا فقيامه به يتجلىٰ لكل عاقل يدرك تلك القوانين البديعة التي تسير الكون ، فالسماء لها قانونها الذي قدره الولي تباركت أسماؤه لصالح البشر وذلك بتناسب ثلاثي الأجرام الأرض والقمر والشمس ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [4] ، وهـٰذا القانون لصالح البشر فهو يحقق لهم منافع تدلل علىٰ حسن قيام الولي بالأمر ، منها الوقت الذي يمثل أهمية قصوىٰ للبشرية من حيث تنظيم الحياة بما يوفر لها مقومات إعمار الأرض ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴾ [5] ، ومنافع أخرىٰ فلولا الشمس لما زالت الظلمة ، ولولا القمر لفات كثير من النعم الظاهرة بخلاف غيرهما من

---

(1) الفروق اللغوية ، ج 1 ، ص 578 .
(2) المائدة ، 119 .
(3) القاموس الفقهي ، ج 1 ، ص 390 .
(4) الرعد ، 2ـ3 .
(5) الرحمـٰن ، 5 .

الكواكب فإن نعمها لا تظهر لكل أحد مثل ما تظهر نعمتهما ، ثم بين كمال نفعهما في حركتهما بحساب لا يتغير ، ولو كانت الشمس ثابتة في موضع لما انتفع بها أحد ، ولو كان سيرها غير معلوم للخلق لما انتفعوا بالزراعات في أوقاتها وبناء الأمر علىٰ الفصول ، ثم بين في مقابلتهما نعمتين ظاهرتين من الأرض وهما النبات الذي لا ساق له والذي له ساق ، فإن الرزق أصله منه ، ولولا النبات لما كان للآدمي رزق إلا ما شاء ٱلله ، وأصل النعم علىٰ الرزق الدار ، النبات هو أصل الرزق لأن الرزق إما نباتي وإما حيواني كاللحم واللبن وغيرهما من أجزاء الحيوان ، ولولا النبات لما عاش الحيوان والنبات وهو الأصل وهو قسمان قائم علىٰ ساق كالحنطة والشعير والأشجار الكبار وأصول الثمار وغير قائم كالبقول المنبسطة علىٰ الأرض والحشيش والعشب الذي هو غذاء الحيوان .

ثانيها : هو أنه تعالىٰ لما ذكر القرآن وكان هو كافياً لا يحتاج معه إلىٰ دليل آخر ، قال تعالىٰ : ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ﴾ (1) وغيرها من الآيات إشارة إلىٰ أن بعض الناس إن تكن له النفس الزكية التي يغنيها ٱلله بالدلائل التي في القرآن ، فله في الآفاق آيات منها الشمس والقمر ، وإنما اختارهما للذكر لأن حركتهما بحسبان تدل علىٰ فاعل مختار سخرهما علىٰ وجه مخصوص ، ولو اجتمع من في العالم من الطبيعيين والفلاسفة وغيرهم وتواطئوا أن يثبتوا حركتهما علىٰ الممر المعين علىٰ الصواب المعين والمقدار المعلوم في البطء والسرعة لما بلغ أحد مراده إلىٰ أن يرجع إلىٰ الحق ويقول : حركهما ٱلله تعالىٰ كما أراد ، وذكر الأرض والسماء وغيرهما إشارة إلىٰ ما ذكرنا من الدلائل العقلية المؤكدة لما في القرآن من الدلائل السمعية .

---

(1) الرحمـٰن ، 5 ـ 6 .

ثالثها : هو أنا ذكرنا أن هـٰذه السورة مفتتحة بمعجزة دالة عليها من باب الهيئة فذكر معجزة القرآن بما يكون جواباً لمنكري النبوة علىٰ الوجه الذي نبهنا عليه ، وذلك هو أنه تعالىٰ أنزل علىٰ نبيه الكتاب وأرسله إلىٰ الناس بأشرف خطاب ، فقال : بعض المنكرين كيف يمكن نزول الجرم من السماء إلىٰ الأرض وكيف يصعد ما حصل في الأرض إلىٰ السماء ؟ فقال تعالىٰ : ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ إشارة إلىٰ (أن) حركتهما بمحرك مختار ليس بطبيعي وهم وافقونا فيه وقالوا : إن الحركة الدورية لا يمكن أن تكون طبيعية اختيارية فنقول : من حرك الشمس والقمر علىٰ الاستدارة أنزل الملائكة علىٰ الاستقامة ثم النجم والشجر يتحركان إلىٰ فوق علىٰ الاستقامة مع أن الثقيل علىٰ مذهبكم لا يصعد إلىٰ جهة فوق فذلك بقدرة ٱلله تعالىٰ وإرادته (1) .

ومن المنافع التي أنعم بها الولي القائم بأمر الدنيا علىٰ الإنسان ليساعده علىٰ إعمار الأرض الضوء وهو مقدر علىٰ حاجة الإنسان فهو قوي مشع في النهار ليتمكن الإنسان من الاستفادة القصوىٰ منه ، وهو خافت قليل في الليل بما يسهم في إراحة الإنسان وتسهيل تنعمه بالراحة والنوم : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ (2) فالسراج ضوءه عرضي وضوء القمر عرضي متبدل فتشبيه القمر بالسراج أولىٰ من تشبيه الشمس به ، والجواب : الليل عبارة عن ظل الأرض والشمس لما كانت سبباً لزوال ظل الأرض كانت شبيهة بالسراج ، وأيضاً فالسراج له ضوء والضوء أقوىٰ من النور فجعل الأضعف للقمر والأقوىٰ للشمس (3) .

---

(1) تفسير الرازي ، ج 15 ، ص 53 .
(2) نوح 15 ـ 20 .
(3) تفسير الرازي ، ج 16 ، ص 57 .

وجعل الليل سكناً ، قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [1] ، والنهار للمعيشة : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ [2] ، يضاف إلىٰ ذلك ومن قيام الولي بأمر الدنيا أمر التسخير ، وهو سوق الشيء إلىٰ الغرض المختص به قهراً ذكره [3] ،وقد سخر الولي لعبده الكثير ، ومن ذلك البحر ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [4] ، ومعنىٰ تسخير ٱلله تعالىٰ إياها للخلق جعلها بحيث يتمكن الناس من الانتفاع بها إما بالركوب أو بالغوص ، و منافع البحار كثيرة ، وٱلله تعالىٰ ذكر منها في هٰذه الآية ثلاثة أنواع :

المنفعة الأولىٰ : قوله تعالىٰ : ﴿ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ ، واعلم أن في ذكر الطري مزيد فائدة ، وذلك لأنه لو كان السمك كله مالحاً ، لما عرف به من قدرة ٱلله تعالىٰ ما يعرف بالطري فإنه لما خرج من البحر الملح الزعاق الحيوان الذي لحمه في غاية العذوبة علم أنه إنما حدث لا بحسب الطبيعة ، بل بقدرة ٱلله وحكمته حيث أظهر الضد من الضد ، والحمد لله علىٰ نعمه وفضائله ومودته ورحمته .

المنفعة الثانية : من منافع البحر قوله تعالىٰ : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً

---

(1) يونس ، 67 .
(2) الإسراء ، 12 .
(3) التعريفات ، ج 1 ، ص 175 .
(4) النحل ، 14 .

تَلْبَسُونَهَا ﴾ والمراد بالحلية اللؤلؤ والمرجان كما قال تعالىٰ : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [1] ، والمراد : بلبسهم لبس نسائهم لأنهن من جملتهم ، ولأن إقدامهن علىٰ التزين بها إنما يكون من أجلهم فكأنها زينتهم ولباسهم ، ورأيت بعض أصحابنا تمسكوا في مسألة أنه لا يجب الزكاة في الحلي المباح بحديث عروة عن النبي ﷺ أنه قال : (لا زكاة في الحلي) فقلت هـٰذا الحديث ضعيف الرواية وبتقدير الصحة فيمكن أن يقال فيه لفظ الحلي لفظ مفرد محلىٰ بالألف واللام ، وقد بينا في أصول الفقه أن هـٰذا اللفظ يجب حمله علىٰ المعهود السابق ، والحلي الذي هو المعهود السابق هو الذي ذكره ٱلله تعالىٰ في كتابه في هـٰذه الآية وهو قوله : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ فصار بتقدير صحة ذلك الخبر لا زكاة في اللآلىء التي تلبس ، وحينئذ يسقط الاستدلال به ، وٱلله أعلم .

المنفعة الثالثة : قوله تعالىٰ : ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ قال أهل اللغة : مخر السفينة شقها الماء بصدرها ، وعن الفراء : أنه صوت جري الفلك بالرياح [2] .

والتسخير شامل وكامل لكي يكون القيام بما يليق بالولي عز وجل قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ [3] ، وفي إرشاد العقل السليم المراد به إما جعل المسخر بحيث ينفع المسخر له أعم من أن يكون منقاداً له يتصرف فيه كيف يشاء ويستعمله كيف يريد كعامة ما في الأرض من الأشياء المسخرة للإنسان المستعملة له من الجماد والحيوان أو

---

(1) الرحمـٰن ، 22 .
(2) تفسير الرازي ، ج 9 ، ص 363 .
(3) لقمان ، 20 .

لا يكون كذلك بل يكون سبباً لحصول مراده من غير أن يكون له دخل في استعماله كجميع ما في السمـٰوات من الأشياء التي نيطت بها مصالح العباد معاشاً أو معاداً ، وأما جعله منقاداً للأمر مذللاً علىٰ أن معنىٰ ﴿لَكُم﴾ لأجلكم فإن جميع ما في السمـٰوات والأرض من الكائنات مسخرة لله تعالىٰ مستتبعة لمنافع الخلق وما يستعمله الإنسان حسبما يشاء وإن كان مسخراً له بحسب الظاهر فهو في الحقيقة مسخر لله عز وجل ﴿وَأَسْبَغَ﴾ أي أتم وأوسع ﴿عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ جمع نعمه وهي في الأصل الحالة المستلذة فإن بناء الفعلة كالجلسة والركبة للهيئة ثم استعملت فيما يلائم من الأمور الموجبة لتلك الحالة إطلاقاً للمسبب علىٰ السبب ، وفي معنىٰ ذلك قولهم : هي ما ينتفع به ويستلذ ومنهم من زاد ويحمل عاقبته ، وقال بعضهم : لا حاجة إلىٰ هـٰذه الزيادة لأن اللذة عند المحققين أمر تحمد عاقبته وعليه لا يكون لله عز وجل علىٰ كافر نعمة ، وكما يقال : النعمة عبارة عن المنفعة المفعولة علىٰ جهة الإحسان إلىٰ الغير ، والمنفعة الحسنة المفعولة علىٰ جهة الإحسان إلىٰ الغير قالوا : وإنما زدنا قيد الحسنة لأن النعمة يستحق بها الشكر وإذا كانت قبيحة لا يستحق بها الشكر ، والحق أن هـٰذا القيد غير معتبر لأنه يجوز أن يستحق الشكر بالإحسان وإن كان فعله محظوراً لأن جهة الشكر كونه إحساناً وجهة استحقاق الذم والعقاب الحظر فأي امتناع في اجتماعهما ، ألا ترىٰ أن الفاسق يستحق الشكر لإنعامه والذم لمعصية ٱلله تعالىٰ فلم لا يجوز أن يكون الأمر هاهنا كذلك ؟ أما قولنا : المنفعة فلأن المضرة المحضة لا تكون نعمة ، وقولنا : المفعولة علىٰ جهة الإحسان لأنه لو كان نفعاً وقصد الفاعل به نفع نفسه لا نفع المفعول به لا يكون نعمة وذلك كمن أحسن إلىٰ جاريته ليربح عليها ، ويعلم منه حكم زيادة ويحمد عاقبته .

﴿ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ أي محسوسة ومعقولة معروفة لكم وغير معروفة ، وعن مجاهد : النعمة الظاهرة ظهور الإسلام والنصرة علىٰ الأعداء ، والباطنة

الإمداد من الملائكة عليهم السلام ، وعن الضحاك : الظاهرة حسن الصورة وامتداد القامة وتسوية الأعضاء ، والباطنة المعرفة ، وقيل : الظاهرة البصر والسمع واللسان وسائر الجوارح ، والباطنة القلب والعقل والفهم ، وقيل : الظاهرة نعم الدنيا ، والباطنة نعم الآخرة ، وقيل : الظاهرة نحو إرسال الرسل وإنزال الكتب والتوفيق لقبول الإسلام والإتيان به والثبات علىٰ قدم الصدق ولزوم العبودية ، والباطنة ما أصاب الأرواح في عالم الذر من رشاش نور النور [1] .

الولي الحافظ إذ يجوز أن يقال ٱلله ولي المؤمنين بمعنىٰ أنه يلي حفظهم [2] ، وحفظ الولي يشمل كل مخلوقاته ، فالأرض ألقىٰ فيها رواسي حفظاً منه لها ، قال تعالىٰ : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾ [3] ، بيان لصنعه تعالىٰ الولي البديع في قرار الأرض إثر بيان صنعه عز وجل في قرار السمٰوات ، أي ألقىٰ فيها جبالاً شوامخ أو ثوابت كراهة ﴿ أَن تَمِيدَ ﴾ أو لئلا تميد أي تضطرب : ﴿ بِكُمۡ ﴾ لو لم يلق سبحانه وتعالىٰ فيها رواسي لما أن الحكم اقتضت خلقها علىٰ حال لو خلت معه عن الجبال لمادت بالمياه المحيطة بها الغامرة لأكثرها ، والرياح العواصف التي تقتضي الحكمة هبوبها أو بنحو ذلك ، وقد يعد منه حركة ثقيل عليها ، وقد ذكر بعض الفلاسفة أنه يلزم بناء علىٰ كرية الأرض ووجوب انطباق مركز ثقلها علىٰ مركز العالم حركتها مع ما فيها من الجبال بسبب حركة ثقيل من جانب منها إلىٰ آخر لتغير مركز الثقل حينئذ إلا أنه لم يظهر ذلك لكون الأثقال المتحركة عليها كلا شيء بالنسبة إليها مع ما فيها ، ولعل من يعد حركة الثقيل عليها من أسباب الميد لو خلت من الجبال يقول : لا يبعد حركة ثقيل عليها كما جرىٰ من مكان إلىٰ آخر

---

(1) تفسير الآلوسي ، ج 15 ، ص 477 .

(2) الفروق اللغوية ، ج 1 ، ص 577 ـ 578 .

(3) لقمان ، 10 ،

فاجتمع حتىٰ صار بحراً عظيماً مع ما ينضم إلىٰ ذلك مما تنقله الأهوية من الرمال الكثيرة والتراب يكون له مقدار يعتقد به بالنسبة إلىٰ الأرض خالية من الجبال فتتحرك بحركته إلىٰ خلاف جهته ، ثم إن الميد لولا الرواسي بنحو المياه والرياح متصور علىٰ تقدير كون الأرض كروية كما ذهب إليه الغزالي وكذا ذهب إلىٰ كروية السماء (1) .

وحفظ المولىٰ السماء فقال : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۞ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ﴾ (2) ، أي زيناها بها للزينة وللحفظ من كل شيطان أي بعيد عن الخير محترق . ولما كان القصد التعميم في الحفظ من كل عاتٍ سواء كان بالغاً في العتو أو لا قال مارد أي مجرد عن الخير عاتٍ في كل شر سواء كان بالغاً في ذلك أقصىٰ الغايات أو كان في أدنىٰ الدرجات (3) .

وعليه فالولي المطلق هو الولي بالآتي :

1 ـ **ولي بخلقه** : بحسن الخَلق كان الإنسان مستخلفاً في الأرض بغاية الإصلاح فيها ، ولأنه المخلوق في أحسن تقويم أدرك خالقه فكان له عابداً وطائعاً فقال كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ۞ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ ترسيخاً لما جاء به علىٰ لسان يوسف : ﴿ ۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۞ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ

(1) تفسير الآلوسي ، ج15 ، ص430 .
(2) الصافات ، 6 ـ 7 .
(3) تفسير البقاعي ، ج7 ، ص106 .
(4) الأعراف ، 196 ـ 198 .

﴿ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [1] . من هـٰذه الآيات الكريمة نلحظ الطاعة التامة للولي جل جلاله ، ونلحظ الاتكال عليه في تنفيذ الأمر ، ونلحظ الإيمان التام بما أنزل ، ونلحظ الفارق الكبير بين الطائعين وبين العصاة والمشركين ، ونلاحظ أن القلة هم المؤمنون حقاً ، والكثرة هم الفاسقون والظالمون ومنافقون ، وبرغم كل ذلك يثبت ٱلله الذين استخلفوا في الأرض بالقول الثابت فيها .

ولأن الولي هو النصير والمعين ، فهو قريب مجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، وداعي الولي هو المؤمن به والمسلم أمره وما يملك إليه ، ولهـٰذا فالقرب قربان :

قرب من السميع الحكيم الخبير إلىٰ عبده المستخلف في الأرض ، وقرب من الخليفة إلىٰ عبده بالطاعة التامة .

وعليه ، فالخليفة هو الذي أدرك قول الحق وآمن به هو كما هو ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [3] .

2 ـ **ولي برزقه** : خالق كل شيء هو ولي أمر كل شيء ، هـٰذا قول المؤمن المستخلف في الأرض ، وبذلك فهو لم يكن غافلاً عن سر خلقه وما ينبغي عليه أن يقوم به ، إنه الطائع له ، والشاكر له ، والحامد له ،

---

(1) يوسف ، 101 ـ 103 .
(2) البقرة ، 107 ـ 108 .
(3) البقرة ، 257 .

فالحمد لله رب العالمين علىٰ خلقه ورزقه وفضائله التي لا تحصىٰ ، ولأن الرزق من عند ٱلله فالطاعة من المحتاج لا ينبغي أن تكون إلا لمن يملك مشبعات حاجاته المتطورة والمتنوعة والمتعددة ، ولذا فلو لم يكن رزاقاً ما كان ولياً ، ولأنه الرزاق الكريم فهو الولي الذي يطاع ولا يعصىٰ ، ولو لم يكن الرزق ما كانت الحياة ، ولأنه المالك المطلق للرزق فهو الولي الذي يحمد علىٰ نعمائه ومكارمه وحفظه .

والخليفة هو الذي يرتزق من رزقه ويرزق آخرين منه طاعة بالتصديق والتزكية والإحسان ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (1) .

أما أولـٰئك الجاحدون سينالهم العذاب الشديد بجحودهم ونكرانهم للولي وكفرهم به ونفاقهم فقال تعالىٰ فيهم : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (2) . ولأنه الرزاق بدون منة قال تعالىٰ : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ (3) .

3 ـ **ولي بحفظه** : لقد خُلق الإنسان ضعيفاً في حاجة للعناية والرعاية والرزق ، وأول ما خلق ليس له من هو سابق عليه إلا الذي خلقه جل جلاله فهو

---

(1) التوبة ، 75 ـ 76 .
(2) التوبة ، 74 .
(3) الذاريات ، 55 ـ 58 .

الأول والآخر ، ولذا لا راعي له إلا هو ، فكان له راعياً وحافظاً ورازقاً ، وهـٰكذا تستمر العناية والرعاية والرزق باستمرار الحياة . قال تعالىٰ : ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ (1) .

ٱلله تعالىٰ ولي بذاته ، وبكتابه ولي ، وبرسله ولي ، وبملائكته ولي ، وهو الولي المطلق بشأن كل ولي ، قال تعالىٰ : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (2) .

ولأن ٱلله قال : إني جاعل في الأرض خليفة ، فكان يوسف خير خليفة حافظاً له قولاً وعملاً وإخلاصاً وطاعة وخشية ، فنال منه الأجر الكبير والكريم فقال : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝٥٤ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ (3) .

4 ـ **ولي برعايته** : الرعاية تحمُّل مسؤولية بكل اهتمام ومحافظة علىٰ النوع والجنس مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ

---

(1) سبأ ، 21 .

(2) ق ، 4 ـ 15 .

(3) يوسف ، 54 ـ 57 .

وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ۝١ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ۝٢ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ۝٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ۝٤ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴾ (1) .

ولأنه ولينا برعايته فكان شافياً من المرض ورازقاً ومعزاً وذالاً لمن يشاء كيف يشاء ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (2) ، وفي الهداية والإطعام والإشفاء من المرض قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴾ (3) .

والولي بالإضافة هو من يتقي الولي المطلق في نفسه وفي الآخرين ، ولا يعمل إلا صالحاً يرضاه العزيز المطلق جل جلاله ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ۝٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٧٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ۝٧١ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ۝٧٢ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا

---

(1) النساء ، 1ـ6 .

(2) آل عمران ، 26 .

(3) الشعراء ، 78ـ80 .

صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ (1) .

5 ـ **ولي بهيمنته** : الهيمنة سيطرة تامة لا تفلت منها فالتة ، ولا يحدث فيها سهو أو غفلة ، ولهٰذا فهيمنة الرحمـٰن علىٰ المستخلفين في الأرض هيمنة رحمة ، لأجل المحافظة عليهم من كل شر ، ولأجل العلم بحالهم وما يلم بهم ، ولأجل كتابة ما يقولون من حق وما يفعلون من حق ، وفي مقابل ذلك المهيمن المطلق لا يغفل عن حال الآخرين الذين لم يستمدوا صفاتهم منه فكانت لهم الصفات غير الحسان هم وما يملكون وما يفعلون ، عليهم كتبة كرام يهيمنون عليهم وعلىٰ ما يقولون ويفعلون وما يظهرون وما يبطنون ، إنه الولي علام الغيوب سبحانه لا إلـٰه إلا هو . قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (2) .

6 ـ **ولي بحسابه** : الولي بحسابه يكافئ فيجازي بالثواب أو العقاب ولكل قول وفعل حق جزاء حق فيه أجر كريم ، ولكل قول وفعل بهتان وزور له حساب وجزاء يعاقب به ، ولذلك فما ربك بظلام للعبيد ، قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن

(1) الفرقان ، 68ـ76 .
(2) الحشر ، 22ـ24 .

قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (2) .

ولأن لكل حسابه ، فالخليفة مع أنه مؤمن إلا أنه هو الذي يخشىٰ ٱلله ويخافه ، أما المشركون والكفرة لا يخافونه ، فالخوف تقوىٰ وهم لا تقوىٰ لهم ولهٰذا لكل حسابه ، قال تعالىٰ ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (3) .

ولأنه الخالق فهو الذي يحاسب خلقه ، ولأنه هو الرزاق فهو الذي يحاسب عباده علىٰ ما فعلوا بما رزقهم به ، ولأنه العادل فهو الذي سيحاسب عباده العادلين بالاستخلاف أو غير العادلين بالمعصية ، ولكل جزاؤه ، فمن عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد . قال تعالىٰ : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (4) .

7 ـ **ولي بثوابه** : قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ (5) ، من كثرة ما يمنحه من توبة اتصف بالتواب ، ولهٰذا فهو الذي يتولىٰ الخلق وأمرهم في الدارين وهٰذه الولاية هي فضل منه ، فلولاها لكان

---

(1) آل عمران ، 182 ـ 184 .
(2) فصلت ، 46 .
(3) المؤمنون ، 117 ـ 118 .
(4) النور ، 37 ـ 39 .
(5) النور ، 10 .

الهلاك هو الصفة السائدة ، ولأنه الولي بعباده وما يعملون فكانت الرحمة والعناية والرعاية والولاية صفات حسان سائدة في الحياة الدنيا التي تكثر فيها المفاسد والمغريات التي تجعل من بني آدم منحرفين عما يجب وهم في وجهتهم تجاه ما لا يجب . قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (3) .

8 ـ **ولي بعقابه** : أمر العقاب بيد الولي المطلق ، الذي لا يعاقب إلا علىٰ باطل ارتكب أو ذنب اقترف أو معصية وشرك وكفر به وبما أنزل وبمن أرسل ، ولهٰذا لا معاقب علىٰ ذلك إلا هو ، ولذا فهو الولي الذي بيده العقاب لمن يشاء كيف يشاء وهو الرحمٰن الرحيم . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ

(1) الحجرات ، 12 .
(2) البقرة ، 127 ـ 128 .
(3) التوبة ، 103 ـ 106 .

يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [1] .

والخليفة هو من يطيع الولي بتولي ما أمر به أخذاً بما يجب ، وانتهاء عما يجب الانتهاء عنه ، وهو الذي يعلم أن ما يقوم به من حسنات فإن الولي المطلق سيضاعفها له بعشرة أمثالها ، ويعلم أن الذي يضاعف الحسنات لا يمكن أن يجازي السيئة إلا بمثلها ، ولذا فالخليفة الذي اتقىٰ ربه يعلم أن صلاته ونسكه هي لله رب العالمين . قال تعالىٰ : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ [2] .

9 ـ **ولي بمناصرته** : ولأن الولي هو الحق ، فالحق لا يحق إلا حقاً ، ولأنه لا يحق إلا حقاً فهو بذاته لا يناصر إلا من يحق حقاً ، ولهـٰذا جاءت مناصرته للمستخلفين في إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ

---

(1) آل عمران ، 10 ـ 15 .

(2) الأنعام ، 160 ـ 165 .

كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ (1) ، إذاً فليعلم العباد أنه لا ولي لهم إلا هو جل جلاله ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (2) .

والخليفة هو الذي يؤمن ويعلم بأن ٱلله هو وليه وهو نصيره ولا ناصر له في إحقاق الحق إلا هو عز وجل . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ (4) .

10 ـ **ولي بإماتته** : الولي جل جلاله هو الذي بيده أمر كل شيء أمر الحياة وأمر الممات وأمر البعث وهو علىٰ كل شيء قدير لا إلـه إلا هو ، ولأن

(1) الأنفال ، 7 ـ 8 .
(2) الحج ، 40ـ46 .
(3) التوبة ، 116 ـ 117 .
(4) القصص ، 15 .

أمر الموت بيده فهو الذي يتولىٰ به من خلق ، ثم في النهاية يتولىٰ أمر إماتته كما أمات المخلوقات ، أي : يوم لا يجعل علىٰ ظهرها دابة يعلم الجميع وخاصة الذين كفروا وأشركوا أن اليوم الملك بحق هو لصاحب الحق لله الواحد القهار . قال تعالىٰ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [2] .

وعليه فالموت موتان :

الأولىٰ : موت المخلوقات التي خلق الموت من أجلها لتكون الناهية لحياتها .

والثانية : موت الموت وهو حق من أجل حياة جديدة دائمة تنفيذاً للأمر (كن) . وتكون من بعدها الحياة السرمدية التي لا موت فيها ، فقد ولىٰ زمن الموت ولا تجد موتة أخرىٰ غير تلك الأولىٰ التي كانت مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [3] . والموتة الأولىٰ لا تعني أن هناك موتاً ثانياً أو موتاً آخر ، بل تعني لا وجود لموت غير الذي قضىٰ نحبه ، والحمد لله الحي الدائم .

11 ـ **ولي ببعثه** : البعث هو الكائن في الزمن المستقبل وفقاً لعلم الغيب

(1) آل عمران ، 185 .
(2) النساء ، 78 ـ 79 .
(3) الدخان ، 56 ـ 57 .

الذي لا نعلم منه إلا أنه سيأتي لا محالة ونحن نأمل أن نكون فيه من الوارثين في الجنة والحمد لله ربّ العالمين إننا من المؤمنين . ولأن الولي المطلق هو من يتولىٰ أمر البعث ، فهو بيد أمينة حافظة وقوية وقادرة بالمطلق ولا أحد يوقفها يوم تنفذ أمرها (كن) . قال تعالىٰ : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [2] .

وللولي في حفظ البشر شمول تام لأنه خالقهم وهو العارف بما يكنون وما يعلنون : ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [3] ، والحِفْظُ هو رعاية تامة مع فطنة وعدم غفلة ، وأول وجوه هـٰذا الحفظ الشامل إرسال الحفظة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ

(1) النمل ، 65 .
(2) الروم ، 55ـ60 .
(3) القصص ، 69 .

﴿ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴾ [(1)] ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً ، فالمراد أن من جملة حفظه لعباده إرسال الحفظة عليهم وهـٰؤلاء الحفظة هم المشار إليهم بقوله تعالىٰ : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ [(2)] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴾ [(3)] ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴾ [(4)] والمقصود من حضور هـٰؤلاء الحفظة ضبط الأعمال وتسجيلها وحفظها إلىٰ يوم يبعثون لتكون دليلاً موجباً أو دليلاً سالباً علىٰ أصحابها .

ولأن الولي عادل في ملكه فهو لا يظلم أحداً كان كتابه لا يغادر كبيرة ولا صغيرة من أجل الحق وإحقاقه وفقاً لكل قول ولكل فعل ، قال تعالىٰ : ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ ﴾ [(5)] ، وعن ابن عباس رضي ٱلله عنهما أن مع كل إنسان ملكين : أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، فإذا تكلم الإنسان بحسنة كتبها من علىٰ اليمين ، وإذا تكلم بسيئة قال من علىٰ اليمين لمن علىٰ اليسار انتظره لعله يتوب منها ، فإن لم يتب كتب عليه .

والقول الأول : أقوىٰ لأن قوله تعالىٰ : ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً ﴾ يفيد حفظة الكل من غير تخصيص .

وذكروا في فائدة جعل الملائكة موكلين علىٰ بني آدم وجوهاً منها :

الوجه الأول : أن ٱلله جاعل فوق كل ذي علم عليم .

---

(1) الأنعام ، 61ـ62 .
(2) الرعد ، 11 .
(3) ق ، 18 .
(4) الانفطار ، 10ـ11 .
(5) الكهف ، 49 .

والوجه الثاني : أن الولي له المشيئة في أن يعمل ما يشاء كيف شاء .

والوجه الثالث : ليكون الشهود من خارج النوع لا يتأثرون بصلة وهم علىٰ منظومة عقلية لا تعمل مع منظومة البشر وإن عملت عليها .

الوجه الرابع : ليترك الإنسان مخيراً فيما آتاه ٱلله من نعم جعل الملائكة في دائرة انعدام الرؤية البشرية حتىٰ لا يجعل الرقيب عليه مجانباً للمشاهدة والحركة وشغل الحيز الذي ستتم فيه الأفعال المرضية أو غير المرضية .

ومن وجوه الحفظ في الدنيا نصرة الأنبياء بحفظهم ، والأمثلة كثيرة ولـٰكن لنتأمل حفظ الولي لخاتم الأنبياء والرسل عندما تأمر عليه عتاة الكفر ليقتلوه : ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (1) ، وقيل : نزلت في بني مخزوم وذلك : أن أبا جهل حلف لئن رأىٰ محمداً يصلي ليرضخن رأسه فأتاه وهو يصلي ومعه حجر ليدمغه به فلما رفع يده أثبتت إلىٰ عنقه ولزق الحجر بيده حتىٰ فكوه عنها بجهد فرجع إلىٰ قومه فأخبرهم فقال مخزومي آخر : أنا أقتله بهـٰذا الحجر فذهب فأعمىٰ ٱلله عينيه (2) .

ومن وجوه حفظ الولي سبحانه بيانه لعباده لحدود الطاعة والمعصية ليتعلم المؤمنون فيحافظوا علىٰ عدم تجاوز الحدود حفظاً لهم من العذاب الأدنىٰ والأكبر ، يقول الولي : ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ

(1) يس ، 9 .
(2) تفسير الزمخشري ، ج 5 ، ص 421 .
(3) المعارج ، 32ـ35 .

فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ [1] .

أما حفظ الولي للمؤمنين في الآخرة فهو من أعظم وجوه الحفظ في يوم تشخص فيه الأبصار ، وآياته كثيرة منها قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ [2] وهٰذه الآية معجزة في بيان صورة الحفظ وذلك للمبنىٰ العلائقي الدقيق بين هول جهنم وغضب نيرانها وهيجانها وبين حفظ الولي للمؤمنين حيث أبعدهم ٱلله عنها حتىٰ أنهم لا يسمعون أخف أصواتها وهو الحسيس ، ولفظة حسيس من صور الإعجاز القرآني لما حملت من قدرة تعبيرية عالية فبالإضافة إلىٰ دلالتها اللغوية نستشعر دلالتها الصوتية الموافقة للدلالة اللغوية ، فمقطع السين والياء فيه خفوت في الصوت لا يخفىٰ علىٰ اللبيب مما خلق منابة عظيمة بين اللفظة وأدائها وهٰذا من بعض صور الإعجاز القرآني .

والولي هو معين المستخلفين فيها ، كما نص سبحانه وتعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [3] ، وقد جعل الولي التعاون بمثابة النظام الأساسي للعلاقة بين البشر : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [4] .

وقد أعان الولي عباده في كل وقت وضرب لنا أمثلة لتكون عبرة لذوي الألباب ، ففي بدر أعان الولي عبادة بملائكة لم يروها ، قال تعالىٰ : ﴿ إِذْ تَقُولُ

(1) المؤمنون ، 5ـ 7 .
(2) الأنبياء ، 101ـ102 .
(3) آل عمران ، 68 .
(4) المائدة ، 2 .

لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ (1) ، وهـٰذا هو العون المباشر ، وهناك الكثير من صور العون غير المباشر وذلك بتهيئة أسباب العون كما حدث مع سيدنا موسىٰ في قوله تعالىٰ : ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ (2) ، أي نقوّيك ونعينك بأخيك ، تقول العرب إذا أعزّ رجل رجلاً وأعانه ومنعه ممن أراده بظلم : قد شدّ فلان علىٰ عضد فلان ، وهو من عاضده علىٰ أمره إذا أعانه (3) .

ومثال آخر للعون غير المباشر ويتمثل في قصة ذي القرنين كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ (4) .

والإنسان وإن علا وإن كان من الصابرين المؤمنين فلا غنىً له عن عون الولي سبحانه لأن الضعف فيه غالب إذا ما قورن بالقوة المطلقة لله تعالىٰ فلا بد له من طلب عون الولي سبحانه ، وتبقىٰ قصة سيدنا يعقوب من أنصع الأمثلة علىٰ ضعف الإنسان وحاجته الدائمة إلىٰ عونه سبحانه : ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (5) ، إن إقدامه علىٰ الصبر لا يمكن إلا بمعونة ٱلله تعالىٰ ، لأن الدواعي النفسانية

---

(1) آل عمران ، 124 .
(2) القصص ، 35 .
(3) تفسير الطبري ، ج 19 ، ص 578 .
(4) الكهف ، 92ـ97 .
(5) يوسف ، 18 .

تدعوه إلىٰ إظهار الجزع وهي قوية ، والدواعي الروحانية تدعوه إلىٰ الصبر والرضا ، فكأنه وقعت المحاربة بين الصنفين ، فما لم تحضر إعانة ٱلله تعالىٰ لم تحصل الغلبة (1) .

وطلب عون الولي جل وعلا أمر تطلبه الفطرة السليمة المؤمنة التي تعرف أن الولي سبحانه قادر وحده علىٰ تقديم العون لمن يطلبه منه لأنه الولي الذي لا ولي غيره ولأنه قادر علىٰ تقديم العون دون أن يحصل نقص في قدرته أو ملكه أو أن يأبىٰ حاشاه سبحانه إجابة من يطلبه بالعون ، فهو وحده من يستحق أن يطلب منه العون ، وهـٰذا ما حصل مع كل الأنبياء والرسل فقد طلبوا العون من الولي سبحانه ومنهم سيدنا موسىٰ عليه وعلىٰ نبينا أفضل الصلاة والسلام : ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (2) ، أمرهم أولاً بالاستعانة بٱلله وذلك لأن من عرف أنه لا مدبر في العالم إلا ٱلله تعالىٰ انشرح صدره بنور معرفة ٱلله تعالىٰ وحينئذ يسهل عليه أنواع البلاء ، ولأنه يرىٰ عند نزول البلاء أنه إنما حصل بقضاء ٱلله تعالىٰ وتقديره (3) .

أما أمور الدنيا والآخرة فالولي يعلّم كل مؤمن طريق العون عليهما بقوله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (4) ، وإنما خصهما بذلك لما فيهما من المعونة علىٰ العبادات ، أما الصبر فهو قهر النفس علىٰ احتمال المكاره في ذات ٱلله تعالىٰ وتوطينها علىٰ تحمل المشاق وتجنب الجزع ، ومن حمل نفسه وقلبه علىٰ هـٰذا التذليل سهل عليه فعل الطاعات وتحمُّل مشاق العبادات ، وتجنب المحظورات ، ومن الناس من

(1) تفسير الرازي ، ج 9 ، ص 11 .
(2) الأعراف ، 128 .
(3) تفسير الرازي ، ج 7 ، ص 220 .
(4) البقرة ، 153 .

حمل الصبر علىٰ الصوم ، ومنهم من حمله علىٰ الجهاد لأنه تعالىٰ ذكر بعده قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ (1) وأيضاً فلأنه تعالىٰ أمر بالتثبت في الجهاد فقال : ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (2) وبالتثبت في الصلاة أي في الدعاء فقال : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (3) ، إلا أن القول الذي اخترناه أولىٰ لعموم اللفظ وعدم تقييده ، والاستعانة بالصلاة لأنها يجب أن تفعل علىٰ طريق الخضوع والتذلل للمعبود والإخلاص له ، ويجب أن يوفر همه وقلبه عليها وعلىٰ ما يأتي فيها من قراءة فيتدبر الوعد والوعيد والترغيب والترهيب ، ومن سلك هٰذه الطريقة في الصلاة فقد ذلل نفسه لاحتمال المشقة فيما عداها من العبادات ولذلك قال : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (4) ، ولذلك نرىٰ أهل الخير عند النوائب متفقين علىٰ الفزع إلىٰ الصلاة ، وروي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا حزبه أمر فزع إلىٰ الصلاة : ثم قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (5) ، يعني في النصر لهم كما قال تعالىٰ : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (6) فكأنه تعالىٰ ضمن لهم

---

(1) البقرة ، 154ـ156 .
(2) الأنفال ، 45 .
(3) آل عمران ، 147 .
(4) العنكبوت ، 45 .
(5) البقرة ، 153 .
(6) البقرة ، 137 .

إذا هم استعانوا علىٰ طاعاته بالصبر والصلاة أن يزيدهم هدىً وتوفيقاً وتسديداً وألطافاً كما قال : ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ (1) .

الوَلِيُّ : الناصر ينصر عباده الصالحين المستخلفين في الأرض لإصلاحها وإعمارها دون فساد ولا سفك دماء فيها بغير حق ، قال ٱلله عز وجل : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ (2) ، إنه الناصر بالقوة الحق التي تدمغ الباطل حتىٰ تزهقه ، ونصرة الولي هبة منه للمؤمنين يبشرهم به لتطمئن قلوبهم : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (3) .

ونصر الولي للمؤمنين ظاهر لكل ذي لب ، أما المعاند فيكفي قول الولي بحقه : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ (4) ، فالمعنىٰ أنه تعالىٰ ناصر لرسوله ﷺ في الدنيا بإعلاء كلمته وإظهار دينه وفي الآخرة بإعلاء درجته وإدخال من صدقه جنات تجري من تحتها الأنهار والانتقام ممن كذبه وإذاقته عذاب الحريق لا يصرفه سبحانه عن ذلك صارف ولا يعطفه عنه عاطف ، فمن كان يغيظه ذلك من أعاديه وحساده ويظن أن لن يفعله تعالىٰ بسبب مدافعته ببعض الأمور ومباشرة ما يرده من المكايد فليبالغ في استفراغ المجهود وليتجاوز في الجهد كل حد معهود فقصارىٰ أمره خيبة مساعيه وعقم مقدماته ومباديه وبقاء ما يغيظ علىٰ حاله ودوام شجوه وبلباله ، وقد وضع مقام هـٰذا

---

(1) مريم ، 76 .
(2) البقرة ، 257 .
(3) الصف ، 13 .
(4) الحج ، 15 .

الجزاء قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ۝١٤ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ (1) أي فليمدد حبلاً إِلَىٰ السماء أي إلىٰ أعلىٰ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ، أي ليختنق كما فسره بذلك ابن عباس رضي ٱلله تعالىٰ عنهما من قطع إذا اختنق كان أصله قطع نفسه بفتحتين أو أجله ثم ترك المفعول نسياً منسياً فصار بمعنىٰ اختنق لازم خنق ، وذكروا أن قطع النفس كناية عن الاختناق ، وقيل المعنىٰ ليقطع الحبل بعد الاختناق علىٰ أن المراد به فرض القطع وتقديره كما أن المراد بالنظر في قوله تعالىٰ : ﴿ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ تقدير النظر وتصويره وإلا فبعد الاختناق لا يتأتىٰ منه ذلك أي فليقدر في نفسه النظر هل يذهبن كيده غيظه أو الذي يغيظه من النصر ، ويجوز أن يراد فلينظر الآن أنه إن فعل ذلك هل يذهب ما يغيظه ، وجوز أن يكون المأمور بالنظر غير المأمور الأول ممن يصح منه النظر ، وأن يكون الكلام خارجاً مخرج التهكم كما قيل إن تسمية فعله ذلك كيداً خارجة هـٰذا المخرج ، وقال جمع : إن إطلاق الكيد علىٰ ذلك لشبهه به فإن الكائد إذا كاد أتىٰ بغاية ما يقدر عليه وذلك الفعل غاية ما يقدر عليه ذلك العدو الحسود ، ونقل عن ابن زيد أن المعنىٰ فليمدد حبلاً إلىٰ السماء المظلة وليصعد عليه ثم ليقطع الوحي عنه ﷺ ، وقيل : ليقطع المسافة حتىٰ يبلغ عنان السماء فيجهد في دفع نصره عليه الصلاة والسلام النازل من جهتها (2) .

ونصر الولي لعباده المؤمنين أمر كتبه علىٰ نفسه وصدح به في كل كتبه ورسالاته قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ

(1) الحج ، 14 ـ 15 .
(2) تفسير الآلوسي ، ج 13 ، ص 22 .

ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (1) ، أما قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ ﴾ فقال بعضهم من ينصره بتلقي الجهاد بالقبول نصرة لدين ٱلله تعالىٰ ، وقال آخرون : بل المراد من يقوم بسائر دينه ، وإنما قالوا ذلك لأن نصرة ٱلله علىٰ الحقيقة لا تصح ، وإنما المراد من نصرة ٱلله نصرة دينه كما يقال في ولاية ٱلله وعداوته مثل ذلك وفي قوله : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ ﴾ وعد بالنصر لمن هٰذه حاله ونصر ٱلله تعالىٰ للعبد أن يقويه علىٰ أعدائه حتىٰ يكون هو الظافر ويكون قائماً بإيضاح الأدلة والبينات ، ويكون بالإعانة علىٰ المعارف والطاعات ، وفيه ترغيب في الجهاد من حيث وعدهم النصر ، ثم بين تعالىٰ أنه قوي علىٰ هٰذه النصرة التي وعدها المؤمنين ، وأنه لا يجوز عليه المنع وذلك لأنه صاحب العزة ، قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (2) .

والولي هو من لا يترك أمراً هو منه ، وبذلك يتجلىٰ إحسان الولي في كثير من الوجوه منها :

1 ـ **الإحسان المباشر** : ويتجسد في توليه سبحانه العباد بإحسانه رحمة منه ، وآياته كثيرة فكل إنسان إنما يعيش علىٰ هٰذه الأرض بإحسان الولي عليه لٰكن أكثر الناس لا يشكرون ، والقلة من الشاكرين من يعرفون إحسان الولي عليهم كسيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (3) ، أي : إن ٱلله ربي أحسن مثواي إذ نجاني من الجب ،

(1) الحج ، 40 .
(2) آل عمران ، 6 .
(3) يوسف ، 23 .

وأقامني في أحسن مقام . وإما أن يكون ضمير الشأن وعنىٰ بربه سيده العزيز فلا يصلح لي أن أخونه ، وقد أكرم مثواي فهو بعيد جداً ، إذ لا يطلق نبي كريم علىٰ مخلوق أنه ربه ، ولا بمعنىٰ السيد ، لأنه لم يكن في الحقيقة مملوكاً له ، وما أحسن هـٰذا التنصل من الوقوع في السوء ! استعاذ أولاً بٱلله الذي بيده العصمة وملكوت كل شيء ، ثم نبه علىٰ أنّ إحسان ٱلله أو إحسان العزيز الذي سبق منه لا يناسب أن يجازىٰ بالإساءة ، ثم نفىٰ الفلاح عن الظالمين وهو الظفر والفوز بالبغية فلا يناسب أن أكون ظالماً أضع الشيء غير موضعه ، وأتعدىٰ ما حده ٱلله تعالىٰ لي [1] .

ومن الإحسان المباشر للولي أنه يكون في عون المحسن في الدنيا ولا يتركه وحده جزاءً لإحسانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [2] .

2 ـ **الجزاء علىٰ الإحسان في الدنيا والآخرة** : وهو من إحسان الولي لعباده وتقديراً من الولي المحسن لإحسان عباده وإكباراً للإحسان ، قال تعالىٰ : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾ [3] ، أي هل جزاء من أتىٰ بالفعل الحسن إلا أن يؤتىٰ في مقابلته بفعل حسن ، لـٰكن الفعل الحسن من العبد ليس كل ما يستحسنه هو ، بل الحسن هو ما استحسنه ٱلله منه ، فإن الفاسق ربما يكون الفسق في نظره حسناً وليس بحسن بل الحسن ما طلبه ٱلله منه ، كذلك الحسن من ٱلله هو كل ما يأتي به مما يطلبه العبد كما أتىٰ العبد بما يطلبه ٱلله تعالىٰ منه ، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ : ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ

(1) تفسير البحر المحيط ، ج 7 ، ص 1 .
(2) النحل ، 128 .
(3) الرحمـٰن ، 60 .

ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ (2) ، وعليه فكل فعل خير شأنه من حالة الحسن إلىٰ ما هو أحسن منه ، ولذلك فهل جزاء من أثبت الحسن في عمله في الدنيا إلا أن يثبت ٱلله الحسن فيه وفي أحواله في الدارين ، وبالعكس هل جزاء من أثبت الحسن فينا وفي صورنا وأحوالنا إلا أن نثبت الحسن فيه أيضاً ، ولهٰذا فإن الأفعال والصفات الحسان بالمطلق هي لله تعالىٰ الذي يتولىٰ أمورنا في الدارين رعاية وحفظاً .

والمؤمن لا شك في أنه يثاب بالجنة فيكون له من ٱلله الإحسان جزاء له ومن جازىٰ عبداً علىٰ عمله لا يأمره بشكره ، ولأن التكليف لو بقي في الآخرة فلو ترك العبد القيام بالتكليف لاستحق العقاب ، والعقاب ترك الإحسان لأن العبد عبد ٱلله في الدنيا ما دام وبقي يليق بكرمه تعالىٰ وأن يحسن إليه في الآخرة ما دام وبقي ، فلا عقاب علىٰ تركه بلا تكليف ، وقد عبدنا ٱلله تعالىٰ في الدنيا لنعم قد سبقت له علينا ، فهٰذا الذي أعطانا ٱلله تعالىٰ ابتداء نعمة وإحساناً فله علينا شكره وحمده ، فيقولون الحمد لله ، ويذكرون ٱلله ويثنون عليه فيكون نفس الإحسان من ٱلله تعالىٰ في حقهم سبباً لقيامهم بشكره ، فيعرضون هم علىٰ أنفسهم عبادته تعالىٰ فيكون لهم بأدنىٰ عبادة شغل شاغل عن الحور والقصور والأكل والشرب فلا يأكلون ولا يشربون ولا يتنابذون ولا يلعبون فيكون حالهم

---

(1) الزخرف ، 70ـ73 .

(2) يونس ، 26ـ28 .

كحال الملائكة في يومنا هـٰذا لا يتناكحون ولا يلعبون ، فلا يكون ذلك تكليفاً مثل هـٰذه التكاليف الشاقة ، وإنما يكون ذلك لذة زائدة علىٰ كل لذة في غيرها [1] .

وقد جعل الولي سبحانه الإحسان من دواعي الأمن في يوم الفزع الأكبر جزاءً منه علىٰ إحسانهم في الدنيا : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [2] .

3 ـ **الأمر بالإحسان** : لأنه ولي محسن لعباده فقد أمرهم به وحثهم عليه فقال : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [3] ، ومعلوم أن وصية ٱلله هي أمر واجب التحقيق وليس لمؤمن إذا أمر ٱلله أن يعصي أمره سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴾ [4]

والإحسان عند الولي سبحانه من أسس العمل الصالح الذي ينجي ، وخلاف الإحسان عنده الفساد فمن أحسن فهو مصلح ومن يعمل غير الإحسان فقد أفسد ، وإذا أفسد عصىٰ أمر ربه بأن لا يفسد في الأرض ولا يسفك الدماء فيها بغير حق ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [5] .

---

(1) تفسير الرازي ، ج 15 ، 109 .
(2) البقرة ، 112 .
(3) الأحقاف ، 15 .
(4) الأحزاب ، 36 .
(5) القصص ، 77 .

والإحسان الذي يأمر به الولي المحسن علىٰ نوعين هما :

الأول : إحسان قولي : إحسان القول فهو ما ذكره الولي في محكم كتابه في قوله تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (1) ، أي : من احتاج منهم إلىٰ مناظرة وجدال ، فبالتي هي أحسن حتىٰ تحببهم فيما أمر ٱلله تعالىٰ ، والإحسان دائماً وجهه حسن ، مع الرفق واللين وحسن خطاب فلا إكراه في الدين بعد أن تبين الرشد من الغي ، كذلك قوله تعالىٰ : ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ (2) ، فأمر ٱلله تعالىٰ نبيه أن يوصي المؤمنين بالرفق بالكفار واللطف بهم في القول ، وأن لا يعاملوهم بمثل أفعالهم وأقوالهم ، اعتماداً لقوله تعالىٰ : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (3) .

والثاني إحسان عملي : أما إحسان الفعل فهو كثير فكل ما يرضاه ٱلله سبحانه وتعالىٰ ويأمر به من الأفعال فهو من الإحسان ، فالإنفاق في سبيله دون منٍّ أو أذىً من الإحسان : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (4) ، وإحسان العمل له عظيم الجزاء عند الولي جل وعلا : ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾ (5) .

(1) النحل ، 125 .
(2) الإسراء ، 53 .
(3) البقرة ، 256 .
(4) البقرة ، 262 .
(5) النجم ، 31 .

إذاً الإحسان العملي أن يقدم الخليفة علىٰ أداء الأفعال التي ترضي ٱلله فيصلح ولا يفسد ، ويعمر الأرض ولا يدمر فيها شيئاً ، وإذا حكم بين الناس يحكم عدلاً ، وإذا كسب تصدق وزكىٰ ، وإذا جاء الاعتداء علىٰ الدين جاهد بماله ونفسه في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وهـٰكذا يكون له في كل فعل حسنات مضاعفات وله أجرٌ كريم من الولي الذي لا يفارقه أبداً .

الولي في أَسماء ٱلله تعالىٰ : المُتَوَلِّي لأُمور العالم وهو مالِكُ الأَشياء جميعها المُتَصَرِّفُ فيها كيف شاء ومتىٰ ما شاء ، وولينا سبحانه وتعالىٰ ملك الملك كله وهو المتصرف فيه يهبه لمن يشاء وينزعه عمن يشاء وما أكثر الأمثلة علىٰ هـٰذه الإرادة فهل من معتبر : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (1) ، مالك الملك معناه القادر علىٰ القدرة وبيده كل خير وكل نعمة ، والمعنىٰ : أن قدرة الخلق علىٰ كل ما يقدرون عليه ليست إلا بأقدار ٱلله تعالىٰ فهو الذي يقدر كل قادر علىٰ مقدوره ، ويملك كل مالك مملوكه ، قال صاحب « الكشاف » ﴿مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ أي يملك جنس الملك فيتصرف فيه تصرف الملاك فيما يملكون ، والملك جاء مطلقاً فهو ملك كل شيء ، وبالتالي لا شيء خارج عن ملكه ومهما عددنا لن نبلغ إحصاء ملكه ، ولهـٰذا كل شيء عنده وكل شيء منه سبحانه إنه الملك المتعال . ولذا فالملك ملكه مادة وروح ونفس وحكمة ورسالة وكتاب سبحانه مالك الملك . قال تعالىٰ : ﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ (2) ، والروح والنفس والنبوّة من أعظم مراتب الملك ، فأمر الروح بيده لا يعلمه

---

(1) آل عمران ، 26 ـ 27 .

(2) النساء ، 54 .

إلا هو ، وأمر النفس كذلك ليس بهين ، وأمر النبوة أمر عظيم ، والأنبياء أمرهم نافذ في البواطن والظواهر ، فأما علىٰ البواطن فلأنه يجب علىٰ كل أحد أن يقبل دينهم وشريعتهم ، وأن يعتقد أنه هو الحق ، وأما علىٰ الظواهر فلأنهم لو تمردوا واستكبروا لاستوجبوا القتل .

وقد يكون المراد من الملك ، ما يسمىٰ ملكاً في العرف ، وهو عبارة عن مجموعة أشياء أحدها : تكثير المال والجاه ، أما تكثير المال فيدخل فيه ملك الصامت والناطق والدور والضياع ، والحرث ، والنسل ، وأما تكثير الجاه فهو أن يكون مهيباً عند الناس ، مقبول القول ، مطاعاً في الخلق ، والثاني : أن يكون بحيث يجب علىٰ غيره أن يكون في طاعته ، وتحت أمره ونهيه ، والثالث : أن يكون بحيث لو نازعه في ملكه أحد ، قدر علىٰ قهر ذلك المنازع ، وعلىٰ غلبته ، ومعلوم أن كل ذلك لا يحصل إلا من ٱلله تعالىٰ ، أما تكثير المال فقد نرىٰ جمعاً في غاية الكياسة لا يحصل لهم مع الكد الشديد ، والعناء العظيم قليل من المال ، ونرىٰ الأبله الغافل قد يحصل له من الأموال ما لا يعلم كميته ، وأما الجاه فالأمر أظهر ، فإنا رأينا كثيراً من الملوك بذلوا الأموال العظيمة لأجل الجاه ، وكانوا كل يوم أكثر حقارة ومهانة في أعين الرعية ، وقد يكون علىٰ العكس من ذلك وهو أن يكون الإنسان معظماً في العقائد مهيباً في القلوب ، ينقاد له الصغير والكبير ، ويتواضع له القاصي والداني ، وأما القسم الثاني وهو كونه واجب الطاعة ، فمعلوم أن هـٰذا تشريف يشرف ٱلله تعالىٰ به بعض عباده ، وأما القسم الثالث ، وهو حصول النصرة والظفر فمعلوم أن ذلك مما لا يحصل إلا من ٱلله تعالىٰ ، فكم شاهدنا من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن ٱلله ، وعند هـٰذا يظهر بالبرهان العقلي صحة ما ذكره ٱلله تعالىٰ من قوله ﴿ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ (1) .

---

(1) تفسير الرازي ، ج 4 ، ص 162 .

فمصدر ملك الولي سبحانه من قدرته ، وهو خالص له وليس لأحد قدرة علىٰ الاشتراك في شيء من ملك الولي ، فلو سأل سائل فما بال ملوك الدنيا وأغنيائها ممن يملكون من حرث الدنيا ما لا يملكه غيرهم ولا ينازعهم فيه أحد ؟ بطبيعة الحال أن هـٰذا الملك مؤقت وملك ٱلله دائم ، قال تعالىٰ : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ (1) .

ولـٰكن الملك المؤقت كيف هو مؤقت ؟ .

إنه مؤقت بأمور ثلاثة :

الأمر الأول : أنه يزول بسلب الولي هـٰذا الملك : ﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ

(1) الشورىٰ ، 36ـ39 .

أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ (1) .

والأمر الثاني : حين تحضر الوفاة ويذهب بهٰذا الملك إلىٰ حفرته فهل يحمل معه من ملكه شيء ؟ يومها لا ينفعه ملك ولا يدفع عنه بشر ، يومها الكل يعرف أن ٱلله وحده هو النافع فمن ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ومن خفت فأمه هاوية ، ولهٰذا جاء قوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ (2) .

والأمر الثالث : يوم تقوم الساعة فهل يبقىٰ من ملك غير الولي سبحانه منادياً : ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ (3) .

وملك الولي خالص له لا يشترك معه أحد في ملكه : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (4) .

---

(1) الكهف ، 32 ـ 44 .
(2) الشعراء ، 88 ـ 107 .
(3) غافر ، 16 .
(4) الفرقان ، 1 ـ 2 .

وملك الولي من صنعه فهو الخالق فكيف يكون الملك لغير صاحبه يا أولي الألباب ؟ قال تعالىٰ : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (1) .

والولي عارف بإسرار ملكه ودقائقه وهو تحت قدرته محكم أمره وليس لأحد غيره أن يدانيه في ذلك ولو بقليل : ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ (2) ، أي ذلك الذي فعل هٰذه الأشياء من فطر السمٰوات والأرض وإرسال الأرواح وإرسال الرياح وخلق الإنسان من تراب وغير ذلك له الملك كله فلا معبود إلا هو لذاته الكامل ولكونه ملكاً والملك مخدوم بقدر ملكه ، فإذا كان له الملك كله فله العبادة كلها ، ثم بين ما ينافي صفة الإلـٰهية ، وهو قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ ، وهاهنا إن ٱلله تعالىٰ ذكر لنفسه نوعين من الأوصاف هما :

الأول : أن الخلق بالقدرة والإرادة .

والثاني : الملك واستدل بهما علىٰ أنه إلـٰه معبود كما قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ (3) ، ذكر الرب والملك ورتب عليهما كونه إلـٰهاً أي معبوداً ، وذكر فيمن أشركوا به سلب صفة واحدة وهي عدم الملك بقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ ولم يذكر سلب الوصف الآخر لوجهين :

---

(1) الأنعام ، 73 .

(2) فاطر ، 13 .

(3) الناس ، 1 ـ 3 .

الأول : أن كلهم كانوا معترفين بأن لا خالق لهم إلا ٱلله وإنما كانوا يقولون بأن ٱلله تعالىٰ فوض أمر الأرض والأرضيات إلىٰ الكواكب التي الأصنام علىٰ صورتها وطوالعها فقال : لا ملك لهم ولا ملّكهم ٱلله شيئاً ولا ملكوا شيئاً .

والثاني : أنه يلزم من عدم الملك عدم الخلق لأنه لو خلق شيئاً لملكه فإذا لم يملك قطميراً ما خلق قليلاً ولا كثيراً [1] .

النافع ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي : هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم [2] ، ولأنه الولي فهو النافع لمن اهتدىٰ والضار لمن ضل ، ومن آياته الكثير الذي يظهر فضل الولي علىٰ من تولاهم ، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [3] ، وهـٰذا نفع الدنيا أما نفع الآخرة فهو ما نص عليه الولي سبحانه وتعالىٰ بقوله : ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [4] ، والصدق الذي قابله الولي بالنفع صدق كلي بمعنىٰ أن المصطلح لا يقصد به الصدق ضد الكذب فحسب وإنما يقصد به كل الصدق في القول والفعل ، أما صدق القول : ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ

---

(1) تفسير الرازي ، ج 1 ، ص 458 .
(2) ابن كثير ، ج 7 ، ص 207 .
(3) البقرة ، 164 .
(4) المائدة ، 119 ـ 120 .

أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَٰذِبِينَ ﴾ (1) ، وَسَيَحْلِفُونَ أي المتخلفون عن الغزو أي سيحلفون عند رجوعك من غزوة تبوك بالله قائلين ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا﴾ أو سيحلفون قائلين بالله لو استطعنا لفعلنا ، وقيل : لا حاجة إلىٰ تقدير القول لأن الحلف من جنس القول وهو أحد المذهبين المشهورين ، والمعنىٰ لو كان لنا استطاعة من جهة العدة أو من جهة الصحة أو من جهتيهما معاً حسبما عنَّ لهم من التعلل والكذب (2) .

وأما صدق الفعل فهو العمل بما يرضي الولي ويقرب إليه : ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَٰفِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (3) .

الولي هو الوكيل ، والولي الوكيل يتولىٰ كل أمور العبد إلا أن العبد قليلاً ما يتفكر في ذلك ، فهو الذي يرزق مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (4) ، فالرزق أمر توكل به الولي فلابد للعبد من الانشغال بأمر أخطر من التفكير بالرزق إلا أن بعض الناس ينشغل بغير ذلك فيأخذه واهم الأفكار إلىٰ النظر في شؤون الناس والاعتراض علىٰ توزيع الولي للأرزاق بين عباده فيسأل لماذا أنا فقير وفلان غني ؟ لماذا فلان يولي فلاناً الأمر وأنا لا ؟ غافلاً عن قول الولي سبحانه : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ

---

(1) التوبة ، 42 ـ 43 .
(2) تفسير الآلوسي ، ج 7 ، ص 243 .
(3) الأحزاب ، 23 ـ24 .
(4) طه ، 132 .

لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [1] .

والولي توكل بكل الأمور بنفسه ولم يترك لأحد سواه أن يقوم مقامه في أمر صغير أو كبير ، قال تعالىٰ : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [2] .

وأمر الموت والحياة مما توكل الولي به ولا شأن لأحد سواه ، فهو الذي بيده الأمر كله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴾ [3] ، وكذلك أمر هيئتهم وقدرتهم فهو من شؤون الولي ، قال تعالىٰ : ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ [4] ، فنَّحْنُ خلقناهم تدل علىٰ انعدام الغير ، وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ أي أحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق والأسر في الأصل الشد والربط وأطلق علىٰ ما يشد به ويربط كما هنا وإرادة الأعصاب والعروق لشبهها بالحبال المربوط بها ووجه الشبه ظاهر ومن هنا قد يقول العارف من كان أسره من ذاته وسجنه دنياه في حياته فليشك مدة عمره وليتأسف علىٰ وجوده بأسره والمراد شدة الخلق وكونه موثقاً حسناً ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾ أي أهلكناهم وبدلنا أمثالهم في شدة الخلق ﴿ تَبْدِيلًا ﴾ بديعاً لا ريب فيه يعني البعث والنشأة الأخرىٰ فالتبديل في الصفات لأن المعاد هو المبتدأ ولكون الأمر محققاً كائناً جيء بإذا وذكر المشيئة لإبهام وقته ومثله شائع كما يقول العظيم لمن يسأله الإنعام إذا شئت أحسن إليه ويجوز أن يكون المعنىٰ وإذا شئنا أهلكناهم وبدلنا غيرهم ممن يطيع فالتبديل في الذوات وإذا لتحقق قدرته تعالىٰ عليه وتحقق ما يقتضيه من كفرهم المقتضي لاستئصالهم فجعل ذلك المقدور المهدد به

---

(1) الزخرف ، 32 .
(2) فصلت ، 31 .
(3) ق ، 43 .
(4) الإنسان ، 28 .

كالمحقق وعبر عنه بما يعبر به عنه [1] .

الولي هو الوارث لملكه من سماوات وأرضين ومن فيهنَّ وما بينهنَّ ، يقول الولي تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾ [2] والولي الوارث هو المالك المتصرف في خلقه فهو عائد إليه فلا ملك إلا ملكه وعليه يرث الولي كل شيء ، فهو يرث الأرض ومن عليها من كل أصناف المخلوقات وما فيها من موارد قال تعالىٰ : ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٣٩ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ [3] .

والولي يرث الأشياء كلها وذلك يكون بإعادتها إلىٰ أصلها قبل الخلق : ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ [4] ، أي إلحاقها بما خلقه ٱلله تعالىٰ في البدء فكأنه رجع إلىٰ أصله ودخل في عداد خالص ملك ٱلله تعالىٰ علىٰ ما كان أولاً وهـٰذا معنىٰ الإرث [5] .

وَالولي هو ٱلله المعتق الذي بيده أمر الخلائق ، فهو المعتق من النار في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فقد ترك لنا عبرة في قصة سيدنا إبراهيم عليه وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام يقول الولي سبحانه : ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [6] ، والقصة شديدة الأثر علىٰ المعتبر لعتق الولي لعباده الصالحين ، اللهُمَّ اجعلنا من عتقائك يا ولينا ، فقد جمعوا له الحطب الكثير حتىٰ أن المرأة لو مرضت قالت : إن عافاني ٱلله لأجعلن حطباً لإبراهيم ،

(1) تفسير الآلوسي ، ج 22 ، ص 31 .
(2) الأنفال ، 72 .
(3) مريم ، 39ـ40 .
(4) القصص ، 58 .
(5) تفسير الآلوسي ، ج 15 ، ص 163 .
(6) الأنبياء ، 69 .

ونقلوا له الحطب علىٰ الدواب أربعين يوماً ، فلما اشتعلت النار اشتدت وصار الهواء بحيث لو مر الطير في أقصىٰ الهواء لاحترق ، ثم أخذوا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ورفعوه علىٰ رأس البنيان وقيدوه ، ثم اتخذوا منجنيقاً ووضعوه فيه مقيداً مغلولاً ، فصاحت السماء والأرض ومن فيها من الملائكة إلا الثقلين صيحة واحدة ، أي ربنا! ليس في أرضك أحد يعبدك غير إبراهيم ، وإنه يحرق فيك فائذن لنا في نصرته ، فقال سبحانه : إن استغاث بأحد منكم فأغيثوه ، وإن لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليه ، فخلوا بيني وبينه ، فلما أرادوا إلقاءه في النار ، أتاه خازن الرياح فقال : إن شئت طيرت النار في الهواء ، فقال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : لا حاجة بي إليكم ، ثم رفع رأسه إلىٰ السماء وقال : « اللهُمَّ أنت الواحد في السماء ، وأنا الواحد في الأرض ، ليس في الأرض أحد يعبدك غيري ، أنت حسبنا ونعم الوكيل » وقيل إنه حين ألقي في النار قال : « لا إلـٰه إلا أنت سبحانك رب العالمين ، لك الحمد ولك الملك ، لا شريك لك » ثم وضعوه في المنجنيق ورموا به النار ، فأتاه جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقال : يا إبراهيم هل لك حاجة ، قال : أما إليك فلا ؟ قال : فاسأل ربك ، قال : حسبي من سؤالي ، علمه بحالي . فقال ٱلله تعالىٰ : ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ قال ابن عباس رضي ٱلله عنهما في رواية مجاهد : ولو لم يتبع برداً سلاماً لمات إبراهيم من بردها ، قال : ولم يبق يومئذ في الدنيا نار إلا طفئت [1] .

أما عتق الآخرة فليس لأحد غير الولي أن يعتق أحداً وإن كان حبيباً ، قال تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [2] .

(1) تفسير الآلوسي ، ج 12 ، ص 426 .
(2) عبس ، 33 ـ 37 .

لـكن الولي كتب علىٰ نفسه عتق عباده المتقين من نار نعوذ بنور وجهه من نفحات لهيبها فكيف بها ؟ لا ٱلله إلا ٱلله : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ (1) .

وعليه ، الوليُّ في أَسماء ٱلله تعالىٰ هو الناصِرُ ، وقيل : المُتَوَلِّي لأُمور العالم والخلائق والقائمُ بها .

ـ والولي النصير . وفي القرآن العزيز : ﴿ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (2) .

ـ والولي السيد ، المحب ، والصديق ، وفي الكتاب المجيد : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (3) .

ـ والولي المطيع . يقال : المؤمن ولي ٱلله .

ـ في عرف أهل أصول الدين : « هو العارف بٱلله تعالىٰ ، بأسمائه ، وصفاته ، علىٰ حسب ما يمكنه ، المواظب علىٰ الطاعات ، المجتنب للمعاصي ، المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات » (4) .

فالولي اسم من أسماء ٱلله تعالىٰ بمعنىٰ الناصر أو النصير ، وهو المتولي لجميع أمور الخلائق .

---

(1) مريم ، 67 ـ 72 .
(2) آل عمران ، 68 .
(3) المائدة ، 51 .
(4) القاموس الفقهي ، ج 1 ، ص 390 .

والناصر بالإطلاق هو ٱلله سبحانه وتعالىٰ الذي ينصر من يواليه ومن ينصره ، ولا يوجد من يوالي ٱلله مثل سيد الخلق ﷺ الذي أوقف حياته لنصرة الحق ولنصرة الدين الحنيف ، لذا فٱلله ينصر من ينصره ، وإن ظن البعض أن ٱلله لن ينصر النبي ﷺ فهـٰذا الظن وهم محض ، يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ (1) .

فٱلله ينصر من ينصره في الدنيا وهـٰذا من المتوقع المشاهد مشاهدة عينية نصراً ملموساً مادياً ، أما النصر في الآخرة فكيف يكون وما هيأته ؟ بالأكيد سيكون نصراً مؤزراً وهـٰذا في تصورنا سيكون بالمقام المحمود الذي لا ينبغي إلا لعبد من عباد ٱلله .

فالولي هو الناصر في الشدائد ، والناصر في إحقاق الحق ، وعندما تبلغ القلوب الحناجر عندما تتوقف أسباب الأرض ، تتنزل أسباب الولي الناصر الذي لا تمنعه أسباب ، ولا توصد أمام نصره أبواب وهـٰذه كلمته لمن يواليه يطمئنهم ويثبت قلوبهم : ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ (2) وهـٰذا الارتباط التلازمي بين المولىٰ اسم الفاعل من الولي المزيد بالهمزة والنصير صيغة المبالغة التي تدل مع المشتق السابق(المولىٰ) علىٰ التمكن واكتمال الفعل ، وهـٰذا نجده في عموم القرآن ليدل دلالة لا لبس فيها علىٰ أن نصر الولي لا انفكاك فيه لأولياء الولي الذين اتبعوه ونصروه ، وهـٰذا الوعد الذي يأتي من قدير كبير جليل هو ما جعل المؤمنين الذين طردوا وشردوا ونهبت أموالهم يلوذون بجناب الوليّ ، حتىٰ أن الناس قد جمعوا ليكيدوهم ويهزموهم فما زادهم ذلك إلا ثباتاً وإيماناً ، يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ

---

(1) الحج ، 15 .

(2) الأنفال ، 40 .

ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ (1) وهـٰذا الموقف الثابت لا يفسره إلا الإيمان بقوله تعالىٰ الذي يخاطب به المؤمنين به : ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (2) فالنفي والاستثناء بما وإلا يؤكدان في صرامة أن ٱلله هو الولي الذي ينصر المؤمنين به المنفذين لمنهجه المتبعين لنبيه ﷺ .

فالمنهج الواضح البيّن الذي لا شك ولا ظن فيه ولا لبس في معانيه هو الذي ارتضاه ٱلله منهجاً لتحقيق الخلافة المثلىٰ علىٰ الأرض بعد الزيف الذي لحق بما أرسل به الأنبياء إلىٰ الأمم السابقة ، لذا يؤكد ٱلله علىٰ هـٰذه الجزئية ويخاطب الأمة جميعها من خلال خطابه للمثل الأعلىٰ والقدوة الحسنة للأمة للنبي ﷺ فيقول موجهاً ومؤكداً علىٰ عدم الانحراف ولو قليلاً نحو المناهج السابقة لأنه لا فائدة فيها ولن يتحقق من ورائها صلح بين المناهج ، ولن يرضىٰ أصحاب تلك المناهج حتىٰ باتباع منهجهم لأنها لا تعترف إلا بنفسها : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (3) .

و ٱلله الولي ينصر من اتبع المنهج الصحيح الذي أنزله ٱلله علىٰ الأنبياء السابقين الذين اجتمع أمرهم في سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أبي الأنبياء من بعده ، لذا ستكون الحجة الواهية لمن خالف وأفسد أنهم يتبعون ملة إبراهيم ، لـٰكن ٱلله الولي يبطل حجتهم ويقول : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (4) فالذين يتبعون النبي الخاتم هم أولىٰ الناس بإبراهيم لأنهم يقيمون التوحيد الخالص وهو أول وأهم

---

(1) آل عمران ، 173 .
(2) البقرة ، 107 .
(3) البقرة ، 120 .
(4) آل عمران ، 68 .

ركن لوجود الإنسان علىٰ الأرض ، وهـٰذا الركن لن يتحقق بصفاء ونقاء إلا باتباع المنهج الصحيح الذي يتأتىٰ بالإيمان المطلق بٱلله رباً واحداً أحداً ناصراً ولياً للمؤمنين الذين آمنوا بالنبي الخاتم .

ولأن ٱلله ولي من والاه ونصير من نصره فهو يبعد الظالمين عن مدار رحمته لأنهم ظلموا أنفسهم فليس لهم بسبب ظلمهم من ولي ولا نصير ، لذا يبطل السؤال لماذا لم يجعل ٱلله الناس أمة واحدة ؟

فيقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (1) فهم قد تركوا ملة إبراهيم وحادوا النبي الخاتم ﷺ بل آذوه بمحاربتهم له وتكذيبهم له وغير ذلك مما نراه حتىٰ الآن من رسوم بذيئة وإصرار علىٰ باطل هاو لا مناص من ذلك ، فهم قد حرموا أنفسهم من ولاية الولي النصير ﴿ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ والولي هو المدبر الحكيم للعالم وما فيه . فليتتبع الإنسان ببصره في ملك ٱلله ، سواءً كان هـٰذا الملك في داخل الإنسان أو خارجه ليتبين أن ٱلله الذي تولىٰ أمر الكون قد جعل كل ما فيه بحكمة ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (2) يا لها من قدرة تدعو إلىٰ السجود الروحي والقلبي والجسدي لمن يتأمل ويستشعر برهبة وعظمة وجلال حكمة ٱلله وتدبيره لأمر العالم وما فيه ، فلن تجد العيون نقصاً تلحقه بتدبير الولي القدير الحكيم ، ومحتم عليها أن تعود حسيرة طائعة لرب العالمين إن كانت لأصحاب قلوب مؤمنة ، أو تعود صاغرة ذليلة إن كانت لأصحاب القلوب الكافرة .

---

(1) الشورىٰ ، 8 .

(2) الملك ، 1 ـ 4 .

ومن تتوهم نفسه أن العالم ليس له مدبر يتولىٰ أمره فلن يعود ذلك عليه إلا بالكد والتعب البدني والنفسي والحسرة ، فولي العالم ومدبره قال وقوله الحق : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ (1) سنري هـٰؤلاء المشركين دلائلنا علىٰ صِدقك ، وأنّه وعدُ ٱلله لعباده جميعاً ، وذلك بأن نطلعهم علىٰ شيء من خفايا هـٰذا الكون ومن خفايا أنفسهم علىٰ السواء . فقد كشف العلم عن أمور كثيرة عن الأرض وما عليها ، وعن النظام الشمسي وما فيه ، وأن هـٰذه الأرض وما حولها ما هي إلا ذرة صغيرة تابعة للشمس ، التي هي وما حولها ذرة صغيرة تسبح في هـٰذا الكون الفسيح ، وعرف الناس عن الجسم البشري وتركيبه وخصائصه وأسراره الشيء الكثير ، وأن كل هـٰذه المعلومات والاكتشافات ما هي إلا ذرة من علم ٱلله . ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (2) . وكذلك سنري هـٰؤلاء المشركين وقائعنا بالبلاد والفتوحات التي تمت علىٰ يدي الرسول الكريم عليه صلوات ٱلله وسلامه ، وعلىٰ يدي خلفائه وأصحابه الكرام ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ ﴾ وأن كل ما جاء به الرسول الكريم هو الحق . ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ كفىٰ بٱلله شهيداً علىٰ أفعال عباده وأقوالهم ، وعلىٰ صدق محمد فيما أخبر به عنه ، ألم تكفِهم هـٰذه الدلائل الكثيرة التي أوضحَها سبحانه في هـٰذه السورة وفي كل القرآن ، وفيها البيان الكافي لإثبات وحدانيته ، وتنزيهه عن كل نقص ! !ثم بين ٱلله سببَ عنادهم واستكبارهم بعد كل ما تقدم من حججٍ وبيّنات فقال في الختام : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ إنهم في شك عظيم من البعث والجزاء ولقاء ربهم ، ولذلك

(1) فصلت ، 53 ـ 54 .
(2) الإسراء ، 85 .

كفروا ، وٱلله تعالىٰ محيطٌ بكل صغير وكبير ، لا يفوته شيء في هـٰذا الكون الكبير ، وإليه مردّ الجميع [1] .

الولي من الناس : هو من ينصر ٱلله وينصر شرعه ويقيم الخلافة المرجوة علىٰ الأرض وهو ما يدور البحث في معنىٰ من معانيه ، وكما سبق أن أوردنا تعريفاً له من القاموس الفقهي : « هو العارف بٱلله تعالىٰ ، بأسمائه ، وصفاته ، علىٰ حسب ما يمكنه ، المواظب علىٰ الطاعات ، المجتنب للمعاصي ، المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات » [2] .

وٱلله الولي المطلق ينصر وليّه الذي من صفاته موافقة ما أمر به ٱلله ، واجتناب ما نهىٰ عنه ٱلله ، فيقول ٱلله في الحديث القدسي الذي يرويه النبي ﷺ ، قَالَ رسول الله ﷺ : إنَّ اللهَ قَالَ : « مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ » [3] .

اللهُمَّ يا الولي أنت تتولىٰ الأنبياء والأولياء والخلفاء والصالحين ، فكن بنا يا ربنا باراً ولياً وحفياً ، اللهُمَّ إنّا لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت علىٰ نفسك ، اللهُمَّ لا تكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين أو أقل وتولنا في الأمور كلها ، ويا الولي أصلح لنا شئوننا في الأمور كلها ، وتولنا من وساوس النفس ومن أرق الضمير ومن غلبة فساد القلوب ، ورقّنا إلىٰ منازل من اتخذوك ولياً

---

(1) تفسير القطان ، ج 3 ، ص 203 .
(2) صحيح البخاري ، ج 20 ، ص 158 .
(3) المصدر السابق ، ج 20 ، ص 158 .

وتولّيْتَ أمورهم في الظاهر والباطن ، أنت يا ٱلله يا ولي قلت : ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ ﴾ [1] فأخرجنا يا ٱلله من ظلمات الجهل إلىٰ نور الإيمان والعلم ، وتولنا بعنايتك وبواسع رحمتك !

اللهُمَّ إنك وليُّنا في الدارين فاجعلنا من المستخلفين الصالحين المصلحين ولا تجعلنا من المفسدين الضالين ، وتولنا وأولادنا وزوجاتنا ووالدينا ومن لهم الحق علينا ، تولنا يا ٱلله بالرعاية والعناية واجعلنا من الفائزين وأستغفر ٱلله من كل ذنب ، والحمد لله رب العالمين !

---

(1) البقرة ، 257 .

الحميد جل جلاله

الحميـد : صفـة مـن صفـات ٱلله الحسـان ، بهـا يحمـد علىٰ مـا خلـق وما أعطىٰ ، وما حفظ ، وما أغنىٰ ، ولذا فهو مصدر كل حمد سبحانه لا إلـٰه إلا هو .

الحميد : « هو المحمود المثنىٰ عليه ، وٱلله عز و جل هو الحميد بحمده لنفسه أزلاً وبحمد عباده له أبداً ، ويرجع هـٰذا إلىٰ صفات الجلال والعلو والكمال منسوباً إلىٰ ذكر الذاكرين له ، فإن الحمد هو ذكر أوصاف الكمال من حيث هو كمال » [1] .

الحميد : « هو المحمود بكل لسان وعلىٰ كل حال كما يقال في الدعاء : الحمد لله الذي لا يحمد علىٰ الأحوال كلها سواه » [2] .

واسم ٱلله الحميد : « يدل علىٰ ذات ٱلله ، وعلىٰ صفة الحمد بدلالة المطابقة ، وعلىٰ ذات ٱلله وحدها بالتضمن ، وعلىٰ صفة الحمد بدلالة التضمن » [3] .

والخليفة هو الحميد بعقائده وأخلاقه وأعماله وأقواله ، وهو المدرك أن

---

(1) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص 130 .
(2) تفسير أسماء ٱلله الحسنىٰ ، ج 1 ، ص 55 .
(3) أسماء ٱلله الحسنىٰ ، ج 21 ، ص 15 .

مصدر حمده هو ٱلله الحميد المطلق فيتوجه إليه بالحمد علىٰ ما وهب له من نعم .

الحميد لا يحمده إلا شاكر مؤمن بأنه صاحب الفضل بما خلق علىٰ من خلق ، والحميد هو الذي يبارك القول الحق والفعل الحق ، ويبارك الأعمال المسببة في الإصلاح والعمار في الأرض والحائلة بين بلوغ الظالم للمظلوم ، والعاتقة للرقاب والفاكة لدين المدينين ، والنفقة مما رُزقت به علىٰ الفقراء والمساكين ، والمطفئة لنيران الفتن في كل مكان وحين ، والمسبحة باسمه حمداً لله رب العالمين .

فالحميد معطٍ بغير منة ، ولذا فهو يحمد علىٰ عطائه الكريم ، فالحمد له لقد أعطانا ما أعطىٰ من خيرات لا تعد ولا تحصىٰ ، لقد أعطانا الأرض التي خلقنا منها خلقاً ، وهي ثروة وكنز لا يزول ولا يفنىٰ حتىٰ يدخل المستخلفون فيها إلىٰ الجنة ، أي ينقلهم إلىٰ ما هو أفضل وأجود وأحسن وأرقىٰ وأنفع وأفيد ، سبحانه يُحمد علىٰ هـٰذا الفضل وكل فضل لا إلـٰه إلا هو .

ولقد أعطانا السماء نتجول في آفاقها ، وسمح لعقولنا بغزوها بالقوة ، حتىٰ نبلغ قصدنا من العلم والمعرفة التي تمكننا من أن نزداد ثقة بخلقنا وإيماناً بخالقنا ، الذي كلما تمكنا بعزته أن نتعلم جديداً نكتشف أننا لم نؤتَ من العلم إلا قليلاً مصداقاً لقوله : ﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ﴿٨٣﴾ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴿٨٤﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ﴾ (1) .

الحميد هو الذي أعطىٰ كل شيء ، ولم يترك ما خلق في حاجة ، فلقد

(1) الإسراء ، 83ـ87 .

خلق ما خلق ، وخلق له رزقاً وافراً ، ثم هدىٰ المخلوق إلىٰ الرزق لتكون له الحياة بصفته التي عليها خلق إنساً أو جاناً أو ملائكةً كراماً ، أو طيراً أو أي كائن مخلوق وأينما خلق ، فله الحمد علىٰ ما خلق وما أعطىٰ وما هدىٰ . قال تعالىٰ : ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (1) .

وعليه لقد خلق الشيء وخلق من الشيء أشياء لا تعد ولا تحصىٰ إلا منه عز وجل ، فقد أحصىٰ كل شيء وعده عداً ، لقد خلق الحياة والأرض ، والسمـٰوات العلىٰ ، والجن والإنس ، والملائكة الكرام ، ولقد خلق الزمان والحركة ، وخلق الإنسان في أحسن تقويم ، ولقد خلق الموت ، وخلق البعث ، وخلق الثواب والعقاب ، وخلق كل شيء سبحانه ، إنه ربي جل جلاله له الحمد .

ونقول في بعض ما خلق لنحمده :

أولاً : حمده علىٰ خلق الحياة : إنها الامتداد بالحركة والسكون ، وهي الولادة التي لم تنجبها أم ولا أب ، إنها من الحميد الأعظم ٱلله جل جلاله ، والحياة مكون عام ، بها ظهر الوجود إلىٰ حيز التفاعل والتكاثر عبر الزمان والمكان ، فبعثت في الأنفس والأرواح والأجساد ، وبعثت في الدار الدنيا والدار الآخرة ، وبعثت في الجنة والنار ، فله الحمد علىٰ بعثه للحياة التي بها أدركناه واحداً أحداً لا شريك له . قال تعالىٰ : ﴿ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ جَـٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَـٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ

(1) طه ، 49 ـ 50 .
(2) النساء ، 109 .

جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [1] . إذاً هـٰذه الحياة الدنيا جنباً إلىٰ جنب مع الحياة الآخرة ، ولكل حياة خصوصيتها التي تميزها عن الأخرىٰ ، والخليفة هو الذي لا يقبل بالحياة الدنيا علىٰ حساب الآخرة وذلك لإيمانه بقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [2] .

ثانياً : حمده علىٰ خلق الأرض : بأمره عز وجل (كن) كانت الأرض ، وبأمره (كن) كان أبونا آدم عليه الصلاة والسلام من الأرض ، وبأمره (كن) جعل الإنسان في الأرض خليفة ، وبأمره (كن) جعل في الأرض الزوجين (الذكر والأنثىٰ) ، وبأمره (كن) كانت الثمار التي تشبع الحاجات لمن خُلق سابقة علىٰ خلق آدم من التراب ، وبأمره (كن) خلق الإنسان في أحسن تقويم ، فله الحمد علىٰ كل هـٰذه النعم وغيرها من النعم التي أنعم بها علىٰ مخلوقاته ، وخص الإنسان بحمل الأمانة ، فكانت منه الرسل والأنبياء صلوات ٱلله وسلامه عليهم .

ولأن الأرض هي الكنز الذي تملأه الخيرات وتعمه ظاهراً وباطناً ، وهي الطينة التي منها خلقنا ، وهي التي فيها نقبر بعد الممات ، وهي التي منها نبعث علىٰ الطاعة والشهادة ، فهي في حاجة لمن يصلحها ، ولأنها كذلك ألا تكون دائماً في حاجة لمصلحين يصلحونها بالعمار والإنتاج والعمل الصالح ، وإصلاح ما أفسده السفهاء فيها من تخريب أو دمار ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ

---

(1) يونس ، 64ـ67 .
(2) القصص ، 77 .

مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [1] . إنها الأم التي يستوجب الإخلاص فيها لتبقىٰ إلىٰ يوم يبعثون علىٰ الحق ولأجله ، وهـٰذه عبء حمله الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ، ولذا فالخليفة الذي استمد صفاته من صفات خالقه الحميد المطلق ليس له بدٌّ إلا أن يعمل صالحاً في مرضاته جل جلاله . قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [2] .

فبحمده خلق الأرض كنزاً متكاملاً ، يابسة وماء ، بحاراً ومحيطات وبحيرات ، وأنهاراً تجري ، والأسماك فيها نعمة علىٰ عباده الذين خلق في أحسن تقويم ، وكانت النباتات علىٰ ظهرها رحمة فله الحمد علىٰ ما خلق وأعطىٰ ، وكانت الحيوانات المتنوعة مع الطيور الداجنة والطائرة تتنوع وتتعدد رحمة وزينة وجمالاً ووسيلة يبلغ بها المقاصد ، كل شيء علىٰ ظهر الأرض بميزان لتعتدل الحياة عليها دون مظالم ولا مغالبة ، ومع ذلك لقد فضل ٱلله الإنسان الذي خلقه في أحسن تقويم ، وفضل بعضاً من عباده علىٰ بعض بالأعمال التي بها تبلغ الغايات العظام علىٰ الطاعة التامة ، قال تعالىٰ : ﴿مَّن

---

(1) البقرة ، 8ـ16 .

(2) الرحمـٰن ، 10ـ16 .

كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [1] ، ولهـٰذا خُلِقَ كل شيء علىٰ ميزان العدل لأجل البقاء دون إكراه ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [3] .

ثالثاً : حمده علىٰ خلق السماء : قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [4] ، بطبيعة الخلق كانت الأرض وكان ما عليها وما فيها من خيرات كثار ، ثم كانت السمـٰوات السبع فوق بعضها طباقاً ، منها ما نعلمه نحن بني آدم ، ومنها ما لم نعلمه بعد ، وبما أننا لم نؤت من العلم إلا قليلاً ، والعلم منه وحده جل جلاله ، فإننا سنعلم من علمه المزيد علىٰ قدر عقولنا ، التي هي دائماً لا تتسع

---

(1) الإسراء ، 18 ـ 21 .
(2) الرحمـٰن ، 1 ـ 16 .
(3) المائدة ، 8 ـ 9 .
(4) البقرة ، 29 .

لأن تحمل علمه المطلق فهي العقول التي خلقت في أحسن تقويم ، ولم تخلق علىٰ الكمال ، فالكمال لله وحده والحمد ٱلله رب العالمين . قال تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ (1) .

السماء برحمته كانت لنا الآفاق الواسعة التي تحوطنا من كل جانب ولا نحوطها ، وفيها جعل الشمس والقمر والنجوم ، والضوء نهاراً والظلام ليلاً ، وكل نعمة من نعم ٱلله التي دائماً نحمده عليها ، فله الحمد علىٰ واسع فضله ونعمه لنا في الأرض والسمٰوات العلىٰ ، وفي هٰذا الأمر انقسم بنو آدم بين مؤمن مستخلف فيها وبين كافر ومشرك وضال ، إنهم المكذبون والجاحدون لنعم ٱلله عليهم ، فهم المستكبرون الذين لا يحمدونه أبداً ، فهٰؤلاء جعل لهم العذاب الشديد في مقابل إدخال خلفائه الجنة ، فله كل الحمد . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (2) .

السماء هي بيت البركة التي تتنزل علىٰ المستخلفين فيها رحمة من الرحمٰن الرحيم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم

(1) الإسراء ، 85 ـ 87 .
(2) الأعراف ، 40 ـ 43 .

بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ [1] ، ولأنها بيت البركة قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ﴿٢﴾ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴾ [2] ، ولأنها بيت البركة الذي منه تتنزل علىٰ عباده الصالحين ، فهي تنزل العذاب بأمره تعالىٰ علىٰ الكفرة والمشركين الظانين بٱلله ظن السوء . قال تعالىٰ : ﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴿١﴾ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ﴾ [3] . فله الحمد والشكر علىٰ فضله ورحمته الواسعة ، التي أنعم بها علىٰ عباده الصالحين .

في السماء خلق النجوم والكواكب والشمس والقمر ، والمجرات والمطر الذي ينهمر نعمة ورحمة علىٰ الخلق والحياة ، بها تزينت السماء والأرض ، ومنه له الحمد تستمد الطاقة لتستمر الحياة حسب ما كتب لها الخالق جل جلاله ، وفي كل ذلك قال تعالىٰ :

في النجوم : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ

---

(1) الأعراف ، 96ـ100 .
(2) القدر ، 1ـ 5 .
(3) المعارج ، 1ـ7 .

﴿ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (1) . جعل النجوم مرشدة تهدي المتنقلين دون أن يضلوا طريقهم إلىٰ ما يهدفون بلوغه ، ولذا فالخليفة هو من يستمد علمه من العليم الحكيم ، ومما خلق له في الأرض والسماء ، ليتمكن من معرفة شيء من علمه وحيث ما تمكن من معرفة وعلم من علمه ازداد علماً وإيماناً وحمداً وشكراً له جل جلاله .

في الكواكب : قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ (2) .

في الشمس : قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (4) .

في القمر : قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ ﴾ (5) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ (6) ، وقال تعالىٰ : ﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴾ (7) .

في الفلك : قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى

---

(1) الأنعام ، 95ـ97 .
(2) الصافات ، 6ـ12 .
(3) الفرقان ، 45 .
(4) يـٰس ، 38 .
(5) نوح ، 15 ـ 16 .
(6) يـٰس ، 39 .
(7) المدثر ، 32 .

فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (2) .

في الرياح : قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (4) .

في المطر : قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (5) ، وقال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (6) .

رابعاً : حمده علىٰ خلق الجن : الرحمـٰن خلق الثقلين من الجن والإنس ، وميزهما بمعطيات إدراكية فيها الصدارة للإنس الذي خلقه الرحمـٰن في أحسن تقويم ، ولهـٰذا التميز خلقوا بما يمكنهم من الإيمان بخالقهم ويحمدونه علىٰ خلقه بعد الطاعة التامة له واحداً أحداً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا

(1) الأنبياء ، 33 .
(2) يـٰس ، 40 .
(3) الأعراف ، 56 ـ 57 .
(4) فاطر ، 9 ـ 11 .
(5) الشورىٰ ، 28 .
(6) السجدة ، 27 .

خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ (1) ، فالحمد له الذي خلق الجن ثقلاً للتوازن مع ثقل الإنس علىٰ أرضه التي أوجب الإصلاح فيها ونهىٰ عن الفساد وسفك الدماء بغير حق ، إنهما الثقلان اللذان منهما المؤمنون به واحد أحد لا شريك له وهم يعترفون بأنه لم يكن له صاحبة ولا ولد ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ (2) ، وفي خلقه للجن إظهار للقوة التي تلحظ ولا تشاهد ، إنهم أقوام يروننا ولا نراهم ، ومع ذلك شعرت الاتصال بهم في الاعتدال الثقلي متاحة وممكنة في دائرة المتوقع وغير المتوقع ، كما هو الحال مع سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ (3) ، العفريت من الجن

---

(1) الذاريات ، 56ـ60 .

(2) الجن ، 1ـ13 .

(3) النمل ، 39ـ40 .

الذي قال أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، إنه مالك من القوي قوة ، بها يمكنه استدعاء عرش بلقيس ، وإحضاره قبل أن ينفض مجلس سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام ، ولـٰكن بحضور من هو أقوىٰ منه وهو من المستخلفين فيها من بني آدم عليه الصلاة والسلام وهو مؤمن بما في الكتاب من قوة مطلقة وهو علىٰ علم بها في آيات الكتاب ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ . فالحمد للحميد المطلق علىٰ ما أعطىٰ ووهب وخلق وأظهر من القوة التي أمدد بها المؤمنين بالكتاب الذي فيه الإعجاز والآيات الكريمة ، التي بها تم استحضار عرش ملكة سبأ في زمن رمش العينين .

الجن أقوام منهم المؤمنون ومنهم ما دون ذلك وهم الذين فسقوا من الأبالسة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ (1) .

إذاً الجن جنود لله تعالىٰ بإيمانهم لا يقدمون علىٰ إفساد ، إلا من ضل عن هداه كما هو حال إبليس عليه اللعنة إلىٰ يوم يبعثون ، ولهـٰذا كان إبليس في الأرض فتنة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ

(1) الكهف ، 50 ـ 53 .

فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (1) .

خامساً : حمده علىٰ خلق الملائكة المكرمين : الذين آمنوا باستخلاف آدم طاعة لله رب العالمين ، والملائكة أمم طائعة لله تعالىٰ ، يفعلون ما يؤمرون ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (2) .

وهناك علاقة قوية بين الملائكة والمستخلفين في الأرض ، ولذا فالملائكة مناصرة للحق بالحق ، ومبشرة بالحق لعباده الصالحين ، والملائكة حلقة وصل مؤمنة تحمل الكلم دون أن تحيده عن مواضعه كما هو حال المنافقين والمشركين والضالين ، وهم مقاتلون مع المستخلفين في سبيل إحقاق الحق في الأرض ، قال تعالىٰ : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (3) .

وهم حاملو العرش المقربون لله تعالىٰ المسبحون بحمده ، قال

---

(1) ص ، 75ـ83 .
(2) البقرة ، 30ـ34 .
(3) الأنفال ، 12ـ13 .

تعالىٰ : ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (1) ، الحمد لله رب العالمين علىٰ خلقك وعلمك وقدرتك وقوتك التي خلقتنا بها في أحسن تقويم حتىٰ آمنا بك رباً واحداً لا شريك لك ، لم تلد ولم تولد ولم يكن لك كفواً أحد ، سبحانك أنت ربي أحمدك .

والملائكة الكرام يفعلون ما يؤمرون به ، طاعة كاملة لله تعالىٰ ، وبذا فهم بطاعتهم يتعبدون ، ويحملون عرش ربهم ، فمن الملائكة المبشرون بأمر ٱلله للمستخلفين فيها ، وهم الظاهرون لعباده الصالحين كما هو الحال مع زكريا ومريم عليهما الصلاة والسلام ، قال تعالىٰ : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ (2) .

وعليه فهناك علاقة قوية تربط الجن والإنس والملائكة وهٰذه العلاقة مؤسسة علىٰ طاعة ٱلله وأمره ، فمن ينادي ربه وهو مؤمن ومخلص لله تعالىٰ ، سيستجاب لطلبه سراً أو علانية ، سراً بأن تكون الإجابة مفعولة مباشرة ، أو

---

(1) الزمر ، 75 .

(2) آل عمران ، 38ـ45 .

تكون عن طريق الملائكة المكرمين الذين قد يظهرون في صور الإنسان ذي الوقار والهيبة وهم حاملو الإجابة علىٰ الطلب الصادق ، فالحمد لله رب العالمين ، إنك سميع قريب مجيب الدعاء .

سادساً : حمده علىٰ خلقه للحركة والزمان والمكان : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (1) .

وعليه لا امتداد ولا حركة إلاّ في حدود الممكن ، ولذلك يكون الممكن هو مجال الامتداد ، ومجال الحركة والزمان ، ولأنه ممكن فهو متوقع الحدوث وبعد حدوثه قد يكون مساوياً لما هو متوقع وقد يكون أكثر أو أقل وعليه فالممكن ضروري الحدوث ، ولكن نسبة حدوثه احتمالية مما جعلنا نفترض لها ثلاث احتمالات وهي :

الاحتمال الأول : يكون الممكن مساوياً للمتوقع .

الاحتمال الثاني : يكون الممكن أقل من المتوقع .

الاحتمال الثالث : يكون الممكن أكثر من المتوقع .

---

(1) الحجر ، 19ـ31 .

وعليه لا يكون الامتداد إلاّ من مجال الممكن ، ولا ممكن إلاّ في دائرة الزمان ، فما نشاهده أو نلاحظه ونحس به أو نتذوقه أو نشمه أو نسمعه فهو الواقع في حدود الممكن ، ولذلك يحدث الاختلاف في درجات تمييزنا لما يقع في مجال الممكن بالنسبة إلىٰ مداركنا وقدراتنا وأحاسيسنا ، فمنّا من يميز بين الأشياء أكثر من بعضنا وهـٰذا يعني أن للبعض منّا قدرة تمييزه أقل ، والبعض الآخر يساوينا .

وعندما نتحدث عن الممكن فلا ينبغي الإغفال عن غير الممكن حيث لا وجود لغير الممكن بالنسبة إلىٰ الحميد جل جلاله : ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (1) . أما بالنسبة إلىٰ البشر فهناك الممكن ، وهناك غير الممكن ، الممكن في نضج القدرة ، وغير الممكن في قصورها ، ولهـٰذا قد يتوقع المفكر ما هو ممكن ، ولـٰكنه قد لا يستطيع تحقيقه نتيجة قصور إرادته وقدرته .

ولأن ٱلله تعالىٰ عالم الغيب والشهادة ، فله الحمد علىٰ علمه بالغيب والشهادة ، وله الحمد علىٰ خلقه لنا في أحسن تقويم ، حتىٰ عرفنا أنه ٱلله الذي يحمد ويشكر علىٰ خلقه ونعمه التي ميز بها عباده عن بقية خلقه بأحسن تقويم ، وله الحمد أن جعلنا في دائرة الممكن نجتهد ونبحث لأجل أن نعرف أفعال الحق الذي هو الآخر يقع في دائرة الزمان .

وعليه يقع الممكن في الزمان الحاضر والزمان المستقبل ، ولا يقع في الزمان الماضي ، وذلك لأن الممكن هو افتراض قابل للتحقق وليس افتراضاً محققاً ، فالمحقق هو الكائن أو الكائنة ، أما الممكن فهو الذي لم يكن بعد ولـٰكنه سيتحقق في الآن أو في المستقبل ، ولهـٰذا يكون الفرق واضحاً بين

(1) البقرة ، 117 .

المحقق ككائن ، وبين الممكن الذي سيتحقق . وعليه يمكننا الآن الحوار مع السؤال الذي طرح منذ زمن بعيد وهو : ما هو الأسبق في الوجود : الممكن أم الواقعي ؟ وأجاب أرسطو علىٰ ذلك بأن الواقعي أسبق في الوجود من الممكن معللاً ذلك بقوله : « إن الممكن يحتاج كي يوجد إلىٰ واقعي يسبقه »[(1)] . من هـٰذه الناحية نعم لولا وجود مصدر للأمر ما كان للأمر وجود أول ، ولـٰكن من ناحية أخرىٰ فالأمر السابق غير مطلق مما يجعلنا نقول : لا يمكن أن تتواجد الأشياء ما لم تكن ممكنة . فٱلله سابق الوجود علىٰ الممكن ، وكل ما تحقق من بعده وما سيتحقق هو الممكن بالنسبة إليه ، والبشر كمحقق من هـٰذا الممكن عندما يسعون إلىٰ تحقيق ما هو ممكن من ناحية عقلية ، يكون الممكن في هـٰذه الحالة سابقاً علىٰ المحقق ذهنياً أو إدراكياً . وهـٰكذا يكون حال الممكن الإلـٰهي الذي لم يحقق بعد للمشاهدة والإدراك العقلي ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[(2)] بمعنىٰ عندما يصدر ٱلله أمراً وهو الممكن لابد وأن يتحقق في الوقت المحدد له ، وفي هـٰذه الحالة يكون الممكن سابقاً علىٰ المحقق . وعليه يكون الممكن قراراً معطياته مثبتة للتحقق ، والتحقق فعل تنفيذ الممكن وهو الكائن أو الكائنة ، والبشر لا يحققون إلاّ الممكن ، أما ٱلله فيحقق الممكن والمستحيل ، فسبحان ٱلله العظيم . قال تعالىٰ : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَـٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ

---

(1) عبد الرحمـٰن بدوي ، موسوعة الفلسفة ، بيروت ، الجزء الثاني ، الطبعة الأولىٰ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1948 ، ص448 .

(2) البقرة ، 117 .

وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (1) .

الامتداد الفكري :

هو محتوىً لفظي عام في مضمونة حركة ، ولهٰذا لا يمكن أن يكون هناك امتداد بدون حركة سواء أكان هٰذا الامتداد جسمياً أو فكرياً ، والامتداد قد يكون طبيعياً كما هو عند حالات النمو ، وقد يكون بالإرادة كما هو في حالات الاختيار ، وقد يكون بالقوة عندما يكون في مقابلة انكماش بالمغالبة ، ويعتبر الامتداد مساحياً سواء أكان فكرياً أو مادياً ، وقد يكون ميسراً ، وقد يكون بالقوة ، وقد لا يكون ، ولله الحمد علىٰ نعمه في الحركة والسكون .

الامتداد في الفراغ ميسر مثله مثل الامتداد المجالي المسموح به لأنه لم يشكل أي عائق ولا يمتد خارج حدوده ، وامتداد المغالبة بالقوة يؤدي إلىٰ الاستزادة والفقدان بين الأطراف الممتدة ، والامتداد المساوي في الصلابة قد لا يكون . والامتداد خارج الحيز يكون علىٰ حساب حيز آخر ، وعندما تتلامس الأفكار أو الأجسام الممتدة يحدث الاحتكاك بينها ، وقد ينجم عنه استيعاب أو صدام يكون له تراض أو مغالبة . وهٰكذا تمتد الأرقام المستقلة إلىٰ النهاية بيسر وهي متصلة ، وتستقل بالآحاد وتتصل بالجموع . امتداد الواحد إلىٰ ما بعده من أعداد يساوي جموعاً ، ولهٰذا لا جموع إلاّ بالامتداد الحركي ، امتداد الواحد خارج حدوده يشغل حيزاً من المترتب عليه والذي لا يمكن أن يكون إلاّ به (بالواحد) ، ولذلك لا وجود لأي كميات إلا بالامتداد الآحاد . فلو رسمنا مستقيماً طوله 5 سم ، فإن ذلك يعني امتداد خمس وحدات متصلة بالجموع تكوّن هٰذا المستقيم كما في الشكل رقم (1) .

---

(1) ق ، 6ـ15 .

أ ـــ ب

الشكل رقم (1)

وبما أن الوحدات الخمس منفصلة فكيف تكوِّن مستقيماً متصلاً ؟ تكوّنه بالامتداد ، امتداد الواحد إلىٰ خارج قيمه (مجال حدوده) ، بالإيجاب تجعله يتماس مع مجال القيم للعدد اثنين بالسلب ، وهـٰكذا تتصل بقية الأرقام الخمسة مسطرة مما يجعلها ترسم الخط المستقيم الذي أشرنا إليه . ولو لم تكن للأعداد نهايات بالسلب والإيجاب ما كانت هناك صلة بينها ، ولهـٰذا لا يمكن أن تتصل الأعداد بعضها ببعض لو كانت تمتد إلىٰ مالا نهاية . وعليه تجمع الأعداد المستقلة ، وتطرح الأعداد المتصلة ، والأعداد المتساوية في الكم قد لا تتساوىٰ في المقادير .

لقد عرفنا أن جمع 2 + 2 = 4 ، ولـٰكن هل الاثنان الأولىٰ تساوي الاثنين الثانية في المقدار ؟ ولتوضيح ذلك لو افترضنا أن الاثنين الأولىٰ غزالان والاثنين الثانية أيضاً غزالان ، ولـٰكن الاثنين الأولىٰ عمرها سنة واحدة ، والاثنين الثانية عمرهما أربع سنوات ، فهل هم في حالة تساوٍ قيمي أو عمري ؟ وحتىٰ من الذهب قد لا تتساوىٰ ، فهل 50 جراماً من الذهب تساوي 50 جراماً من الذهب ؟ مع أنه من حيث الكم نعم إنهما متساويتان إلاّ أنه من حيث القيمة ليس بالضرورة أن تكونا متساويتين ، لأن الخمسين جراماً الأولىٰ عيارها 18 والثانية عيارها 24 . إذاً الأعداد المتساوية في الكم ليس بالضرورة أن تتساوىٰ في العمر أو النوع أو اللون أو المقدار أوالكيف . وهـٰكذا لو تحصل أحد الطلبة في مادة الفيزياء علىٰ نسبة عالية ، ولتكن 90 ٪ ، هل هـٰذا يعني أن كل من تحصل علىٰ هـٰذه النسبة هو ممتاز في مادة الفيزياء ؟ ليس بالضرورة أن يكون ممتازاً في المادة مع أنه ممتاز في هـٰذا الاختبار ، ولو أعيد له الاختبار باختلاف الأسئلة فقد لا يحصل علىٰ هـٰذه النسبة العالية ، وتكون النتيجة السابقة في شك لفقدانها مصادق الثبات . وعليه ينبغي أن يهتم التحليل العقلي والتفسير العلمي

بعناصر الاختلاف والاتفاق بين النتائج المتساوية في الحاصل الحسابي ، وألاّ يقتصر علىٰ المجامع الإحصائية فقط ، لأن اتصال الأعداد وتساوي محصلاتها لا يعني تساويها .

وعند دراسة المواضيع تتصل الأفكار وتترابط في نسج منهجي ينظم وحدة الموضوع ، ويظهره في شكله اللائق ليحل محله بين البحوث الناجحة التي سبقته . وتتصل الأفكار والمواضيع من أجل اكتمالها ، وتحلل علمياً عندما يتمكن الباحث من معرفة نقاط الاتصال والترابط بين تنقله من الكل إلىٰ الجزء ، ثم إلىٰ المتجزئ ، أو منه ، إلىٰ الجزء ، ثم إلىٰ الكل عند محاولته التعرف علىٰ العلل والأسباب الكامنة والظاهرة . ولا يمكن أن يكتمل الموضوع بدون امتداد أفكاره ، ولا يمكن أن يحلل بدون معرفة نقاط اتصاله . والباحث كمتقص للحقائق لا يسترسل في دراسته ، أو تشخيصه ، أو علاجه للحالات ما لم تكن أفكاره متصلة ، وإلمامه بالموضوع متكاملاً . وهٰكذا تتكوّن الظواهر والمشاكل المستقلة من علل وأسباب حركية متصلة ، ومن الصعب أن تحلل ، أو تفسر المواضيع قيد البحث ما لم يراع الباحثون ذلك الامتداد الحركي الذي يربطها فيما بينها . فعدم التعبير عن الكبت علىٰ سبيل المثال قد يؤدي إلىٰ الانفجار السلوكي المتوقع وغير المتوقع ، ولا غرابة في ذلك لأن الانفجار السلوكي مرتبط بكبته المفروض ، ويحدث الانفجار برغبة الإنسان في التنفيس الوجداني الذي يحقق له الرضا ، حتىٰ وإن ترتب عليه ثمن عقابي ، وكذلك كبت الغرائز ، قد يؤدي إلىٰ عدم الانضباط النفسي ، وعدم الانضباط النفسي قد يؤدي إلىٰ انحراف السلوك . إذاً هناك امتداد بين الكبت وعدم الانضباط ، فكبت الغرائز قد يؤدي إلىٰ التمرد والثورة علىٰ أدوات الكبت ، بغرض التخلص من سيطرتها ، ويحدث الصراع نتيجة تواجه امتدادين بالقوة تجعل أحدهما يمتد علىٰ حساب الآخر إذا انهزم أو ضعف ، وعندما تتعادل الكفتان قد تكون بينهما مواجهة بتماس حدود اتصال القوة

المتكافئة مما يجعل لامتدادهما نهاية ، وهٰكذا الحركة الأقوىٰ تهز الحركة الأقل والأضعف وتكون علىٰ حسابهما . قال تعالىٰ : ﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [(1)] ، وقال تعالىٰ : ﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [(2)] .

ولهٰذا لا امتداد إلاّ بحركة ، وكل كائن أو جماد هو في حالة حركة كلية ، أو جزئية ، أو متجزئة ، فالأرض علىٰ سبيل المثال ككل تتكون من أجزاء تتجزأ إلىٰ يابسة وماء ونار وكلها تتجزأ ، ولكل منها بداية ونهاية ، وكلها في حركة مستمرة ، وكلها تسبح بالحمد للحميد المطلق جل جلاله ، أي أنها بتسبيحها تحمد الحميد تعالىٰ علىٰ ما آتاها من ذاكرة تسبحه ولا تغفل عنه أبداً ، وإذا تساءل أحد : بما أن الكل في حالة حركة ، فهل للثبات وجود ؟ نعم لكل حركة مستمرة ثبات في الاستمرار ، ولكل مستمر نهاية يثبت عندها .

(1) التوبة ، 69 .
(2) النمل ، 33ـ41 .

وإذا تساءل آخر : لمن يكون الثبات ؟ بالتأكيد للحركة . إذا شاهدنا أي شيء ثابت كما يعتقد المشاهد علىٰ سبيل المثال للأرض والجبال ، فإن ذلك الثبات يعبر عن وجود الحركة ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ (1) ولذلك لا يوجد الثابت المطلق ، بل الذي يوجد السكون ، والسكون دليل علىٰ وجود حركة كامنة تظهر للمشاهدة عندما تتوفر اشتراطاتها .

الحركة والسكون متلازمان ، ويستوعب كل منهما الآخر ، ويحمله في أحشائه ، وهٰكذا لكل متحرك حركة ، ولكل ساكن سكون ، ويترتب كل منهما علىٰ الآخر ، يبدأ السكون حيث تنتهي الحركة أو تتوقف ، وتبدأ الحركة حيث يبدأ السكون أو يتوقف ، فلا حركة إلاّ لسكون ولا سكون إلاّ لحركة ، ويكمن كلّ منهما في الآخر كما تكمن البراكين في باطن الأرض ، وكما تكمن الحقيقة في صدر حاملها ، وكما تكمن الفراخ في البيض (كمون المتحرك في الساكن) ، فالبركان لا يمكن أن ينفجر إلاّ بقوة الحركة الكامنة فيه ، ولا يهدأ البركان ولا يتوقف إلاّ بقوة السكون فيه ، وهٰكذا تكون الحقيقة كامنة في الصدور الواعية بحركتها إلىٰ أن يتم الإدلاء بها ، وبقوة وجوبها ، ولهٰذا يعتبر الكندي الحركة هي حالة من التبدل والتغير ، ولكل حركة بداية ، ونهاية (2) . ويتم الاتفاق معه في هٰذا القول العلمي ، بأن للحركة بداية ، ونهاية ، وأنها في حالة تبدل كما تتبدل الأرقام في جمعها وطرحها ، وبقية حساباتها الرياضية ، ولهٰذا لم يكن السكون عدماً للحركة ، ولم تكن الحركة عدماً للسكون ، بل كلّ منهما معرض للعدم ، باعتبارهما وجوداً . وكما يكمن السكون في الحركة ، تكمن الحركة في السكون ، وكذلك تكمن الحركة في الحركة ، ككمون حركة الدم في حركة القلب . ويكمن المتحرك في

---

(1) النمل ، 88 .

(2) حسام محيي الدين الآلوسي ، فلسفة الكندي وآراء القدامىٰ ، والمحدثين فيه ، بيروت ، دار الطليعة ، 1985م ، ص195 ، 205 .

المتحرك ، ككمون الجنين في بطن أمه ، وكمون حركة الركاب في السيارة أو الطائرة ، أو البالون أو السفينة ، وعليه قد تكون الحركة ذاتية ، وقد لا تكون (قد تكون مدفوعة ، أو محمولة) ، وكلها تحدث بفعل قوة .

والحركة الذاتية تنقسم علىٰ جزأين :

الجزء الأول :

حركة واعية بإرادة الاطمئنان ، وتحقق أهدافاً شخصية ، أو ذاتية أو موضوعية ، دون أن تؤثر سلباً في الآخرين ، مثل إشباع الإنسان لحاجاته وهو راضٍ ، ولا يمس حاجات الآخرين حتىٰ ولو كان بإمكانه تناولها ، وهـٰذه الحركة تحقق الانسجام والتراضي ، وتؤدي إلىٰ الوحدة .

الجزء الثاني :

حركة واعية بإرادة الخوف ، وتحقق أهدافاً شخصية ، أو ذاتية ، أو موضوعية ، وتؤثر سلباً في الآخرين ، مثل إشباع الإنسان لحاجاته علىٰ حساب حاجات الآخرين ، وهـٰذه الحركة تؤدي إلىٰ الصراع والشقاق ، وتؤدي إلىٰ الفرقة ، وكل ذلك يحدث من أجل المستقبل ، مما يجعل للحركة مستقبلاً ، وللمستقبل حركة . وتعبر الحركة عن وجود طاقة ظاهرة أو كامنة تجعل الجسم أو الشكل في حالة حركة ثابتة ، أو متغيرة ، من وقت إلىٰ آخر [1] .

حالتا الحركة :

أولاً : الحركة الممتدة :

وهي التي تحدث عندما تمتد القوة في مجالها الذي تتمكن من الوصول إليه كلما سنحت لها الفرصة في ذلك . وقد تكون الحركة فكرية ، وقد تكون مادية .

---

(1) هادي العلوي ، نظرية الحركة الجوهرية عند الشيرازي ، بيروت ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، الطبعة الأولىٰ 1983م ، ص62ـ75 .

1 ـ الحركة الفكرية :

هي التي تحدث عندما تمتد الأفكار من عقول وصدور حامليها إلىٰ عقول وصدور أخرىٰ ، فتشغل حيزاً عندهم نتيجة امتدادها إليهم ، وهـٰكذا تمتد الأخبار ، والإشاعات ، وتنتشر بين الناس حسب قوة تأثيرها سلباً أو إيجاباً وحسب قوة الفكرة أو الحجة التي تتضمنها . والأفكار الموجبة عندما تمتد خارج المجال أو البعد الذي يمكنها التأثير فيه قد تحقق نتائج سالبة ، فالمناداة بالوحدة العالمية إنسانياً موجبة ، ولـٰكن عندما تتجاوز أهمية البعد الاجتماعي في البناء والتنظيم تكون علىٰ حسابه ، وتكون نتيجة الجهد المبذول في التنشئة الاجتماعية تساوي صفراً في حالتين .

الحالة الأولىٰ :

مهما بذل من جهد تجاه المجتمع من أجل تحقيق البعد العالمي علىٰ حساب البعد القومي لا يتحقق مما يجعل الصفر هو نتيجة الجهد المبذول .

الحالة الثانية :

تركيز الجهد التربوي علىٰ تنمية أو تطوير الاتجاهات العالمية لدىٰ الناشئين يُضعف وعيهم بأهمية البعد القومي ، وتكون النتيجة : مستقبل المجتمع يساوي صفراً ، ويصبح سيره (مشيته) كالغراب الذي كان يعتقد أن بإمكانه أن يقلد الحمامة في مشيتها فنسي مشيته ومشية الحمامة .

وقد يُوجّه المجتمع كذلك فكرياً أو سياسياً تجاه تحقيق البعد الاجتماعي علىٰ حساب البعد المحلي ، فتكون النتيجة هي الأخرىٰ صفرية في حالتين :

الأولىٰ : عدم تحقيق الوحدة الاجتماعية نتيجة انسلاخ المجتمع عن مكوناته الأساسية للأمة وهي الأسرة والعشيرة والقبيلة .

والثانية : عدم تحقيق الوحدة المحلية علىٰ المستوىٰ الاجتماعي نتيجة إهمالها في التربية الاجتماعية .

وكذلك العمل علىٰ ترسيخ التكوين الاجتماعي المحلي علىٰ حساب البعد القومي تكون النتيجة صفرية في حالتين :

الأولىٰ : تشتت المستوىٰ المحلي لفقدانه مجال التمدد الطبيعي (التربية القومية) .

والثانية : فقدان الأمة أو فقدان الإحساس بها يجعل حياة الأفراد في خطر لفقدانهم المظلة الاجتماعية .

2 ـ الحركة المادية :

هي التي تمتد بقوّتها الملموسة أو المحسوسة والقابلة للمشاهدة والملاحظة ، ويكون لها أثرٌ إيجابيٌ أو أثرٌ سلبيٌ باختلاف المتأثرين بها ، مثل امتداد السيل الجارف في الوادي الذي يقتلع بقوة امتداده كل مهتز منتهٍ عندما يقع في طريقه ، وهـٰذه قد تكون سالبة أو موجبه ، حسب الموضوع ، والمقيّمين له ، وباختلاف الزمان والمكان ، ومع أنه قد يحدث سلبيات أو أضراراً ، إلاّ أنه قد يحقق العمار ، بارتوائه للأرض وإحيائه للأشجار أو للنباتات التي كادت أن تموت أو تختفي [1] . وقد تكون الحركة نتيجة انفجار بركاني يحدث بعد تمدد القوة الكامنة في بطن الأرض عندما تضعف أمامه مقاومتها ، فتفتح له الطريق للخروج إلىٰ النهاية ، وحسب مجال قوته ودائرة تأثيره ، وهـٰكذا يتمدد الجنين في بطن أمه ، وتتمدد النبتة من نواتها إلىٰ النهاية ، أو تنكمش إلىٰ النهاية . وإذا سألك أحد : هل الحركة تشاهد أم تلاحظ ؟ فبماذا تجيب ؟ في اعتقادنا أن الحركة لا تشاهد ، ولـٰكنها تلاحظ . ولكي أجيب أتساءل : بما أن الحركة لا تشاهد ، إذاً ما هو الذي يشاهد ويعتبر حركة ؟ إنه المتحرك . إذاً الحركة تختلف عن المتحرك ، لأن المتحرك قابل

---

(1) هادي العلوي ، نظرية الحركة الجوهرية عند الشيرازي ، بيروت ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، الطبعة الأولىٰ ، 1983م ، ص62ـ75 .

للمشاهدة والملاحظة معاً ، أما الحركة فتلاحظ فقط ، لأنها غير ملموسة ، لافتقادها إلىٰ المادة وتجردها منها . وإذاً الحركة هي الكامنة في المتحرك ، وهي التي تحدث كلما حدث لها تمدد بالقوة ، يجعلها في حالة ظهور بدلاً من حالة الكمون ، وهي العلاقة التي تحدث بين المتحرك والمحرك ، فإذا اعتبرنا علىٰ سبيل المثال كرة القدم هي المتحركة ، فمن يكون المحرك لها ؟ هل هو اللاعب ، أم قدم اللاعب ؟ بالتأكيد لو لم يكن اللاعب محركاً للقدم ما كانت القدم محركة للكرة ، إذاً هناك محرك مباشر وهو القدم ، ومحرك غير مباشر وهو العقل والجسم كوحدة واحدة ، وتتداخل العلاقة بين المتحرك والمحرك باتصال وانفصال ، تتصل في الفكرة والدرجة ، وتنفصل في الأداء والخصوصية .

تتصل حركة اللاعب وتتداخل من الفكرة التي تمتد من العقل إلىٰ البدن ، والجسد ، فتحركه وفق خطة واحدة متناسقة ، وبخصوصيات كل عضو من البدن ، مما يجعل لليدين وللرأس والقدم حركات مختلفة ، كلٌّ حسب وظيفتها ، ودورها في أداء المهمة المناطة بها . وحسب هـٰذه الأدوار يشاهد المتفرج حركة اللاعب متسقة ، ولـٰكنه يشاهد بالتحديد حركة القدم في علاقة مباشرة ومنفصلة مع الكرة في أثناء دفعها إلىٰ الإمام ، أو الخلف ، أو أحد الجانبين ، فتمتد الكرة بقوة دفع المتحرك (القدم) إلىٰ نقطة انتهاء القوة أو المسافة المقطوعة ، ولهـٰذا قوة الحركة هي التي تحدد الامتداد ، وليس المتحرك هو الذي يحددها ، مع أنه لولا المتحرك ما عرفنا الحركة ولا كانت تشغل حيزاً .

ثانياً : الحركة المنكمشة :

هي الحركة التي تطوي حركة الامتداد ، أو هي العودة إلىٰ الأصل ، كعودة الشجرة إلىٰ النواة التي كانت تكمن فيها ، لأن كل شجرة منتهية باعتبارها شيئاً (وكل شيء منتهٍ) ، ولـٰكن هل ستنتهي الأشجار بعد موت كل ما نبت

منها ؟ بالتأكيد لا . في عالم الوجود الحي ستنتهي كل الأشجار الموجودة علىٰ قيد الحياة ، وحسب أعمارها الممكنة لبقائها ، وستنمو أشجار أخرىٰ منكمشة في نواها . ولهٰذا لا امتداد إلاّ من انكماش ، فالانكماش هو أساس كمون القوة الممتدة . قوة النهار لا يمكن أن تمتد إلاّ إذا انكمش الليل ، وقوة الليل هي الأخرىٰ لا تمتد إلاّ إذا انكمش النهار ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (2) وهٰكذا أيضا تكون قوة انبساط اليد التي لا يمكن أن تتم إلاّ إذا انتهت قوة انكماشها . ونتيجة الانكماش ، والامتداد ، تسبح الكواكب في فلكها ، وهٰكذا امتد الكون لحظة الانفجار العظيم ، وهي نقطة البداية ، وسيعود الكون إلىٰ الإنكماش عند نقطة النهاية ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (3) ، أي يوم أن تنكمش السماء ، يكون ٱلله قد أعادها إلىٰ حالتها التي كانت عليها . وكما أن الامتداد لا يقتصر علىٰ المادة المشاهدة ، أو الملاحظة ، كذلك الانكماش لا يقتصر علىٰ ذلك ، لأن كل ممتد لابد وأن ينكمش سواء أكان مادياً ، أو فكرياً ، فالأفكار في أساسها منكمشة في العقول والصدور ، ثم

---

(1) آل عمران ، 26 ـ 27 .

(2) يس ، 36 ـ 40 .

(3) الأنبياء ، 104 .

تمتد من خلال الاتصال ، بالتبشير ، والترشيد ، والتحريض ، والتنظير ، وبالجدل تترسخ ، أو تصحح ، وتكون في حالة شك إلىٰ أن تثبت ، أو تنفىٰ . وقد تمتد أفكار وتنتشر بقوة حجتها ، ثم تعود إلىٰ الانكماش عندما تضعف حجتها . وكل من الانكماش والامتداد يتضمن قوة ، ففي مرجحة القدم أثناء ضرب الكرة تنكمش بقوة في حركة إلىٰ الخلف ، لتمتد بقوة إلىٰ الأمام لضرب الكرة ودفعها إلىٰ الهدف ، وإذا انكمشت القدم بقوة إلىٰ أعلىٰ وإلىٰ الأمام يتم دفع الكرة بقوة إلىٰ الخلف ، وهـٰكذا في حالة الجانبين ، لأن القوة هي التي تظهر في حالتي الامتداد والانكماش ، وهي التي لا تقاس إلاّ بعد الظهور من الكمون إلىٰ الحركة .

في الفرحة والبهجة قوة تمتد إلىٰ أن تمتلئ الصدور بها ، وتنكمش الأحزان أمامها ، وإذا انكمش الفرح والبهجة امتدت الأحزان والاضطرابات . ففي حالة العلاج ينبغي أن يهتم الباحث بامتداد حركة الايجابيات ، وانطواء حركة السلبيات .

وبما أننا نتكلم عن الامتداد والاتصال الاجتماعي علميّاً ، فما هو الامتداد الاجتماعي ؟ هل هو المتكوّن من المفرد والمثنىٰ والجمع والمكان والزمان ؟ أم هو أكثر من ذلك ؟ فلو كان المتكون من امتداد الأفراد المتزايدين عن المثنىٰ كان المجتمع في هـٰذه الحالة كمّاً ، وإذا كانت الجموع من كل شيء تكوّن كمّاً ، فهل المجتمع هو الآخر مجرد كم ؟ وهل الكمّ المجتمعي يبيّن صورة للمجتمع ، أم يبين صوراً للبشر المتجمعين ؟ في اعتقادنا لا تكتمل صورة المجتمع الذهنية إلاّ إذا تم اللقاء بين عناصره ، وأن يكون بينهم تفاعل ، وأن يكون لهم امتداد (امتداد ثقافي وحضاري) إذاً المجتمع هو التقاء وتفاعل امتداد مجموع الأفراد والجماعات المتفاهمين علىٰ أهمية المكان والزمان والموضوع لكل واحد منهم (إنه مجتمع الأمة الواحدة) ، أما المجتمعات الأخرىٰ فهي عبارة عن حشود مؤقتة تلتقي علىٰ مصلحة وتتفرق علىٰ مصلحة .

إذاً امتداد الأفراد بأعداد هائلة بدون تفاعل الأهداف الخاصة والعامة عبارة عن حشود (كمية) لا تعطي معنىً للمجتمع ، فالمجتمع كمٌّ وكيف ، كمّ من البشر ، وكيف من القيم . ولهٰذا المجتمع كمفهوم ضروري ذهني ولا يرسم ، لأنه لم يكن مثلثاً ولا مربعاً ولا أي شكل من الأشكال الهندسية . وهٰكذا التطور كالمجتمع لا يرسم مع أن دلالته ترسم بيانياً بالمنحنيات والمضلعات والأشكال الهندسية الأخرىٰ . ويتضح التطور بمقارنة أثر المتغيرات في الموضوع عبر الزمن سواء أكان الموضوع قابلاً للمشاهدة أو الملاحظة .

سابعاً : حمده علىٰ خلق الإنسان في أحسن تقويم : الحمد لله علىٰ استخلافه في الأرض لبني آدم المؤمنين ، الذين يرثون نصيبهم في الدار الدنيا ويرثون نصيبهم في الجنة ، والحمد له جل وعلا علىٰ خلقه العقل مرشداً للحق ومرشداً به ، والحمد لله الذي جعل المستخلفين فيها بما يستمدونه من صفات الله تعالىٰ ، والحمد لله الذي جعل الحياة الدنيا مدرسة من نجح فيها وتفوق نجح وتفوق وفاز بالجنة ، والحمد لله الذي جعل الكفار والمشركين حطب جهنم . قال تعالىٰ : ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا

(1) آل عمران ، 162 ـ 165 .

ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ [1] .

خلق ٱلله الإنسان في أحسن تقويم ، في جماله العقلي والسمعي والبصري والحركي ليستمد صفاته من صفات الجميل المطلق في سمعه وبصره وحركته وسكونه ، قال تعالىٰ : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [3] .

وعليه من مميزات خلق الإنسان في أحسن تقويم التي تستوجب أن تجعله حامداً شاكراً هي :

ـ **خلق النفس** : وخاصة التي خص بها الخليفة ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [4] ، ولأن الذي خلق في أحسن تقويم وللأسف الشديد لم يكن بكمه العددي خليفة فمنه ما دون ذلك ومنه من هو من الأرذلين ومنه أصحاب الأنفس الأمارة بالسوء . قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ

---

(1) الأنبياء ، 94ـ98 .
(2) الإسراء ، 1 .
(3) غافر ، 56ـ58 .
(4) الفجر ، 27ـ29 .

رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [(1)] ، وهناك النفس الهاوية التي تدخل صاحبها إلىٰ النار ، وهناك النفس المنتهية عن الهوىٰ فتفوز بمأواها في الجنة . قال تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [(2)] .

ـ **خلق الروح** : قال تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [(3)] ، وقال تعالىٰ : ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [(4)] .

ـ **خلق البدن** : الذي هو جسد من لحم وعظم ودم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [(5)] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [(6)] .

ـ **خلق العقل** : قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [(7)] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ

(1) يوسف ، 53 .
(2) النازعات ، 40 ـ 41 .
(3) الإسراء ، 85 .
(4) غافر ، 15 ـ 16 .
(5) البقرة ، 259 .
(6) المؤمنون ، 12 ـ 14 .
(7) البقرة ، 164 .

مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۞ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (1) .

ومن حمده علىٰ من خلق في أحسن تقويم اصطفاء الرسل منهم وإليهم ، لأجل الهداية للحق بالحق ، ولأجل الحفاظ علىٰ الاستخلاف في الأرض ، لتكون بين الناس علاقات المحبة والمودة والتآلف والتعاون والتوافق علىٰ ما يجب والإقدام علىٰ أدائه وعلىٰ ما لا يجب والابتعاد عنه ، فالحمد له تعالىٰ جعل الزوجية والأبوة والأمومة والأخوة والخؤولة والجيرة روابط قيمية تجعل للوحدة معنىً ودلالة والحمد لله أن كل ذلك في مرضاة ٱلله عز وجل ، والحمد لله الذي جعل لكل شرعة ومنهاجاً حتىٰ أصبح الدين والعرف مصدرين أساسيين لكل تشريع .

ثامناً : حمده علىٰ خلق الممات : الموت مخلوق لملاحقة الحياة المؤقتة التي حُكم عليها بالزوال ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ ﴾ (2) ، والحمد لله أن الموت بيد الحي الذي لا يموت ، ولذا فالحي الذي لا يموت هو الذي سيظل حياً ولا سواه ، ويومها يعرف الجميع أن المُلك لله الواحد القهار ، ويوم يأتي ذلك اليوم يكون الموت هو الآخر في خبر كان (ميتاً كما ماتت المخلوقات الأخرىٰ) ويومها تبعث الحياة الباقية ويظل الخلود وحده علىٰ قيد الحياة ، فالحمد له والشكر له علىٰ ما خلق وما ارتضىٰ ، وعليه فلا مخافة من الموت في الدار الدنيا ، لأنه حق من حقوق الخلق ، والكل ينبغي أن لا يكفر بحقه الذي خلق من أجله ، والحمد لله أن

---

(1) الرعد ، 4 ـ 5 .
(2) الملك ، 2 .

الموت مرافق للحياة في الدار الآخرة . قال تعالىٰ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (2) . ولأن الموت تحت الأمر (كن) إذاً لا مفر منه ، فهو آتٍ ثم بعد ذلك منتهٍ ونحن الباقون في الجنة إن كنا من المستخلفين الذين آمنوا بالله وما أنزل . قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (3) .

الموت رحمة علىٰ المريض الذي يعاني من آلام المرض والداء ، وهو رحمة علىٰ العجوز المقعد الذي نفد صبره من الهرم الذي حال بينه وبين ممارسة حقوقه ، وأداء واجباته وحمل مسؤولياته ، ومع ذلك يظل لهم الحق بالرعاية والعناية مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ (4) ، وبتقديم الرعاية والعناية لهم هم حامدون لله علىٰ ما وهب لهم من أبناء . قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ

---

(1) آل عمران ، 185 .
(2) النساء ، 78 .
(3) الجمعة ، 8 .
(4) الإسراء ، 23ـ25 .

ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ (1) .

ولذا فأفضال ٱلله لا تحصىٰ ، مما يجعل الحمد له واجباً لأفعاله الحسان ، فله الحمد علىٰ ما أعطىٰ ووهب ، ورزق وأطعم وشفىٰ من الأمراض ، وأغنىٰ عن الفقر إلا عنه ، والحمد له علىٰ ما خلق من حواس تجعل المخلوق يميز بين الحق والباطل حتىٰ يتبع الحق ويجتنب الباطل ويعمل علىٰ إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، والحمد له بجعله الإنسان خليفة في أرضه وهو في أحسن تقويم مما خلق .

تاسعاً : حمده علىٰ خلق البعث : البعث ولادة جديدة في عالم جديد لا نعرفه كما هو بل نعرفه من الوصف والشبه الذي هو عليه في آيات القرآن الكريم ، إنه مفتاح الدخول للجنة أو النار بعد محاسبة عادلة للعباد من رب العباد ، علىٰ ما قدمت أيديهم في الحياة الدنيا ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ﴾ (2) . يوم البعث يوم حق ، يؤمن به المستخلفون في الأرض وهم له منتظرون لتكون لهم الحياة الباقية ويكونون هم الوارثون حقاً ، أما أولـٰئك الكفرة المجرمون فسيفاجؤون بالحقيقة التي كانوا لها منكرين وبها مكذبين ، وتكون البهجة والفرحة علىٰ وجوه وألسنة المستخلفين المصدقين بيوم الحق الذي هم فيه مبعثون ، ويومها لا تنفع المعاذير ، فالحق لابد وأن يحق ولو كره المجرمون . قال تعالىٰ : ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ

(1) إبراهيم ، 39ـ42 .
(2) الحج ، 5 .

ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [1] .

في يوم البعث سيكون الثواب حقاً والعقاب حقاً ، اللهُمَّ اجعلنا من الذين ثقلت موازينهم في الحياة الدنيا لنتمكن من الفوز بالجنة ، ولا تجعلنا يا ٱلله من الذين خفت موازينهم إنك لطيف خبير ، وأشهد أنك أنت الأول والآخر والظاهر والباطن وأنك علىٰ كل شيء قدير تملك الملك والأمر بيدك فارحمني بواسع رحمتك وفضلك ، اللهُمَّ ارضَ عني وعن زوجي وأبنائي ووالديَّ وأخوتي وأجدادي وأحفادي وصحابتي ومشايخي الكرام وارضَ عن صحابة رسول ٱلله وارضَ عن أمهاتي زوجات النبي ، وأصلي وأسلم علىٰ جميع أنبيائك ورسلك إنني لا أفرق بين أحد منهم وهم القائلون ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ ، وأصلي وأسلم علىٰ صاحب الرسالة الخاتمة للناس والجن كافة محمد رسول ٱلله (توكلت علىٰ ٱلله . . توكلت علىٰ ٱلله . . توكلت علىٰ ٱلله) والحمد لله رب العالمين .

الحميد من صفات ٱلله تعالىٰ وتقدس بمعنىٰ المحمود علىٰ كل حال ، وفي لسان العرب المحيط ، الحمد عام علىٰ صفاته الذاتية وعلىٰ عطائه ، ويقال فلان يتحمَّد الناس بجوده أَي يريهم أَنه محمود فيحمد علىٰ إِحسانه إِلىٰ الناس [2].

---

(1) الروم ، 55ـ60 .

(2) لسان العرب ، ج 3 ، ص 155 .

وٱلله عز وجل حميد محمود لصفاته وأفعاله فله الحمد وحده : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [1] . والحمد ثناء اعترافي علىٰ من بيده ما يحمد عليه من قبل صاحب الحاجة ، بعد أن يتمكن من الحصول علىٰ مشبعات حاجاته المتطورة والمتعددة والمتنوعة .

والحمد نتاج قناعة بعد تحقيق المرضيات للنفس والعقل وتوجه إلىٰ المصدر الذي كان سبباً في ذلك ، وهو لفظ رضائي إرادي قد يقال فيسمع وقد يذكر في الصدور دون أن تسمعه الآذان ويسمعه في وقته السميع العليم فتكون الزيادة بقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [2] .

والحميد هو المصدر لكل حمد ، فلو لم يكن الحميد ما كان الحمد له ، وفي مقابل ذلك لو لم يكن الخليفة مؤمناً ما كان خليفة حامداً شاكراً لله رب العالمين .

الحميد كثير الحمد المستمر الذي لا ينقطع أبداً ، فيحمد علىٰ حمده ، والحمد واجب علىٰ المدرك للحقيقة التي جعلت حاله علىٰ ثنائية الحاجة ومشبعاتها ، والشدة والفرج ، والمرض والشفاء ، والمعصية والهداية .

والحمد مخصوص للحميد لصفاته التي ذكرها في أم الكتاب وهي :

1 ـ **الرحمـٰن الرحيم** : صفتان من صفات ذاته ما يقوم بهما حق القيام إلا الحميد سبحانه ، فهو الذي يقبل التوبة من عباده فيعفو عنهم : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [3] ، ولأنه رحمان

---

(1) الفاتحة ، 2 .
(2) إبراهيم ، 7 .
(3) الشورىٰ ، 25 .

رحيم فهو يسبغ من فضله فيغفر للمستحق وللعامل بموجبات الغفران : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (1) .

والغفران غير العفو ، فالغفران يقتضي إسقاط العقاب ، وإسقاط العقاب هو إيجاب الثواب ، فلا يستحق الغفران إلا المؤمن المستحق للثواب ، وهٰذا لا يستعمل ، فيقال غفر ٱلله لك ، ولا يقال غفر زيد لك إلا شاذاً قليلاً ، والشاهد علىٰ شذوذه : أنه لا يتصرف في صفات العبد كما يتصرف في صفات ٱلله تعالىٰ ، ألا ترىٰ أنه يقال استغفرت ٱلله تعالىٰ ، ولا يقال استغفرت زيداً . فالاستغفار لا يكون إلا للمصدر المطلق ، وذلك لارتباطه به دون غيره .

بينما العفو يقتضي إسقاط اللوم والذم ولا يقتضي إيجاب الثواب ، ولهٰذا يستعمل في العبد فيقال عفا زيد عن عمرو وإذا عفا عنه لم يجب عليه إثابته ، إلا أن العفو والغفران لما تقارب معناهما تداخلا واستعملا في صفات ٱلله جل اسمه علىٰ وجه واحد فيقال عفا ٱلله عنه وغفر له بمعنىً واحد ، وما تعدىٰ به اللفظان يدل علىٰ ما قلنا وذلك أنك تقول عفا عنه فيقتضي ذلك إزالة شيء عنه وتقول غفر له فيقتضي ذلك إثبات شيء له (2) .

ومن رحمته أنه يتبع الغفران بإبدال كل السيئات التي يقترفها العبد إلىٰ حسنات رحمة منه بعباده : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (3) ، ويزيد ٱلله من فضله عباده من التائبين والعاملين بما يحب ويرضىٰ فيصلي عليهم : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى

(1) الفتح ، 14 .
(2) الفروق اللغوية ، ج 1 ، ص 267 .
(3) الفرقان ، 70 .

عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [1] .

وصلاة الحميد هي من رحمته علىٰ العباد وهـٰذه الصلاة تأتي لتحقق للإنسان أموراً يحتاج إليها حاجة ماسة فهي تنزل السكينة : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [2] ، ومنها الهداية وعلامتها كتاب ٱلله الذي فيه تتجلىٰ أعظم صور صلاة ٱلله علىٰ عباده : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [3] ، وهو أكثر من ذلك فهو شفاء لما في الصدور : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [4] ، وهـٰذا الشفاء هو رحمة من الحميد لعباده كما تشير الآية .

ومن رحمة الحميد علىٰ عباده نهج التخفيف مع الفروض ، فما من فرض إلا وتجد معه تخفيفاً لغير القادر ، فالصلاة تُقصر للمسافر رحمة من الحميد العالم بحاجة المسافر إلىٰ العون ، ومن يعين كعونه : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [5] ، والصيام يؤجل للمسافر أو المريض مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ

(1) الأحزاب ، 43 .
(2) الفتح ، 4 .
(3) الزمر ، 23 .
(4) الإسراء ، 82 .
(5) النساء ، 101 .

لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (1) ، والحج للمستطيع فقط ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ... ﴾ (2) ، والزكاة للقادر ومن المال الفائض والمجمد فقط وبنسبة تُجمع الألباب علىٰ ضآلتها وهي تذهب إلىٰ العباد المحتاجين لها فالحميد غني عنها وعن غيرها : ﴿ ۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (3) ، وبعد ذلك فالله يعوض هـٰذه الزكاة في الدنيا ويثيب عليها في الآخرة أجراً عظيماً : ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (4) ، فعلىٰ الخليفة المستخلف علىٰ هـٰذه الأرض أن ينهج ذات النهج مع الناس فيخفف عنهم ولا يثقل كاهلهم بما لا يطيقون امتثالاً لنهج الحميد الذي لا يكلف إلا بقدر الطاقة والاحتمال الإنساني ويغفر لمن نسي ومن أخطأ بجهالة : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (5) .

ومن رحمة الرحمـٰن الرحيم أنه يرزق العباد دون أن يكون الكفر أو المعصية أو النفاق أو الإشراك من الأسباب المانعة للرزق لأن ربهم وخالقهم لا إلـٰه غيره فمن ذا يرزقهم سواه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ

(1) البقرة ، 183ـ184 .
(2) آل عمران ، 97 .
(3) الأعراف ، 156 .
(4) النساء ، 39ـ40 .
(5) البقرة ، 286 .

غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (1) .

وليس البشر وحدهم فحسب في هٰذا بل كل المخلوقات : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (2) .

ومن علامات رحمة الحميد بعباده إقراره للرحمة أساساً للعلاقات بين البشر ، فقد جعل طاعة الوالدين والرحمة بهما مما يلي توحيده والإيمان به إلٰهاً واحداً لا شريك له تنبيهاً للعباد علىٰ أهمية الرحمة وضرورة إتباعها : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ (3) ، وكانت الرحمة بين الزوج والزوجة من آيات الحميد : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (4) ، ولو سأل سائل لماذا هي آية ؟ الجواب يتلخص في قدرته سبحانه علىٰ إيجاد التقارب والتفاهم بين شخصين مختلفين في الطباع والخلق والعادات ومن هٰذا الاختلاف الذي تنشأ بعده رحمة يكون التناسل الذي يهب الذرية ، ولذا فآية من استقلالية ووحدة إلىٰ اندماج سكني بين الأنفس حتىٰ تصبح المحبة والرحمة والألفة هي بيت الإقامة علىٰ الفرض والسنة : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (5) .

---

(1) فاطر ، 3 .

(2) هود ، 6 .

(3) الإسراء ، 23ـ24 .

(4) الروم ، 21 .

(5) النحل ، 72 .

وتصل الرحمة إلىٰ أعلىٰ الدرجات بين العباد بتقدير الحميد جل وعلا وآية من آيات رحمته سبحانه : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ (1) .

ومن آيات رحمة الحميد تقديمه العون لعباده : ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (2) ، ويُلاحظ تذيل الآية بقوله تعالىٰ ﴿ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ دلالة قاطعة أن هـٰذا العون إنما هو من رحمة الحميد سبحانه .

2 ـ **مالك يوم الدين** : فالملك له وحده وهو مما يحمد عليه سبحانه ولو لم يكن كذلك لكان العباد في عسر شديد من أمرهم فمن يحاسب ؟ ومن يجزي ؟ ومن يغفر ؟ ومن يعتق ؟ ومن يرحم ؟ فلو تصور متصور أن لله شركاء في الملك لعرف مدىٰ الحيف الذي سيقع علىٰ العبد وهو يسعىٰ لإرضاء وطاعة هـٰؤلاء الشركاء ، قال تعالىٰ : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ (3) ، إن وجود مفاسد في الأرض علىٰ أيدي بعض العباد ، من صراعات علىٰ السلطة وصراعات علىٰ الثروة وصراعات علىٰ الملكية ، تجعل العاقل الذي خلقه الحميد العظيم علىٰ أحسن تقويم ، تجعله يحمده تعالىٰ علىٰ وحدانيته واحداً أحداً لا شريك له ، خاصة وأنه يرىٰ بأم عينيه الفساد والفتن والاقتتال بغير حق بأسباب التعدد في الملك والسلطة والثروة ، وهـٰذه من طبيعة الحياة ، فمن لا يؤمن لابد وأن يكون ضالاً

(1) الفتح ، 29 .
(2) الإسراء ، 66 .
(3) الإسراء ، 111 .

في قوله وفعله ، ومن يهتدي يهتدي للتي هي أحسن ويتقي ٱلله ربه ويحمده ويشكره علىٰ فضله عليه ، ولذا فإن كثيراً من الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُواْ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ (1) فالاشتراك في الملك من غير هداية واعتراف بحمد الحميد جل جلاله يورث الفساد : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (2) ، ولكانت الأرض والسماء غير الأرض والسماء التي نعرف لكثرة الشركاء واختلاف مطالبهم كما كان يعتقد كثير من المشركين الذين جعلوا لكل أمر من أمور حياتهم إلـٰهاً ، فجعلوا للتجارة إلـٰهاً وللزراعة وللإنجاب وللمطر وغير ذلك من ترهات أفكارهم ومما يسخر منها ذو اللب : ﴿ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (3) .

وللحميد حكم ما في الأولىٰ وما في الآخرة : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (4) . فأما في الدنيا فحكم كل

---

(1) ص ، 21ـ26 .
(2) الأنبياء ، 21ـ22 .
(3) سبأ ، 27 .
(4) القصص ، 70 .

أحد سواه إنما نفذ بحكمه ، فلولا حكمه لما نفذ حكم الحاكم علىٰ المذنب بإقراره سبحانه للشرائع التي يستمد منها القضاة أحكامهم الدنيوية ، ومنها كان حكم الحكام علىٰ الرعية ، وللزوج حكم علىٰ زوجته وعياله وغير ذلك ، فهو الحاكم الحقيقي في الدنيا ، وأما في الآخرة فلا شك أنه هو الحاكم ، لأنه الذي يتولىٰ الحكم بين العباد في الآخرة ، فينتصف للمظلومين من الظالمين في مشهد عظيم ذكره الحميد ليرغب المؤمنين بالثواب ويحذر المنافين والكافرين والخارجين عن الصراط المستقيم من سوء العاقبة : ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (1) ، فيُحمد الحميد علىٰ حسن جزاء الآخرة : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ (2) .

3 ـ **المعبود وحده** : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ (3) ، فاعلم أن العبادة عبارة عن الإتيان بالفعل المأمور به علىٰ سبيل التعظيم للآمر فما ثبت بالدليل أن لهٰذا العالم إلٰهاً واحداً قادراً علىٰ مقدورات لا نهاية لها ، عالماً بمعلومات لا نهاية لها ، غنياً عن كل الحاجات ، فإنه أمر عباده ببعض الأشياء ، ونهاهم عن بعضها ، وأنه يجب علىٰ الخلائق طاعته والانقياد لتكاليفه فإنه لا يمكن القيام بلوازم قوله تعالىٰ (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) ، دخل في هٰذا القول تكاليف ٱلله تعالىٰ بحسب هٰذه الشريعة ، وكذلك يدخل فيه تكاليف ٱلله تعالىٰ بحسب الشرائع التي قد كان أنزلها ٱلله تعالىٰ علىٰ الأنبياء المتقدمين ، وأيضاً يدخل فيه الشرائع التي كلف ٱلله بها ملائكته في السمٰوات منذ خلق الملائكة وأمرهم بالاشتغال بالعبادات والطاعات (4) .

---

(1) الزمر ، 75 .

(2) الزمر ، 74 .

(3) الفاتحة ، 5 .

(4) تفسير الرازي ، ج1 ، ص6 .

والمعبود حميد مستحق للحمد فهو الخالق للأشياء أي موجدها فهو أصل كل شيء وهـٰذا من أقوىٰ موجبات الشكر عند المؤمنين ممن يتفكرون ويفكرون في أنعم ٱلله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (1) ، فهو خالق لكل ما في السمـٰوات والأرض من مخلوقات مميز لها كل بهيئة تناسب التكليف الذي قدره الحميد له ، فالملائكة : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (2) .

وهـٰذه الهيئة تناسب الدور الذي أوكل للملائكة ، أما الإنسان فقد جعل له السمع والبصر والفؤاد أي جعل له الحواس إضافة إلىٰ القدرة العضلية ليتمكن من القيام بأمر العبادة ، وجعل هـٰذه الحواس من موجبات السؤال والحساب للعبد عن كيفية استخدامها في عبادة الحميد أم في أمر غيره ؟ ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (3) .

4 ـ **المستعان وحده** : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (4) ، لأنه القادر علىٰ تقديم العون لعباده بما امتلك من ملك وقوة وإرادة ، فمن ملكه ينزل المطر ، فهل يمتلك مخلوق أن ينزل المطر بالزمان والمكان والقدر الذي نراه في هـٰذه الصور العظيمة لملك ٱلله ؟ وهل يستطيع آخر أن ينزل المطر في عدة أماكن في آن واحد دون عناء أو نقصان في موارد ملكه ، ٱلله وحده يقدر علىٰ ذلك من عظيم ملكه الذي لا ينقص ولا ينضب فله الحمد وحده : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

(1) لقمان ، 25 .
(2) فاطر ، 1 .
(3) الإسراء ، 36 .
(4) الفاتحة ، 5 .

يَعۡقِلُونَ ﴾ (1) ، ومن ملكه الذي لا يشترك فيه أحد معه سبحانه الأرض وما عليها وما فيها ، فكل ما عليها جعله المستعان منافع للناس لعلهم يشكرون الحميد الذي أعانهم بهٰذا علىٰ كثير من حوائج دنياهم : ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًا ﴾ (2) ، أما ما فيها فيتمثل في المعادن والثروات الطبيعية التي أعان ٱلله بها عباده ، وقد أشار الحميد إلىٰ واحد من ذلك كمثل للكثير من موارد الأرض التي قدمها الحميد المستعان جل وعلا : ﴿ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾ (3) .

أما عونه بقوته فهو كثير مما لا يحصىٰ ويكفي ذكر مثال واحد لينظر الإنسان إلىٰ فعل الحميد فيحمده ويشكره في كل حين : ﴿ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴾ (4) ، والمثال هو ما حصل مع سيدنا موسىٰ عليه الصلاة والسلام والمؤمنين معه حين تبعهم فرعون وجنوده فوصلوا إلىٰ البحر : ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ (5) ، فهل هناك قوة في كل الأكوان قادرة علىٰ تقديم مثل هٰذا العون ! وهل هناك معين يستطيع أن يفعل بالبحر ما فعل الحميد سبحانه ! فالحمد لله رب العالمين .

أما عون الإرادة فله آياته البليغة الأثر في نفوس المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة ، أما في الدنيا فما أكثر الأمثلة عليه ولنتذكر بعض قصة سيدنا

(1) العنكبوت ، 63 .
(2) الكهف ، 7 .
(3) الحديد ، 25 .
(4) الروم ، 18 .
(5) الشعراء ، 61ـ63 .

إبراهيم ﷺ ، فقد حُرم الذرية مع انتفاء إمكانية التعويض حسب قوانين الطبيعة ، فالكبر والعجز الجسدي يمنعان تحقيق الرغبة في الذرية : ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ (1) ، لٰكن عون الحميد وبإرادته سبحانه جعل من الخيال حقيقة أوجبت حمده سبحانه : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ (2) .

أما العون في الآخرة فيتمثل في النجاة التي سيكتبها ٱلله لمن يشاء من عباده لتصدح ألسنتهم بحمد الحميد سبحانه وتعالىٰ : ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (3) .

5 ـ **الهادي إلىٰ الصراط المستقيم** : ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ (4)، والهداية إلىٰ الصراط المستقيم تكون في الدنيا أولاً ثم في الآخرة ، فأما في الدنيا فلها سبلها وهي :

1 ـ **بالكتب السماوية** : وهي من علامات الهداية الحقة لأنها من ٱلله سبحانه وكل ما فيها مستقيم ويهدي إلىٰ الصراط المستقيم بالكتاب مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ (5) .

2 ـ **بالآيات** : وهي من عظيم صور الهداية لذوي الألباب ، لأنهم يعقلون من خلالها الصواب ويتجنبون الخطأ فيهتدون إلىٰ الصراط المستقيم : ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (6) .

---

(1) هود ، 72ـ73 .

(2) إبراهيم ، 39 .

(3) فاطر ، 34 .

(4) الفاتحة ، 6 .

(5) الكهف ، 1 .

(6) النمل ، 93 .

3 ـ **بالعلم** : وهو من علامات الهداية التي توجب الحمد للحميد سبحانه ، لأنه يرقىٰ بالعقل إلىٰ مراتب عليا تمكنه فيما بعد من دقة التميز بين ما يجب اتباعه وما يجب الانتهاء عنه ، فبالعلم يمتلك العبد المعرفة الحقة بالله فيكون من المهتدين : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (1) ، وهو ما يوجب الحمد لأنه يهدي إلىٰ الصراط المستقيم : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (2) .

أما الهداية إلىٰ الصراط المستقيم في الآخرة فهو من عطاء الحميد سبحانه لعباده المؤمنين : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (3) .

4 ـ **بالطاعة** : فالطاعة تهدي إلىٰ الصراط المستقيم إذا كانت خالصة لله وبانقياد مخلص لأوامره : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (4) .

والحميد هو المحمود علىٰ كل حال (5) ، فكيف يكون الحميد محموداً علىٰ كل حال ؟

---

(1) فاطر ، 28 .
(2) النمل ، 15 .
(3) الأعراف ، 43 .
(4) النساء ، 66ـ68 .
(5) النهاية في غريب الأثر ، ج 1 ، ص 1043 .

أما حال الخير فلا عجب أن يحمد سبحانه علىٰ كرم عطائه ، وموجبات حمده كثيرة منها :

1 ـ **العلم** : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (1) ، فالحمد لله لمن وهب لنا الحياة وجعل لنا السمع والبصر ، وجعل لنا الأفئدة ، فحصلت عندنا المعرفة بإعانة هٰذه الحواس ، وتقريره أن النفس كانت في مبدأ الخلقة خالية عن جميع العلوم إلا أنه تعالىٰ خلق السمع والبصر ، فإذا أبصر الطفل شيئاً مرة بعد أخرىٰ ارتسم في خياله ماهية ذلك المبصر ، وكذلك إذا سمع شيئاً مرة بعد أخرىٰ ارتسم في سمعه وخياله ماهية ذلك المسموع ، وكذا القول في سائر الحواس ، فيصير حصول الحواس سبباً لحضور ماهيات المحسوسات في النفس والعقل .

2 ـ **الاصطفاء للخلافة** : لقد اصطفىٰ الحميد سبحانه وتعالىٰ آدم ليكون خليفته علىٰ الأرض فيتبع شرع ٱلله ويعمر الأرض وينشر العدل بإقامة الحدود : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ﴾ (2) ، ويجب أن نعلم أن آدم ليس هو المخصوص بهٰذه الخلافة وإنما جنسه عموماً أي الإنسان في كل زمان ومكان : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (3) ، فعلىٰ الإنسان الذي يرجو رضوان ٱلله أن يعرف كيف يكون خليفة ٱلله بالحق وبما يريد الحميد له وذلك بتحري الحق والابتعاد عن الباطل .

---

(1) النحل ، 78 .

(2) البقرة ، 30 .

(3) فاطر ، 39 .

3 ـ **التفضيل والتكريم** : فضل الحميد سبحانه الإنسان علىٰ كل مخلوقاته وكرمه : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (1) ، اعلم أن المقصود من هٰذه الآية ذكر نعمة أخرىٰ جليلة رفيعة من نعم ٱلله تعالىٰ علىٰ الإنسان وهي الأشياء التي بها فضل الإنسان علىٰ غيره وقد ذكرها ٱلله تعالىٰ في هٰذه الآية بقوله : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ واعلم أن الإنسان جوهر مركب من النفس ، والبدن ، فالنفس الإنسانية أشرف النفوس الموجودة علىٰ سلم التفضيل القيمي مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (2) .

4 ـ **التنبيه** : من نعم الحميد سبحانه علىٰ الإنسان اختصاصه بالتنبيه ، والتنبيه هو الدلالة عما غفل عنه المخاطب ، والتنبيه نعمة لأن الخالق الحميد عالم بخلقة فجعل النسيان من خصائص النفس الإنسانية لحكمة يعلمها سبحانه : ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ (3) ، ولأنه ينسىٰ كان التنبيه من الحميد نعمة نحمده عليها ، ومن أهم صور التنبيه الرسالات السماوية ، والآيات الإلٰهية ، فالحميد سبحانه جعل الرسالات السماوية لغاية التنبيه للغافلين وكتب أنه بدون هٰذا التنبيه لا يكون هناك حساب أو عقاب ، ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (4) ، وكذلك هي الآيات جعلها الحميد لتنبيه

---

(1) الإسراء ، 70 .
(2) التين ، 4 .
(3) الزمر ، 8 .
(4) الإسراء ، 15 .

العباد ولأخذ العبر منها : ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ (1) .

5 ـ **الرزق** : من عطايا الحميد الموجبة للشكر ، فالحميد سبحانه عمَّ العباد بهـٰذه النعمة ولم يختص بها أحداً دون سواه ، وأمرهم فيها بأمرين :

الأمر الأول : الأكل من هـٰذا الرزق ، والأكل بمعنىٰ الاستفادة من هـٰذا الرزق للنفس والعيال ثم الشكر علىٰ هـٰذه النعمة ، ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (2) .

الأمر الثاني : يتمثل في الإنفاق في سبيل ٱلله علىٰ المحتاجين الذين خصهم ٱلله بقوله : ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (3) ، وقد جعل الحميد الإنفاق علىٰ المذكورين في الآية فريضة يثاب عليها العبد ويندم لنكرانها : ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (4) .

6 ـ **الثواب** : وهو من نعم الحميد التي ما ثقل عليها حمد بشر في أي ميزان ، لأن الثواب من الحميد سبحانه يفوق عمل العبد مهما كان ، فالعمل منقطع والثواب دائم ، والعمل محدود قليل والثواب واسع كثير ، وهـٰذا من فضل

---

(1) الكهف ، 17 .
(2) النحل ، 114 .
(3) التوبة ، 60 .
(4) المنافقون ، 10 .

الحميد وكرمه الواسع حيث جعل الثواب مما يليق به لا مما يقابل جنس العمل بالقدر أو الوزن أو غير ذلك من المكافِآت ، فالحميد عالم بعدم قدرة عباده على الإتيان بالكمال في جل أعمالهم لكنه أنعم عليهم بالجنة ، ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (1) ، وفي الآية إشارة واضحة إلى النقص المصاحب لأعمالهم ، ويتمثل في الغل الذي تمتلئ الصدور به ، ففي الحقيقة إن أعمالهم فيها ما يعيبها لكنها كانت خالصة لله فتجاوز عن ذلك فأثابهم أحسن الثواب وأفرح قلوبهم به : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ (2) .

وليس هذه النعم هي المستحقة للحمد بل الكثير مما لا يحصى وكله مستحق للحمد ، فالحمد لله حتى يرضى والحمد لله بعد الرضى .

فكيف يُحمد الحميد على البلاء والشقاء ؟ وبماذا نجيب النفوس الحائرة عن وجوب الشكر مع العناء والنصب ؟

يجب العلم بأن الحميد سبحانه عادل مع العباد لا يظلم أحداً : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (3) ، وهو لا يحب الظالمين : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ

---

(1) الأعراف ، 42ـ43 .

(2) فاطر ، 34ـ35 .

(3) آل عمران ، 108 .

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [1] ، والبلاء والشقاء الذي يصيب الناس هو لحكم ذكرها الحميد ، فالذين كفروا والمنافقون وغيرهم فإن البلاء والشقاء يصيبهم بما كسبت أيديهم ، قال تعالىٰ : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [2] ، فأما الذين يعودون عن سوء العمل ينجون : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [3] ، وأما الذين يصرون علىٰ ما اقترفوا فذلك لأنفسهم : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [4] .

ومن نعم الحميد التي يحمد عليها أن جعل بعض ما يصيب المؤمنين من بأس وبلاء تكفيراً للذنوب ، فقد يمتحن المؤمنون بضيق العيش وربما بالمرض وبشتىٰ أنواع البأس ويكون تكفيراً لذنوبهم ألا ترىٰ أنه أخبر عن نوح إذ قال لقومه ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [5] ، وعن هود ﴿ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [6] ، فوعدهم المطر والخصب مما يدل علىٰ أن الجدب كان تكفيراً لبعض ذنوبهم .

يُقال حَميداً فهو محمودُ الفِعَال والصفات الحسان ، منزه عن النقص له كل صفات الكمال فله الحمد ، وهو الرزاق الذي يرزق الغني والفقير وكلهم محتاج إلىٰ رحمته وهو غني عنهم : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [7] ، ورزق الحميد مما لا يملك أحد أن يرزق مثله ، فهو

---

(1) آل عمران ، 57 .
(2) الروم ، 41 .
(3) النساء ، 110 .
(4) النساء ، 111 .
(5) نوح ، 10ـ11 .
(6) هود ، 52 .
(7) فاطر ، 15 .

الذي ينزل الغيث : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (1) ، وهو الذي يهب الذرية بما يثير العجب والاستغراب : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ (2) ، وهو الذي يهب لمن يشاء من الذرية ذكوراً أو إناثاً فبيده وحده تحديد نوع الجنين ، ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (3) ، لذا وجب له الحمد ، وهو الرحمـٰن الرحيم .

فله الحمد بالشهادة بالوحدانية وبالطاعة التامة والاقتداء بما هدانا إليه ، وبأخذ ما أمرنا به أن يؤخذ ، واجتناب ما نهانا عنه والابتعاد عما حرمه علينا بالمطلق ، فبالصلاة نحمده ، وبالصوم نحمده ، وبالزكاة نحمده ، وبالحج نحمده ، وبالجهاد نحمده ، وبقراءة القرآن نحمده ، وباسمه نسبح حامدين شاكرين له والحمد لله رب العالمين . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (4) ، وكذلك في الصيام قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ

---

(1) الشورىٰ ، 28 .
(2) هود ، 69ـ73 .
(3) الشورىٰ ، 49ـ50 .
(4) البقرة ، 277 .

فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [1] ، وفي الحج قال : ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [2] ، وكل هـٰذه الأفعال من العبد هي حمد فعلي لنعم الحميد التي لا تُحصىٰ إلا منه سبحانه . وفي كل شيء قال الحق وأمر باتباع الحق واجتناب الباطل فله الحمد جل جلاله .

ومن الحمد حمد الفعل والعمل ، ومنه حمد اللسان وهو الثناء علىٰ الحق بما أثنىٰ به علىٰ نفسه علىٰ لسان أنبيائه ، كما حمد إبراهيم ربه ، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [3] ، وداوود وسليمان ، ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [4] ، ومما يثير الانتباه ويشد العقل للتأمل والتفكر هو اقتران الحمد في القرآن باسم واحد من أسمائه الحسنىٰ ، حيث ورد الحمد مضافاً إلىٰ ٱلله (الحمد لله) في إحدىٰ وعشرين آية ، ومتعلقاً به في أربع آيات منها ، ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [5] ، وفي قوله : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [6] ، ولم يضف الحمد إلىٰ اسم غيره من أسمائه الحسنىٰ ! ويمكن القول : إن اسمه (ٱلله) جل وعلا شامل لكل خصائص جلال الذات ، ومحصٍ لكل ما في كمال الصفات فنسب الحمد له في كل المواضع ، ولذا لا حمد إلا له .

---

(1) البقرة ، 183ـ184 .
(2) البقرة ، 197 .
(3) إبراهيم ، 39 .
(4) النمل ، 15 .
(5) القصص ، 70 .
(6) الروم ، 17ـ18 .

الحميد المستوجب الحمد علىٰ ما أسبغ من نعمه ، وإن لم يحمده الحامدون فهو الغني ، لا ينفعه شكر ولا يضره ، فمن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ (1) ، وقد علم الحميد عباده ذلك تذكيراً لهم وتعليماً لفائدة الحمد فقال : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ (2) ، وجواب ﴿ إِن تَكْفُرُوٓا۟ ﴾ محذوف لدلالة المعنىٰ التقدير : فإنما ضرر كفركم لاحق بكم . وٱلله تعالىٰ متصف بالغنىٰ المطلق ، والحمد سواء كفروا أم شكروا ، وفي خطابه لهم تحقير لشأنهم ، وتعظيم لله تعالىٰ (3) .

وهو الحميد المحمود ، وإن كفره من كفره ، كما قال : ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ (5) ، فهو محمود في ذاته لا يضره الإعراض عن شكره بالتقرب إليه بشيء من نعمه جل جلاله ولا ينفعه فهو النافع والضار لا إلـٰه إلا هو سبحانه وتعالىٰ عما يصفون .

والحميد مستوجب للحمد في كل حال ، فهو مسخر الأشياء رحمة منه وعطاء لعبده : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ

---

(1) لقمان ، 12 .
(2) إبراهيم ، 8 .
(3) البحر المحيط ، ج 7 ، ص 137 .
(4) الزمر ، 7 .
(5) التغابن ، 6 .

أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴾ [1] ، هٰذه نعم ذكرها ٱلله سبحانه فأخبر عباده بأنه سخر لهم ما يحتاجون إليه من الدواب والشجر والأنهار وجعله لمنافعهم ، وعلمهم صنع الفلك وسخر ها لهم في حال جريها في البحر ، وهو كثير الرأفة والرحمة حيث سخر هٰذه الأمور لعباده وهيأ لهم أسباب المعاش ، تفضلاً منه علىٰ عباده وإنعاماً عليهم ، وهٰذه كلها من موجبات حمد الحميد سبحانه إنما عددها ٱلله سبحانه للذكرىٰ التي تدفع للحمد ، ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [2] .

والحَميدُ هو المرضي لعباده بالحجة القولية والفعلية والسلوكية والعملية فهو الذي يرضىٰ عن عباده الصالحين وهم يرضون عنه لشرف ذاته و لكمال صفاته ، ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [3] ، ورضوا بما أنزل ٱلله إذ رأوه : ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [4] ، فحمدوا ٱلله بما هو أهله : ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [5] .

والْحَميدُ يحمد لأفعاله وسبق التفصيل في ذلك ، وهو حميد يحمد لأقواله أيضاً ، فقد أنزل إلينا كتاباً ، ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ

---

(1) الحج ، 63ـ66 .
(2) الزمر ، 9 .
(3) التوبة ، 100 .
(4) سبأ ، 6 .
(5) يونس ، 10 .

﴿ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾ [1] ، فيه من الأقوال الطيبة في المعنىٰ والأسلوب التي تهدي وتُخرج العبد من الظلمات إلىٰ النور ، ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [2] ، وفي القرآن آيات تساوي بين الفعل الحسن والقول الحسن وهي دعوة من الحميد سبحانه لتعلّم القول الذي يحمد عليه الإنسان من الحميد سبحانه ومن الناس جميعاً .

الحميد المحيط بجميع الكمال ، فهو المستحق لجميع المحامد لذاته وبما يفيض علىٰ عباده من النعم التي يربيهم ويتحمد إليهم بها علىٰ كل حال ، فكيف إذا سلكوا سبيله الواضح الواسع السهل ! [3] ، فإنه يزيد من العطاء للمتقين ، ﴿ وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [4] ، والزيادة هي عطاء الحميد في الدنيا والآخرة ، ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [5] .

والحميد أي الذي له الحمد المحيط لإحاطته بأوصاف الكمال في حال الطاعة له والمعصية فإن العاصي عبد لإرادته تعالىٰ ، كما أن المطيع عبد لآمره وإرادته ولطفه ، فلا يخرج شيء عن مراده ، وكل شيء خاضع لحكمه فهو محيط بالكافرين وبالمؤمنين علىٰ حد سواء ، ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ

---

(1) فصلت ، 42 .
(2) الحج ، 24 .
(3) نظم الدرر ، ج 4 ، ص 363 .
(4) الأعراف ، 161 .
(5) يونس ، 26 .

أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ۝ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝ لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ [1] ، وقد بينت الآية أدب العشرة لما ألهبت وهيجت علىٰ المفارقة للعصاة والتبرؤ منهم حساً ومعنىٰ ، وإظهار ذلك لهم قولاً وفعلاً ، إلىٰ أن تحصل التوبة ، ومن لم يفعل ذلك كان شريكاً في الفعل فيكون شريكاً في الجزاء كما ورد ، ثم لا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وجليسه ، فضرب ٱلله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم علىٰ ألسنة الأنبياء ، ومن فعل ما أمره ٱلله به كان فعله جديراً بأن يكون سبب الوصلة والقرب والمودة .

الْحَمِيدِ هو المحمود بإحسانه إلىٰ خلقه ، وإحسان الحميد بلا حدود فهو إحسان معنوي ومادي ، معنوي بأن يصلح أحوال النفوس فينزع منها الحسد والبغضاء وكلٍ ما عمل فيه من شياطين الجن والإنس : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [2] .

وإحسان مادي لا يمكن لبشر أن يحصيه ، فهو المستحق للحمد علىٰ كل أنواع الإحسان ومنه نظام الحياة الذي يعين العبد علىٰ حياة سهلة ومريحة ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴾ [3] .

ومنه قوانين الطبيعة التي سنها ٱلله للتسوية علىٰ الحق والاعتدال والتوازن فلولاها لم يكن بالإمكان تعمير الأرض ، كقانون المساحة السطحية التي تؤهل

---

(1) الممتحنة ، 4ـ6 .
(2) يوسف ، 100 .
(3) الأنعام ، 1 .

السفن للعوم في البحار : ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (1) .

وختاماً أسبحه كثيراً التزاماً بالأمر في قوله تعالىٰ : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (2) .

اللهُمَّ يا الحميد لك الثناء والحمد والشكر ! اللهُمَّ إنك أحسنت خلقنا فحمداً لك ، وأسبغت علينا نعمك فحمداً لك يا الحميد !

اللهُمَّ أعنا علىٰ حمدك وشكرك كما ينبغي ولا تجعلنا من الغافلين ، اللهُمَّ اجعلنا من الَّذِينَ يَذْكُرُونَك قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ ، ويقولون : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ !

اللهُمَّ إنك خلقت كل شيء يسبح بحمدك فاجعلنا من المسبحين بحمدك ولا تجعلنا من الضالين الغافلين المغضوب عليهم منك المكتوب عليهم سخطك وعقابك !

اللهُمَّ لك الحمد علىٰ نعمة العقل الذي وهبته لنا ، وحسن التقويم الذي خلقتنا عليه ، والرسول الخاتم الذي اصطفيته لنا ، ونحن نصلي ونسلم عليه كما أمرت ، ولك الحمد علىٰ استخلافك لنا في الأرض ، ولك الحمد علىٰ نعمك التي أنعمت بها علينا ، وأكرمتنا بها ، ولك الحمد علىٰ الجنة التي وعدتنا بها !

---

(1) المؤمنون ، 28 .
(2) التغابن ، 1 .

المُحْصِي جلّ جلاله

المحصي المطلق : « هو الذي ينكشف في علمه حد كل معلوم وعدده ومبلغه ، والعبد وإن أمكنه أن يحصي بعلمه بعض المعلومات فإنه يعجز عن حصر أكثرها » [1] . إذاً المحصي المطلق هو ٱلله تعالىٰ ، والمحصي النسبي هو الخليفة الذي لا يمكنه أن يحصي كل شيء ولا يمكنه أن يعده ، وذلك لأن هـٰذا الصفة المطلقة في الإحصاء والعد لكل شيء من صفة ٱلله تعالىٰ وهو المحصي بالمطلق سبحانه جل جلاله .

المحصي : هو العالم بكل أمر وهو المنبئ عن عدد كل معدود وهو القادر علىٰ كل شيء متىٰ شاء سبحانه ما أعظم شأنه [2] .

أَحْصَىٰ الشيءَ أَحاطَ به ، وأَحْصَىٰ كلَّ شيءٍ عدداً ، أي أَحاط علمه سبحانه باستيفاء عدد كلِّ شيء [3] ، فهو المحيط سبحانه وتعالىٰ بكل جزئيات الأكوان إحاطة شاملة من حيث شمولها للظاهر المعلن والباطن الخفي : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴾ [4] ، فما قدموا هو أفعالهم وآثارهم وبها يؤاخذون وعليها يؤجرون : ﴿مَنْ عَمِلَ

---

(1) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص 131 .

(2) المواقف ، ج 3 ، ص 310

(3) لسان العرب 13 ، 183 .

(4) يس ، 12 .

سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (1) ، وقوله : ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ يحتمل وجوهاً :

أحدها : أن يكون ذلك بياناً لكون ما قدموا وآثارهم أمراً مكتوباً عليهم لا يبدل ، فإن القلم جف بما هو كائن فلما قال : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ ﴾ بين أن قبل ذلك كتابة أخرىٰ فإن ٱلله كتب عليهم أنهم سيفعلون كذا وكذا ثم إذا فعلوه كتب عليهم أنهم فعلوه .

ثانيها : أن يكون ذلك مؤكداً لمعنىٰ قوله : ﴿ وَنَكْتُبُ ﴾ لأن من يكتب شيئاً في أوراق ويرميها قد لا يجدها فكأنه لم يكتب فقال : نكتب ونحفظ ذلك في إمام مبين ، وهـٰذا كقوله تعالىٰ : ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ (2) .

ثالثها : أن يكون ذلك تعميماً بعد التخصيص كأنه تعالىٰ يكتب ما قدموا وآثارهم وليست الكتابة مقتصرة عليه ، بل كل شيء محصي في إمام مبين ، وهـٰذا يفيد أن شيئاً من الأقوال والأفعال لا يعزب عن علم ٱلله ولا يفوته ، وهـٰذا كقوله تعالىٰ : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ (3) يعني ليس ما في الزبر منحصراً فيما فعلوه بل كل شيء فعلوه مكتوب ، وقوله ﴿ أَحْصَيْنَٰهُ ﴾ أبلغ من كتبناه لأن من كتب شيئاً مفرقاً يحتاج إلىٰ جمع عدده ، لـٰكن أحصيناه في مضمونها لم نترك شيئاً منه كبيراً كان أم صغيراً ، أي كل شيء بحساب .

ٱلله تعالىٰ محصي كل شيء « فلا يفوته شيء من خلقه عداً وإحصاء

---

(1) غافر ، 40 .

(2) طه ، 52 .

(3) القمر ، 52ـ53 .

كما قال تعالىٰ : وأحاط بما لديهم وأحصىٰ كل شيء عدداً » [(1)] .

فالمحصي محيط بالظاهر والخفي فهو الذي جاءت بشأنه هـٰذه الآية الكريمة : ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴾ [(2)] وإحصاء الظاهر يتمثل في الإحاطة بتفاصيله من بدء العمل به إلىٰ انتهائه لأن ٱلله حي لا يغفل عن شيء في السماء ولا في الأرض ، وإحاطة المحصي بالأعمال لها غايات يذكرنا بها عز وجل منها لينبأ الإنسان بأعماله الخيرة والسيئة : ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [(3)] ، ومنها الإحصاء لغرض إبطال هـٰذه الأعمال : ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾ [(4)] ، ولإحباط الأعمال التي لا تنبع من الإيمان بل من العادات التي يؤمن بها البشر : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [(5)] ، أي ظهر بطلان أعمالهم التي كانوا عملوها من صلة الأرحام وإغاثة الملهوفين بعدما كانت مرجوة النفع علىٰ تقدير إيمانهم بها ، وحاصله أنهم لا ينتفعون بأعمالهم ، ﴿ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ ﴾ أي لا يجزون يوم القيامة ، ﴿ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ أي إلا جزاء ما استمروا علىٰ عمله من الكفر والمعاصي ، وتقدير هـٰذا المضاف لظهور أن المجزي ليس نفس العمل ، وقيل : إن أعمالهم تظهر في صور ما يجزون به فلا حاجة إلىٰ التقدير .

والمحصي يحيط بكل ما يصاحب هـٰذا العمل من متعلقات كالقول مثلاً : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ

(1) تفسير أسماء ٱلله الحسنىٰ ، ج 1 ص 55 .
(2) النحل ، 19 .
(3) التوبة ، 105 .
(4) الفرقان ، 23 .
(5) الأعراف ، 147 .

شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (1) ، فالمحصي محيط بكل ذلك فإذا كان العبد ممن أطاعوا ربهم فأحبهم ٱلله حضر العون والتوفيق والنصر وتحقق إصلاح المحصي لهٰذا العمل : ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (2) ، وإذا كان عمل العبد غير ذلك من المعصية والنكران فإنه أمام أمرين :

الأول : يتمثل في منع المحصي المحيط لهٰذا العمل ، كما حصل في قصة سيدنا إبراهيم مع النمرود ، فعندما أصر النمرود علىٰ حرق سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام وشرع في التنفيذ حصل المنع من المحصي المحيط سبحانه وتعالىٰ : ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ (3) .

الثاني : بالإمهال لا الإهمال ، ومثاله قصة سيدنا موسىٰ عليه الصلاة والسلام مع فرعون ، والمتأمل في هٰذه القصة يحس أن ٱلله أمهل فرعون إذ جعل نبيه يدعوه إلىٰ دين ٱلله باللين : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ (4) ، ثم أمهله ليرىٰ آيات ٱلله : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟

---

(1) يونس ، 61 .
(2) الأحزاب ، 71 .
(3) الأنبياء ، 68ـ71 .
(4) طه ، 44 .

كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴾ (1) ، وبعد أن أصر مستكبراً علىٰ فعل السوء أحاط المحصي بعمله : ﴿فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ﴾ (2) .

ومعلوم أن الإمهال فيه رحمة عظيمة من المحصي لأنه يتيح للعبد العودة والتراجع عن ما سلف منه من سوء العمل شرط أن تكون العودة قطعية من حيث الانتهاء عن السوء السابق والانقلاب إلىٰ الإحسان اللاحق لأن المحصي المحيط أمهل لكي يحصل الانتهاء لا الرجوع الدال علىٰ الاستمرار : ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ (3) ، ولو سأل سائل عن تفسير عدم إمهال المحصي للنمرود وغيره من الطغاة والكافرين مقابل الإمهال الحاصل لفرعون ؟ أن المتأمل ليرىٰ في ذلك حكمة عظيمة من لدن المحصي الحكيم ، ففرعون كان له سابق إحسان في الظاهر من أفعاله علىٰ موسىٰ إذ رباه في بيته إلىٰ أن أصبح شاباً : ﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ (4) ، وهـٰذا ما أوجب اللين والإمهال ، وٱلله أعلم .

وعلىٰ الخليفة أن يحبط أعمال المفسدين في الأرض وأن يكون علىٰ حيطة حتىٰ لا تنتشر المفاسد وتسوء الأخلاق وتفسد القيم وتنتهي الفضائل ، ولهـٰذه الإحاطة غايات محددة كالجزاء والتميز والمنع والإبطال وكلها من واجبات الخليفة علىٰ أن يكون حازماً مع المصرين علىٰ عمل السوء ، ويمهل من يرىٰ فيه خيراً وإن أساء آملاً عودته عن سوء عمله ، وهـٰذا العمل ليس بعمل في مقابل أجرة كما تفعل أجهزة الأمن بل إنه العمل بالإرادة في سبيل الحق وإحقاقه .

---

(1) طه ، 59ـ64 .
(2) الإسراء ، 103 .
(3) الإسراء ، 8 .
(4) الشعراء ، 18 .

أما إحصاء المخفي والإحاطة به فهو مخصوص بالمحصي عز وجل ، فهو الذي يعلم السر وغيره : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ (1) ، وعلىٰ هـٰذا القول نقول : إنه تعالىٰ قسم الأشياء علىٰ ثلاثة أقسام : الجهر ، والسر ، والأخفىٰ ، فيحتمل أن يكون المراد من الجهر القول الذي يجهر به ، وقد يسر في النفس وإن ظهر البعض ، وقد يسر ولا يظهر علىٰ ما قال بعضهم . ويحتمل أن يكون المراد بالسر وبالأخفىٰ ما ليس بقول وهـٰذا أظهر فكأنه تعالىٰ بين أنه يعلم السر الذي لا يسمع وما هو أخفىٰ منه فكيف لا يعلم الجهر ، والمقصود منه زجر المكلف عن القبائح ظاهرة كانت أو باطنة ، والترغيب في الطاعات ظاهرة كانت أو باطنة ، فعلىٰ هـٰذا الوجه ينبغي أن يحمل السر والأخفىٰ علىٰ ما فيه ثواب أو عقاب ، والسر هو الذي يسره المرء في نفسه من الأمور التي عزم عليها ، والأخفىٰ هو الذي لم يبلغ حد العزيمة ، ويحتمل أن يفسر الأخفىٰ بما عزم عليه وما وقع في وهمه الذي لم يعزم عليه ، ويتحمل ما لم يقع في سره بعد فيكون أخفىٰ من السر ، ويحتمل أيضاً ما سيكون من قبل ٱلله تعالىٰ من الأمور التي لم تظهر ، وإن كان الأقرب ما قدمناه مما يدخل تحت الزجر والترغيب . القول الثاني : أن أخفىٰ فعل يعني أنه يعلم أسرار العباد وأخفىٰ عنهم ما يعلمه وهو كقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ ﴾ (2) ، فإن قيل كيف يطابق الجزاء الشرط ؟ قلنا معناه إن تجهر بذكر ٱلله تعالىٰ من دعاء أو غيره ، فاعلم أنه غني عن جهرك ، وإما أن يكون نهياً عن الجهر كقوله : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ (3) ، وإما تعليماً للعباد أن الجهر ليس لاستماع ٱلله تعالىٰ ، وإنما هو لغرض آخر ، واعلم أن ٱلله تعالىٰ لذاته عالم وأنه عالم بكل المعلومات في كل الأوقات بعلم

(1) طه ، 7 .
(2) البقرة ، 255 .
(3) الأعراف ، 205 .

واحد وذلك العلم غير متغير ، وذلك العلم من لوازم ذاته من غير أن يكون موصوفاً بالحدوث أو الإمكان [1] .

ولذا فإن الفرق كبير بين الظاهر والباطن من حيث :

أولاً : الظاهر :

الظاهر هو ما ليس بكامنٍ مما يجعله خاضعاً للملاحظة والمشاهدة والتعرف عليه بشكل مباشر أو غير مباشر . ولذا فالمعلومة الظاهرة تُسهم في تحليل ظواهر من بعدها ، وهٰكذا تُحلل المعلومات وفق البيانات المشاهدة ، والملاحظة والمحسوسة ، سواء كانت سلوكاً ، أو شكلاً ، أو كمّاً ، أو فعلاً ؛ والظاهر هو الذي يتم التوقف عنده من أجل التعرف عليه ، ومع ذلك ليس كل ظاهر واضحاً ، بل معظم الظواهر تحتاج إلىٰ توضيح ، سواء كانت ظواهر طبيعية أم اجتماعية . والتوضيح هو تبيان ذلك الظاهر بما ظهر به عن الكامن ، وبما ظهر عنه من أفعال ، أو أقوال ، أو إنتاج ، فالإنسان قيمة كامنة في الإنسان الشكل ، وهٰكذا السلوك تصرف ظاهر من الشكل الذي له كامن .

الظاهر هو الذي لم يعد مخفياً عن المشاهدة والملاحظة ما يجعله بيّناً للمعاملة والتعامل الموضوعي ، وهو الذي من وراء ظهوره غاية ، ما يجعله قابلاً للامتداد والحركة ويتجسّد في السلوك والفعل بالنسبة لِما يتعلق بالحياة البشرية .

الظاهر ما ليس بكامن ، فالعلاقة بينهما كالعلاقة بين النية والفعل ، فالنية ساكنة كامنة إلىٰ حين تتوفر معطياتها فتمتد من حيز سكونها إلىٰ الظهور في الفعل والسلوك . ومثل النواة التي فيها تكمن النخلة وعندما تغرس النواة في التربة المناسبة لنموها تظهر النخلة منها للمشاهدة والملاحظة وتنتهي النواة

(1) تفسير الرازي ، ج 10 ، ص 354 .

وتصبح هي الأخرىٰ محمولة (كامنة) في النخلة عندما تثمر .

وعليه ، فالإنسان كشكل ظاهر يصعب الحكم عليه بأنه خير أو شرير إلا بعد التعرف عليه عن قرب بالمشاهدة والملاحظة والمشاركة . وكثيراً ما يكون الظاهر نتيجة للكامن ، ووسيلة للتعرف عليه . ففي التحليل النفسي يكون الظاهر وسيلة للتعرف علىٰ الكامن ، ويكون الكامن غاية لإصلاح الظاهر . ولهـٰذا يتم التعرف علىٰ الكامن بالظاهر ويتم إصلاح الظاهر بإصلاح الكامن . فالسلوك كظاهر ، قد يكون أمام المشاهد سوياً ، أو مثالاً أو فيه القدوة ، ولـٰكنه في الواقع ، قد يكون غير ذلك ، فالابن ، أو الابنة كثيراً ما يكونا أمام أسرتهما ، وخاصة الوالدين ، علىٰ خلق والتزام وأدب ، ولـٰكنهما في حقيقة الآمر قد يكونان غير ذلك من ورائهما ، فمن خلفهما قد يقومان بأكبر الانحرافات السلوكية ، وعندما يتم إبلاغهما (إبلاغ الأبوين) بأن أحد أبنائهما منحرف مع الاتجاهات السلبية ، فإنهما قد يفوران رافضين وبغضب هـٰذا الإدعاء ، مع أنه الحقيقة ، ولذلك الحكم بالظاهر علىٰ الظاهر قد لا يؤدي إلىٰ الصواب ، والظاهر قد يكون شكلاً وصورة ، وقد يكون قولاً أو سلوكاً ، ولكل منها خطوات ينبغي أن تراعىٰ في تقصي الحقائق . في العلوم الطبية ، والتحليل النفسي ، لا يتوقف الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي عند المشاهد والظاهر ، إلا باعتباره نقطة الانطلاق لبداية الدراسة ، أو التشخيص ، أو العلاج ، لأن الحكم علىٰ الظاهر بمشاهدته ووصفه ، أو تحليله وكأنه غاية في حد ذاته ، قد لا يؤدي إلىٰ نتائج علمية ، يمكن اعتبارها والاعتماد عليها ، والظاهر قد يكون مشاهداً ، وقد يكون محسوساً (ملموساً ومدركاً) مثل ارتفاع حرارة المريض ، التي بالمس يتم التعرف عليها ، وعند قياسها يمكن تحديدها بدقة ، ولـٰكن الذي يود أن يعرفه الطبيب ، أو الأخصائي النفسي والاجتماعي هو معرفة الأسباب التي تكمن وراءها ، وعند مشاهدة الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي لمريض

مصفر الوجه ، هل يتوجه هـٰؤلاء الأخصائيون إلىٰ معالجة الاصفرار الظاهر ؟ أم إلىٰ البحث عما يكمن وراءه من علل ، وأسباب ؟ لذلك يكون الاصفرار كظاهر مؤشراً إلىٰ البحث عن كامن ، لأن الاصفرار مسبب ، وبما أنه مسبب ، إذاً لابد وأن تكون له أسبابٌ ، ومسببون له ، ولذلك قد تكون الأسباب هي الأخرىٰ ظاهرة بعد التعرف عليها ، كأن يكون سبب الاصفرار هو مرض عضوي لا قدر ٱلله في الكبد ، أو المرارة وغيرها من المسببات الظاهرة ، وقد يكون السبب غير ظاهر ، كأن يكون سبب اصفرار الوجه هو الخوف من الامتحان ، أو من نتائج مترتبة علىٰ ارتكاب فعل يعاقب عليه الوالدان أوالقانون أو المجتمع أو نتيجة مواقف قد تعرضه إلىٰ الهلاك ، وهو لم يستطع اتخاذ قراره بحرية حيالها ، مثل الجندي في جبهة القتال ، الذي تصدر له أوامر دخول المعارك ، دون أن يكون له رأي ، أو حتىٰ وجهة نظر في ذلك .

ثانياً الكامن :

هو الذي لم يبح به بعد برغم وجوده شاغلاً لحيز ، وهو المضمون الذي عليه الظاهر ، ولهـٰذا المعرفة العلمية والمنهج الفلسفي بصفة خاصة يهتم بالظاهر والكامن في التعرف علىٰ الأشياء أو المواقف والظواهر والحالات الفردية والجماعية والمجتمعية .

الكامن ما ليس بظاهر ، وفي ذلك يقول الخوارزمي في كتابه (مفاتيح العلوم) الكمون هو استتار الشيء عن الحس . ويقول إبراهيم بن سيار النظام المتكلم المعتزلي : الكمون هو : أن تكمن بعض الأشياء في بعض . وفي نظرية التعلم هو مقياس للفترة ما بين ظهور الدافع وحدوث الاستجابة .

ولذا فإن الكمون هو مكمن كل حقيقة ، وعلاقته بالظاهر كعلاقة السكون بالحركة ، فهو الموجود في الذهن أو العقل ويشغل حيزاً لا تراه العينان ولـٰكن يدركه كل عقل ناضج سليم . وهـٰكذا تكمن الأسرار في الصدور حتىٰ يباح بها فتنتشر في ميادين المعرفة .

الكامن في حاجة للاستثارة أو الاستفزاز وقد يظهر للعيان بما يُبذل من جُهدٍ ، وقد يظهر شيء منه في فلتات اللسان ؛ ومعرفة الظاهر لا تتحقق إلا بالتعرف علىٰ جوهره ، علىٰ أسراره وخفاياه ، فالإنسان يكمن في جوهره كما يكمن في بصماته ، وعليه إن دراسة الظاهر قد لا تكون غاية في ذاتها ، بل الغاية فيما وراءه . ولذلك فإن تحليل البصمات لم يكن الغاية منه التعرف علىٰ البصمة ، بل الغاية معرفة صاحبها أولاً ، ثم معرفة علاقته بالفعل المرتكب أو السلوك ثانياً ، وثالثاً معرفة العلل والأسباب التي دفعت الإنسان إلىٰ ارتكابه ، وهنا تكمن الحقيقة موضوع البحث . وعندما يختفي الشيء عن الحس ولم يتم التعرف عليه بالمشاهد والملاحظ ، يكون كامناً في الشيء ذاته . وليس معنىٰ ذلك أن الكامن هو الذي لا يشاهد ، فكثير من الأشياء الكامنة يمكن مشاهدتها ، ولا يمكن التعرف عليها إلا بعد معرفة مكمنها ، فالسارق قد يقوم بفعل السرقة ، ولم يتم القبض عليه ، وقد يكون بيننا عند بحثنا عن السارق وآثاره لكي يبعد عنه الجريمة أو التهمة ، وكأنه لم يكن سارقاً ، وبعد إجراء عملية المقارنة البصمتية ، تم القبض عليه فكان هو السارق .

إذاً الإنسان كظاهر يكمن في بصماته ، كما يكمن المطر في السُّحب ، وكما يكمن الزيت في حبة الزيتون ، وهٰكذا يكمن الكائن في النطفة وتكمن السنبلة في البذرة .

وبناء علىٰ ذلك قد يكون الكامن مشاهداً ، وقد لا يكون كذلك . وقد يتوحَّد الكامن في الظاهر كما تتوحد الأسرة في أفرادها ، والمجتمع في حشوده . ولذا فإن الزواج والطلاق والأسرة والمجتمع ، لا يمكن أن تشاهد ، ولٰكنها تُلحظ ، وإلا هل هناك من يستطيع أن يرىٰ (يشاهد) الزواج ؟ لا يمكن أن يخضع الزواج للمشاهدة ، بل الذي يخضع لذلك هو التقاء الزوجين (فردين) علىٰ موضوع متفق عليه بعقد شرعي ويعلن عنه ويُدعىٰ الناس إليه . إذاً الذي تتم مشاهدته هو الزوجان الذكر والأنثىٰ ، والعقد

المكتوب بينهما علىٰ ورق ، والناس الذين حضروا لأجل ذلك ، وهـٰذا كله لم يكن الزواج ، بل هـٰذه مراسم الزواج . الزواج توادد ، وتقارب وجداني يسمو بالزوجين إلىٰ التباس بعضهما ، حباً واشتياقاً وفق اتفاق علىٰ مستقبل مشترك في مرضاة الحي الدائم ، يجعل الآخرين شاهدين علىٰ ذلك بأنه الحق ، ومحرضين عليه . إذاً الزواج كموضوع يكمن في العلاقة بين أسرة وأسرة ، وذكرا وأنثىٰ ، وهـٰذه تُلحظ ، ولا تشاهد بالعينين . والطلاق كموضوع هو الآخر يُلحظ ، ولا يشاهد ، وهـٰكذا تكمن الأسرة والمجتمع في عناصرهما المكونة لكل منهما ، ولا يخضعان للمشاهدة ، لأن الذي يشاهد هم الأفراد ، كبار وصغار ، ذكور وإناث ، وحشود من البشر ، وهـٰؤلاء لم يكونوا هم الأسرة ، ولا المجتمع ، مع أنهم عناصر تكوينهما ، فبدون علاقات مشتركة ذات معنىً لا يمكن للعناصر المشاهدة أن تعطي معنىً للأسرة ، أو المجتمع ، ولهـٰذا تتكون معارفنا من ظاهر وكامن وتوحُّد بينهما . فنحن نعرف الأبوة ، والأمومة ، والأخوة ، ونعرف الخال والجد ، ونعرف أيضاً أن هـٰذه المفاهيم جميعها لا تشاهد ، لأنها كامنة ومترتبة علىٰ علاقات يمكن ملاحظتها .

وعليه ليس كل ما يشاهد يعد معرفة كافية ، بل قد يكون الكامن هو المعرفة الوافية . ولـٰكن من أجل المعرفة العلمية ولكي تكون متكاملة ينبغي أن لا يغفل الخليفة عن أهمية ربط المشاهد والملاحظ بالكامن حتىٰ لا تكون معرفته قاصرة .

وللمزيد من التوضيح هل العبادات كدلائل كامنة ؟ هل العبادات كسلوك مشاهد ؟ فالحج علىٰ سبيل المثال ، هل هو ما نشاهده من سلوك ، أم أنه أكثر من ذلك ؟ إن المشاهد أثناء أداء فريضة الحج هو حشود من البشر ، ترتدي زياً موحداً (الإحرام) وتقوم بحركات واحدة في مواقيت معينة ، ويلحظ عليها التعاون ، والانضباط ، والمساواة في أداء الفرائض ، وأنه لا رئيس لهـٰذه الحشود من البشر (الحجيج) ولا فوارق بينهم . فهل هـٰذا السلوك المشاهد ،

والملاحظ هو الحج ؟ في اعتقادنا السلوك الظاهر ، هو السلوك العملي لأداء فريضة الحج ، ولم يكن الحج في ذاته . فالحج عقيدة وإيمان بوحدانية ٱلله ، واعتراف بقدسية ذلك المكان ، الذي تهدمت فيه الأصنام والأوثان ، ويقين بأن ما قام به محمد عليه الصلاة والسلام من سلوك ، هو الحق الذي يستوجب الاتباع . ولهٰذا لو لم يكن هناك مدلولٌ كامنٌ لفريضة الحج ، ما كان هناك ظاهر سلوكي له [1] .

وعليه فإن الإحاطة بالسر شاملة من قبل المحصي لتشمل كل مخلوقاته وفي كل الأكوان : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [2] ، وصفه تعالىٰ بإحاطة علمه بجميع المعلومات الخفية والجلية المعلومة من باب أولىٰ للإيذان بانطواء ما أنزله علىٰ أسرار مطوية عن عقول البشر مع ما فيه من التعريض بمجازاتهم بجناياتهم المحكية التي هي من جملة معلوماته تعالىٰ ، أي ليس ذلك كما تزعمون بل هو أمر سماوي أنزله ٱلله تعالىٰ الذي لا يعزب عن علمه شيء من الأشياء [3] .

ويدل استخدام المحصي للفظة كل في آيات القرآن الكريم علىٰ إحاطته الشاملة بالأشياء لأن دلالة لفظة كل تدل علىٰ الإحاطة [4] ، والإحاطة هي استيعابية ، والاستيعاب هو : قيمة احتوائية لا إقصائية ، تعتمد تقبُّل الآخر والاعتراف بوجوده وبممارسة حقوقه وأداء واجباته وحمْل مسؤولياته ، دون إكراه أو إجبار . واستناداً علىٰ مبدأ التقبل يستوعب الخليفة بني جنسه هم كما هم لأجل أن يسهم في نقلهم إلىٰ ما يجب أن يكونوا عليه في مرضاة المحصي جل جلاله . ولذا لا تتم دراسة الحالات ولا تتم عمليات التفاوض

---

(1) الموسوعة القيمية ، في مهنة الخدمة الاجتماعية ، عقيل حسين عقيل ص 315 . .
(2) الفرقان ، 6 .
(3) تفسير الآلوسي ، ج14 ، ص 37 .
(4) المحيط في اللغة ، ج 2 ، ص 21 .

ولا تُحل المشاكل بين الناس إلا بالاستيعاب الذي يُحفّز علىٰ التقارب ويؤدي إلىٰ التفاهم .

الاستيعاب يُمكِّن المستخلفين في الأرض والوارثين فيها من الإلمام بما حولهم ومتغيراته السلبية والإيجابية المؤثرة في أمرهم بشكل مباشر أو غير مباشر ، ولذا ينبغي علىٰ الخليفة أن لا يغفل عن الآتي :

1 ـ استيعاب الإيجابيات ، والتأكيد عليها ، ونقلها للآخرين بوسائل مبسطة ، تمكنهم من التعرف عليها ، وتحفِّزهم علىٰ العمل بها .

2 ـ استيعاب السلبيات ، وتحديدها ، وإبراز عيوبها وأسبابها والعمل علىٰ إزالتها ، وتنقية الموضوع منها ، وتبيان الأضرار التي قد تنجم عنها .

وبناء عليه لم يكن التحليل الاستيعابي إبقائياً بالتمام ، ولم يكن غرضه تثبيت المعلومات كما هي (سالبها وموجبها) بل إنه تحليل تثبيتي إيزالي ، به تُثبت المعلومات الموجبة ، وتُزال السالبة ، ولهٰذا يتم استيعاب المعلومات السالبة كما يتم استيعاب المعلومة الموجبة ، من أجل معرفة نقاط الاتفاق والاختلاف ، حتىٰ تتم عمليات التثبيت للموجب المُفضَّل ، والإزالة للسالب غير المفضل .

الاستيعاب قيمة احتوائية ، تقبل بالاختلافات وتعمل علىٰ احتوائها . من طبيعة الخلق لا يتساوون في القدرات والاستعدادات والمهارات ولا حتىٰ في الرغبات والحاجات ، ولا في درجة الفهم والمعرفة ، ولذا فمن الضرورة سيكون الاختلاف الذي يستوجب التقدير ، حتىٰ تتمم الفروق الفردية بين الناس وبعضها البعض . ولهٰذا كل مفردة هي في حالة نقص ، ولا تستكمل إلا بآخر يستوجب الاستيعاب . وإن لم يحدث الاستيعاب تصبح الفرقة بين الناس هي السائدة ، ولأجل ذلك فإن قيم المشاورة وحدها التي تمكن من الاستيعاب . وبدونها لا يمكن أن يتحقق التفهم والتفاهم بين الأفراد والجماعات والمجتمعات .

الاستيعاب عملية تفاعلية بين الأنا والآخر تعتمد علىٰ القيم الآتية :

1 ـ **الفهم** : فهم الموضوع أو الحالة والإلمام التام بها ، من حيث تاريخها ، وما يؤثر فيها بالسلب والإيجاب ، وفهم متغيراتها وعللها وأسبابها ومراميها والغايات التي من ورائها .

2 ـ **التفهُّم** : تفهم الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، والنفسية والذوقية والثقافية التي تلم بالإنسان ، ومراعاة أثارها علىٰ المستوىٰ الفردي والجماعي والمجتمعي .

3 ـ **الاعتراف** : الاعتراف بالفرد مواطناً من حيث أن له حقوقاً ومن حقه أن يطالب بها ويمارسها . وأنّ له واجبات ويقدم علىٰ أدائها . وأنّ له مسؤوليات فلا يتأخر عن حمْلها ، وتحمّل ما يترتب عليها من أعباء .

4 ـ **التقدير** : تحسيس ابن آدم بأنه قيمة في ذاته ، وأنه مُقدَّر في شخصه وفي قراراته ، ومشاعره وخصوصيته ، وفيما يرغب أو يقبل أو يرفض .

وإذا تحققت الإحاطة حصل الإحصاء وهو إحاطة العلم باستقصاء العدد[1] ، ومن وجوه هٰذه الإحاطة إحصاء عمل النفوس وهو غير عمل الأبدان ، وسبق التفصيل في أنواع النفوس وعملها في مبحث سابق ، يقول عز وجل : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[2] ، وهٰذا الإيجاد إنما بقدرة المحصي من حيث الإحاطة بما سبق لهم من الأعمال التي أحصاها ٱلله عليهم ، فالخير كله محصىً والشر كذلك ، وفي ضوء هٰذا الإحصاء يكون الجزاء : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا

---

(1) العين ، ج 1 ، ص 227 .
(2) آل عمران ، 30 .

كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [1] ، وتوفية الشيء : إتمامه دون نقص ، فأما الذين اتقوا وصبروا فتوفية كسبهم تكون بغير حساب : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [2] ، وهٰذا يدل علىٰ الزيادة والكثرة في الجزاء بأسباب اتباع الحق ، والانتهاء عما يجب الانتهاء عنه ، أما أصحاب السيئات فلا يجزون إلا مثلها : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [3] .

ومن دواعي الإحاطة الموجبة للجزاء بالخير أو الشر الإحصاء العددي ، وفي ذلك عظيم الحكم من لدنه سبحانه ، فهٰذه الأعمال التي يحصي ٱلله عددها ستكون شاهدة يوم الحساب ، ويقال : أحصيت الشيء إحصاءاً إذا عددته دون غفلة مع تيقن تام بالأمور المحصية ، وٱلله تعالىٰ محصي كل شيء فلا يفوته شيء من خلقه عداً وإحصاء ، ويشير المحصي إلىٰ هٰذا الإحصاء العددي في آياته المحكمات : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [4] ، وهٰذا الإحصاء العددي شامل للكليات والجزئيات : ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾ [5] ، أما قوله تعالىٰ : ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ فهو يدل علىٰ كونه تعالىٰ عالماً بالجزئيات ، وأما قوله : ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ فهو يدل علىٰ كونه عالماً بجميع الموجودات ، وبهٰذا علينا أن نميز بين الكل والجزء والمتداخل حتىٰ نتبيَّن المسألة الإحصائية في مثل هٰذه الأشياء :

أولاً : **الجزء** : الجزء هو المختزل في الكل ، والمحتوي علىٰ المتجزئ

(1) البقرة ، 281 .

(2) الزمر ، 10 .

(3) الأنعام ، 160 .

(4) مريم ، 93ـ95 .

(5) الجن ، 28 .

والمختزل له ، فكلمة رجل ، تختزل كل الرجال فيها ، وهي جزء من كلمة إنسان . وكلمة عصفور ، تتكون من كل العصافير المتجزئة من كلمة طير ، وبمختلف أنواع العصافير وأشكالها وألوانها ، وأماكن تواجدها . ولذلك فهناك من ينتقل في تفكيره وتحليله من الكل إلىٰ الجزء ، وهناك من ينتقل من الجزء إلىٰ الكل . فهـٰذه طرق وأساليب لا ينبغي قولبتها ، بل يفضل أن تكون المرونة في استعمالاتها . ولهـٰذا لا جزء إلا من كل ، ولا كل إلا وهو المركب من الأجزاء المتصلة والمنفصلة والمندمجة . فجسم الإنسان كوحدة واحدة كلي ، وأطرافه أجزاء منه ، والفؤاد كذلك ، والقلب جزء من الفؤاد ، والبطين جزء من القلب . والإنسان كفرد ، جزء من الجماعة ، والجماعة جزء من المجتمع ، والمجتمع جزء من الأمة ، والأمة جزء من البشرية علىٰ مستوىٰ المعمورة ، وهـٰكذا يتعدد البشر والمستخلفون فيها .

ثانياً الكل : هو المشتمل علىٰ كل جزء ومتجزئ في دائرة النسبية والممكن المتوقع وغير المتوقع . فالإنسان كمفهوم كلي يختزل كل البشر من حيث المضمون والجوهر ، وهـٰكذا كلمة الطير تختزل كل الطيور ، ومثلها كلمة النبات تختزل كل النباتات بجميع أنواعها وأشكالها ، ومثلها أيضاً الحيوان . فأي إنسان أعني ؟ الرجال أم النساء أم الشيوخ أم الأطفال ، أم ماذا أعني ؟ وأي طير أعني ، هل أعني بذلك الحمام ، أم الصقور ، أم الغربان أم ماذا ؟ وأي نبات أعني ؟ وأي حيوان أعني ؟

وعليه فالكل احتوائي يحمل في مكوناته الجزء والمتجزئ منه . ولهـٰذا فهو شمولي يُطلق علىٰ كل من يشتركون في النوع والصنف ، أو الصفات والخصائص والمهن والحرف . وقد يكون الشكل كلاًّ عندما يستقل عن غيره ، وقد يكون جزْءاً عندما يقارن أو يرتبط بغيره ممن تربطه به علاقات في الكم أو الكيف . فالشكل الرباعي الذي مساحته علىٰ سبيل المثال تساوي افتراضاً 400 متر مربع ، يكون طول ضلعه 20 متراً . ولذلك فالمربع ككل

يتجزأ إلىٰ أربعة أجزاء ، وكل جزء يتجزأ إلىٰ 20 متراً ، ولهـٰذا ينقسم الكل إلىٰ أجزاء ، والأجزاء تنقسم إلىٰ متجزئات ، وهـٰكذا إلىٰ النهاية . فعندما تُقطع مسافة 500 متر عدواً ، قد يُنظر إلىٰ هـٰذه المسافة بمنظور كلي ، ولـٰكن إذا ما قارنا هـٰذه المسافة بمسافة 1000 متر تصبح تلك المسافة جزءاً وليس بكل ، وهـٰكذا إذا ما قارنا مسافة الألف متر بمسافة 2000 متر ، يصبح الألف السابق جزءاً من كل ، وهـٰكذا دائماً الكل يتجزأ إلىٰ النهاية .

ومع أن كل جزء قابل لأن يتجزأ ، إلا أن المعرفة التامة قد لا تتم إلا بمشاهدة وملاحظة الكل ، فالفرد من البشر هو كل من حيث أنه مفردة مستقلة بذاته ، فعندما يتولىٰ حالته باحث أو أخصائي اجتماعي بالدراسة فلابد من دراسته ككل وحدة واحدة . ولـٰكن إذا ما قورنا من حيث الكم ببقية البشر الآخرين فيصبح مفردة متجزئة وليس بكلٍ . وإذا ما كنت عضواً في لجان تحكيم جميلات العالم فإنك ستنظر للجمال ككل برغم أنك ستكون مهتماً بأخذ مقاييس للجزء والمتجزئ . ومع ذلك سَتُقَوِّم المُشارِكات من حيث التناسق الكلي حتىٰ تستطيع أن تصدر حكماً مع الآخرين بأن هـٰذه الفتاة أو تلك هي جميلة ككل أو كوحدة واحدة . وبمقارنتها مع الأخريات تصبح هي الأخرىٰ جزءاً من مجموع المشتركات في المنافسة أو التسابق الجمالي .

ثالثاً : التداخل : هو المختزل للنوع ، أو الصفة ، أو الشكل ، أو المهنة أو الحرفة ، والذي وجوده قد يؤثر فيه متغير مستقل ، ويجعله مؤثراً في متغير لاحق ، فكلمة ذكر تتداخل فيها عدة أنواع ، باشتراكها في الذكورة . الذكر من البشر ، ومن الحيوانات ، والطيور ، والنبات . والغضب ، تتداخل فيه الحيوانات مع الإنسان ، والطيور والأسماك ، ولذلك الغضب كمتغير تابع يتأثر بمتغير سابق أو مستقل ، ويؤثر في متغير تابع أو لاحق ، والتحليل العلمي هو الذي يتبين هـٰذه التداخلات ويبينها ، ويميزها عن بعضها بالمحتوىٰ والسلوك .

والدين كمعتقد يكوّن عدداً كبيراً من القيم الاجتماعية والعرف كذلك له هـٰذه الأهمية ، والثقافة المتجددة هي الأخرىٰ ذات أثر علىٰ تطوير القيم أو تغييرها ، ولذلك تتداخل مصادر المعرفة في تكوين القيم وتحسينها من وقت لآخر .

ولذا فقوله تعالىٰ : ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ في الآيات السابقة الذكر يدل علىٰ كونه غير متناه ، فلزم وقوع التناقض في الآية ، قلنا : لا شك أن إحصاء العدد إنما يكون في المتناهي ، فأما لفظة ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ فإنها لا تدل علىٰ كونه غير متناه ، لأن الشيء عندنا هو الموجودات ، والموجودات متناهية في العدد ، حيث كل شيء أحصاه وعده عداً . وقوله : ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ يقتضي كون تلك المحصيات متناهية ، وحتىٰ يزال اللبس والغموض من قضية التناهي فعلينا تبيانه بأسباب علاقته بالمحصيات .

المتناهي : لتحديد ما يدل عليه التناهي أطرح الأسئلة التالية :

هل كل شيء في الوجود له نهاية ، أم لا نهاية له ؟

هل الحياة الدنيا التي نود التعرف عليها باقية إلىٰ مالا نهاية ، أم أنها منتهية ؟ وبما أن الحياة منتهية إثباتاً ، فإن ذلك يعني أن كل مخلوقاتها منتهية ، وبما أن كل مخلوقاتها منتهية ، والمخلوقات كم عددي يمكن إحصاؤه بالنسبة للخليفة في دائرة النسبية ، ويمكن إحصاؤه بالنسبة للخالق المحصي في دائرة المطلق ، إذاً كل كم في الدنيا مُنتهٍ حتىٰ حبات الرمل ، وقطرات الماء ورذاذه .

إن الحياة الدنيا التي نود التعرف عليها والتطور فيها لن تكون باقية إلىٰ مالا نهاية ، بل إنها منتهية . ولأننا نعرف إثباتاً أن للحياة نهاية فلا نتفق مع الذين يقولون غير ذلك . فلا تحليل إلا لوجود ، ولا تحليل إلا بموجود ، ولكل شيء بداية ونهاية ، قال تعالىٰ : ﴿ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ

عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ [1] ، وهٰكذا يستمر الوجود ، والتفكير ، والتغيير ، والتحليل إلىٰ النهاية ، والذين يعتقدون في وجود اللامتناهي رياضياً ، هم كمن يلهث وراء السراب من أجل أن يروي ظمأه . ولهٰذا يحدث الاختلاف مع البعض الذين يحللون القضايا والمسائل الرياضية ، وهم معتقدون في وجود اللامتناهي ، ومن أجل ذلك أطرح السؤال الآتي :

هل اللامتناهي موجود ؟

قد تكون إجابتهم بنعم ، وقد تكون بلا ؛ فإذا كانت الإجابة بنعم . فإنهم فتحوا لنا المجال بأن نطالبهم بإثباته ، وإذا أثبتوه ، أثبتوا أن له بداية ونهاية ، وإذا كانت له بداية ونهاية ، فإنه أصبح موجوداً (المتناهي) ، ولم يكن اللامتناهي ، أما إذا كانت الإجابة بلا ؛ إذاً نفوا وجود اللامتناهي . وبما أنه أصبح غير موجود ، إذاً لا حجة لهم علينا ، ولنا عليهم حجة .

والمنطق العلمي وخاصة الرياضي منه ، لا يعترف بمسلمات إلا بعد إثبات . وعليه إذا اعتبروا أن اللامتناهي مسلمات ، فإنهم اعترفوا بأنه مثبت ، وإذا كان مثبتاً كان موجوداً ، وبما أنه موجود ، إذاً له بداية ونهاية ، وإذا كانت له بداية ونهاية ، فإنه لم يكن اللامتناهي . يقول ٱلله تعالىٰ في سورة الحديد : ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ ﴾ سبحانه وتعالىٰ إنه البداية التي لم يكن من قبلها شيء ، والآخر بلا نهاية الذي جعل للنهار بداية ونهاية ، ولليل بداية ونهاية ، وللعمر بداية ونهاية ، وللتفكير بداية ونهاية ، ولكل الوجود بداية ونهاية . وعليه إذا كان لكل شيء بداية ونهاية ، والأعداد شيء ، إذاً للأعداد بداية ونهاية . وإذا سلمنا بأن لكل بداية نهاية ، وأن للأعداد بداية ، إذاً لابد وأن تكون لها نهاية محصوة ، ولٰكن هل تستطيع قدراتنا العقلية المحدودة (التي

(1) الحديد ، 2 ـ 3 .

لها بداية ونهاية) أن تكتشف هـٰذه النهاية ، أو لا تكتشفها ؟ هـٰذه مسألة تتعلق بمدىٰ استخدامنا لقدراتنا العقلية ، التي تتطور وتتغير عبر الزمن إلىٰ النهاية ، فما نعتبره استحالة اليوم ، قد لا يكون كذلك غداً . ولذلك لا مكانة في العلم للأحكام المطلقة مسبقاً .

اللامتناهي رياضياً لا وجود له إلا افتراضاً ، وبما أنه افتراضٌ ، إذاً لم يكن مثبتاً بعد ، فالافتراضات العلمية التي تصاغ بهدف دراسة المواضيع ليست يقينية . بل إنها احتمالية شكية ، قد تثبتها الدراسة وقد تبطلها . وإذا كان لكل كم نتيجة محددة ودقيقة ، أي إذا كان لأي كم هو نتيجة حاصل الجمع ، أو الطرح ، أو القسمة ، أو الضرب ، وسواء في التربيع أو التكعيب ، أو غيرها من المسائل الحسابية ، وبما أنه بالإمكان الحصول علىٰ هـٰذه النتيجة كحاصل للعمليات الحسابية السابقة ، إذاً لا مكان بينها إلىٰ اللامتناهي إلا افتراضاً . وبما أنه كذلك ، إذاً لا مصادق لوجوده . وإلا هل هناك كم حسابي يقبل القسمة والجمع والطرح ، ولم تكن له نتيجة (نهاية) ؟

لا وجود لذلك . ولهـٰذا اللامتناهي لا وجود له إلا افتراضاً .

إن افتراض وجود اللامتناهي ، مثل الافتراض الذي يقول : (يظل المستقيم مستقيماً مهما امتد) . هـٰذا الافتراض لا مصادق له ، لأن المستقيم إذا أمتد إلىٰ المشار إليها ، لا يمكن أن يكون مستقيماً ، بل يكون دائرة ، وهـٰكذا حال أي مستقيم يبتدئ بنقطة وينتهي بنقطة .

يقول أرسطو : « يجب التمييز بين اللامتناهي بالقوة ، وبين اللامتناهي بالفعل » ، وهو يقر بوجود الأول ، وينكر وجود الثاني . وهـٰذا يعني عدم اعترافه بوجود اللامتناهي إلا نظرياً ، أما واقعياً فلا وجود له . وهـٰذا حال الفكر اليوناني عامة الذي ينظر إلىٰ العالم علىٰ أنه متناه . وعليه أتساءل : كيف يؤمن أرسطو بوجود اللامتناهي بالقوة ، ولا يؤمن بوجود اللامتناهي بالفعل ؟ إذا كان المتناهي موجوداً بالقوة يكون بالضرورة موجوداً بالفعل . وإذا لم يكن

موجوداً بالفعل ، فلا وجود له بالقوة . وإلا هل يحق لنا أن نقول : إن الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر وهي في حقيقتها من الناحية الفعلية لا تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر ؟ . إذا كانت كذلك فإنها لم تكن الصلاة .

الصلاة هي التي تنهىٰ عن ذلك بالقوة والفعل . وإذا وجدنا مسلماً يصلي ولم ينته عن ارتكاب الفواحش والمنكرات ، فالعيب هنا لم يكن في الصلاة ، بل العيب في المصلي الذي لم يدخل الإيمان قلبه بعد . ولمَّا يدخل الإيمان قلبه سينتهي عن ارتكاب كل ذلك ، وتكون الصلاة في هـٰذه الحالة حقيقة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر والبغي . قال تعالىٰ : ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [2] .

ولذا وفقاً للمنطق العلمي لكل بداية نهاية ، والذي لا بداية له ولا نهاية لا يقبل القسمة ولا الجمع ولا الطرح بنتائج دقيقة ومحددة ، وليس له منتصف أو مركز يحدد نزوعه وتشتته مما يجعله معدوم التعامل الحسابي .

وعليه فقد كان الإحصاء مخصوصاً بخلق الرحمـٰن : ﴿ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [3] ، أي لقد أحصىٰ الرحمـٰن خلقه كلهم ، وعدّهم عدّا ، فلا يخفىٰ عليه مبلغ جميعهم ، وعرف عددهم ،

(1) الحجرات ، 14ـ16 .
(2) العنكبوت ، 45 .
(3) مريم ، 94ـ95 .

فلا يعزب عنه منهم أحد ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴾ يقول : وجميع خلقه سوف يرد عليه يوم تقوم الساعة وحيداً لا ناصر له من ٱلله ، ولا دافع عنه ، فيقضي ٱلله فيه ما هو قاض ، ويصنع به ما هو صانع [1] .

والمحصي يبين لنا آيات إحصاء العدد لتحقيق الفائدة التي تعين الخليفة في إعمار الأرض ، فكل شيء خلقه المحصي بقدر معلوم : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [2] ، ويبدو ذلك علىٰ عدة صور منها :

1 ـ موارد الحياة بيد المحصي وهو ينزلها بقدر محسوب عددياً بحيث تحصل الفائدة : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [3] .

2 ـ **الأفلاك وحركتها** : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [4] ، ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ لحدّ لها مؤقت مقدّر تنتهي إليه من فلكها في آخر السنة ، أو لمنتهىً لها من المشارق والمغارب ؛ فذلك حدّها ومستقرّها ؛ لأنها لا تعدوه أو لحدّ لها من مسيرها كل يوم في مرأىٰ عيوننا وهو المغرب ، و ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الجري علىٰ ذلك التقدير والحساب الدقيق الذي تكل الفطن عن استخراجه وتتحير الأفهام في استنباطه ، ما هو إلا تقدير الغالب بقدرته علىٰ كل مقدور ، المحيط علماً بكل معلوم . والمعنىٰ : أنّ ٱلله تعالىٰ قسم لكل واحد من الليل والنهار وآيتيهما قسماً من الزمان ، وضرب له حدّاً معلوماً ، ودبر أمرهما علىٰ التعاقب ، فلا ينبغي للشمس : أي لا يتسهل لها ولا يصحّ ولا يستقيم لوقوع التدبير علىٰ

(1) تفسير الطبري ، ج 18 ، ص 261 .
(2) القمر ، 49 .
(3) الحجر ، 21 .
(4) يس ، 38ـ39 .

المعاقبة ، وإن جعل لكل واحد من النيرين سلطان علىٰ حياله ﴿أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ فتجتمع معه في وقت واحد وتداخله في سلطانه فتطمس نوره ، ولا يسبق الليل النهار يعني آية الليل آية النهار وهما النيران ، فإن قلت : لم جعلت الشمس غير مدركة ، والقمر غير سابق ؟ قلت : لأن الشمس لا تقطع فلكها إلا في سنة ، والقمر يقطع فلكه في شهر .

3 ـ **الليل والنهار** : ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ (1) .

4 ـ **الرزق** : ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (2) .

5 ـ المطر : ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ (3) ، والقدر هنا محسوب بقدر الحاجة إليه ، فإذا نقص حل العوز وإذا زاد أفسد ، وفي ذلك آية من آيات المحصي عز وجل .

6 ـ **جزاء الآخرة** : ومثاله ما ذكر المحصي من دقة حساب الحاجة : ﴿ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ (4) علىٰ قدر حاجتهم إلىٰ ما فيها من شراب لا يزيد ولا ينقص ليكون ألذ لشربهم .

---

(1) المزمل ، 20 .

(2) الشورىٰ ، 27 .

(3) الزخرف ، 11 .

(4) الإنسان ، 16 .

لذا توجب علىٰ الخليفة أن يلم بإحصاء ما عنده وما يعينه علىٰ إعمار الأرض وتحقيق العدل عليها وأن يعي ما في الإحصاء من فائدة في أي عمل من أعماله علىٰ الأرض ، والإحصاء دليل يقظة وتيقن ولم يكن دليل غفلة وتسيب .

ومن صور شمول الإحصاء ما ذكر المحصي عن الحيوان : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [1] ، والمعنىٰ أن دبرها ٱلله تعالىٰ وخلقها وتكفل برزقها ، والمراد أنه تعالىٰ كما أحصىٰ في الكتاب كل ما يتعلق بأحوال البشر ، من العمر والرزق والأجل والسعادة والشقاوة فكذلك أحصىٰ في الكتاب جميع هٰذه الأحوال في كل الحيوانات ، والدليل عليه قوله تعالىٰ : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ [2] .

المحصي عليم محيط بكل أمر ، فالمُحْصِي هو الذي أَحْصَىٰ كلَّ شيءٍ بعِلْمِه فلا يَفُوته دَقيق ولا يغفل عما هو أدق ، يقول المحصي عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [3] ، أكد المحصي بيان كونه عالماً بكل المعلومات فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ، ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ لا يقصد منها رؤية البصر ، بل يقصد بها الرؤية المعرفية التي يملؤها الإيمان بلا تردد ، ولٰكنه معلوم بواسطة الدلائل ، ويعلم تدل علىٰ اليقين الكامل الذي لا يشوبه شك ولا ظن ، وكل من كانت أفعاله كذلك فهو عالم ، ودلائل علمه كثيرة منها :

---

(1) الأنعام ، 38 .

(2) تفسير الرازي ، ج 6 ، ص 278 .

(3) المجادلة ، 7 .

1 ـ محسوسة مشاهدة في عجائب السمـٰوات والأرض ، وتركيبات النبات والحيوان .

2 ـ بديهية ، ولما كان الدليل الدال علىٰ كونه تعالىٰ كذلك ظاهراً لا جرم بلغ هـٰذا العلم والاستدلال إلىٰ أعلىٰ درجات الظهور والجلاء ، صار جارياً مجرىٰ المحسوس المشاهد ، فلذلك أطلق لفظ الرؤية فقال : ﴿أَلَمْ تَرَ ﴾ وأما أنه تعالىٰ عالم بجميع المعلومات ، فلأن علمه علم دائم ، فلو تعلق بالبعض دون البعض من أن جميع المعلومات مشتركة في صحة المعلومية لافتقر ذلك العلم في ذلك التخصيص إلىٰ مخصص ، وهو علىٰ ٱلله تعالىٰ محال ، فلا جرم وجب كونه تعالىٰ عالماً بجميع المعلومات ، واعلم أنه سبحانه قال : ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ولم يقل : يعلم ما في الأرض وما في السمـٰوات ، وفي رعاية هـٰذا الترتيب سر عجيب [1] .

فالمحصي هو العالم ولـٰكن إذا أضيف العلم إلىٰ المعلومات من حيث يحصي المعلومات ويعدها ويحيط بها سمي إحصاء ، والمحصي المطلق هو الذي ينكشف في علمه حد كل معلوم وعدده ومبلغه ، والعبد وإن أمكنه أن يحصي بعلمه بعض المعلومات فإنه يعجز عن حصر أكثرها ، فهي لا تحصىٰ ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [2] .

والمحصي هو الْعَالِمُ بِمَقَادِيرِ الْحَوَادِثِ مَا يُحِيطُ بِهِ مِنْهَا عُلُومُ الْعِبَادِ ، وَمَا لا يُحِيطُ بِهِ مِنْهَا عُلُومُهُمْ ، كَالأنفَاسِ وَالأَرْزَاقِ وَالطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي وَالْقُرَبِ ، وَعَدَدِ الْقَطْرِ وَالرَّمْلِ وَالْحَصَا وَالنَّبَاتِ وَأَصْنَافِ الْحَيَوَانِ وَالْمَوَاتِ وَعَامَّةِ الْمَوْجُودَاتِ ، وَمَا يَبْقَىٰ مِنْهَا أَوْ يَضْمَحِلُّ وَيَفْنَىٰ ، وَهَذَا رَاجِعٌ إِلَىٰ نَفْيِ

---

(1) تفسير الرازي ، ج 15 ، ص 269 .
(2) إبراهيم ، 34 .

الْعَجْزِ الْمَوْجُودِ فِي الْمَخْلُوقِينَ عَنْ إِدْرَاكِ مَا يَكْثُرُ مِقْدَارُهُ وَيَتَوَالَىٰ وُجُودُهُ [1] فهو القادر الذي لا يعجز عن إحصاء خلقه بالعلم والإحاطة بقدرته الكاملة التي بها أحصىٰ كل شيء عدداً ، ولهـٰذا كل شيء متناه ولا وجود في علمه وحسابه وإحصائه لما يسمونه بما لا نهاية . قال تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ . ربي ، الأول والآخر . وهو الواحد الذي لا يتعدد ، وبالتالي لا يقع في شك الفلاسفة والرياضيين المتجادلين علىٰ النهاية واللانهاية . ولهـٰذا قدرات ٱلله لا تحصىٰ ولا تقاس بالقدرات البشرية المخلوقة ، ولا هي موضع مقارنة ، ولا يمكن أن تدخل في حساباتنا المتناهية بقصورها أمام قدرته . وهـٰكذا دائماً المخلوق أقل قدرة من خالقه الذي يعلم بأمر كل شيء وقد أحصىٰ كل شيء عدداً .

وبناء علىٰ ذلك هل للأعداد بداية ونهاية ؟ الأعداد مهما كبرت فإنها تبتدئ بواحد وتنتهي بواحد ، إذاً الواحد هو البداية ، والنهاية ، وإذا لم نصل بقدراتنا العقلية إلىٰ معرفة وجود النهاية العددية ، فإن ذلك لا يعني إثبات عدم وجودها ، بل إنه دليل علىٰ قصور قدراتنا العقلية ، والفكرية ، التي لم يستخدم منها إلا القليل جداً من سعتها الإدراكية ، والاستيعابية ، وهـٰذا يتطلب من الخليفة عدم اليأس ، ويدفعه إلىٰ البحث الجاد ، والتقصي الدقيق ، ولذلك لا نيأس مثل الذين ﴿ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾ . والآخرة هي التي تكتمل بها البداية ، وتنتهي ، كما تبتدئ الأعداد (أي أعداد) بواحد ، وتنتهي به ، مما يجعل الواحد ككل ، أو كجزء هو البداية والنهاية ، قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [2] .

وما لا نهاية ، هو الذي لا يشاهد ، ولا يحس به ، وهو احتمال ، لم

---

(1) الأسماء والصفات للبيهقي ، ج1 ، ص 117 .

(2) الحديد ، 3 .

يخضع للإثبات ، وإذا عرفناه أصبح نهاية ، والأعداد سواء بالسلب ، أو بالإيجاب تستمر في تضاعف إلىٰ النهاية (نهاية الشيء المعدود ، أو نهاية الذي يقوم بفعل العد) .

ومثالاً علىٰ ذلك : إذا اتجه أحد المتخصصين في دراسة الرياضيات من نقطة معينة علىٰ الأرض في إتجاه مستقيم ، فإنه بالضرورة يصل إلىٰ النهاية ، لأن لكل بداية نهاية ، ولـٰكنه لو انحرف قليلاً ، أو كثيراً عن خط سيره ، فإنه يجد نفسه مستمراً في اتجاهه ، دون أن يمر بنقطة النهاية ، وكأن الأرض ليست دائرية ، وهـٰكذا في كل دورة علىٰ الأرض إذا لم يصل إلىٰ نقطة البداية التي وضعها أو انطلق منها كدليل ثابت يسترشد به ، وفي هـٰذه الحالة قد يحكم علىٰ الأرض بما لا نهاية ، وهو يعرف مسبقاً أنها منتهية .

وعليه أتساءل : هل في دراستنا للأشياء والمواضيع في دائرتها ، أو فلكها المنتهىٰ ، تكون غير منتهية ؟ نحن نعرف أن كل شيء ندرسه ، أو خاضعاً للدراسة ، لا يخرج عن حيز من والزمان ، والمكان ، وهو أيضاً لا يخرج عن حيز تفكيرنا وقدراتنا العقلية . إذاً كل ما ندرسه ونبحث فيه ، هو في إطار محدود ، مع فارق حدوده مع غيره ، إذا قورن به ، وبما أن ما ندرسه في إطار محدود ، ألا يكون لِمَا ندرسه حدود ونهايات ؟ إذا قمنا بإحصاء عدد سكان الصين علىٰ سبيل المثال ، فمهما كان عددهم فإن له نهاية ، لأن المكان الذي استهدفناه محدد ، إذاً مسبقاً نعرف أن لعدد سكان الصين نهاية ، مع أننا لا نعرف عددهم بعد . وإذا قمنا بتعداد سكان العالم ، وحيواناته ، وطيوره ، وأسماكه ، ونباتاته ، وحتىٰ حبات رمله ، ألا نصل إلىٰ النهاية ؟ بالتأكيد سنصل ، لأن كل هـٰذه الكائنات في رقعة جغرافية محددة بالكرة الأرضية المتناهية ، إذاً لابد وأن تكون لها بداية ونهاية ، مع العلم أن بعض الذين سيشاركون في التعداد قد ينتهون قبل أن يعرفوا النهاية ، وإذا خرجنا بقدراتنا العقلية إلىٰ التعرف علىٰ ما هو خارج الأرض ، فإننا سنعرف بقدر ما تستوعبه

عقولنا وتفكر فيه ، ولا نستوعب ولا نتعرّف علىٰ ما هو خارج عنها . وبما أن لكل شيء بداية . إذاً لابد وأن تكون له نهاية . وبما أن التطور شيء (سواء كان مادياً أو مجرداً) إذاً لابد وأن تكون له بداية ونهاية . وعليه لا وجود في الحياة الدنيا إلىٰ مالا نهاية ، بل الوجود إلىٰ النهاية ، وهـٰذا يستوجب التعرف علىٰ شيئين :

الأول : المتعرف عليه بالمتعرف به :

عندما يكون الموضوع معرفة سابقة سواء كانت هـٰذه المعرفة مادية أو فكرية ، فيكون هو المتعرف عليه ، ويكون هـٰذا الموضوع هو المعرفة التي يتم استيعابها بالعقل وهو المتعرف به . فالمتعرف عليه لو لم يكن له بداية ونهاية ما عرفناه معرفة علمية ، ولهـٰذا عندما تتوفر المعلومات عن الموضوع ، يمكن التعرف عليه بالعقل باعتباره المتعرف به .

الثاني : غير المتعرف عليه بالمتعرف به :

عندما يتمكن العقل من البحث والتقصي العلمي يمكن أن يتعرف علىٰ الجديد بالمتعرف به (بالعقل) ، في حدود القدرات والاستعدادات كبداية ونهاية إدراكية . وغير المتعرف عليه هو الذي لم يُكتشف بعد حتىٰ يعتبر معرفة علمية ولهـٰذا يُعتبر بالنسبة للمدركات العقلية مجهولاً ، والعقل معروف كوسيلة للتعرف به ، وعندما يتعرف العقل (المتعرف به) علىٰ الجديد يصبح غير المتعرف عليه معروفاً .

إن المعرفة الممكنة هي المعرفة المتاحة ، أما المعرفة غير الممكنة هي المعرفة غير المتاحة . مثل معرفة اليوم الآخر في الحياة الدنيا ، هي معرفة نظرية فقط ، ولا يدركه إلا المؤمن . وفي الوقت ذاته لا يعرفه عملياً لأنه غير قابل للمشاهدة والملاحظة ، وهـٰذه معرفة غير متاحة . وهـٰذه التي أطلقنا عليها (غير المتعرف عليه بالمتعرف به) . وكل معلومة لم يتم التعرف عليها بعد وهي في الإمكان تندرج تحت (المتعرف عليه بالمتعرف به) إلىٰ النهاية .

ويرتبط مفهوم الإحصاء بالقدرة والىٰ ذلك أشار المحصي عز وجل فقال : ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ (1) ، علم أَن لَنْ تُحْصوه أَي لن تُطيقوه ، وقيل أَراد من أَطاقَ العمل بمقتضاها مثلُ من يعلَمُ أنه سميع بصير فيَكُفُّ سَمْعَه ولسَانَه عمَّا لا يجوزُ له وكذلك في باقي الأَسماء (2) .

والمحصي قادر علىٰ الإلمام بشؤون خلقه جميعاً فهو الرزاق الذي يعلم ضعف العبد وقلة قدرته إذ يقول له : ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (3) ، لحثه علىٰ الإيمان بقدرة المحصي علىٰ الإحاطة بجميع مخلوقاته والتكفل باحتياجاتهم وبرزقهم ، وليس العبد فحسب وإنما جميع المخلوقات : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (4) ، وعلىٰ الخليفة أن يكون قادراً علىٰ الإيفاء بما عليه تجاه الناس من التزام فيوفر لهم سبل العيش الذي يرضاه ٱلله ويذلل لهم الصعوبات وأن يحصي كل من استخلف عليهم فيتكفل بما يحتاجون لدينهم ودنياهم .

---

(1) المزمل ، 20 .
(2) لسان العرب ، ج 14 ، ص 183 .
(3) الأنعام ، 151 .
(4) هود ، 6 .

المحصي ، ملك القوة المطلقة والقدرة المطلقة ولذا فهو القوي القادر علىٰ من أحصىٰ وليس لأحد من العالمين قوة كقوته وإن عظم شأنه فكلهم عباده : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ (1) ، والمراد أنه ما من معبود لهم في السمـٰوات والأرض من الملائكة والأنس والجن إلا وهو يأتي الرحمـٰن أي يأوي إليه ويلتجئ إلىٰ ربوبيته عبداً منقاداً مطيعاً خاشعاً راجياً كما يفعل العبيد ، ومنهم من حمله علىٰ يوم القيامة خاصة والأول أولىٰ لأنه لا تخصيص فيه ، وقوله : ﴿ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ أي كلهم تحت أمره وتدبيره وقهره وقدرته فهو سبحانه محيط بهم ، ويعلم مجمل أمورهم وتفاصيلها لا يفوته شيء من أحوالهم وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفرداً ليس معه أحد .

وقوة المحصي من علمه عز وجل : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴾ (2) .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ إن هـٰؤلاء الكفار كانوا في الدنيا لا يخافون محاسبة ٱلله إياهم في الآخرة علىٰ نعمه عليهم ، وإحسانه إليهم ، وسوء شكرهم له علىٰ ذلك ، ولذا فهم لا يخافون حساباً (3) .

وقوله : ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴾ يقول تعالىٰ ذكره : وكلّ شيء أحصيناه فكتبناه كتاباً ، كتبنا عدده ومبلغه وقدره ، فلا يعزُب عنا علم شيء منه ، ونصب كتاباً ، لأن في قوله : ﴿ أَحْصَيْنَٰهُ ﴾ مصدر أثبتناه وكتبناه ، كأنه قيل : وكلّ شيء كتبناه كتاباً (4) . ولذا فيكون الفرق بين المكتوب والمحفوظ ، المحفوظ لا يزول والمكتوب قد يزول ، وليعلم الخليفة أن

---

(1) مريم ، 93ـ94 .
(2) النبأ ، 27ـ29 .
(3) تفسير الطبري ، ج 24 ، ص 168 .
(4) تفسير الطبري ـ ج 24 ، ص 169 .

الإحصاء الحقيقي يكون بالعلم ، ومعلوم أن العلم بالأشياء هو مما وهبه ٱلله للخليفة فهو فيه بل إن علم الخليفة أكبر حتىٰ من علم الملائكة : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (1) ، وما علىٰ الخليفة إذاً إلا أن يسعىٰ لاستخراج هـٰذا العلم من مستقره وهو العقل مستعيناً بكل ما خلقه ٱلله في هـٰذا الكون ليصل إلىٰ الإحصاء التام والصحيح فيكون عونه في خلافته علىٰ الأرض .

ولأن الحفظ لا يزول فكذلك الإحصاء حفظ لا يزول ، والحفظ هنا شامل ودقيق : ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴾ (2) ، ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ ﴾ من الأشياء التي من جملتها أعمالهم ، أي كل شيء مما يقع عليه الثواب والعقاب فهو عام مخصوص ، والإحصاء والكتب يتشاركان في معنىٰ الضبط والحفظ ، والظاهر أنه تمثيل لصورة ضبط الأشياء في علمه تعالىٰ بضبط المحصي المُجد المتقن للضبط بالكتابة وإلا فهو عز وجل مستغن عن الضبط بالكتابة وهـٰذا التمثيل لتفهيمنا وإلا فالانضباط في علمه تعالىٰ أجل وأعلىٰ من أن يمثل بشيء (3) .

ومعلوم أن من وراء هـٰذا الحفظ حساباً وميزاناً مما استدعىٰ الضبط لإقرار العدل : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ (4) بيانٌ لما سيقع عند إتيانِ ما أُنذروه ، أي نقيم الموازينَ العادلةَ التي توزن بها صحائفُ الأعمال ، وقيل : وضعُ الموازين تمثيلٌ لأرصاد الحسابِ السويِّ والجزاء علىٰ حسب

(1) البقرة ، 31ـ 33 .
(2) النبأ ، 29 .
(3) الآلوسي ، ج 22 ، ص 107 .
(4) الأنبياء ، 47 .

الأعمال ، ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ ﴾ من النفوس ﴿ شَيْئًا ﴾ حقاً من حقوقها أو شيئاً ما من الظلم ، بل يوفىٰ كلُّ ذي حق حقَّه إن خيراً فخيرٌ وإن شرًّا فشر ، والفاء لترتيب انتفاء الظلم علىٰ وضع الموازين ﴿ وَإِن كَانَ ﴾ أي العملُ المدلولُ عليه بوضع الموازين ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ أي مقدارَ حبة كائنةٍ من خردل ، أي وإن كان في غاية القِلة والحَقارة فإن حبةَ الخردل مَثَلٌ في الصِّغر ، ﴿ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ أي أحضرنا ذلك العملَ المعبَّر عنه بمثقال حبةِ الخردل للوزن فجازينا بها من الإيتاء بمعنىٰ المجازاة والمكافأةِ لأنهم أتَوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء ، ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ .

والمحصي سبحانه حافظ لما أحصىٰ من أفعال الخلائق عموماً : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (1) ، يقول تعالىٰ ذكره : وللكافرين عذاب مهين في يوم يبعثهم ٱلله جميعًا ، وذلك ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ من قبورهم لموقف القيامة ، والقيامة من القيام بعد رقود مؤقت ، أي بعد الموت المؤقت وهي الميتة الأولىٰ ، يصحو العباد من موتهم فيقوموا قياماً لله الواحد القهار ، ﴿ فَيُنَبِّئُهُم ﴾ ٱلله ﴿ بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ . يقول تعالىٰ ذكره : أحصىٰ ٱلله ما عملوا ، فعدّه عليهم ، وأثبته وحفظه ، ونسيه عاملوه . ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ يقول : ﴿ وَٱللَّهُ ﴾ جل ثناؤه ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ عملوه ، وغير ذلك من أمر خلقه ﴿ شَهِيدٌ ﴾ يعني : شاهد يعلمه ويحيط به ، فلا يعزب عنه شيء منه (2) .

ومن صور حفظ المحصي الشهود : ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ (3) ، ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ من النفوس البارة والفاجرة كما هو الظاهر ﴿ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ وإن اختلفت كيفية السوق والشهادة حسب اختلاف النفوس

---

(1) المجادلة ، 6 .
(2) تفسير الطبري ، ج 23 ، ص 236 .
(3) ق ، 21 .

عملاً أي معها ملكان أحدهما يسوقها إلىٰ المحشر والآخر يشهد بعملها ، وقيل السائق ملك الموت والشهيد النبي ﷺ وفي رواية أخرىٰ عنه السائق ملك والشهيد العمل وكلاهما كما ترىٰ ، وقيل : الشهيد الكتاب الذي يلقاه منشوراً ، وقيل : السائق والشهيد ملك واحد والعطف لمغايرة الوصفين أي معها ملك يسوقها ويشهد عليها ، و الظاهر أن ﴿سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ اسما جنس فالسائق ملائكة موكلون بذلك والشهيد الحفظة وكل من يشهد (1) .

وتشهد الجوارح علىٰ الأفعال التي أحصاها المحصي عز وجل : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (2) ، وهـٰذه الجوارح أنطقها المحصي جل وعلا : ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (3) ، ويروىٰ أن العبد يقول يوم القيامة : يا رب العزة ألست قد وعدتني أن لا تظلمني ، فيقول ٱلله تعالىٰ فإن لك ذلك ، فيقول العبد إني لا أقبل علىٰ نفسي شاهداً إلا من نفسي ، فيختم ٱلله علىٰ فيه وينطق أعضاءه بالأعمال التي صدرت منه ، واختلف الناس في كيفية الشهادة وفيه ثلاثة أقوال أحدها : أنه تعالىٰ يخلق الفهم والقدرة والنطق فيها فتشهد كما يشهد الرجل علىٰ ما يعرفه ، والثاني : أنه تعالىٰ يخلق في تلك الأعضاء الأصوات والحروف الدالة علىٰ تلك المعاني كما خلق الكلام في الشجرة ، والثالث : أن يظهر تلك الأعضاء أحوالاً تدل علىٰ صدور تلك الأعمال من ذلك الإنسان ، وتلك الأمارات تسمىٰ شهادات (4) .

---

(1) تفسير الآلوسي 1 ، ج 16 ، ص 228 .
(2) النور ، 24 .
(3) فصلت ، 21 ـ 22 .
(4) تفسير الرازي ، ج 13 ، ص 384 .

والحفظ خلاف الغفلة ، والمحصي لا يغفل عن شيء في السماء والأرض : ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (1) .

المحصي عز وجل عارف بالمقادير التي أحصاها فوضع لها مقادير مكافأة وأوفىٰ إكراماً منه إنه الكريم ، فقال : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (2) ، والمحصي عارف بقدر الحسنات في الدنيا وهو المقدر لحقها ، والحسنة مفردة تدل علىٰ كل حسن من الأفعال والأقوال ، والسيئة عكس ذلك ، والتقدير الفعلي لكل منهما لا يعرفه إلا المحصي عز وجل الذي يقول : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ (3) ، لذا فعلىٰ الخليفة أن يحذر من سوء التقدير لأفعاله وأفعال العباد من حوله لأن ذلك من موجبات الوقوع في الوهم .

وتقدير المحصي للأمور تقدير العارف بحدودها لأنه خالقها ، أما تقدير المحصي بالإضافة فهو تقدير ظني والظن هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض ويستعمل في اليقين والشك ، وقيل الظن أحد طرفي الشك بصفة الرجحان (4) ، وعلىٰ هٰذا فالظن نوعان الأول يقيني والثاني شكي ، فأما اليقيني فقد ذكره المحصي في محكم كتابه فقال : ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ

(1) البقرة ، 74 .

(2) النمل ، 89ـ90 .

(3) النور ، 15 .

(4) التعريفات ، 1 ، 187 .

ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [1] ، يعني الذين يظنون أنهم ملاقو وعد ٱلله بالظفر ، وإنما جعله ظناً لا يقيناً لأن حصوله في الجملة وإن كان قطعاً إلا أن حصوله في المرة الأولىٰ ما كان إلا علىٰ سبيل حسن الظن [2] ، وكذلك قوله تعالىٰ وعلىٰ سبيل مدح الظن : ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [3] ، والظن هنا بمعنىٰ العلم ، وقالوا : لأن الظن وهو الاعتقاد الذي يقارنه تجويز النقيض يقتضي أن يكون صاحبه غير جازم بيوم القيامة وذلك كفر وٱلله تعالىٰ مدح علىٰ هـٰذا الظن والمدح علىٰ الكفر غير جائز ، فوجب أن يكون المراد من الظن ههنا العلم ، وسبب هـٰذا المجاز أن العلم والظن يشتركان في كون كل وأحد منهما اعتقاداً راجحاً إلا أن العلم راجح مانع من النقيض والظن راجح غير مانع من النقيض ، فلما اشتبها من هـٰذا الوجه صح إطلاق اسم أحدهما علىٰ الآخر [4] .

أما النوع الثاني من الظن فهو الاحتمالي ويغلب عليه الشك ، وهو شك آثم : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ ﴾ [5] ، وجعل المحصي الظن إثماً لئلا يجترئ أحد علىٰ ظنّ إلا بعد نظر وتأمّل ، وتمييز بين حقه وباطله بأمارة بينة ، مع استشعار للتقوىٰ والحذر ؛ ولو عرف لكان الأمر باجتناب الظنّ منوطاً بما يكثر من دون ما يقل ، ووجب أن يكون كل ظنّ متصف بالكثرة مجتنباً ، وما اتصف منه بالقلة مرخصاً في تظننه . والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها .

وإما أن يكون الشك باطلاً وهو خلاف الحق : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ

(1) البقرة ، 249 .
(2) تفسير الرازي ، ج 3 ، ص 416 .
(3) البقرة ، 45 ـ 46 .
(4) تفسير الرازي ، ج 2 ، ص 276 .
(5) الحجرات ، 12 .

ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (1) ، وهـٰذا النمط من الشك يلجأ إليه الإنسان عندما يفتقر إلىٰ العلم بالشيء علماً قاطعاً فلا يستطيع إحصاءه والإحاطة به : ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ (2) ، وعليه فإنه يبحث عن مصدر لعلم ظني هو في الغالب أمانيه وما تهوىٰ نفسه : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ (3) ، وعليك أيها الخليفة الحذر من الوقوع في الظنون الباطلة التي تبع من الهوىٰ الذي نهاك ٱلله عنه وحذرك منه : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ (4) ، ولا تتبع تحذير من اتباع الظن علىٰ حساب اليقين فكان النهي موجب الاتباع ، ويتأتىٰ ذلك بصدق التحري عن الأشياء لأن الصدق من موجبات عون المحصي سبحانه وتعالىٰ ورضاه : ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (5) ، وإخلاص النية في طلب العلم بالأشياء ذلك أن الإخلاص صفة لم يستطع عدو الخليفة وحاسده إبليس أن يتغلب عليها فأعلن استسلامه أمامها : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ (6) ، فإذا انجلىٰ له العلم بالشيء أخذ به وإن بقي علىٰ

---

(1) يونس ، 36 .

(2) النجم ، 28 .

(3) النجم ، 23 .

(4) ص ، 26 .

(5) المائدة ، 119 .

(6) الحجر ، 39 - 42 .

الشك ترك الأخذ به لأن الشك هو التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك [(1)] ، وفي ذلك ظلم لا ينبغي للخليفة الوقوع فيه وعليه أن يتحرى العدل وأن يقيم العدل الذي أمره ٱلله به ويترك الظلم الذي يكرهه المحصي عز وجل : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [(2)] .

وتقدير الخليفة لا يمكن أن يكون قاطعاً مطلقاً للنقص الحاصل عنده في العلم المطلق ، أما المحصي عز وجل فإن علمه مطلق لذلك كان تقديره للأشياء قاطعاً مجزياً مع دقة متناهية في إحصاء الأعمال : ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [(3)] ، وليس الإحصاء فحسب بل الجزاء عليها : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾ [(4)] ، واستخدم الذرة لأنها أقل شيء مما يدخل في وهم البشر ، أو أكثر ما يستعمل عند الوصف بالقلة ، ولم يعبر سبحانه بالمقدار ونحوه بل عبر بالمثقال للإشارة بما يفهم منه من الثقل الذي يعبر به عن الكثرة والعظم كقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴾ [(5)] إلى أنه وإن كان حقيراً فهو باعتبار جزئه عظيم ، فالمحصي لا يظلمهم مثقال ذرة ، والظلم عند أهل اللغة وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة أو بعدول عن وقته أو مكانه ، وعليه ففي الكلام إشارة إلى أن نقص الثواب وزيادة العقاب لا يقعان منه تعالى

---

(1) التعريفات ، 41 ، 1 .
(2) الشورى ، 40 .
(3) الزلزلة ، 7ـ8 .
(4) النساء ، 40 .
(5) القارعة ، 6ـ11 .

أصلاً ، وفي ذلك حث علىٰ الإيمان والإنفاق بل إرشاد إلىٰ أن كل ما أمر به مما ينبغي أن يفعل وكل ما نهىٰ عنه مما ينبغي أن يجتنب [1] .

وفي الإحصاء إظهار أثر معرفي ، وأظهر الأثر واضح في نهج التصحيح الذي طبعه المحصي علىٰ الحياة في الأرض فما من فترة من فترات الحياة إلا وأرسل إليها رسولاً أو أكثر ليصحح مسيرة البشر ويؤثر في معتقداتهم فيهديهم إلىٰ صراط مستقيم : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [2] ، ولهـٰذا فإن إحصاء الأثر بعد الرسالات بأسباب العلم حيث التبشير بما أرسلوا به وقد أبلغوا فلا ذنب عليهم بعد ذلك ويكون الذنب والعقاب من بعده علىٰ الذين أبلغوا ولم يؤمنوا ، ثم بعد أن أحصىٰ المحصي عز وجل من قبل ومن بعد فعل الرسل وفعل الناس معهم ختم برسالة كاملة صالحة لكل الأزمان والأجناس برسالة للناس كافة هي رسالة محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [3] ، وجعلها خاتمة فأحصىٰ فيها كل حاجات البشر إلىٰ يوم يبعثون فكانت ظاهرة علىٰ الدين كله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [4] .

والمحصي يؤثر في الخلائق جميعها بإرادته فهو الذي : ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ [5] ، وهـٰذا بمقدار إحصائي دقيق لم يستطع العقل البشري من إدراك

---

(1) تفسير الآلوسي ، ج 4 ، ص 53 .
(2) النساء ، 165 .
(3) سبأ ، 28 .
(4) الصف ، 9 .
(5) فاطر ، 13 .

أسراره ، وهو الذي يصور خلقه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (1) ، وهو الذي صور في ظلمات الأرحام هـٰذه البنية العجيبة ، والتركيب الغريب ، وركبه من أعضاء مختلفة في الشكل والطبع والصفة ، فبعضها عظام ، وبعضها غضاريف ، وبعضها شرايين ، وبعضها أوردة ، وبعضها عضلات ، ثم إنه ضم بعضها إلىٰ بعض علىٰ التركيب الأحسن ، والتأليف الأكمل ، وذلك يدل علىٰ كمال قدرته حيث قدر أن يخلق من قطرة من النطفة هـٰذه الأعضاء المختلفة في الطبائع والشكل واللون ، ويدل علىٰ كونه عالماً من حيث إن الفعل المحكم لا يصدر إلا عن العالم المحصي لحاجات كل جزء من هـٰذه الأجزاء لتكتمل فتكون بنية واحدة ولها هيئة تتناسب وهـٰذه الأجزاء (2) .

ومن أثر المحصي تصريف الرياح بما ينفع الناس فهي لواقح : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ (3) ، ولأنه المحصي فهو يعلم بعدد حبات الرمل والغبار التي تتطاير بأمره لأسباب هو يعلمها ، وفي مقابل ذلك هل منا من يستطيع أن يحصي حبات الرمال والغبار المتطايرة في السماء ؟ أو هل هناك من يعتقد أننا قادرون علىٰ عدها ولو اجتمعنا علىٰ ذلك ؟ والرياح كما تحمل بالغبار فهي تحمل بالمطر الذي هو الآخر محصي من قبل المحصي جل جلاله بحبات مائها وبرذاذها وما تحمله من مرفقات أخرىٰ لا تحصىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ (4) ، والرياح هي المسيرة للفلك في البحر وفقاً لقوانين الطبيعة التي عليها خلقت بالأمر (كن) قال تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ

(1) آل عمران ، 6 .
(2) تفسير الرازي ، ج 4 ص 101 .
(3) الحجر ، 22 .
(4) فاطر ، 9 .

ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ (1) ، وهي التي يرحم المحصي بها من يشاء ويعذب ومن يشاء وهو علىٰ كل شيء قدير : ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ﴾ (2) .

وأثر المحصي في خلقه واضح لكل ذي لب ، ففي أي خلق تتفكر وتتأمل ترىٰ أثر المحصي الخالق ، ويكفي أن تتأمل خلق الإنسان إذ يُذهل العقل لحسن أثر المحصي في خلقه : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ (3) ، ومن واجب الخليفة التأثير في هـٰذه الأرض ومن يعيش عليها بالحسن الطيب من المؤثرات فيكون عادلاً ليحقق العدل الذي فيه سعادة البشر علىٰ الأرض وذلك بإقامة الحدود التي من شأنها تحقيق حياة كريمة للإنسان علىٰ الأرض : ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (4) ، وأن يكون كريماً محسناً ليخفف عن أصحاب الحاجات بعض هموم الدنيا ولا ينتظر ممن يعين جزاءً ولا شكوراً آملاً بجزاء ٱلله الذي أحصىٰ له أعماله وسيجزيه عليها : ﴿ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴾ (5) .

والمحصي بصير عليم بما يحصي فهو : ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴾ (6) ، يقول تعالىٰ ذكره : يعلم ما بين أيدي ملائكته ما لم يبلغوه ما هو وما هم فيه قائلون وعاملون ، وما خلفهم : يقول : وما مضىٰ من قبل اليوم مما خلفوه وراءهم من الأزمان

(1) الروم ، 46 .
(2) فصلت ، 16 .
(3) الذاريات ، 21 .
(4) البقرة ، 179 .
(5) الإنسان ، 8 ـ 9 .
(6) الأنبياء ، 28 .

والدهور ما عملوا فيه ، قالوا ذلك كله محصىٰ لهم وعليهم ، لا يخفىٰ عليه من ذلك شيء [1] .

والمحصي بصير بسعي الإنسان يحصيه له وعليه : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ [2] ، التقدير علىٰ هـٰذا وأن سعيه سوف يرىٰ محصىً ، لقوله إلا أحصاها : ﴿ مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [3] ؛ أو محصلاً أو مجزياً .

والمحصي يختص بأنه لا تشغله الكثرة عن العلم مثل ضوء النور واشتداد الريح وتساقط الأوراق ، فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات في كل ورقة ، وكيف لا يعلم وهو الذي يخلق [4] وقد قال جل وعلا : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [5] .

المحصي هو ضابط القدرة مع القوىٰ فكل شيء في هـٰذا الكون محصىٰ علماً وإحاطةً وعدداً والدلائل علىٰ ذلك كثيرة منها :

1 ـ **الإنفاق** : وهو محصىٰ من حيث الإحاطة بأسبابه وكمه والجزاء له قال تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [6] .

2 ـ **حسن المعاملة والتقدير المتبادل** : قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟

---

(1) تفسير الطبري ، ج 18 ، ص 428 .
(2) النجم ، 39ـ41 .
(3) الكهف ، 49 .
(4) الأسماء والصفات ، ج 1 ، ص 294 .
(5) الملك ، 14 .
(6) البقرة ، 261 .

بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ [1] . كل التحايا والتحيات في التسبيح والذكر الكريم هي محصية ، ومحفوظة وعليها شهود ، وتتم المحاسبة عليها ، إن كانت ذات حسن وملاطفة وذوق رفيع مع فائق الأدب والاحترام ينال صاحبها إثابة ، وإن كانت غير مقدمة ومقدرة بذلك فينال صاحبها وفقاً لنيته وقوله وفعله عقاباً .

3 ـ **التكاثر** : وهو من دلائل إحاطة المحصي بخلقه من حيث المعرفة التامة المطلقة بالنوع والعدد والزمن إحصاءً تاماً : ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [2] ، أي أنه تعالىٰ يعلم كمية كل شيء وكيفيته علىٰ الوجه المفصل المبين ، ومتىٰ كان الأمر كذلك امتنع وقوع التغيير في تلك المعلومات .

4 ـ **حسابات الكون** : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ [3] ، في تفسير هـٰذا اللفظ أن هـٰذا العالم عالم الأسباب وٱلله تعالىٰ إنما يخلق المعادن والنبات والحيوان بواسطة تركيب طبائع هـٰذا العالم ، فلا بد وأن يحصل من الأرض قدر مخصوص ومن الماء والهواء كذلك ، ومن تأثير الشمس والكواكب في الحر والبرد مقدار مخصوص ، ولو قدرنا حصول الزيادة علىٰ ذلك القدر المخصوص ، أو النقصان عنه لم تتولد المعادن والنبات والحيوان فٱلله سبحانه وتعالىٰ قدرها علىٰ وجه مخصوص بقدرته وعلمه وحكمته فكأنه تعالىٰ وزنها بميزان الحكمة حتىٰ حصلت هـٰذه الأنواع [4] ، والمحصي هو الذي

---

(1) النساء ، 86 .
(2) الرعد ، 8 .
(3) الحجر ، 19 .
(4) تفسير الرازي ، ج 9 ، ص 295 .

أحصىٰ بعلمه هـٰذه المقادير فوضع لكل منها مقداراً مناسباً دون زيادة أو نقصان فكان هـٰذا الكون المتكامل .

5 ـ **حركة الأفلاك** : قال تعالىٰ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [1] .

6 ـ **العمر** : قال تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [2] .

7 ـ **الأقوال والأفعال** : قال تعالىٰ : ﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [3] .

8 ـ **النعم** : ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [4] ، واعلم أن الإنسان إذا أراد أن يعرف أن الوقوف علىٰ أقسام نعم ٱلله ممتنع ، فعليه أن يتأمل في شيء واحد ليعرف عجز نفسه عنه ونحن نذكر منه مثالين .

المثال الأول : أن الأطباء ذكروا أن الأعصاب قسمان ، منها دماغية ومنها نخاعية . ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾ نعمه من الكثرة لا تحصىٰ .

المثال الثاني : أنك إذا أخذت اللقمة الواحدة لتضعها في الفم فانظر إلىٰ

---

(1) لقمان ، 29 .

(2) فاطر ، 11 .

(3) مريم ، 79ـ84 .

(4) إبراهيم ، 34 .

ما قبلها وإلىٰ ما بعدها ، أما الأمور التي قبلها : فاعرف أن تلك اللقمة من الخبز لا تتم ولا تكمل إلا إذا كان هـٰذا العالم بكليته قائماً علىٰ الوجه الأصوب ، لأن حبة القمح لا بد منها ، وأنها لا تنبت إلا علىٰ مناخ مناسب لنموها ، ولا يحصل شيء منها إلا بعد دوران الأفلاك ، واتصال بعض الكواكب ببعض علىٰ وجوه مخصوصة في الحركات ، وفي كيفيتها في الجهة والسرعة والبطء ثم بعد أن تكون حبة القمح لا بد من آلات الطحن والخبز ، وهي لا تحصل إلا عند تولد الحديد في أرحام الجبال ، ثم إن الآلات الحديدية لا يمكن إصلاحها إلا بآلات أخرىٰ حديدية سابقة عليها ، ولا بد من انتهائها إلىٰ آلة حديدية هي أول هـٰذه الآلات ، فتأمل أنها كيف تكونت علىٰ الأشكال المخصوصة ، ثم إذا حصلت تلك الآلات فانظر أنه لا بد من اجتماع العناصر الأربعة ، وهي الأرض والماء والهواء والنار حتىٰ يمكن طبخ الخبز من ذلك الدقيق . فهـٰذا هو النظر فيما تقدم علىٰ حصول هـٰذه اللقمة . وأما النظر فيما بعد حصولها : فتأمل في تركيب بدن الحيوان ، وهو أنه تعالىٰ كيف خلق الأبدان حتىٰ يمكنها الانتفاع بتلك اللقمة ، وأنه كيف يتضرر الحيوان بالأكل وفي أي الأعضاء تحدث تلك المضار ، ولا يمكنك أن تعرف القليل من هـٰذه الأشياء إلا بمعرفة علم التشريح وعلم الطب بالكلية ، فظهر بما ذكرنا أن الانتفاع باللقمة الواحدة لا يمكن معرفته إلا بمعرفة جملة الأمور ، والعقول قاصرة عن إدراك ذرة من هـٰذه المباحث ، فظهر بهـٰذا البرهان القاهر صحة قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ ثم إنه تعالىٰ قال : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ أي لو فكّر الإنسان في أمره وحاله ونفسه وروحه وبدنه ، والنعم التي عليها خلق ، والنعم التي خلقت له ، والرحمة التي تعمه كلما التجأ إلىٰ الرحمـٰن الرحيم ، والحركة والامتداد والزمان وهو في وسط هـٰذا الحدث العظيم ألا يتقي ٱلله في كل قول وكل فعل وكل عمل وكل سلوك . أفلا ينظر إلىٰ نفسه كيف خلقت ؟

ألا ينظر لروحه كيف خلقت ومم خلقت ، ولماذا لم يعلم أمرها ؟

ألا ينظر لبدنه كيف خلق ؟

ألا ينظر بعقله لعقله ليتدبر أمره الذي لو كان فاقداً له أو أنه كان بدونه ، كيف سيكون حاله وبما يوصف من الواصفين ؟ .

ألا يكون التفكير مرتين فيما يفكر فيه ، أفضل من القدوم علىٰ الأقوال والأفعال بالتفكير مرة واحدة ؟

ألا يكون الاتعاظ حكمة والإغفال عنه سذاجة تؤدي بصاحبها للندم يوم لا ينفع مال ولا بنون ؟

وعليه الخليفة وحده يتذكر فيحمد ربه ويشكره علىٰ النعم التي أنعم بها عليه في الدار الدنيا والنعم التي وعده بها وهو يأمل بلوغها في الدار الآخرة حتىٰ الفوز بالجنة .

9 ـ **تداخل الأسباب** : المتغيرات لاشك أن الأكوان فيها من المتغيرات الكثيرة التي نشاهدها كل يوم سواء كان في مجال الطبيعة أو فيما يخص الإنسان نعلم بعضها ونجهل الكثير منها لكن ٱلله سبحانه أحصاها كلها بعلمه ، ففيما يتعلق بالطبيعة يقول المحصي عز وجل : ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (1) .

أما فيما يتعلق بالإنسان فيقول جل وعلا : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (2) .

---

(1) الأنعام ، 59 .

(2) يونس ، 61 .

اللهُمَّ يا المحصي اجعل أعمالنا كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، وضاعفها لنا يا أرحم الراحمين إنك علىٰ كل شيء قدير !

اللهُمَّ يا المحصي لك الحمد والشكر علىٰ ما أنعمت به علينا من نعم لا تعد ولا تحصىٰ أنت ولينا في الدنيا والآخرة توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين !

اللهُمَّ يا المحصي اجعل صحائفنا يوم العرض عليك رحمة لنا وكل إحصاء فيها اجعله حسنة بقدرتك ورحمتك يا المحصي يا ألله !

اللهُمَّ يا المحصي اجعل آخر كلمة نقولها ونحن خروج من هٰذه الدنيا لا إلـٰه إلا ٱلله محمد رسول ٱلله ﷺ !

المُبْدِئُ جلّ جلاله

اسم يحتوي في معناه علىٰ معاني من أسماء ٱلله الحسنىٰ يوحي بالقوة والقدرة والملك ، وهو اسمٌ يدل علىٰ البادئ لكل شيء ، فلا يسبقه أحد بل يلحق به الكل ، وهو الصانع المبدع لأن في البداية يكمن الإبداع والإعجاز ، والمبدئ عز وجل قد أوجد ما لم يكن .

المبدئ : هو المعيد ، وهو الموجد لـٰكن الإيجاد إذا لم يكن مسبوقاً بمثله سمي إبداء وإذا كان مسبوقاً بمثله سمي إعادة وٱلله سبحانه وتعالىٰ بدأ خلق الناس ثم هو الذي يعيدهم أي يحشرهم ، والأشياء كلها منه بدأت وإليه تعود وبه بدأت وبه تعود » [1] .

المبدئ : في صفات ٱلله تعالىٰ ، فاللَّهُ بدأ الخلقَ إِحياءً ثم يميتُهم ثم يعيدُهم أَحياءً كما كانوا [2] .

فالمبدئ للشيء يكون قادراً علىٰ إعادته وتوليده مرات المرات ، وهو كذلك مالكٌ له ولأمره ؛ لأنه المنشئ له فلا يمكن للمبدوء أن يخرج عن ملك المبدئ ، لأن المبدئ قويٌ ويملك القوة التي تمكّنه من إرجاع المبدوء إلىٰ ما كان عليه قبل بدئه ، ويُبدئ غيره إن أراد ذلك ، وقد قال هود عليه الصلاة والسلام في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ

---

(1) المقصد الأسنىٰ ، ج 1 ، ص 131 .

(2) لسان العرب ، ج3ـ ص315 .

بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ (1) .

وقال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (2) .

وقال تعالىٰ : ﴿ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴾ (3) .

والمتمعن في هـٰذه الآيات يمكن أن يصل منها إلىٰ عدة حقائق منها :

1 ـ أن ٱلله بدأ آياته الكريمة السابقة بالدعوة للإنفاق في سبيله ، أي أنه في الحق يكون إنفاق المال ، فالدعوة للإنفاق بدأت من عند المبدئ للخلق تعالىٰ .

2 ـ أن ٱلله عز وجل قادر علىٰ إعادتنا إلىٰ ما كُنَّا عليه قبل بدء خَلْقِنا من تراب بل أكثر من ذلك فيمكن أن يعيدنا إلىٰ اللاشيء الذي بدأ منه خلق التراب الذي خُلِقْنَا منه ، وذلك عند ٱلله عز وجل أمرٌ هيِّنٌ لا يستغرق أكثر من الأمر (كُنْ) ، وقال تعالىٰ : في ذلك ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (4) .

فبالأمر كن بدأ الخلق ، فخلق السمـٰوات والأرض ، وخلق النجوم

---

(1) هود ، 56 ـ 57 .
(2) التوبة ، 38 ـ 39 .
(3) محمد ، 38 .
(4) النحل ، 40 .

والكواكب ، وخلق البشر وكل هـٰذا الكون الشاسع ، بدأ الخلق من عدم ، عن حكمة وقدرة وعلم ، لا عن صدفة أو عبث ، خلقٌ مقدر ومسخر وفق قوانين ثابتة لا تتحول ولا تتبدل .

وقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [2] ، هـٰذا هو الخالق المبدئ الحق .

3 ـ أن المعاصي ومخالفة ٱلله عز وجل وعدم تنفيذ أوامره توجب غضبه علينا حتىٰ يغفر ويتوب علىٰ من يشاء في مرضاته .

4 ـ أننا لا نضر بمعصيتنا ٱلله ولا ننفعه بطاعتنا وعبادتنا أو بضلالتنا وكفرنا ، فٱلله عز وجل هو العزيز الغني عن عباده فنحن المحتاجون إليه في حياتنا الدنيا والآخرة ، وذلك باحتياجنا إلىٰ ستره وعفوه وحلمه وكرمه فنحن الفقراء إليه عز وجل في كل أمورنا ، فقد قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴾ [3] .

5 ـ أن ٱلله هو المالك لأمرنا ولأرواحنا وأجسادنا فنشأتنا بأمره ، قال تعالىٰ : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [4] ، فهو الذي بدأنا من العدم ، وكذلك نهايتنا بأمره وحياتنا ورزقنا وهدايتنا وكل أمورنا

---

(1) يس ، 82 ـ 83 .
(2) الروم ، 27 .
(3) فاطر ، 15 ـ 17 .
(4) الملك ، 1 .

بأمره سبحانه وتعالىٰ ، فمن تكون البداية بيده لابد أن تكون النهاية بيده ، قال تعالىٰ : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (1) . فٱلله عز وجل في أساس خلقنا أوجدنا من العدم لا لكي نخَلّد بل لكي نحيا علىٰ الأرض لنصلح فيها ولا نسفك دماء ولا نفسد ، ولأن لنا بداية لابد وأن تكون النهاية لنا ، ولأن لنا إعمالاً فلابد أن نحاسب في النهاية علىٰ أعمالنا ، يقول عز وجل في كتابه الكريم : ﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (2) .

6 ـ أن ٱلله عز وجل هو المبدئ والمعيد ؛ فبما إنه المبدئ فهو الملك والمالك ، فلو لم يكن سبحانه وتعالىٰ مبدئاً لما كان ملكاً ، ولو لم يكن كذلك قوياً لما كان عز وجل ملكاً ولا مبدئاً ولا معيداً .

فٱلله سبحانه وتعالىٰ بدأ آيته الكريمة بالدعوة للخير ، وأنهاها بغناه عن من بخل وتولىٰ ، فسبحانه عز وجل الذي بيده ملكوت كل شيء .

والمبدئ في حق ٱلله سبحانه وتعالىٰ إذاً هو البادئ بالإطلاق لكل شيء ، فلا يضاهيه أحد ولا يسبقه أحد ، ولا يقدر علىٰ إرجاع ما كان إلىٰ أصله إلا هو كما جاء في قوله عز وجل : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (3) .

ومن فضل ٱلله سبحانه وتعالىٰ أنه سمّىٰ نفسه المبدئ ، ولم يسمِّ نفسه المبتدئ ، لأن المبدئ للشيء هو المحدث له ، والشيء هو المستمد من المشيئة والمكون بقوتها سواء كان وجوداً أو كان عدماً ، ولهٰذا فالوجود شيء والعدم شيء وكلاهما مستمدان من المشيئة المالكة للأمر كن ، وفي هٰذا الأمر

(1) يس ، 83 .
(2) إبراهيم ، 51 .
(3) يس ، 78 ـ 79 .

إضافة جديدة تخالف ما سبق قوله : ألا وهي أن القول بأن ٱلله المبدئ قد خلق الشيء من العدم هـٰذا الأمر لا يعد صواباً بالمطلق وذلك لأن الاعتراف بالشيء يثبته شيء ، وإلا هل يمكن أن يتم الحديث عن العدم إن لم يكن العدم شيئاً ؟ !

ولأن ٱلله هو المبدئ فكيف نقبل بوجود عدم علىٰ وجوده ، حتىٰ نقول إن ٱلله قد خلق الأشياء من العدم . ألا يعرِّض ذلك المؤمنين إلىٰ تساؤل من الكفرة والمشركين يقول لهم فيه : إذاً من الذي خلق العدم حتىٰ جاء ربكم (رب العزة جل جلاله) لتقولوا عنه إنه قد خلق الشيء من العدم ؟

بطبيعة الحال إن ٱلله المبدئ هو الأول والآخر ، فهو المالك لكل شيء ، ولأنه كذلك فهو المالك للقدرة التي يوجد بها الشيء من قدرته ، وهو مالك الملك الذي يستمد الشيء منه ، ولهـٰذا فٱلله تعالىٰ مالك الملك يعني كل شيء بيده سواء كان وجوداً أو عدماً .

ولأن المبدئ مالك الملك ولا وجود لشيء خارج عن ملكه ، لذا فإن الوجود معطية مثبتة في أسبقيته علىٰ العدم ، أي أن العدم شيء مترتب الوجود علىٰ وجود الوجود . وإلا هل يمكن أن يكون عدماً لشيء غير موجود ؟ !

الشيء المطلق دائماً بيد المبدئ له ، والأشياء المستمدة والمتوالدة من ذلك الشيء تتكاثر وتتنوع وتتعدد ، ثم تتناهىٰ حسب الأعمار التي كتبها لها المبدئ المعيد جل جلاله ، حينها تترك فراغاً أو خلاء مما يجعل المتعرفين علىٰ تلك الأشياء المنتهية يشيرون إلىٰ أنها أصبحت عدماً ، وذلك لعدم شغلها حيزاً في ميادين الحياة والحركة والامتداد .

وتقريباً للمعنىٰ : خلق المبدئ الشيء الذي لا نعرفه وهو المتحرك بفعل الأمر (كن) ثم منه كانت السمـٰوات والأرضون ثم من الأرض خلق أبونا آدم عليه الصلاة والسلام خلقاً مباشراً من تراب ، ثم نحن من تلاقي أبينا وأمنا حواء

ولدنا ، وهـٰكذا بدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جاءنا الموت ليرافقنا وتعدم من تنتهي صلاحيته للحياة فيزول من علىٰ الأرض ويترك مكانه ومجال حركته عدما ، وعليه قلنا معطية وإثباتاً إن الوجود كشيء سابق علىٰ العدم كشيء آخر .

الوجود يعني امتلاء وشغل حيز في دائرة الحركة ، والعدم يعني إفراغ وإخلاء وإماتة من الحركة الحرة ، وكلاهما شيئان .

وبناء علىٰ المعطيات السابقة :

1 ـ **الوجود كشيء أول :** في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع يثبت نفسه أو يتم إثباته من آخر ، ولـٰكن لو لم يكن موجوداً ما كان لأحد أن يبرهن علىٰ وجوده أو إثباته .

قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن

(1) مريم ، 30 ـ 32 .
(2) ياسين ، 69 ـ 70 .
(3) المرسلات ، 20 ـ 28 .

يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [1] .

2 ـ **العدم كشيء ثانٍ** : في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع هو فعل يحدث ولا يتأخر عن موعده وهو في حالة حركة في الاتجاه المعاكس لعقارب ساعة الوجود النسبي ، ولم يكن في الاتجاه المعاكس لعقارب الساعة المنظمة للحياة والموت والبعث . ولأن العدم شيء مثبت فهو لن يكون في حاجة لمن يثبته أو يبرهن علىٰ وجوده .

قال تعالىٰ : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [4] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ [5] .

3 ـ **البعث كشيء ثالثٍ** : فعل يترتب طبيعياً علىٰ قاعدتي الوجود والعدم ، ولأن الوجود والعدم معطيتان لا شك فيهما إثباتاً ، ولأن الوجود سابق علىٰ العدم ، وأن القاعدة تقول (كل شيء يعود إلىٰ أصله) لذا فأصل

---

(1) البقرة ، 204ـ209 .
(2) الرحمـٰن ، 26ـ28 .
(3) آل عمران ، 143 .
(4) آل عمران ، 185 .
(5) النساء ، 15 .

وجودنا حي ، ولأنه كذلك فلابد أن يكون باقياً سرمدياً ، ولـٰكن هـٰذا الأمر لا يتم إلا بعد موت الموت من الواجد الحي ، ولذا فبعد أن يقبر الموت دون رجعة يقبر معه المرض والجرائم والحوادث المفاجئة والطارئة كمسببات للوهن والموت ، وتقبر معها الحاجة والفاقة والعازة ، ويقبر معها العداء والمظالم لتكون الحياة من بعدها محبة سرمدية فيها من يعيش النعيم علىٰ درجات التفوق علىٰ كل أمنية من أماني الحياة المؤقتة التي قضىٰ عليها الموت فأصبحت نسياً منسياً والحمد لله رب العالمين .

قال تعالىٰ : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (2) .

فهو الذي يخلق بقدرته وإرادته من الشيء أشياء ثم يمكنه أن يعيد ذلك الشيء هو نفسه مرات عدة حتىٰ بعد أن يكون قد أفناه ، قال سبحانه وتعالىٰ في

(1) المؤمنون ، 97ـ104 .
(2) الشعراء ، 87ـ104 .

كتابه الكريم : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ أيضاً : ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (2) ، فمن سهل عليه الخلق ، سهل عليه إعادة الخلق ، فهو لا يحتاج في أمره هـٰذا إلىٰ اجتماع أو قرار يحتاج إلىٰ تصديق ، بل هو أمر فوري من عنده عز وجل وحده لا يشاركه أحد في ذلك ، فالمبدئ للفعل هو المحدث له مضمناً بالإعادة ، وهو فعل الشيء جديداً وكذلك يعيده جديداً ، وهـٰذا الأمر لا يكون إلا بيد المبدئ المعيد سبحانه جل جلاله .

ويتضح الفرق بين المبدئ والمبتدئ ، فالمبدئ هو الذي يخلق الخلق ثم يكون قادراً علىٰ إعادتهم هم أنفسهم بشحمهم ولحمهم ، وليس أشباهاً لهم وذلك يرسخ ويؤكد في ذهن المبدوء واعتقاده أن القادر علىٰ إعادته بعد موته كما كان أول خلقه هو قادر علىٰ حسابه علىٰ أعماله التي اكتسبها فترة من حياته الأولىٰ .

والمبتدئ هو الذي فعل الفعل لأول مرة وإن أعاد فعله فهو إنما تكرار للفعل بما يشبهه وليس إعادة للفعل الأول الذي فعله ، كمن يُصلي ويكرر صلاته أو يأكل ويكرر أكله مرات عدة ، ومن لا يمكنه إعادة الشيء كأصله لا يمكنه أن يحاسبه علىٰ أفعاله ، ولذلك فالله عز وجل هو المبدئ الذي بدأ الخلق إحياءً ثم يميتهم ثم يحييهم من جديد كما كانوا أول مرة ، قال

---

(1) الصافات ، 93ـ102 .
(2) غافر ، 68 .

تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ (1) .

والمبدئ من صفات ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، فهو الذي يبدأ كل شيء ويصنعه بالأمر كن ، فهو الذي يبدأ الخلق والكون كله ويبدأ الحياة ثم تنتهي كل تلك المخلوقات وتنتهي الحياة ثم يبدأ بعدها بإعادة خلقهم من جديد يُسألون ويحاسبون فمنهم المجازون ومنهم المعاقبون والمعذبون والمقيمون في النار والمقيمون في الجنة كل حسب ما قدمت يداه في الحياة الأولىٰ . ولذا تكون المحاسبة الإلـٰهية وفقاً لقاعدة : (إن كان خيراً فخير وإن كان شراً فشر) قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ۝٣٨ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ۝٣٩ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٤ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ۝٤٥ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ

(1) يونس ، 3 ـ 4 .
(2) النساء ، 38ـ42 .
(3) البقرة ، 284 .

﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ۝٤٦ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٤٧ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (1) .

فألله عز وجل هو المبدئ المطلق الذي يبدئ ويعيد ، ولا يحتاج لأسباب تدعوه لبدء ما يريد إبداءه وهو القادر علىٰ إعادة ما بدأه ، قال تعالىٰ : ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ (2) ، فهـٰذه الآية تلفت نظرنا إلىٰ شيئين في غاية الأهمية وهما :

الشيء الأول : خلق الإنسان ، وبيان ممَّ خلق كي لا يأخذه الغرور ، ويكون دائم التذكر في خلقه ، فكيف للإنسان أن يغتر بنفسه وهو يعلم ممَّ خلق ! فبيان أصل خلقه في هـٰذه الآية الكريمة من شأنه أن يجعل الإنسان متواضعاً ، خاشعاً ، فالبداية دائماً هي الأصل في التكوين والنشأة ، ومهما ارتفع المخلوق بعد ذلك وعلا شأنه لا يمكنه تغيير بدايته أو إخفاؤها عن أحد .

الشيء الثاني : الفناء ، فالخلق يعقبه الفناء ، أي لا أساس للخلد في حق الإنسان أو مخلوق آخر في الحياة الدنيا ، وكما أن الأصل يوحد كافة البشر ، فالموت يعيد هـٰذا التوحيد مرة أخرىٰ ، كيف ذلك ؟ مَن مِن البشر يستطيع أن يغير أصل خلقه ؟

بطبيعة الحال لا أحد .

ومن منهم يستطيع أن يختلف في نهايته مع غيره ؟

---

(1) يونس ، 44ـ48 .

(2) الطارق ، 5ـ17 . .

بطبيعة الحال لا أحد .

إذاً فالبداية واحدة والنهاية واحدة ، مع أنه بين البداية والنهاية تتباين طريقة حياة البشر ، فمنهم من يعلو في مكانته ، ومنهم من يعيش مغموراً ضعيفاً ، منهم من يكون غنياً ، ومنهم من يكون فقيراً ومسكيناً ، ولـٰكن هـٰذا التباين إذا فهمه بنو البشر حقاً ، لفهموا أنه اختبار وامتحان لهم ، فمن تواضع مع غناه فقد فاز ، ومن تواضع مع علمه الفائق فقد نجا من النار ، ومن صبر علىٰ فقره وهو يسعىٰ للخروج منه حتىٰ الفوز وكان شاكراً راضياً كانت له الجنة ، وهـٰذا هو الخط المستقيم الواصل بين البداية والنهاية .

وحياة الإنسان ممتدة من البداية إلىٰ النهاية ، دون قدرة أي كان علىٰ الخروج من هـٰذا الخط ، كائناً من كان . ولذا فالأمر يستوجب التسليم من الذين خلقوا في أحسن تقويم ، ولهـٰذا كان الخليفة هو المؤمن علىٰ الكمال والتمام بالمبدئ المطلق .

وهـٰذا هو خلق المبدئ بالإطلاق ، الذي لا يضاهيه أي شيء ، ولا يقدر علىٰ مماثلته أحد ، فسهولة الخلق من العدم هي من صفات ٱلله تعالىٰ .

أما المبدئ بالإضافة فهو الذي يصنع من الشيء أشياء أي أنه مبدئ وبحدود أيضاً ، فلا يستطيع تجاوز هـٰذه الحدود بالقدرات البشرية التي يملكها وذلك لوجوده في دائرة النسبية ، ويمكن للمبدئ بالإضافة أن يعيد ما صنعه ، بل هو يكرر ما صنع وتكون صناعته أو بدؤه للأشياء مسبوقة بالمادة الأساسية التي منها شَكّل مصنوعه ، فالمبدئ بالإضافة لا يمكنه صناعة الأشياء من العدم لأن قدرته محدودة أمام قدرة المبدئ المطلق التي لا حدود لها وعلىٰ ذلك فالمبدئ المطلق هو السابق للأشياء ، وأما غيره ؛ فهو لاحقٌ له مسبوق به ، وعليه كل لاحق هو مبدأ ، وكل مبدأ لابد له من نهاية لبدايته فيبلىٰ ويفنىٰ وهـٰذه سنة المبدئ المعيد في خلقه ، وعليه فالمبدئ المطلق هو الباقي الدائم ، قال

تعالىٰ : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (1) ، فهـٰذه الآية الكريمة إقرار للفناء لكل المخلوقات ، وإقرار لخلد ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، ولذلك يوصف المكذب بهـٰذه الحقائق بأنه كافر وجاحد ، وهو قاصر عن إدراك الحقائق هي كما هي ، والإشارة إلىٰ هـٰذه الحقائق تتمركز في كل ذرة من هـٰذا الكون بما فيه نفس الإنسان ، المخلوق بالقوة ، مما يجعله دائماً في حاجة وسند من الخالق الأقوىٰ الأعظم .

والمبدئ اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ التي تتصف بما لا يحصىٰ ولا يعد ولـٰكن للتبيان فقط أعرض منها :

أولها : المبدئ ذو قوة :

فلو لم يكن قوياً ما كان الأمر بيده ، ولو لم يكن قوياً ما كان مُبدئاً للشيء الذي يخلق من الأشياء جميعها ، ولذا فالبداية لا تحتمل الضعف ، والبداية الضعيفة لا تحتمل الوصول إلىٰ النهاية ، ولا بد أن تكون خالية من العيوب ، والحمد لله الذي نزه نفسه عن كل ضعف أو عيب ، ومهما حاولنا بعقولنا أن نحدد مدىٰ قوته فلا يمكن أن ندركها ، فقوته تفوق ما قد نصل إليه بتفكيرنا البشري المحدود ، فالتفكير البشري يكون قاصراً إذا تعدىٰ حدوده المشروعة له من الخالق عز وجل ، فكيف يتعدىٰ المخلوق علىٰ حدود خالقه ! قال تعالىٰ في محكم آياته : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ (2) .

وٱلله تعالىٰ يحب خليفته قوياً ، مسخّراً قوته في الخير والطاعة ، لا يستغلها في بدء الناس بالشر ، بل هي قوة تحفظ له كرامته ، وكرامة دينه ، قوياً في نفسه ، لا ييأس ولا يضعف ، ولا يسمح لوسوسات الشيطان أن تطغىٰ عليه أو تطوله ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رسول الله ﷺ : « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ

---

(1) الرحمـٰن ، 25 ـ 26 .
(2) النجم ، 4 ـ 5 .

وَأَحَبُّ إِلَىٰ ٱلله مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ . احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِٱلله ، وَلا تَعْجَزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ ؛ فَلا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كذا ؛ كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ : قَدَرُ ٱلله وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ » [1] .

ثانياً : المبدئ ذو مقدرة :

أي من بدأ الخلق بقدرته لا يعجز عن أي عمل آخر ولا يعدم الوسائل للوصول لنهاية ما خلق ، هـٰذه القدرة غير المحدودة في حق المبدئ هي التي تحيينا وتميتنا وترزقنا وتمنع عنا ، وتمنحنا ، فمن لا يملك القدرة فكيف سيبدأ ؟ قال ٱلله عز وجل في كتابه العزيز : ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [4] . فقدرته إذاً لا يمكن أن يحدها زمان أو مكان ، إنها القدرة التي ليس لها بداية ولا نهاية ، إنها القدرة الدائمة بدوام المبدئ المعيد عز وجل .

---

(1) صحيح مسلم ، ج 13 ، ص142 .
(2) الإسراء ، 99 .
(3) ياسين ، 78ـ83 .
(4) الحجر ، 85ـ86 .

ومن المعروف أن للبشر قدرات متفاوتة ، ولـٰكنها جميعاً محدودة وقاصرة ، مثل قصور أصحابها ، ولـٰكن مهما كانت قدرة الإنسان وفي أي مجال كانت لابد أن يوجهها الإنسان لما هو خير وصحيح ، ولذلك فالقدرة هي التي بها يصلح الخليفة الأرض وبها يصلح حاله وأمره وأمر الذين تربطه بهم علاقات أبوة وأخوة وذي قربىٰ وعلاقات إنسانية أحبها ٱلله وحببها إليه ، فله الحمد رب العرش العظيم .

ثالثاً : المبدئ ذو رحمة :

تظهر بدايات الرحمة الإلـٰهية بالبشر منذ النشأة وخروجه للدنيا حيث حنان الوالدين ينتظره ، وعطف الأخوة ومحبتهم ينتظره ، وتبدأ رحمته عز وجل تتضح في كل مرحلة من مراحل حياته ، فكل مرحلة منها تحتاج إلىٰ رحمة الخالق ، فمن رحمة الخالق جل وعلا أنه خلق الإنسان وعلَّمه البيان مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[1] . ثم هداه النجدين ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾[2] وأهداه نعمة السمع والبصر والفؤاد والعقل ، قال تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[3] ، وهو رحيم بالإنسان

---

(1) الرحمـٰن ، 1ـ4 .

(2) البلد ، 4ـ20 .

(3) النحل ، 78 .

حتىٰ في خلق هـٰذا الكون وهـٰذا يتضح من كيفية تسخير الكون وسهولة العيش فيه ، فمن رحمة المبدئ عند بداية خلقه أنه يسر لكلٍ سبل العيش ، فقد خلق الإنسان وبسط له سبل الحياة منذ البدء ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1) ، فماذا يكون بعد كل هـٰذه الرحمة التي اتسعت كل حياته ؟

وليس هـٰذا فحسب بل إنه إذا بدأ الإنسان بارتكاب الذنب بدأ الخالق عز جل بوعده بالمغفرة والرحمة إذا ما تاب ، وهـٰذا يوضح لنا أن بداية الخير العائد علينا هو من عند ٱلله تعالىٰ ، أما بداية الشر العائد علينا فهو من عند أنفسنا ، ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (2) وأكبر رحمة لنا نحن البشر هي إرسال الرسل بالهداية والحق لنا ولكي لا يكون للناس حجة علىٰ ٱلله تعالىٰ ، قال : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (3) ، فقد اتسعت دائرة رحمته لتشمل خلقه ، مانحاً إياهم فرصاً عديدة للتوبة التي بدأ الخالق بتنبيه المخلوق لها ، وهـٰذه الرحمة تبدأ ببداية نشأته .

وعلىٰ خليفة ٱلله أن يكون علىٰ جانب من الرحمة تكفيه لكي يرق قلبه للمسكين والفقير وابن السبيل ، قال تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ

---

(1) الحج ، 65 .
(2) آل عمران ، 165 .
(3) النساء ، 165 .
(4) البقرة ، 215 .

وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [1] . البدء دائماً رحمةٌ من الرحمـٰن الرحيم ، ولذا فالخليفة هو من بدأ حياته بأفعال الرحمة والمحبة والمودة عدل في سلوكه بين الناس لا فرق بين أحد منهم ولا تفريق إلا بالتقوىٰ المدخلة الخليفة الجنة من بعد الحياة الدنيا التي فيها أحسن عمله بالفلاح والإصلاح والطاعة للمبدئ العزيز .

فلا أجمل من أن تملأ الرحمة قلب المؤمن ليعمر ويزدهر ، هـٰذا هو الخليفة الحق ، ولنا في رسول ٱلله ﷺ أسوة حسنة ، قال تعالىٰ : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [2] .

رابعاً : المبدئ كريم :

الكرم قيمة إنسانية به تسد الحاجة وبه تبدأ التقوىٰ والطاعة ، وبه تقوىٰ العلاقات بين الذين لهم حق في كل مكرمة ، ولأن الكرم قيمة خير فكان فضل ٱلله علينا كبيراً بكرمه لنا في الحياة والممات والبعث فقط أن نكون علىٰ الطاعة والشهادة التي بها يحق الحق ويزهق الباطل ، ومن البداية فقد أسبغ ٱلله بنعمه علىٰ عباده وأكرمهم بما لا يعد ولا يحصىٰ من النعم ، فكرمه سابقٌ لشكرنا ، وسابقٌ لحمدنا له عز وجل ، فهو المبدئ بكرمه ،

(1) البقرة ، 177 .
(2) الفتح ، 29 .

ومهما وصلت درجة خشوعنا وحبنا وشكرنا للخالق سبحانه وتعالىٰ فلن نستطيع أن نصل لدرجة كرمه لأننا نظل اللاحقين في رد الفضل ، وحتىٰ أنه يرد شكرنا بالمزيد من الحسنات ، فمثلاً من تصدق بصدقة ردها ٱلله له مضاعفة ، قال تعالىٰ : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (1) ، ومن أحسن إلىٰ ٱلله أحسن إليه ، قال تعالىٰ : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (2) وبالطبع فإن إحسان الكريم ليس بمحل مقارنة مع إحسان البشر .

وقد أحب ٱلله تعالىٰ من هو كريم في إيمانه لا يبخس ٱلله حقه ، فالبخل ليس مقروناً بحب المال ، بل حتىٰ في الأعمال . قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (3) . قال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (4) . يفهم من هـٰذه الآية الكريمة أن أساس الخلق هو إنبات الزوج الكريم في الأرض التي استخلف المبدئ عز وجل بني آدم فيها ليصلحوا ولا يسفكوا الدماء ولا يفسدوا فيها ، ولذا فالقاعدة هي أن يبدأ الخليفة حياته بالكرم حتىٰ توصف به ويقال عنه إن حياته كريمة ، وتسجل من أعماله التي تكون من مسببات دخوله الجنة .

خامساً : المبدئ ذو ملك :

المبدئ عز وجل هو مالكٌ لنا ونحن مملوكون له ، والمملوك دائماً يكون

---

(1) الأنعام ، 160 .
(2) الرحمـٰن ، 60 ـ 61 .
(3) الأنفال 3 ـ 4 .
(4) الشعراء ، 7 ـ 9 .

تابعاً ومطواعاً لمالكه بالحق ، لذلك لا ينبغي لأي مخلوق أن يطيع غير الذي أنشأه وخلقه في أحسن تقويم ، فالمبدئ المالك بيده مفاتيح أمرنا لا يضرنا شيء بدون أمره ولا ينفعنا ، ولا نملك عزاً ولا جاهاً بدون إذنه فهو الذي يعز من يريد ويذل العزيز بعد ضلال إذا أراد ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (1) ، سبحانه إنه المالك لجميع ما نملك وهو الرحمٰن الرحيم ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (3) .

فمقابل الرزق والنعم العديدة وتدبير أمورنا ، يطلب من ٱلله عز وجل أن نتقيه ، ومن الطبيعي أن يكون للمالك حقوق علينا وواجبات نحوه ينبغي أن نؤديها بإرادة ، فحقه علينا الإيمان به واحداً أحداً لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير وله الطاعة والخضوع بالعبادة أمراً ثابتاً لا حياد عنه ولا شك فيه ، و ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (4) .

لذلك فعلىٰ أولي الأمر من العباد أن يتذكروا ، من مالكهم في الأصل ،

---

(1) آل عمران ، 26 .

(2) يونس ، 31 .

(3) الأنعام ، 73 .

(4) الفاتحة ، 1ـ7 .

كـي لا يتجـاوزوا حـدودهـم فـي أي أمـر صغيـراً كـان أم كبيـراً ، وليكـن رسول ٱلله ﷺ وأصحابه مثالاً يحتذون به .

سادساً : المبدئ مصور لخلقه :

فقد صور الإنسان في أحسن صورة لأنه عز وجل خلق الإنسان من أجل استخلافه في الأرض ، فاستحق بذلك أن يصوره ٱلله سبحانه وتعالىٰ في أحسن الصور ، قال عز وجل في محكم آياته الكريمة : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [(1)] ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [(2)] ، بل لقد بدأ بخلق الكون بتصويره في أبهىٰ صورة ، فالمتأمل في خلق ٱلله تعالىٰ من حوله سوف يدهشه دقة التصوير ، وروعة الخلق ، فكم نوع من النباتات في الكون ؟ . الملايين وهي مختلفة في تصويرها ، وكم نوع من الطيور ؟ . العديد وجميعها ممتعة للنظر ، وتناثر هـٰذه النجوم في السماء ، لها صورة مميزة في خلقها ، البحار والجبال والمحيطات كل شيء بخصوصيته ولونه ، وحتىٰ البشر تختلف ألوانهم وأشكالهم مع اختلاف البيئات ، فكل ما حولنا هو صورة مدهشة للمصور الجليل ، تدعونا للتأمل في خلقه وتدعونا لتوحيده وخشيته ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [(3)] .

فالخليفة الحق لا ينتظر أكثر من هـٰذا التصوير المجسد أمامه في كل جزء من هـٰذا الكون السماء بناها ورفعها بغير عمد نراها ، ولننظر في أنفسنا حتىٰ

(1) الانفطار ، 7 ، 8 .
(2) التين ، 4 .
(3) فاطر ، 27 ، 28 .

نتقي ٱلله ربّاً لا شريك له ، قال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (3) .

المصور للخلق هو المبدئ لهم وجوداً ، وهو العالم بأمرهم وبما يجب أن يكونوا عليه قبل أن يكونوا ، ولذا فهو علىٰ كل شيء قدير ، ولأنه المبدئ فهو بديع السمٰوات والأرض مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (5) .

سابعاً : المبدئ دائماً مجيب :

إن ٱلله تعالىٰ مبدئ في الإجابة ، إذ لا يستغيث به خليفة إلا وأجابه في الوقت المناسب للإجابة ، فبعد أن بدأ بخلقنا وأنعم علينا بإجابة دعواتنا ، وهـٰذا ما أخبرنا به خالقنا سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (6) ، في هـٰذه الآية الكريمة ارتبطت إجابة ٱلله باستجابة الخليفة

(1) السجدة ، 27 .
(2) فصلت ، 53 ـ 54 .
(3) آل عمران ، 6 .
(4) البقرة ، 117 ـ 118 .
(5) الأنعام ، 101 .
(6) البقرة ، 186 .

له ، واستجابة الخليفة تتكون من التسليم والتوحيد وعدم الشرك مع الطاعة لأمره فيما يجب وفيما لا يجب .

ولأن المبدئ مجيب فأسرع إجابة هي إجابة المظلوم إذا دعا ربه باعتدال الحق ولأجل إزالة ظلم وضيم . وأكثر ما يحتاجه المظلوم هو إرجاع حقه من الظالم ، ولو كان ذلك بنزول مصيبةٍ عليه ، وما أسرع ما يستجيب ٱلله تعالىٰ لدعوة المظلوم ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُعَاذًا إِلَىٰ الْيَمَنِ فَقَالَ : « اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱللهِ حِجَابٌ »[1] .

وإذا درس الإنسان سيرة حياته وتتبع مواطن طاعته ومعصيته ، لما كان استحق الكثير منهم إجابة الخالق دعواتهم ، لـٰكنه يبدأ عز وجل بالإجابة مانحاً هـٰذا الإنسان فرصة للرجوع إليه .

فلماذا لا نجيب السائل إذا سألنا ؟ فعن رسول الله ﷺ قَالَ : « أَعْطُوا السَّائِلَ وَإِنْ جَاءَ عَلَىٰ فَرَسٍ »[2] ، لا بد أن نجيب من طلبنا إذا استطعنا ، ولا نمنع أحداً مما نقدر عليه ، وأن لا نترك خلفنا من يدعو علينا ، ولهـٰذا لا يُنهر السائل ، قال تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[3] . الرزاق يرزق من يشاء بغير حساب ، وذلك لأجل أن يتقي ٱلله ربه في حق نفسه وحق الآخرين مما رزقه ٱلله ، ولأنه مرزوق فلينظر إلىٰ السائلين بعين الذي أعطاه رزقاً ولا ينهر سائلاً مهما كان فالحاجة قد تضطره إلىٰ الإلحاح ولعل في ذلك الإلحاح إذا كانت له الاستجابة تكون ساعة رحمة واستجابة علىٰ الذي تصدق وزكىٰ وذكر ربه دعاء وصلاة وزكاة وصدقة

---

(1) صحيح البخاري ، ج8 ، ص321 .
(2) موطأ مالك ، ج6 ، ص151 .
(3) الضحىٰ ، 9ـ11 .

وكلمة طيبة ، قال تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ [(1)] . ولأنه جل جلاله مبدئ فهو قريب مجيب لكل من خلق ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [(2)] .

ثامناً : المبدئ ذو علم :

لا بداية إلا بعلم ودراية ؟ فالله تعالىٰ عليم ولا حد لعلمه ، وقد أوقف مداركنا عند بداية الخلق فلا نستطيع بعلمنا أن نتجاوز هٰذه المرحلة ، ولا نستطيع بعقلنا البشري تخطي هٰذه الحدود ، قال تعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [(3)] ، قد بدأ المبدئ بتعليمنا منذ بداية الخلق حينما علَّم أبانا آدم الأسماء كلها مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [(4)] ، وهٰكذا كان جل جلاله مبدئاً بتعليم الأنبياء والرسل مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾

(1) الليل ، 5ـ14 .
(2) هود ، 61 .
(3) البقرة ، 255 .
(4) البقرة ، 31ـ32 .

مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [1] ، فالرسول الكريم ﷺ قد علمه ربه العليم الخبير ، فنعم المولىٰ ونعم الوكيل .

والخليفة بالضرورة أن يكون متصفاً بحسن الخلق ، وأن يكون بعيداً كل البعد عن الجهل ، إذ إنه بدأ ٱلله خاتم الرسالات بكلمة اقرأ ، إذاً بداية معرفة ٱلله وطريقها هو العلم ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [2] .

وعليه ، فالعلم بداية المعرفة الحق ، والجهل ضلال ، فمن أراد أن يكون علىٰ الحق فعليه بالعلم ، ومن أراد غير ذلك سيجد نفسه مع الجاهلين الذين لا يميزون بين ما يجب الاتباع وبين ما يجب الاجتناب .

ولذا فبالعلم تتقدم الشعوب وتبني حضاراتها ، وبه تستنير العقول وتبني ملكاتها ، وبه تستمد الحكمة الصانعة للتاريخ ، وبه يحق الحق ويزهق الباطل ، وبه تشبع الحاجات المتنوعة والمتطورة ، وبه تدرك الآيات العظام ويسترشد بها ، وبه يتم التنقل من الظاهر إلىٰ الباطن ، وبه تتراكم المعارف والعلوم والثقافات التي تسهم في الإصلاح والفلاح الأرضي لأجل أن يأخذ كل نصيبه منها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [3] .

تاسعاً : المبدئ معيد :

إن القادر علىٰ الابتداء قادر علىٰ الإعادة من حيث بدأ ولكل ما بدأ ، وقد اقترن اسم ٱلله المبدئ والمعيد في كثير من الآيات القرآنية مثل قوله

(1) النجم ، 1 ـ 11 .
(2) العلق ، 1 ـ 5 .
(3) القصص ، 77 .

تعالىٰ : ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (1) ، وكذلك قوله جل وعلا : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (2) ، وهـٰذا من عظمة المبدئ الذي هو قادر علىٰ فعل الشيء وقادر علىٰ إعادته دون الحاجة إلىٰ مساعدة من غيره .

ولأن ٱلله تعالىٰ هو الأول وهو الآخر وهو علىٰ كل شيء قدير ، فهو بطبيعة الحال هو مبدئ الأشياء ومعيدها ، وإلا هل هناك من يستطيع أن يمنع المبدئ من أن يعيد ما بدأه خلقاً ؟ لو كان هناك من يستطيع لفسدت ، ولذا ٱلله واحد أحد لا شريك له ولهـٰذا لا يوجد من يملك القوة غيره ، فهو المبدئ المعيد جل جلاله . قال تعالىٰ : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (3) .

عاشراً : المبدئ مُظهِر :

أي هو الذي يوجد إظهاراً ، وهو الذي ينهي وجوداً ، يوجد الأبدان وينهيها ويوجد الأنفس ويميتها ، ويوجد الروح التي لا يعلم أمرها إلا هو عز وجل ، وهو مظهر ما خفي حتىٰ في النفوس ، والإظهار عكس الإخفاء فكيف سيخفىٰ عليه جل وعلا شيء وهو الذي يبدأ بإظهار كل شيء . إنه مظهر الحق من الكتمان والجحد ، ومظهر الحي من الميت ، قال تعالىٰ : ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ

---

(1) النمل ، 64 .
(2) العنكبوت ، 19 .
(3) الحديد ، 1ـ3 .
(4) آل عمران ، 27 .

ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [1] .

وعلىٰ الخليفة أن يظهر المودة والصدق مع من حوله ، فلا يخفي في صدره الضغينة والحسد .

والمبدئ هو المبدع أكيداً ، فقد صمم هـٰذا الكون بطريقة تجعل الإنسان يبدع فيه إن استمد قوته وقدرته من القوي القادر ، ولـٰكن مهما تصل درجة إبداع الإنسان فهي لا تقاس بالإبداع الحق من ٱلله تعالىٰ ، وهـٰذا ما نلاحظه في الحقائق التي توصل إليها البشر ، والتي تتطور من وقت لآخر ، وكذلك البحوث العلمية المتنوعة والمتعددة ، ولـٰكن هـٰذا لا يوصلنا إلىٰ إبداع الخالق نفسه ، لأنه أوجد من كل شيء كيف شاء ، أما الإنسان فلم يوجد إلا ما كان له أصلٌ في الكون ، ولذا فالمبدع المطلق يوجد بالمطلق ، والمبدع النسبي لا يخرج عن دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع . والأمثلة كثيرة ومتباينة في هـٰذا المجال ، فإبداع الخالق يكمن مثلاً في بصمة الإبهام عند البشر ، فبرغم ملايين الناس فإننا نجد أن المبدع قد ميّز كل واحدٍ منا ببصمة خاصة به ، رغم تشابه بعض الناس في اللون والشكل والصلة الجينية الوراثية ، التي تربط ذات القربىٰ بالدم ، والمتأمل حتىٰ في ورقة الشجر أيا كان هـٰذا النوع من الشجر ، فسوف يدرك مدىٰ إبداع الخالق فيها رغم ضآلتها إلا أنها تأخذنا إلىٰ توحيد

(1) الروم ، 19 ـ 24 .

المبدع المصور ، وهـٰذا الطائر علىٰ مختلف أشكاله وألوانه هل من مصور غير ٱلله يستطيع تصميم مثل هـٰذا التنسيق المبدع ؟

وفي تركيبة حواسنا الخمس فهي تنطق بإبداع المبدع إذا وعينا ذلك ، كيف ذلك ؟ وكيف يمكن أن نسخرها في طاعة ٱلله عز وجل ؟

أولاً : حاسة البصر :

لقد وهب وأظهر المبدع لنا هـٰذه النعمة بالتفاوت لحكمة هو مدركها ، والبصر منبعه الروح لأن الأعمىٰ ليس من فقد نعمة النظر ، بل هو الذي وهبه ٱلله بصراً أطفأه هو بكفره ، وطبعاً هناك فرق بين الأعمىٰ والمقصود به الضال ، والبصير المقصود به المهتدي كما في قوله عز وجل : ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (1) ، فما الفائدة من بصرٍ لا يخشع لله عز وجل ! فالبصير الحق هو الذي يوجّه بصره ويقلب فكره في آيات ٱلله المبدع ، فيقوده للتوحيد والطاعة ، ويكفي للناظر في انسجام وتناسق أدق المخلوقات كالفراشات والطيور التي يجبر بديع خلقها الناظر إلىٰ التأمل في دقة صنعها وإبداع صانعها ، لذلك نلحظ في كثير من الآيات القرآنية الكريمة حثّاً من ٱلله لإعمال البصر والبصيرة ، قال تعالىٰ : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (3) ، فبصر المؤمن الحق يجب أن يكون هـٰكذا ، وكذلك قوله تعالىٰ في كتابه

---

(1) غافر ، 58 .

(2) القصص ، 72 .

(3) الذاريات ، 20 ـ 21 .

الكريم : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [1] .

إذاً حاسة البصر ظاهرة لرؤية الظاهر ، ولـٰكن ليس كل ظاهر ظاهراً ، أي أعني ليس كل ما تشاهده العينان هو حقيقة ، ولذا فلا تسلم بالظاهر بالمطلق ، ولـٰكن التسليم بما تكنه الصدور قال تعالىٰ : ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقۡضِى بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَىۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةًۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلًا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [3] .

ثانياً : حاسة الشم :

لقد أهدانا ٱلله عز وجل هـٰذه الحاسة كي تقودنا لما أبدعه الخالق عز وجل حولنا من روائح متباينة تتمثل في الزهور المتنوعة في عبيرها وحسنها ، حتىٰ إننا نجد أن ٱلله قد عوض بهـٰذه الحاسة بعض المخلوقات الأخرىٰ كالحيوانات عن التمييز بالعقل ، فمثلاً نجد أن هناك أنواعاً من الحيوانات تتعرف علىٰ صغارها عن طريق هـٰذه الحاسة ، وهـٰذا من شأنه أن يُظهر لنا مدىٰ إبداع الخالق في خلقه ، ومدىٰ حكمته في تصوير كافة المخلوقات ، وهـٰذا في النهاية كله يصب في تسخير هـٰذا الكون لتوجيه الإنسان لإدراك وحدانية ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، وعلينا أن نبتعد عن شم ما هو مكروه ومحرّم ، ولا يطيب لنا

(1) المؤمنون ، 80 .
(2) غافر ، 19ـ21 .
(3) المائدة ، 13 .

شم إلا ما هو طيب ، وعلينا ألا نقلب هـٰذه النعمة إلىٰ نقمة وسخط من ٱلله تعالىٰ علينا .

والأنف هو الحاسة الظاهرة للشم ، ولذا فإن الشم عملية معقدة تبدأ بالأنف ثم تمتد إلىٰ الرئتين ثم إلىٰ العقل الذي يتذوق ويميز ويقرر الاختيار والتفضيل لما هو أجود وأفضل وأحسن ، ولنأخذ الحيوانات كمثال لتوضيح هـٰذه العملية التي نضربها كمثال : فذكر المعز أو الضأن أو الإبل أو البقر علىٰ سبيل المثال هـٰذه الذكور تعرف عن طريق حاسة الشم أنثىٰ كل نوع ما إذا كانت حائلاً أو عشرة أو لقيحة من رائحة بولها ، وتتم العملية بأن يشم الذكر بولها أولاً ثم يختبر ما يشم مع رفع رأسه إلىٰ أعلىٰ فيعرف ويميز ثم يتخذ القرار بالإضافة عليها إن كانت حائلاً ، وباجتنابها إن كانت عشرة أو لقيحة وبسرعة فائقة لم تبلغها بعد قدرة الإنسان الذي لا زال يختبر كل شيء في المختبرات والمعامل لأجل أن يعرف ويتخذ قراراً صائباً . ومن الكثير يمكن أن يقال عن كلاب معرفة الأثر التي تستخدم من قبل بني آدم لمعرفة ما لم يستطع معرفته الإنسان عن طريق حاسة الشم ، ولهـٰذا فالأنف الظاهر في القصاص كغيره من الحواس الظاهرة الأخرىٰ لا يساويه إلا أنف ظاهر ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [1] .

ثالثاً : حاسة اللمس :

التي تجعلنا نفرق بين ما هو ناعم وخشن ، وبين ما هو بارد وساخن ، والأهم هو إدراكنا للألم عن طريق هـٰذه الحاسة ، فإذا لمسنا مثلاً إناءً ساخناً قد تتعرض أيدينا للاحتراق إن لم نحذر ، ونشعر بالألم ، ويختلف شعورنا عند

---

(1) المائدة ، 45 .

لمس ما هو ناعمٌ كالحرير مثلاً ، وفي كل لمسة يختلف الشعور والإحساس ، وهـٰذا الاختلاف يجعلنا نميز والتمييز نعمة من الخالق ، واختلاف الملمس بحد ذاته هو إبداع من ٱلله تعالىٰ ، الذي بدوره يقودنا إلىٰ طاعته وشكر نعمه ، وعلينا اجتناب لمس ما لا يصح لمسه ، وفي المقابل يكفي أن نلمس رأس طفل لنحسسه بالمودة والمحبة ، ورأس حزين لنطمئنه بالمواساة سكينة تنقل إحساسنا وهو في حالة امتداد متصلة من القلب إلىٰ الأيدي إلىٰ جسمه ثم إلىٰ قلبه ليطمأن ولله الحمد . ولأن للمسح دلالة ومعنىً قال تعالىٰ : ﴿ فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ۝٤٣ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٦ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (2) .

رابعاً : حاسة السمع :

السمع حاسة ضرورية لبني آدم ، وقد منحنا المبدع عز وجل هـٰذه النعمة كي نعرض بسمعنا عن الباطل فلا نستمع إلا للحق ، وإذا سمعنا الحق فلن ننطق إلا به ، والمؤمن ، كما وصف ٱلله تعالىٰ هو من ينطبق عليه قوله في كتابه الكريم : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ

---

(1) النساء ، 43 ـ 44 .
(2) المائدة ، 6 ـ 7 .

سَلَٰمًا ﴾ [1] ، بطبيعة الحال المخاطبة أقوال تقال فتسمع ويؤخذ بأحسنها فعباد الرحمـٰن لا يسمعون إلا الحق وإن خاطبهم الجاهلون لا يقولون إلا سلاماً .

فخليفة ٱلله في الأرض هو المبدئ بالإضافة الذي يبدأ في حياته بكف حواسه عن كل ما يغضب ٱلله تعالىٰ ، فينوء بسمعه عن كل ما هو باطل ، فيكافؤه ٱلله تعالىٰ في الآخرة بسماع ما طاب لهم ، قال تعالىٰ : ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴾ [2] .

وحاسة السمع لا تستمع إلا لظاهر ، أما الباطن فلا تسمعه ، ولـٰكن تدركه القلوب والعقول التي تميز بين الخبيث والطيب ، ولذا فالاستماع في دائرة الممكن المتوقع يمكن أن يؤدي إلىٰ نقل الباطل ويمكن أن يؤدي إلىٰ نقل الحقيقة ولهـٰذا لكل فعل رد فعل ، مما يجعل الفتن تطفأ أو تزداد اشتعالاً ، ولهـٰذا الخليفة دائماً محكمٌ لضميره يعلم بالأشياء ، ويتقصىٰ أمرها ، ويتعقَّبه من أجل معرفة صادقة وفعل سليم ، وٱلله دائماً يكشف أمر المنافقين والماكرين لرسوله الكريم ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّـٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ سَمَّـٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ

(1) الفرقان ، 63 .
(2) مريم ، 61 ـ 62 .
(3) المائدة ، 41 .

فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (2) .

خامساً : حاسة التذوق :

فبهٰذه الحاسة نستمتع بكل ما هو طيب ولذيذ ، ولٰكن هل خطر ببالك وأنت تستمتع بما تتذوقه أن تذكر فضل ٱلله عليك ؟ أو أن تحمد ٱلله علىٰ حسن إبداعه وخلقه ورزقه الذي بين يديك ؟ فالمذاقات مختلفة وبعضها متشابهة وكل مذاق له انسجام خاص داخلنا ، ويختلف الناس في مذاقهم وطريقة تذوقهم ولذلك فلله في خلقه شؤون .

وهٰذه الحواس هي نعم من المبدع عز وجل ، وكلها لابد أن توجه صاحبها لتوحيد الخالق ، والتأمل في إبداعه : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (3) .

الذوق نوعان رئيسان هما :

النوع الأول : ذوق عقلي : يميز فيه العمل الخبيث من الطيب ، ولهٰذا فكل طيب ذي أثر طيب مرغوب ومحبب من الذي له في الذوق حس . ولهٰذا يحس الخليفة في تجويد القرآن بذوق رفيع ، ويحس من إخراج الكلمة الصادقة ذوقاً رفيعاً يؤثر علىٰ كل نفس صادقة ومحبة لقول الصدق وفعله ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ

---

(1) المائدة ، 42 ـ 43 .
(2) التوبة ، 47 .
(3) الملك ، 23 .

وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [2] .

ولأن الخالق خلق كل شيء علىٰ ذوق رفيع سواء أدركنا ذلك أم لم ندركه ، فإن أدركناه أدركنا القدرة الربانية فيه مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ [3] . في هٰذه الآية الكريمة يراد أن يوجه عقل الإنسان إلىٰ ما يحدث له النقلة وهو معرفة الكيفية التي عليها خلقت الإبل ، والكيفية التي بها السماء رفعت ، والكيفية التي عليها الجبال نصبت ، والكيفية التي بها الأرض سطحت ، وذلك لأجل التذكير ، ومن تذكر وعرف عرف القدرة الربانية .

النوع الثاني : ذوق وصفي : ولذا لو رجعنا لقراءة الآيات السابقة التي تدل دلالة واضحة علىٰ خلق الإبل والسماء والجبال والأرض لعرفنا أنها ذات صفات حسان مستمدة من صاحب الأسماء الحسنىٰ الذي خلقها آيات إعجازية حيث لا خالق لها سواه . السماء في جمالها وكأنها الجمال في ذاته ، والإبل الموصوفة به وكأنها هو في ذاته لو عرفنا الكيفية التي بها وعليها خلقت فسبحان ٱلله ما شاء ٱلله ولا قوة إلا بٱلله .

---

(1) الحج ، 24ـ25 .
(2) فاطر ، 10ـ11 .
(3) الغاشية ، 17ـ26 .

وعليه في الحركة جمال وفي السكون جمال وفي النطق جمال وفي العمل الحسن جمال وفي أنفسنا جمال وفي الأرض جمال وفي السماء جمال وما بينهما يملأه الجمال ، ولـٰكن يا ترىٰ من يرىٰ الجمال جمالاً ؟ بالتأكيد لا يرىٰ الجمال إلا الجميل في قوله وفي حسه وحسنه وفي صدقه وعلمه وعمله وحركته وسكونه .

ولهـٰذا فالخليفة يجب أن يستمد صفاته من صفات ٱلله عز وجل حتىٰ يكون مستحقاً لخلافة المولىٰ الواحد الأحد ، وعليه أن يكون مبدئاً بالحق لأن ٱلله عز وجل هو المبدئ بالإطلاق ، فهو المبدئ لكل هـٰذا الكون بما فيه وما يحتويه من أشياء ، وهو لم يحتج لأسباب أو دوافع أو مادة أساسية ليتمكن من البدء في خلق هـٰذا الكون ، لهـٰذا فالخليفة عليه أن يكون مبادراً بادئاً لأفعال الخير والطاعات قاصداً بها وجه ٱلله الكريم ، ولا يكون ممن لا يقومون بالفعل إلا إذا نبههم إليه أحد ، فيكون بذلك غافلاً وليس مبدئاً ، والغافل عن الحق لا يستحق أن يخلف ٱلله في ملكه ، وأول ما يبدأ به الخليفة هي كلمة التوحيد (لا إلـٰه إلا ٱلله محمد رسول ٱلله) فبها يكون لعمله معنىً وقبول ، لأن بدون كلمة التوحيد يكون عمل الإنسان هباءً منثوراً لا يجزىٰ عليه في الآخرة كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ (1) ، وبدون كلمة التوحيد لا يمكن أن يكون مستحقاً لخلافة خالق هـٰذا الكون ، وذلك لأن الخلافة لا تكون إلا للمؤمن الموحد المستمد صفاته من ٱلله والملتزم بأوامره .

فيكون المبدئ بالإضافة بدايةً موحداً بٱلله ويكون عمله خالصاً لوجهه تعالىٰ ، وهـٰذا التوحيد الذي يعمر به قلب الخليفة يجعله مبدئاً بأعمال الخير والإصلاح التي تؤدي إلىٰ إعمار هـٰذا الكون المراد له الاستخلاف فيه بالحق ،

(1) الفرقان ، 23 .

والإعمار هو الذي أراده ٱلله عز وجل وكلفنا به ، وليس الإعمار المادي فقط الذي تميز به هـٰذا الزمن من تشييد الأبراج والمصانع وغيرها دون الاهتمام بالإعمار المعنوي والروحي والاجتماعي والنفسي ، فما خلقنا ٱلله عز وجل وما استخلفنا في أرضه إلا لإعماره من كافة الجوانب المادية والمعنوية ، وهـٰذا ما تشير إليه الآيات الكريمة التالية : ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ (1) ، ففي الآية السابقة أمر ضمني بالإعمار ، حيث إن ٱلله سبحانه وتعالىٰ يخبرنا أنه سخّر لنا كل ما في هـٰذا الكون ، ثم أمرنا بعدم الإفساد فيه ، وبالطبع فإن عكس الإفساد هو الإعمار ، وبالتأكيد فالنهي عن الإفساد يقتضي أمراً بالإعمار ، ومن الإعمار إحقاق الحق والتحلي بالفضائل والابتعاد عن الرذائل وفي ذلك ذوق رفيع .

وعلىٰ الخليفة أن يكون مبدئاً بإحقاق الحق وإرجاع الحق إلىٰ أصحابه ، وقول الحق ولو علىٰ نفسه ، لأنه بإحقاق الحق ينتشر الحب والإخاء بين العباد ، ويزداد الحرص علىٰ المصلحة العامة فيتحقق بذلك وجه من وجوه الإعمار والإصلاح في هـٰذا الكون ، ويزهق الباطل لغير رجعة .

ويكون مبدئاً في وصل الأرحام ، ومسامحة الآخرين ليقوي الروابط الأسرية والاجتماعية التي أوصانا بها الخالق جل وعلا ، هـٰذا مما يجعل الخليفة كما وصفه الرسول الكريم ـ ﷺ ـ في حديثه : « أَنَّ رسول الله ﷺ قَالَ : لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُهَاجِرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثِ لَيَالٍ يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلامِ » (2) ، لذلك فالمبدئ بالإضافة هو من يبدأ بإصلاح نفسه أولاً وذلك بتطهيرها من الأمراض النفسية والأحقاد

(1) الأعراف ، 74 .
(2) موطأ مالك ، ج 5 ، ص 394 .

والضغائن والمكائد والحسد الذي يفرق بين المرء وزوجه ، بذلك يصل إلىٰ أن يكون ذا فضل علىٰ من أساء إليه بعفوه وصفحه عن الإساءة مع القدرة علىٰ رد الإساءة لـٰكنه بدأ بالصفح لما فيه من إصلاح ما بين العباد وبينه والتزاماً بأمر ٱلله في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ (1) وبهـٰذا يتحقق الإعمار الذي طلبه ٱلله من الذين جعلهم خلائف الأرض معمرين لا مفسدين أو سافكي دماء فيها بغير حق .

والمتأمل في هـٰذا الكون المطلوب منا إعماره يجد أن المبدئ جعل أساس خلقه حركة وسكوناً وجمالاً يستوجب ناضراً فيه وناظراً له ، وهـٰذا ما نلحظه في تصميم هـٰذا الكون من بداية خلقه ، فقد بدأ الخالق عز وجل خلق الإنسان في مراحل متباينة بدأها من نطفة تختلف في حركتها عن حركة الجنين المتكون منها ، ثم يبدأ الجنين بالنمو في رحم أمه تدريجياً ، وفق تصميم مبدع عظيم ، وهـٰذا ما تشير إليه الآية الكريمة : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (2) ، ففي الآية الكريمة توضيح لمراحل خلق الإنسان ، التي يمر بها الجنين وهي بالطبع متباينة الحركة والسكون ، وبالرغم من عدم استعمال الجنين وهو في رحم أمه لبعض الأجهزة داخل جسده إلا أن المبدع عز وجل يضعها فيه ، مثل الرئتين فهو لا يستعملهما داخل الرحم لأنه يستمد الهواء للتنفس عن طريق أمه ، والمولىٰ جل وعلا وضعهما لعلمه المسبق ببداية تحرك الرئتين فور خروجه للعالم المشاهد ، وأيضاً إذا نظرنا إلىٰ هـٰذا الكون من المتخَيل إلينا أنه ثابت مع أنه دائم الحركة ، كحركة دوران الأرض والمجرات

(1) فصلت ، 34 .
(2) المؤمنون ، 14 .

السماوية ، وبالرغم من حركة وسكون الأشياء إلا أن لكل مبدوء نهاية ، وهـٰذه سنة ٱلله في خلقه فلا يستأثر بالبقاء والخلد إلا المبدئ المطلق فهو الأول والآخر ولا نهاية له لأنه الباقي بعد فناء كل ما عداه ، والمبدئ المطلق هو الذي بدأ نهاية هـٰذا الكون ، وجعل في نهايته بداية لحياة أخرىٰ أعدها ٱلله عز وجل لحساب عباده كلٌّ حسب عمله ، ويتجسد في كل هـٰذه المراحل حركة دائمة مستمرة وهـٰذا أساس خلق ٱلله للكون بين سكون وحركة .

فكيف للكافر بعد كل هـٰذا الإبداع والتصوير والعظمة أن لا يبدأ بالتوجه إلىٰ الخالق عز وجل ، ويكفي فقط أن يسأل هـٰذا الكافر نفسه هل يكون كل هـٰذا الخلق المنتظم الدقيق والثابت هو مجرد صدفة ، أم أنه خرج من قوة الخالق المبدئ لكل شيء ؟ ! وهل الصدفة تُسَيّر كل هـٰذا النظام الكوني أو التحكيم هو الذي يسيره ؟

ومن ثمرات الإيمان باسم المبدئ الآتي :

1 ـ عند ابتداء الخليفة في الأرض بالقيام بعمل ما يجب أن يتذكر دائماً أنه ليس سابقاً بعمله هـٰذا بل هو لاحق ، فقد سبقه الخالق عز وجل بالبدء في تهيئة كل شيء من حوله في الكون وهـٰذا بدوره يجعل الخليفة تابعاً لله سبحانه وتعالىٰ ، فما من مكتشف أو مخترع قد أظهر للعالم شيئاً من العدم فمثلاً عندما سقطت تفاحة من الشجرة علىٰ الأرض استنبط الإنسان نظرية الجاذبية الأرضية ، فلم يستنبط العالم من العدم هـٰذا القانون بل إن الخالق المبدئ أشار لوجود هـٰذا القانون بطريقة معينة ، وكذلك نجد هـٰذا المعنىٰ عندما اخترع الإنسان الطائرة فهي لم تكن فكرة تولدت من العدم ، بل كانت الطيور المحلقة بأجنحتها من خلق ٱلله هي مولدة لهـٰذه الفكرة ، وذلك عندما بدأ الإنسان بمراقبة تحليق الطيور في السماء ، وتوصل تدريجياً إلىٰ تحليق الإنسان في السماء عن طريق الطائرة .

2 ـ أن الخليفة في الأرض مهما كانت درجة طاعته وإحسانه وحبه لله عز

وجل ، فإنه لا يستطيع رد الفضل بمثله وكيف ذلك ؟ فٱلله هو المبدئ علينا بالنعم والعطايا ومن المعروف أن المبدئ دائماً يكون فضله أكبر من المبدوء وهو الإنسان ، وقد أسبغ المبدئ المطلق علينا بنعم لا نستطيع مهما شكرنا وحمدنا أن نرد له فضله علينا ، قال تعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1) .

3 ـ أن تكون بداية كل عمل يقوم به الخليفة خالص النية فيه لله عز وجل ، فبداية كل عمل نود القيام به لابد أن تسبقه النية ، وٱلله تعالىٰ لا تخفىٰ عليه النوايا ، فهو يعلم السر والعلن ، قال تعالىٰ : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (2) ، وقال أيضاً : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ (3) فعلم الخالق لا يتوقف علىٰ الظاهر من الأعمال ، بل إنه يكشف ما نوت الأفئدة ، ولابد للخليفة أن يبدأ بالحق الذي يرضاه ٱلله تعالىٰ ، كما بدأ هـٰذا الكون بالحق ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (4) ، فقد أشار ٱلله للحق في هـٰذه الآية عند استحالة خلق الكون بالباطل ، وبالطبع الحق عكس الباطل لا يجتمعان ، فإذا بدأ الخليفة نيته بالحق وبالإصلاح نال رضا ٱلله عز وجل .

4 ـ علىٰ الخليفة أن يتذكر أنه الضعيف بجانب قوة الخالق وعظمته ، وأنه قوي بقوته واتكاله عليه ، فمن بدأ بخلقه من طين قادر علىٰ إرجاعه متىٰ

---

(1) النحل ، 18 .
(2) التغابن ، 4 .
(3) الأنعام ، 3 .
(4) آل عمران ، 191 .

يشاء ، قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ (1) ، فالإنسان لا يملك شيئاً أمام قوة وإرادة خالقه جل وعلا ، فلا يصيبه الغرور لمجرد امتلاكه لقوة بدنية أو ذكاء حاد أو حتىٰ عند تقلده منصباً كبيراً ، فلابد أن يتذكر أن هناك من هو أقوىٰ منه ، بل أنه هو الذي منحه هـٰذه الدرجة من القوة التي يملكها ، ويظل الإنسان ضعيفاً لا يحتمل أن يمنع ٱلله عليه نعمة من نعمه ، قال تعالىٰ : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (2) ، فمجرد تمعن الإنسان في كيفية بدئه وتكوينه سوف يصل إلىٰ مدىٰ قوة ٱلله وضعف الإنسان إذا ما حاول مقارنة قوته بقوة خالقه جل جلاله ، وهـٰذا يرشدنا إلىٰ التوجه للمولىٰ كي نستمد منه قوتنا ونشد أزرنا به عند حلول المصائب ، فالإنسان لا حول له ولا قوة إلا بٱلله عز وجل .

5 ـ الدوام علىٰ شكر ٱلله عز وجل ، وحمده علىٰ فضله ونعمه علينا وحفظه لنا من كل سوء ، فالناظر إلىٰ هـٰذا الكون يخرج بنتيجة طبيعية ألا وهي تسخير ما في هـٰذا الكون كله لخدمة الإنسان وبقاء خلقه ، وٱلله لم يخلق كل هـٰذا ليرضي الإنسان بل خلق كل هـٰذا لأنه قادر ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (3) ، فالشاكر لله قريب منه ، لأنه يدرك بدء الفضل من الخالق جل وعلا عليه ، وفي الأحوال العادية يشعر الإنسان بالفضل لمن قدّم له مساعدة أو جامله في أمرٍ ما ، فما بالك بالذي بدأ بأفضال ونعم لا تعد ولا تحصىٰ ، وأولها نعمة الوجود ، ونعمة الإيمان وإدراك الوجود ، وفتح طريق التواصل بينه وبين من أراد ذلك من البشر ، ومغفرة الذنوب ، وغيرها من النعم الجمة ،

---

(1) الأنعام ، 2 .
(2) النساء ، 28 .
(3) النمل ، 73 .

فلا أقل من الطاعة والشكر والخشوع لهـٰذا المبدئ الكريم ، الذي بالرغم من ابتدائه بالفضل إلا أنه أيضاً يحسن لمن أحسن ، وقد جاء ذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ (1) .

6 ـ الاستعداد ليوم الميعاد ، فاسم المبدئ يوحي بالبداية كما أنه يوحي بضرورة نهاية البداية ، لأنه كما بدأنا سوف نرجع ، قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (2) ، فكل ما كان عند إرادته لن يكون ، وهـٰذا يزرع الخشية في قلب الخليفة الحق ، فلا يغره طول عمره ، ولا كثرة ماله وولده ، بل يسعىٰ وراء العمل الصالح الذي لن يقبل غيره عز وجل ، فيعمل لآخرته ولا ينسىٰ نفسه مع ملاهي الدنيا الكثيرة ، لأن قبول ٱلله لك هو عملك ، قال تعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ (3) .

7 ـ حب العمل والاجتهاد ، فقد بدأ ٱلله تعالىٰ خلق السمـٰوات والأرض في ستة أيام متواصلة دون تعبٍ أو كلل ، ورفعها بغير عمد تُرىٰ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى

(1) الرحمـٰن ، 60 .

(2) الأنبياء ، 104 .

(3) الكهف ، 110 .

ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (2) وانظر إلىٰ نتيجة هـٰذا العمل العظيم ، وهـٰذا باعثٌ للخليفة الذي استخلفه عز وجل في الأرض أن يسير في هـٰذه الحياة بعيداً عن الخمول والكسل ، فالحياة بدون عمل متواصل وجهد مكثف لا تقوم ولا تتواصل ولا تنمو ولا تستقر ولا تعمر ، والعمل هنا مشروط بالنية الخالصة لله فمن عمل عملاً صالحاً فلنفسه مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ۝١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ۝١٠٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝١٠٨ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ۝١٠٩ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ (3) ، لذا علىٰ ٱلله فليتوكل المتوكلون بأداء العمل الصالح والمصلح لكل حال ، حتىٰ تُفلح الأرض وتعمر ويسود الود بين المستخلفين فيها محبة ، ولذا فمن يتقِ ٱلله يجد له مخرجاً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝٤ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ

---

(1) الرعد ، 2ـ5 .
(2) يونس ، 3 .
(3) الكهف ، 103ـ110 .

إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾ (1) .

8 ـ الابتداء بمد يد العون لمن يحتاج ، فالخليفة الذي يخشىٰ ٱلله تعالىٰ في كل أمر ، فإنه يعمل بما يأمر به خالقه ، والابتداء بالخير والمساعدة هما من صفات المؤمن الصالح ، بل من صفات المجتمع الإسلامي الذي يجب أن يكون ، فلا ينتظر المؤمن من غيره البداية في فعل الخيرات ، فلا يسبقه أحد إليها ، ولا يمنعه أي شيء للقيام بها ، فقد بدأنا ٱلله بالخير والنعم ، فليكن هـٰذا مبدأً يمشي به خليفة ٱلله تعالىٰ في الأرض ويعمل ، وقد حث ديننا الإسلامي علىٰ هـٰذا المبدأ الفاضل ، وقد راعىٰ الإسلام البدء بالخير حتىٰ في تفاصيل حياتنا الدقيقة ، فهـٰذا رسول ٱلله ـ ﷺ ـ يفاضل بين المسلمين بمن هو البادئ بالخير والمعروف ، « عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ : أَنَّ رسول الله ﷺ قَالَ لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُهَاجِرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثِ لَيَالٍ يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلامِ » (2) . إنه دين المحبة والإخاء والتسامح وفعل الخيرات ، فبالرغم من أن رد التحية هو أمر في نظر بعض الناس هين ، إلا أن الرسول الكريم عليه السلام وهو الناطق بأوامر ٱلله قد لفت نظر المسلمين أن من أراد البدء بالخير ، فالطريق مفتوح أمامه ، فالبادئ بالمعروف هو بادئ بالخير وهـٰؤلاء هم المؤمنون حقاً كما أرادهم ٱلله تعالىٰ ، قال عز وجل : ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ (3) .

وهـٰذا عكس المبدئ بالإساءة الذي يقع عليه الذنب الأكبر . لأن من

(1) الطلاق ، 2ـ5 .
(2) موطأ مالك ، ج2 ، ص 394 .
(3) آل عمران ، 110 .

البداية تتفرع عدة تفرعات أخرىٰ ، وتعم الإساءة وتكبر علىٰ يد بادئها ، فمن تعمد نشر رذيلة في المجتمع قد أفسد في الأرض ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (2) ، قال تعالىٰ : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴾ (3) .

فلو يتدبر الجاحد بنعم ٱلله عز وجل والكافر بها في معنىٰ اسم المبدئ في حق ٱلله تعالىٰ لتكشف له عن معنىٰ الألوهية والتوحيد ، لأن من يبدأ الخلق ويوجدهم بالقوة المقدرة لابد أن يحاسبهم بعد أن يعيدهم ، فهو يريدهم أخياراً ، ومن لم يكن كما يراد له أن يكون عليه سيكون العقاب دون مخافة أو لومة لائم ، إن الأمر بيده وهو فعال لما يريد ، قال تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ

(1) النساء ، 112 ـ 113 .
(2) الأحزاب ، 57 ـ 58 .
(3) الشعراء ، 141 ـ 157 .

رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ (1) ، ولو تأمل الكافر في كيفية البداية والنهاية لأدرك عظمة هٰذا الفعال الكريم ، فالمبدئ المطلق هو الذي يستطيع وما عداه لا حيلة له ولا قوة له أن يبدأ الأشياء إلا مما شاء تعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ (2) ، فالحق واضح للكل وهو ٱلله المبدئ العظيم ، وهو من عنده ، والباطل سواه وهو ضعيف لا يملك من أمره شيئاً ، والحق قوة وعز ، حتىٰ إن ٱلله تعالىٰ قد تحدىٰ البشر بمخلوقٍ ضعيف من مخلوقاته ، حتىٰ يعرفهم بقدرتهم الضئيلة ، قال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (3) ، فمن من الناس جميعاً مهما علا سلطانه ، وكثر ماله ، وزادت قوته يستطيع أن ينفي هٰذه الحقيقة ؟ والعجب أنه ما يزال هناك من يكفر بٱلله ، ويشرك به من لا حول له ولا قوة ، من لا يستطيع أن يخلق أو يبدع .

إذاً فالخليفة الذي يستحق خلافة ٱلله تعالىٰ في الأرض لابد أن يؤمن أن لله صفات عليا وأسماء حسنىٰ هي من لوازم ألوهيته ، وبها يضيء قلب الخليفة بنور رباني ، ولابد أن يؤمن أن الخالق المبدئ هو كامل وموجود من قبل الوجود ، والحق أيضاً لا يتغير ولا يتبدل ولا يتكرر لأنه واحد ، أما الباطل فهو علىٰ عكس الحق ، فهو يتكرر ويتغير وتتعدد وجوهه ، ونجد بعض الآيات القرآنية الكريمة تشير إلىٰ هٰذا المعنىٰ مثل قوله تعالىٰ : ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ

---

(1) هود ، 106ـ108 .
(2) سبأ ، 49 .
(3) الحج ، 73ـ74 .

وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴾ (1) ، فالظلمات جمع وهو الباطل ، والنور مفرد لأنه الحق وهو واحد لا يمكن أن يكون أكثر من واحد ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴾ (2) ، لذلك فبعد أن بيّن الخالق عز وجل الحق من الباطل لم يعد للإنسان حجة علىٰ ٱلله تعالىٰ ، وحق له الحسيب أن يحاسب عباده ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴾ (3) ، فالبداية الحق تستوجب النهاية الحق من الواحد الحق جل وعلا ، وكيف لا يحاسب العباد وقد خلقهم منذ البداية بنية توحيده وعبادته ، ولم يخلق هـٰذا الكون عبثاً ، وقد جاء ذلك المعنىٰ في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ﴾ (4) ، فالموحد له جزاء والكافر له عقاب ، وهـٰذا من حق ٱلله أن لا يترك خلقه سدىً دون حساب ولا عقاب ، فأين ستكون الغاية السامية التي أنشأ الخالق الكون من أجلها إذا لم يحاسب عباده ، قال تعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾ (5) ، فلكل شيء في الخليقة هدف ، فلا نجد كيفما توجهنا بأبصارنا

---

(1) الرعد ، 16 .

(2) الأنعام ، 1 .

(3) الأنعام ، 61 ـ 62 .

(4) ص ، 27 ـ 28 .

(5) آل عمران ، 191 ـ 192 .

أي شيء قد خلقه ٱلله سبحانه وتعالىٰ عبثاً ، أي دون غاية أو هدف ، ابتداءً من أصغر المكونات وهي الذرة ، التي تتكون منها المواد ، فكيف بالإنسان الذي كرمه ٱلله بخلافته في الأرض واختار منهم الرسل والأنبياء ، قال تعالىٰ في كتابه العزيز : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [1] ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [2] ، وفي هٰذه الآية إشارة إلىٰ نقطتين مرتبطتين ببعضهما البعض ، وهما :

النقطة الأولىٰ : هي الهدف من خلق المخلوقات بدايةً هو العبادة .

النقطة الثانية : هي عبادة ٱلله وتوحيده الرابط بين المخلوقات في علائق قيمة تستوجب التقدير والاعتراف والاعتبار .

ومن هاتين النقطتين المتلازمتين تظهر لنا علاقة ٱلله المبدئ بالخلق بخلقه ، وعلاقتهم به عز وجل .

إذاً بداية استحقاق الإنسان لخلافة المولىٰ عز وجل هي إيمان هٰذا الخليفة بوجود الخالق منذ الأزل ، فلا يجادل ولا يشك في ذلك ، قال رسول ٱلله ﷺ « كَانَ ٱللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ » [3] .

وإذا كانت بدايته هٰذا اليقين لابد أن يصل إلىٰ النهاية الحق مع مبدئ هٰذا الكون ومنهيه ، فيسير في هٰذه الحياة بالخير والمعروف ، يعمل بأوامر ٱلله ويبتعد عن نواهيه ، فماذا يكون نتيجة ذلك ؟

---

(1) الإسراء ، 44 .
(2) الذاريات ، 56 .
(3) صحيح البخاري ، ج22 ، ص 428 .

بيقينه الثابت بأن كل شيء مرجعه إلىٰ مبدئه عز وجل ، فيثبت عند حلول المصيبة عليه ، ولا ينهار ولا يضعف ، وكيف يكون ضعيفاً من شد أزره العظيم المبدئ ؟ فالإيمان الحقيقي في قلب المؤمن هو بمثابة درع يقيه الوقوع في الوهن والشرك ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ (1) ، فالمؤمن لا يصل إلىٰ هـٰذه القناعة دون الاقتناع بالمبدئ الذي بدأ خلقه أصلاً من عدم .

الأجر العظيم من الخالق العظيم ، فكلما زاد المؤمن وأكثر في فعل الطاعات والخيرات ، فإنه يجني الحسنات المضاعفة ، والزيادة في الأجر ، فهو البادئ بالكرم والبادئ دائماً يفيض علىٰ المبدوء بكرمه ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ (2) .

فالخليفة الحق هو الذي تكون بدايته مع ٱلله ونهايته مع ٱلله ، لا يخرج من دائرة طاعته وحبه ، وذلك لكي لا يخرج من دائرة رحمته تعالىٰ ، فالحياة الدنيا دار امتحان وابتلاء ، لا يصمد فيها إلا ثابت العزم والإيمان ، ومن كان موحداً لا مشركاً طائعاً لا عاصياً ، قوياً بعقيدته لا ضعيفاً ، متوكلاً علىٰ الخالق لا علىٰ غيره ممن لا يضر ولا ينفع ، شاكراً لله تعالىٰ علىٰ كل نعمه التي أنعمها عليه ، قال تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾ (3) ، صابراً علىٰ أذىٰ الناس راجياً من المولىٰ أجراً يقيه نار جهنم وبأس المصير ، مجاهداً في سبيله بكل

(1) البقرة ، 155ـ157 .
(2) الحديد ، 18 .
(3) الفجر ، 15ـ16 .

ما لديه ، قال تعالىٰ : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (1) ، منفقاً ما يملك في وجوه الخير والبر ، لا يبخلون بشيء لعلمهم بأن ٱلله تعالىٰ راده إليهم ؛ لأنه لا يبخس الناس حقهم بل هو بادئهم بالكرم ، والغريب هو أننا نجد من ينشغل بحساب الملايين ولا يخطر بباله أن يحسب كم عليه أن يخرج من كل هٰذه الملايين زكاة ؟ قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (2) ، أو لا يخطر ببال هٰؤلاء الأثرياء الذين لا أمل لهم سوىٰ زيادة ما لديهم أنهم لن يصلوا إلىٰ ما وصل إليه قارون ، وكيف كانت نهايته ؟ هل منعت أمواله الطائلة أن تخلده وتمنع الموت عنه ! قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ (3) .

والخليفة أن يكون مع ٱلله دائماً طائعاً مدركاً للحق ومتبعه ، وليس وقتما يشاء ، يخاف المولىٰ عز وجل ليأمن آخرته ، فالأمان عند خليفة ٱلله تعالىٰ بالأعمال ، فأمله بالنجاة من العذاب هو عمله الصالح ، لأن الأمل يصاحب العمل .

هٰذا هو بداية النجاة في نهاية الأمر ، حيث لا يفلح إلا خلفاؤه الذين عملوا علىٰ تأمين أنفسهم بخوفهم من الخالق ، ولم يُؤَمِّنوا أنفسهم بكثرة مال ، أو جاهٍ أو سلطان ، فالذي يفعل ذلك هو في الحقيقة مفلس تماماً ، فكم من فقير كان في الدنيا أغناه ٱلله يوم القيامة ، وكم من غني كان في الدنيا قابل ٱلله

---

(1) آل عمران ، 142 .
(2) البقرة ، 272 .
(3) القصص ، 76 .

تعالىٰ مفلساً ؟ عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ يروي ذلك ، عن ربه عز وجل أنه يقول : « وعزتي لا أجمع علىٰ عبدي خوفين وأمنين ، إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة ، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة » (1) .

فبداية الأمن من سخط ٱلله تعالىٰ هو خوف الخليفة وخشية ٱلله تعالىٰ ، اللهُمَّ آمِنّا وقنا عذاب الحريق ، وكلل أعمالنا بالقبول والرضا ، ولا تحجب عنا حبك ، فبحبك نأمن سخطك ، وننال رضاك . وعليه فإن ٱلله مبدئ بكل شيء ومنه نذكر الآتي :

1 ـ **مبدئ بخلقه** : قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (2) .

2 ـ **مبدئ بمغفرته** : قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (4) .

3 ـ **مبدئ برحمته** : قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (5) ، وقـــال تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ

(1) شعب الإيمان للبيهقي ، ج 2 ، ص 338 .
(2) الحجر ، 85 ـ 86 .
(3) النجم ، 32 .
(4) البقرة ، 225 ـ 226 .
(5) الأعراف ، 57 .

بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (2) .

4 ـ **مبدئ بنهيه** : قال تعالىٰ : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (5) .

5 ـ **مبدئ برزقه** : قال تعالىٰ : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (6) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا

(1) الروم ، 46 .
(2) الشورىٰ ، 28 .
(3) الحشر ، 7 .
(4) المائدة ، 90 ـ 92 .
(5) الأنعام ، 151 .
(6) البقرة ، 212 .

وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (1) .

6 ـ **مبدئ بعزته** : قال تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (3) .

7 ـ **مبدئ بحفظه** : قال تعالىٰ : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ (5) .

8 ـ **مبدئ بعفوه** : قال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (6) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ

---

(1) الشورىٰ ، 19 ـ 22 .
(2) البقرة ، 129 .
(3) آل عمران ، 26 .
(4) هود ، 57 .
(5) ق ، 32 ـ 35 .
(6) النساء ، 98 ـ 99 .

فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (1) .

9 ـ **مبدئ بوده** : قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ (3) .

10 ـ **مبدئ بحسن خلقه** : قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ (5) ، وقال تعالىٰ : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (6) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ

(1) الشورىٰ ، 29 ـ 31 .
(2) البروج ، 13 ـ 16 .
(3) هود ، 90 .
(4) التين ، 4 .
(5) المؤمنون ، 12 ـ 17 .
(6) الصافات ، 125 ـ 126 .

وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ (1) .

11 ـ **مبدئ باستخلافه** : قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (4) .

12 ـ **مبدئ بتوريثه** : قال تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (5) ، وقال تعالىٰ : ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ

---

(1) الإسراء ، 32ـ38 .
(2) البقرة ، 30ـ34 .
(3) ص ، 26 .
(4) الحديد ، 7 .
(5) المؤمنون ، 1-11 .

وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَـٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [2] .

13 ـ **مبدئ بإحيائه** : قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [4] ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [5] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [6] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [7] .

14 ـ **مبدي بألفته** : قال تعالىٰ : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [8] ، وقال

---

(1) الأعراف ، 128 ـ 129 .
(2) مريم ، 61ـ64 .
(3) الحج ، 66 .
(4) التوبة ، 116 .
(5) الروم ، 50 .
(6) الحديد ، 17 .
(7) فصلت ، 39 .
(8) الأنفال ، 63 .

تعالىٰ : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (1) .

15 ـ **مبدئ بإشفائه** : قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (4) .

16 ـ **مبدئ بلطفه** : قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (5) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ

(1) آل عمران ، 103 ـ 105 .
(2) الشعراء ، 80 .
(3) النحل ، 52 ـ 54 .
(4) البقرة ، 102 .
(5) الحج ، 63 ـ 64 .

بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ (2) .

17 ـ **مبدئ بكرمه** : قال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (5) ، وقال تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ (6) .

18 ـ **مبدئ بتصويره** : قال تعالىٰ : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ

---

(1) الشورىٰ ، 19 ـ 20 .
(2) الأنعام ، 103 ـ 104 .
(3) الانفطار ، 6 ـ 8 .
(4) الأنفال ، 4 .
(5) الشعراء ، 7 ـ 9 .
(6) ياسين ، 11 .

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [2] ، وقال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [3] .

19 ـ **المبدئ بسلامه** : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [4] ، وقال تعالىٰ : ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [5] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [6] ، وقال تعالىٰ : ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [7] .

اللهُمَّ يا المبدئ جعلت بدايتنا علىٰ الإيمان بك واحداً أحداً اجعل خير أعمالنا خواتمها ، وجعلت بدايتنا حمْل الرسالة فاجعلنا من المبشرين بها ولا تجعلنا من الغافلين ! اللهُمَّ إنك تبدئ وتعيد اجعلنا كما خلقتنا من المستخلفين فيها في أحسن تقويم ! اللهُمَّ يا المبدئ للروح اجعل أرواحنا طاهرة وأنفسنا مطمئنة وأجسادنا محفوظة من عذاب النار !

---

(1) غافر ، 64ـ66 .
(2) التغابن ، 3 ـ 4 .
(3) آل عمران ، 6 .
(4) يونس ، 25 .
(5) هود ، 48 ـ 49 .
(6) الأنعام ، 54 .
(7) يس ، 58 .

اللهُمَّ يا من جعلت لكل بداية نهاية ولكل نهاية بداية وكتبت علىٰ العاقل أن ينظر بعين عقله وقلبه وقلت وقولك الحق : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [1] . فيا المبدئ يا ألله يا من تسمع كلامنا وترىٰ مكاننا وتعلم سرنا وعلانيتنا ولا يخفىٰ عليك شيء من أمرنا ونحن الفقراء المستغيثون المستجيرون الوجلون المشفقون نسألك ألا تجعلنا بدعائك من الأشقياء وكن بنا رؤوفاً رحيماً يا خير الحافظين ويا خير المعطين . وابدأ بالخير أعمالنا وإذا أذنبنا أبدئ في قلوبنا توبة تعقبها قبولاً وعملاً يتممه توفيق إنك المبدئ والمعيد والفعَّال لما يريد سبحانك جل جلالك .

---

(1) العنكبوت ، 19 .

المُعِيدُ جلّ جلاله

في صفات ٱلله تعالىٰ : المعِيدُ هو ٱلله الذي بدأ الخلقَ إِحياءً ثم يميتُهم ثم يعيدُهم أَحياءً كما كانوا ، فهو سبحانه وتعالىٰ الذي يُعِيدُ الخلق بعد الحياة إِلىٰ المماتِ في الدنيا وبعد المماتِ إِلىٰ الحياةِ يوم القيامة [1] .

المعيد : « هو الذي يعيد الخلائق كلها ليوم الحساب كما أبدأهم كما قال تعالىٰ : وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » [2] .

المعيد : هو الذي يعيد الحياة بعد الموت مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [4] ، فكما أن لله تعالىٰ القدرة علىٰ الخلق من عدم ، فإن له القدرة علىٰ إماتة الخلق بعد ذلك ، ثم إعادة خلقهم بعد الموت من جديد لحسابهم يوم الدين ، فلن يُتْرَكَ الإنسان سدىٰ ، ولم يُخْلَق عبثاً في هـٰذه الدنيا ، قال تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ

---

(1) لسان العرب ـ ج 3 ، ص 315 .
(2) تفسير أسماء ٱلله الحسنىٰ ، ج 1 ، ص 56 .
(3) الروم ، 27 .
(4) البقرة ، 28 .

مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴾ (1) .

وقد اقترن اسم المعيد مع اسم المبدئ في عدة مواضع كما في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ (2) ، فلا بداية بلا نهاية ، وكذلك لا توجد نهاية بدون وجود بداية أصلاً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (3) ، ففي هـٰذه الآية الكريمة شرح لمراحل الخلق والإعادة ، ودليل علىٰ قدرة الخالق تعالىٰ علىٰ أن يكون معيداً للخلق من الأصل ، فمن التراب خلقنا وإليه أعادنا ومنه يرجعنا ، وما التساؤل الموجه في الآية للعباد إلاّ دليل قاطع وبرهان ساطع لمن أراد التدبر في خلق ٱلله ، والوصول إلىٰ إيمان ثابت بوقوع إعادة الخلق للحساب ، والإعادة تكون للأصل لا للصورة ، فالإنسان بعينه هو الذي يعيده ٱلله تعالىٰ كما كان في الحياة الدنيا ، وعلىٰ نفس هيئته ، فلن يتغير شكله ولا عمله ، فمن كان علىٰ وجه الدنيا يُفْسِد ويدمر ، هو بعينه من يتلقىٰ العقاب علىٰ هـٰذا الفساد ، ولن يتغير شخص من كان يُصْلح ويحسن في الحياة الدنيا عمن سيجازىٰ عن هـٰذا الإصلاح والإحسان ، ولهـٰذا فالأول هو الآخر وهو المبدئ المعيد .

فلو لم يكن معيداً ما كان له حساب ولا ثواب وعقاب ، والعود رجوع إلىٰ قول أو فعل أو حالة أو سلوك أو تكوين ، فسبحانه الذي بيده ملكوت كل شيء

---

(1) الانشقاق ، 7 ـ 11 .
(2) البروج ، 13 .
(3) يس ، 78 ـ 83 .

وهو علىٰ كل شيء قدير . وبالعود لا يتم الظلم ، فالأشياء تصور هي كما هي ، دون زيادة ولا نقصان ، ولذا فالعود دليل إثبات الحقيقة سواء كانت ذات أثر سالب أو أثر موجب .

فالإنسان نفسه هو الذي سيعاد خلقه من جديد دون تبديل أو تغيير فيه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [1] ، فلن ينقص عمل الإنسان ولن يتبدل لأن ذلك يُعَد ظلماً وٱلله أعدل العادلين ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [2] ، وٱلله أعدل العادلين ، فهو الحاكم والفاصل بين الناس فيما كانوا فيه يختصمون في الدنيا ، قال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [3] ، وهـٰذا من شأنه أن يُصَبِّر الذين ظُلموا في الحياة الدنيا وسُلب حقهم ، ففي اسم المعيد نبعٌ يشد أزرهم لحين لقائه سبحانه وتعالىٰ ، فيحكم ويفصل بين الناس ، لأن الظالم سيقف بين يديه تعالىٰ والمظلوم كذلك ، لا يخفىٰ من أمرهما عن ٱلله من شيء ، فهو الكاشف المحاسب .

والمبدئ والمعيد اسمان متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر ؛ وذلك

---

(1) البقرة ، 281 .
(2) يونس ، 44ـ49 .
(3) السجدة ، 24 ـ 25 .

لأنهما اتصاف لواحد أحد لا شريك له ، وبذلك فالإعادة تكون لمن بدأ خلقهم من العدم ، بأمره « كن » ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (1) ، وهو يعيد هـٰؤلاء الخلق من الحياة إلىٰ الموت أولاً ، ويعيدهم بعد ذلك بالموت للحياة ، قال تعالىٰ : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴾ (2) ، وحياة الإنسان عمرها الزمني بين هـٰذين الاسمين ، بما فيها من ذنب وتوبة وصلاح وفساد .

فرحلة الإنسان إذاً تبدأ مع ٱلله وتنتهي مع ٱلله تعالىٰ ، فهي تبتدئ بالمبدئ ، وتنتهي بالمعيد ، وما أقصر الزمن بين البداية والنهاية ، مع شعورنا بطول الحياة في هـٰذه الدنيا ، التي خلقنا ٱلله تعالىٰ فيها لأنها دار ابتلاء لا دار بقاء ، فهي مليئة بالملاهي والمفاسد وكيف لا تكون كذلك وقد توعد إبليس عليه لعنة ٱلله البشر بأن يغويهم إذا وجد منهم المستمع له ، كما جاء في قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٌ مِّنۡهُ ۖ خَلَقۡتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِىٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِىٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ (3) ، لذلك فالدنيا لا يمكن أن تكون وسيلتنا للفوز يوم الدين إذا لم نكن من المطيعين المؤمنين بيوم الميعاد مع المعيد سبحانه وتعالىٰ .

والخليفة يؤمن بيوم العودة إيماناً منه بالمعيد جل جلاله ، قال في كتابه العزيز : ﴿ ۞ لَيۡسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ

(1) غافر ، 68 .
(2) الملك ، 1 ـ 2 .
(3) ص ، 75 ـ 83 .

يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [1] .

وٱلله تعالىٰ قد بدأ الخلق بالإنشاء والإظهار من العدم ، ثم يعيده إلىٰ الحالة الأولىٰ ، والعودة هنا ليست اختراعاً لخلق جديد ، بل إعادة البشر هم أنفسهم للحساب ، يومها لا يغني مال ولا ولد كان له في الدنيا ، فمن الطبيعي أن الإنسان حين يكبر لابد أن يكوّن عائلة ، فبذلك يكون فرداً ويصبح جماعة ، ولـٰكن إعادته للحساب يكون وحده ، لا ينفعه ولده ولا غناه ، فيلقىٰ ربه عند إعادته للحساب وحيداً ليس معه إلا عمله ، الذي لن يشاركه أحد فيه ، سواء أكان عملاً حسناً أم عملاً سيئاً ، فالعبد يكون وحيداً فرداً مع الخالق عز وجل ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [2] ، فلن يشارك الإنسان في الوقوف بين يدي ٱلله تعالىٰ أحد ، لأن كل واحدٍ منا مسؤول عن نفسه التي باختيارها هي سيكون مصيرها يوم الحساب معروفاً .

إن كل شيء في هـٰذا الكون قابل للانتهاء ، فلا وجود للخلد في هـٰذه الدنيا ، وإن الموت محيطٌ بنا ، وإذا نظرنا وجدنا هـٰذا الكون البديع المليء بالمخلوقات ومنها الإنسان ، الذي كرّمه ٱلله تعالىٰ لحمل خلافة الأرض ، ولـٰكنه في خلقه له لم يجعل هـٰذا الإنسان واحداً ، بل تفاوت البشر في الحياة الدنيا شكلاً ولوناً ومستوىٰ ، ولـٰكن هـٰذا التفاوت يتلاشىٰ بمجرد ولوج الإنسان للمثوىٰ الأخير ، فالقبر مهما اختلف بناؤه ومكانه وزمانه فإنه لا يميز بين سكانه من البشر ، وهو ممر للعبور إلىٰ حياة أخرىٰ ، فإما الشقاء

---

(1) آل عمران ، 113 ـ 115 .

(2) الأنعام ، 94 .

وإما السعادة ، يقوم منه الناس كالفراش المنتشر للحساب بأمر من الذي أعاد هـٰؤلاء الخلق من جديد ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ (1) ، هـٰذا هو مصير كل الخلق ، مهما طال بهم الزمن ، فالتفاوت الذي كان في الدنيا كان ابتلاء وامتحاناً للبشر ، فعلىٰ الخليفة أن لا يجعل منها محلاً للتفاخر والتجبر .

فعودة الخلق للمعيد بأمره ، يأمر الساعة أن تقوم متىٰ شاء عز وجل ، ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (2) ، فقدرة ٱلله تعالىٰ لا حدود لها ، بداية من قدرته علىٰ الخلق ، فهـٰذه القدرة تتضمن قدرة الإعادة من جديد ، فإذا كذّب الإنسان بهـٰذه القدرة فهو لن يستطيع الإيمان بعودته للحساب ، وكم من أقوام خُلِقوا في هـٰذه الدنيا وخرجوا منها دون أن يدخل قلوبهم نور الإيمان لاتباعهم الشياطين ، سواء كانوا أفراداً مثل ما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ (3) ، أو كانوا جماعات وأقوام ، مثل ما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٥٦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ (4) .

---

(1) القارعة ، 1 ـ 4 .

(2) النحل ، 77 .

(3) الكهف ، 35 ـ 36 .

(4) الحج ، 55 ـ 59 .

والإنسان الذي ميزه ٱلله بأحسن التقويم وجعله خليفة هو معيد بالإضافة ، يعود إلىٰ ربه في كل كبيرة وصغيرة بالوحدانية والقدرة والقوة المطلقة ، ويعيد إليه كل خير ، فٱلله تعالىٰ هو الخالق المعيد الذي بيده الأمر والنهي والملك يتعلم في حياته وبِمَلكة التفكُّر والتذكُّر يسترجع ما تعلم ، وبذلك يدخل الامتحان وحسب ما بذل من جهد تعليمي يفوز أو يفشل ، وهو كذلك يعتبر ويتعظ كلما راجع العبر التي يحملها التاريخ والقصص التي يحتويها القرآن الكريم ، والحكم التي بين الناس تتناقل من جيل إلىٰ جيل ، وهو الذي بإمكانه أن يجدد نشاطه بالمران ويعيد لنفسه الطمأنينة كلما عمل علىٰ تحقيقها ، وهو الذي سيكون له كتاب محمول بيمينه أو علىٰ ظهره يوم الحساب ولهٰذا لم يفرط في الكتاب من شيء ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ (1) .

فعلىٰ خليفة ٱلله في الأرض مهما علا شأنه في هٰذه الدنيا ، أن يتذكر موعده الآتي لا محالة مع المعيد ، وأنه خُلِق من أجل الإصلاح والإعمار ، وأن عودته ستكون لحسابه علىٰ ما قدمت يداه ، وأن ما أصابه من نِعَم لا بد أن تكون

(1) الأنعام ، 36ـ44 .

باب شكر وامتنان لا باب تفاخر وتكبر ، لأن الإنسان إذا تميز في الدنيا بفضل ماله أو حسبه أو شكله ، فلن يميزه يوم الحساب أمام المعيد إلا عمله وتقواه ، قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (1) ، فلتكن أيها الخليفة ممن يتقون ٱلله قبل أن يعيدك إليه نادماً متحسراً ، فالتقوىٰ زاد المؤمن ، فاحمل زادك معك ولا يثقلك حمله مهما طالت المسافة ، فالحياة الدنيا لن تفيدك بشيء إذا فرطت بهـٰذا الزاد ، لأنها كلمح البصر تمر بسرعة ونحن نحسب الزمن يطول بنا .

إذاً الخليفة هو من يؤمن بالعود ويعلم أن العود سيكون لكل شيء في مواجهة كل شيء ، ولهـٰذا يتقي ٱلله ربه في كل قول وكل فعل وسلوك وفي كل عمل يعمله ، وهو بإيمانه منتظر لذلك اليوم العظيم ، الذي بالنسبة له سيكون فيه من المتنعمين وذلك بأسباب الأعمال الحسان التي قام بها في الحياة الدنيا ، ويعلم أن المعيد لا يظلم أحداً ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا

(1) الحجرات ، 13 .
(2) النساء ، 40ـ 41 .
(3) يونس ، 44 .

دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴾ (1) .

وقد خُلق الإنسان بموعد في هٰذه الحياة ، وسيخرج منها بموعد ، وسيعود بموعد ، وهٰذه المواعيد جميعاً بيد ٱلله لا دخل للإنسان بها وواجب عليه أن يُسَلِّم بها ويرضىٰ ، وأن يؤمن بأن وعد ٱلله حق ، فقد وعدنا ٱلله تعالىٰ بالرجوع إليه ، فكيف نجد من يكفر بهٰذا الوعد ؟ قال تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴿٤٧﴾ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (2) .

وقد بين لنا ٱلله تعالىٰ أن مسألة خلقنا كانت لابتلاء الإنسان والتمييز بين المحسنين والمفسدين ، قال تعالىٰ : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴾ (3) ، فقد خلقنا من عدم ووهب لنا الحياة بشروط وأسس حكيمة ، وأوضح للإنسان كيفية السير فيها بما يرتضيه المولىٰ عز وجل ، فمن تبع هٰذا الطريق حُقَّ له أن يخلف ٱلله في الأرض ، ومن خالفه حلت عليه لعنة ٱلله إلىٰ يوم الدين ، وذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ

(1) هود ، 101ـ108 .
(2) إبراهيم ، 47ـ52 .
(3) الملك ، 1ـ2 .

رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾ [1] .

وبين بدء الخلق وإعادة الخلق للحساب تكمن مسألة ربح الإنسان وخسارته ، فالبشر في هـٰذه الحياة منقسمون إلىٰ خاسر ورابح يوم الحساب ، والذي يحدد هـٰذه المسألة هو العمل ، عمل الإنسان نفسه ، لأنه هو زاد الإنسان يوم الحساب ، وهو الذي يرفعه أو يلقي به في الهاوية ، لا المنصب والمكانة ولا المال ولا الأولاد يغني عن الإنسان شيئاً ، بل عمل الإنسان في الحياة الدنيا هو الفيصل الأول والأخير ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [2] ، فكيف سيربح من فضّل الدنيا ونسي الآخرة ، ونشر الفساد واتبع الشيطان ؟ فالربح والخسارة يومئذ ميزانهما ما قدم الإنسان وما ادخره من زادٍ لهـٰذا اليوم العظيم ، الذي هو جامعنا للحساب ، لأن ٱلله تعالىٰ قد خلق البشر من العدم وسوّاهم وأحسن إليهم بهدف عبادته وخلافته في الأرض ، فيعمرونها وينشرون فيها الحق ، ولـٰكن تفاوت الخلق في تحقيق هـٰذا الهدف الرباني ، فمنهم من عمل جاهداً في الوصول إليه ، ومنهم من غفل أصلاً عنه ، وهـٰذا التفاوت المذهل والمعدل النسبي للتفاوت بين البشر ، استدعىٰ حساباً وجزاء للخلق ، فالنسب المتفاوتة دائماً تخرج بنتائج متفاوتة ويكون بالتالي طرق التعامل معها كذلك ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾

---

(1) الأعراف ، 42ـ45 .

(2) سبأ ، 37 .

وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾ [1] ، ففي هٰذه الآية الكريمة عدة عبر من شأنها أن توقظ فينا خشية الوقوف بين يدي ٱلله تعالىٰ منها :

أولاً : قد نبه المعيد جل جلاله الناس :

بأنهم لن يُترَكوا سدىً بعد ما قدموا في الحياة الدنيا ، فالموت ليس نهاية لهم ، كما كان في اعتقاد بعض البشر ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [2] بل الموت بداية لحياة جديدة ، لا يدرك كنهها إلا المعيد سبحانه وتعالىٰ ، أما البشر فلا يدركون إلا بعض أسرارها وخباياها ، لأخذ الحيطة والعبرة والعمل جاهداً لإرضاء المعيد سبحانه وتعالىٰ ، وحتىٰ لا يكون للناس حجة علىٰ ٱلله ، فالعلم بحرمة الأعمال يبطل أي مبرر لها ، حتىٰ إن ٱلله تعالىٰ لم يساو بين من يعمل الخطيئة عن علم بشرورها وعقابها ، وبين من يجهل بها ، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [3] .

---

(1) الحاقة ، 18ـ32 .
(2) الإسراء ، 97ـ99 .
(3) النساء ، 17ـ18 .

ثانياً : البشر قسمان عند إعادتهم للحساب :

فمنهم الضال ، الذي لم يدرك معنىٰ المعيد ولم يؤمن به ، وكذّب بعودته وحسابه ، فاستحق بذلك عذاب الجحيم ، فقد غفل هٰذا الضال عن الإعداد ليوم القيامة ، فكيف ستكون عودته دون أن يتزود بما يعينه في هٰذه الرحلة القصيرة ؟ قال تعالىٰ : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (1) ، فالغفلة عن توحيد ٱلله وذكره واتباع طريق الشقاء يكون الجحيم هو المصير لهم ، ويقفون موقف الخائفين الذين تملأ قلوبهم الرهبة والرعب ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ (2) ، وهٰؤلاء هم من اتخذوا الشياطين أولياء لهم ، وغرتهم الحياة الدنيا ، فأفسدوا وطغوا ، وتركوا أنفسهم في دروب الضلال تهيم ، فتركهم ٱلله منزوعي الأمان والشفاعة يوم الحساب ، بما استحقوه من تكذيب وفساد ، قال تعالىٰ : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ (3) ، فخسارة هٰؤلاء يوم الدين هي برهان لهم علىٰ أن ٱلله محاسب عادل .

ومنهم المهتدي الذي بحث عن رضا المعيد ، فهداه ٱلله تعالىٰ فجعل

---

(1) الأعراف ، 146 ـ 147 .

(2) النازعات ، 1 ـ 8 .

(3) المدثر ، 42ـ 49 .

حياته زاداً يحمله معه يوم الحساب ، فعمل لذلك اليوم ما ينقذه من الجحيم ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (1) ، فسبيل الهداية قد وضحه ٱلله تعالىٰ لمن أراد أن يهتدي ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (2) ، فلا هدىً بغير هدىٰ ٱلله ، وقد جعل في تنزيل القرآن الكريم طريقاً منيراً لمن طلب الهداية ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (3) ، فالقرآن الكريم منارٌ للهداية وحافظ لكل من أراد من الضلال والفساد ، والهدىٰ لابد أن يكون مطلب كل مؤمن باحث عن رضا ٱلله تعالىٰ ، فبغير الهدىٰ لا أمل له في الفوز ، ولنا في رسول ٱلله ﷺ أفضل مثل نقتدي به ، عَنْ عَبْدِ ٱللهِ عَن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَىٰ وَالتُّقَىٰ وَالْعَفَافَ وَالْغِنَىٰ » (4) .

ثالثاً : البشر يومئذٍ تنكشف أعمالهم :

فلا ستار يستر خطيئتهم ، ولا حجاب يمنعهم من المعيد لخلقهم ، لأن الإنسان قد يستطيع أن يعيش عمره وهو يخفي ما أراد عمن حوله ، لـٰكنه لن يخفي حتىٰ ما يجول بخاطره عن خالقه ، وكيف يستطيع ذلك وهو يعلم ما في القلوب ، أي يعلم السر والجهر ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ

---

(1) التوبة ، 18 .
(2) يونس ، 34 ـ 36 .
(3) الإسراء ، 9 .
(4) صحيح مسلم ج 13 ، ص 250 .

وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ [1] ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ [2] ، فالإنسان مكشوفٌ أمام المعيد في الدنيا وسيكشفه يوم الحساب ، لأن الشاهد علىٰ الإنسان هو نفسه التي خلقها ٱلله ، وأنطق ما لم يكن ينطق من أعضائه ، فأين سيكون المفر والمهرب يومئذ ؟

رابعاً : في تعبيره عن الحياة الدنيا بأنها ما كانت إلا أياماً فقط :

يوضح لنا حقيقة هـٰذه الدنيا ، وحقيقة الآخرة ، لأن الأيام هي ساعات وتنقضي لا تستحق أن نتناحر عليها ، ولا تستحق أن تنسينا عودتنا الأكيدة يوم الدين ، وهـٰذا يدل علىٰ فنائها وضآلتها ، والمؤمن الحق يتنبه لهـٰذا فلا تأخذه هـٰذه الأيام بعيداً عن الحق القائم ، بل إن المعيد قد جعل هـٰذه الدنيا أصغر شأناً وأقل قيمة في قوله تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [3] ، لقد اختصر المعيد لنا الحياة الدنيا في ساعةٍ فقط ، لأخذ العبرة والحيطة مما قد نخسره في هـٰذه الساعة ، فالرحلة زمنها ساعة وثمنها إما الجنة أو النار ، فهل تستحق أن نخسر ونضيع من أجل هـٰذه الساعة الفانية ؟ ما أقصر الرحلة وما أكثر الغافلين عن عودتهم من هـٰذه الرحلة خاسرين ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [4] .

لهـٰذا فعلىٰ خليفة ٱلله أن يتسابق إلىٰ مرضاة ٱلله ، ولا ينشغل عن التفكير

(1) الأنبياء ، 110 .
(2) النمل ، 25 .
(3) يونس ، 45 .
(4) يونس ، 7 ـ 8 .

في الحياة التي خُلق أصلاً لها ، وأن لا يخفي إلا الخير والصلاح ، فالقلب العامر بنور ٱلله تعالىٰ لن يستطيع أن يسكنه إلا المحبة والرحمة ، وهٰذه القلوب هي الناجية من الخوف والرهبة يوم الحساب ، ويكون رصيدها كبيراً من الطمأنينة والسكينة من عند ٱلله تعالىٰ بما استحقته من صفاء ونقاء وتقوىٰ ، فٱلله تعالىٰ يهدي لخلفائه الأمان في الدنيا والآخرة ويبشر النفس التي اطمأنت بٱلله أن مستقرها الجنة التي كان قد سعىٰ إليها ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾ [1] ، وأي رجوع أروع من هٰذا الرجوع الآمن لرب العالمين ؟!

خامساً : الاعتراف بالذنب يوم القيامة :

فالمذنب لن يستره المعيد يوم القيامة ، وهو في أشد الحاجة لذلك ، بل سوف يعترف بما اقترفه من ذنوب ٱلله يعلمها ، ﴿ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴾ [2] ، فلا غطاء ولا ساتر ومنجي من ٱلله ذلك اليوم العظيم للكافر العاصي الذي لم يؤمن بإعادته للحساب ، وكأن ٱلله الذي خلقه أصلاً من طين غير قادر علىٰ إرجاعه ! هٰذا هو الجهل والكفر بعينه ، فسبحان ٱلله كيف يفكرون .

فلتكن رجعتك أيها الخليفة رجعة اطمئنان وحب لله رب العالمين ، لا خوف ولا رهبة ولا ندم حيث لا ينفع الندم ، ناجياً بذلك من الوقوف في صفوف النادمين المتحسرين ، بل لابد أن تكون من المتشوقين للقاء المعيد ، لتنعم بالجنة وبمن تحب من حولك ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ

(1) الفجر ، 27ـ30 .
(2) الحاقة ، 25ـ29 .

ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (1) ، ولابد أيها الخليفة أن تسعىٰ جاهداً لأن تكون ممن آمنوا بملاقاة ربهم مجهزين بما يجعلهم من أصحاب اليمين ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ (2) ، لا تخاف أن تخفي كتاب أعمالك في ذلك اليوم الذي يكشف كل مستور ، ولا تخجل من قراءة ما فيه .

وقد بيّن ٱلله تعالىٰ للخلق جميعاً طرق الخير والصلاح ، فلا حجة للناس علىٰ رب العالمين ، الذي أشار في أكثر من آية قرآنية كريمة إلىٰ مفاتيح الفوز بالآخرة ، قبل أن يعيد الخلق للحساب ، فقد أوضح لهم ما ينفعهم في الحياة الدنيا ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝٢٩ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (3) ، فما هي حجة الكافر بعد تأكيد الخالق علىٰ إعادة الخلق بعد مماتهم من جديد للحساب ، فالآية السابقة تقرير لإعادة الخلق باختلافهم ، ونستنتج منها عدة أمور هامة منها :

1 ـ أن المعيد عز وجل قد اختصر العباد حسب ما قدموا من أعمال في مكانين لا ثالث لهما ، إما الجنة وإما النار ، ولكلٍ منهما مستحق لها ، ويكون الحساب دقيقاً لا ظلم فيه ولا جور ، فليس الصالح كالمفسد ، ولا المؤمن كالكافر ، لأن القانون الإلـٰهي العادل لن يظلم أي إنسان ،

---

(1) يونس ، 9 ـ 10 .
(2) الحاقة ، 19 ـ 24 .
(3) الأعراف ، 29 ـ 30 .

قال تعالىٰ : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ (1) ، فقد يتوه في هٰذه الدنيا الخير والشر أحياناً فلا نميز أحياناً بين الخلق ، لأن مقاييس الدنيا وموازينها كثيراً ما يصيبها الضلال ، وهٰذا يتضح في كثير من القضايا الجنائية التي إما أن تظل معلقة ، وإما أن تُبرّئ الجاني وتدين المظلوم ، وهٰذا لقصر القوانين الدنيوية ، وانحيازها ، وعدم استنادها إلىٰ شرع ٱلله ، فيكون الحساب حينها غير عادل ، في حين أن المعيد لا يختل ميزانه العادل الرباني ، ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (2) .

2 ـ التأكيد علىٰ الالتزام بأوامر ٱلله ، كالأمر بالعدل والإخلاص في الدين وموالاة ٱلله ، لندرك سبيل الحق والصلاح ، لمن أراد الفلاح في الدنيا والآخرة ، لأن إتباع أوامر ٱلله والابتعاد عن نواهيه والإيمان بما جاء به رسولنا الكريم ـ ﷺ ـ من لوازم الإيمان ومفتاح دخول الجنة ، قال تعالىٰ : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (3) .

3 ـ أن لكل عملٍ جزاء ، فالاختلاف في مكان إقامة الإنسان الأبدية يحدده عمل الإنسان في الحياة الدنيا ، إذ أن باختيار الإنسان أن يكون وليه ٱلله تعالىٰ ، أو وليه الشيطان ، ففوز الإنسان أو خسارته في الآخرة مرهون بعمل الإنسان نفسه .

---

(1) الأنبياء ، 47 .
(2) هود ، 111 .
(3) الأعراف ، 158 .

إذاً فالعمل هو محدّد واضح وفاصل بين الخلق يوم القيامة ، فكيف يتساوىٰ من يصلح في الأرض ومن يفسد فيها ؟ فالعمل إما أن يكون دليلاً للهدىٰ ، أو دليلاً للضياع وعلىٰ الإنسان أن يختار ، فمن تبع هدىٰ ٱلله فاز ومن اتبع الشيطان واتخذه ولياً قد خسر خسراناً مبيناً ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (1) ، فالطرق متعددة التي من الممكن أن يسلكها الإنسان في الدنيا ، لكنّ ٱلله تعالىٰ أوضح كل طريق فيها لمن أراد أن يتبين ، فالحق واضح والضلال واضح ، قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (2) ، فما هو رد الكافر علىٰ هـٰذا البرهان ؟ وما هي حجة الجاحد وتابع الشيطان ؟

4 ـ أن تقرير البدء والإعادة في الآية الكريمة في قوله : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ لا يترك مجالاً للشك بعد ذلك ، أو حجة للمكذبين بهـٰذه الحقيقة ، لأن الخالق عز وجل قبل أن يحدثنا عن إعادتنا ذكرنا ببدء خلقنا لارتباط كل منهما بالآخر ، وفي هـٰذا دعوة لكل الخلق في التفكير ببداية خلقه حتىٰ يصل إلىٰ نتيجة حتمية وهي أن هناك هدفاً لهـٰذا الخلق ، لأن الخالق ليس بحاجة إلينا ، فخلقنا لم يكن لحاجة بل لهدف ، لأن ٱلله تعالىٰ غني عن العباد ، قال تعالىٰ : ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (3) .

---

(1) البقرة ، 257 .
(2) لقمان ، 30 ـ 31 .
(3) الزمر ، 7 .

وليت البشر حين يتدبرون في اسم المعيد يتذكرون دائماً استحالة تخليدهم علىٰ وجه الأرض ، وأن هـٰذه الحياة لها شريعة يجب عليهم الالتزام بها ، وأن يستحضروا دائماً مصيرهم المحتوم بين يدي ٱلله ، فهـٰذا من شأنه أن يفتح كل إنسان كشفاً لحساب أعماله ، ليصل إلىٰ موازنة صحيحة من شأنها أن تصحح خطأه ، وتعيده إلىٰ الطريق المستقيم ، فالإنسان مخلوق ضعيف ، لابد أن يخطئ ، ولابد أن يتوه أحياناً ، وٱلله رحيم به فهو قبل أن يعيده للحساب يعده له ، بتخويفه وبتذكيره بعدة أشياء منها :

عندما يتوفىٰ شخص عزيز علينا ، كنا قبل دقائق معه ، لـٰكنه فجأة يرحل عنا إلىٰ عالم آخر ، فهـٰذه الدنيا لا يقيم فيها أحد إقامة دائمة ، حتىٰ أن صفوة الخلق والأنبياء مات ولم يخلّد علىٰ هـٰذه الأرض ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ (1) ، فهل هناك من يدعي الخلود بعد ذلك ؟ قال تعالىٰ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (2) ، هـٰذه الحقيقة التي أقرّها ٱلله ، لا سبيل بعدها للشك في ذلك الأمر .

والموت أيضاً يأتي بغتة لا يستأذن الإنسان ولا يطرق باب أحد قبل الدخول ، بل هو أقرب إلينا مما نتصور ، فالموت لن يمهل صاحبه لإعادة حسابه والتفكير في ما سبق وقام به ، فلا يكون هناك مجال للتراجع ولا مهلة لالتقاط الأنفاس التي ستنقطع .

(1) آل عمران ، 143 ـ 145 .
(2) العنكبوت ، 57 .

كذلك من سبقه في الحياة أين استقروا من أمم وحضارات ، جميعها بليت وعادت للتراب ، فأين الخلود الذي ينتظره ؟ ألم يتدبر في العبرة من أقوام سكنوا الأرض قبله ورحلوا دون رجعة ؟ قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (1) .

فاسم المعيد في حق ٱلله تعالىٰ يمثل أساس فهمنا لهٰذه الحياة الدنيا ، لأن المؤمن باسم المعيد يختصر كل المسافات للوصول لرضا الخالق عز وجل ، بما أنه آمن بقدرة ٱلله علىٰ الإعادة فهو مؤمن بيوم الحساب ، وإذا استحضر الإنسان هٰذا اليوم أمام عينيه وفي قلبه فقد نجا من الجحيم الذي أعده ٱلله لمن كفر بإعادة خلقه للحساب ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (2) .

وخليفة ٱلله في الأرض هو الذي يكون دائم الاستحضار لهٰذا الموقف العظيم يوم إعادته للحساب ، ويذكر رحمة ٱلله به إذ بيّن له الحجج والبراهين قبل وقوع يوم الحساب كي يعمل له ولا تنسيه هٰذه الدنيا لزوم الاستعداد للعودة مع المعيد عز وجل ، هٰذا الموعد الذي لا يعلم موعده إلا المعيد نفسه ، لٰكنه أعلم الخلق بأنه آت لا محالة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ

(1) يونس ، 13 ـ 14 .
(2) يونس ، 54 ـ 56 .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلِۭ بَعِيدٍ ﴾ (1) .

والإعادة تكون علىٰ عدة حالات تختلف بعضها عن بعض وهي :

الحالة الأولىٰ : تكون في حياة الإنسان :

فمثلاً نجد ألستنا تسبقنا أحياناً في ترديد جملة عندما نتعجب لتغير حالة شخصٍ ما فنقول : سبحان الذي يغير ولا يتغير ، وذلك عندما يكون الإنسان في حال ويصبح في حال مناقض تماماً ، كأن يكون شخصاً تاركاً للصلاة والصيام ومدمناً علىٰ الكحول أو بعض ما حرّم ٱلله ، فيصبح تقياً ورعاً يخشىٰ ٱلله ، محسناً ، وهـٰذا لا يحدث إلا عندما يعيد الإنسان النظر بهداية من ٱلله في تعامله مع ٱلله ، ونلاحظ أن هـٰذه الحوادث تحدث بأبسط الأسباب أحياناً ، وكم من إنسان عاصٍ أصبح تقياً ورعاً يدعو إلىٰ خشية ٱلله تعالىٰ بعد أن أعاده ٱلله من طريق الضلالة إلىٰ طريق الهدىٰ بعد أن وجد في نفس هـٰذا الإنسان بذور الخير ، وهـٰذه الإعادة تحدث في حياة الإنسان ، فنراه يفيق من غيبوبته ليعيش واقع الحياة ويذوق حلاوة الرجوع إلىٰ الحق ، ويذوق حلاوة الأمان بين يدي ٱلله تعالىٰ ، كأن نجد نصرانياً يسلم ويتجه إلىٰ ٱلله ، تاركاً ما كان يضله ويغويه ، فيهديه سبيل المهتدين ، أو نجد كافراً تطهر من كفره بنور الإيمان ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (2) .

وهـٰذه دعوة لأن يبحث كل إنسان عن بذرة الخير ، ويتعلم كيف يرويها من نبع اليقين بٱلله المعيد له .

الحالة الثانية : ٱلله تعالىٰ يعيد برحمته المسلم المذنب إلىٰ رحمته :

وهـٰذه الإعادة أيضاً تكون في حياة الإنسان ، فالمسلم قد يتعرض

---

(1) الشورىٰ ، 16ـ18 .
(2) القصص ، 56 .

لمغريات عدة في الدنيا ، وقد لا يستطيع مقاومة بعضها ، فيوسوس له الشيطان ، ليقع في المعصية ، ويتبع طرق الضلال التي تؤدي به إلىٰ الخسارة في الدنيا والآخرة ، لـٰكن ٱلله تعالىٰ يعيده بالرحمة والهداية إلىٰ طريق الصلاح ، لذلك فإن البدء بارتكاب الذنوب ليس معناه الخروج من رحمة ٱلله خروجاً نهائياً ، لأن رحمته موجودة إذا طلبها المذنب بالتوبة ، لأن باب التوبة والمغفرة ستعيدانه مرة أخرىٰ لرحمة ٱلله ، فأمل الفوز برضا ٱلله تعالىٰ علينا لا بد أن يكون مزروعاً ومروياً بحب ٱلله وخشيته ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (1) ، وهناك قسمان من المذنبين ، قسمٌ ارتكب المسلم فيه الذنب وهو مدركٌ له ، وقسمٌ يعمل الذنب وهو جاهل به ، لا يدرك فحوىٰ ما اقترفه ولا ما يترتب عليه من عاقبة ، قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (2) ، فٱلله تعالىٰ معيد حتىٰ في حياة الإنسان نفسه ، لأن الخروج من حالة والرجوع بحالة هي إعادة .

الحالة الثالثة : عند خروج الإنسان من هـٰذه الدنيا :

التي قد تكون مليئة بالمعاصي لمن طلبها ، والحسنات لمن سعىٰ وراءها ، ولمن أراد اقتطاف حسناته استطاع ، ومن أراد جمع المعاصي استطاع ، بعد أن أوضح الخالق الحق من الباطل ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ

---

(1) الزمر ، 53 .
(2) النحل ، 119 .

عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ (1) ، وهنالك فرقٌ كبير بين من طلب الحسنات ومن طلب المعاصي ، فالفاصل بين البشر يوم القيامة هو هٰذا الخيار الذي يختاره البشر بإرادتهم .

الحالة الرابعة : إعادة الخلق بصفة عامة لطريق الهداية :

وذلك بإرسال الرسل والأنبياء ، لأن كل الرسالات السماوية تهدف لهداية البشر لتوحيد ٱلله تعالىٰ ، ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (2) ، وكل الرسالات السماوية أيضاً تبشر وتنذر من يوم الحساب ، فلم يعد لأي إنسان حجة لكفره وعصيانه ، قال تعالىٰ : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (3) .

الحالة الخامسة : إعادة الحياة قد تكون فورية :

أي فور مفارقة الحياة ، فقد أكرم ٱلله تعالىٰ وخصص لعباده الشهداء إعادتهم للحياة فور مفارقتهم لها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (4) ، فتكريم المعيد لهٰؤلاء الشهداء جاء علىٰ شكل إعادة الحياة لأرواحهم كمكافأة لهم علىٰ استرخاص حياتهم في سبيل ٱلله تعالىٰ ، وهٰؤلاء الشهداء يبعثون لنا رسالة واضحة تبيّن لنا قيمة الحياة

---

(1) الكهف ، 55ـ57 .
(2) الأنعام ، 48 .
(3) النساء ، 165 .
(4) آل عمران ، 169ـ171 .

الآخرة ، فعملهم في الحياة الدنيا هو نتيجة إيمانهم بٱلله ويقينهم بإعادة الخالق لهم .

الحالة السادسة : قد تكون الإعادة من الحياة الدنيا إليها :

وذلك بأن يتخذ أولـٰئك البشر العصاة عبرة وعظة من ذلك ، فٱلله عز وجل قد أماتهم وهم أحياء علىٰ وجه الدنيا ، ثم أعادهم إلىٰ الحياة مرة أخرىٰ ليتيقنوا من قدرة ٱلله تعالىٰ علىٰ الخلق والإعادة ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (1) ، وذلك من رحمة ٱلله بعباده ، علهم يشكرون تلك النعمة التي تتجسد في فرصتهم للنجاة من الجحيم ، فالقادر علىٰ إعادتهم للحياة قادر علىٰ إعادتهم للحساب إذا كانوا يتفكرون .

والمعيد له دلالات واضحة للبشر إذا أرادوا فهمها ما استعصت علىٰ أحد ، وما استحال ذلك عليهم لتجليها مثل :

1 ـ الإعداد ليوم الحساب :

فالامتحان لابد له من الاستعداد لمن أراد النجاح ، وكيف ننال درجات عالية في كتاب أعمالنا اليومية ؟ وقد أعدنا ٱلله باسمه المعيد للوقوف بين يديه يوم تقوم الساعة ، فقد قرن ٱلله تعالىٰ في كثير من الآيات القرآنية بين بدء الخلق وإعادته ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن

---

(1) البقرة ، 56 .

(2) الروم ، 11 ـ 15 .

يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [1] ، والرجعة هنا هي أقوىٰ دليل علىٰ عودتنا ، فمن رحمة ٱلله تعالىٰ بعباده أنه لم يتركهم سدىً في هـٰذه الحياة ، الضعيف يستعبده القوي ، والغني يأكل حق الفقير ، والصالح مثل المفسد ، بل جعل لنا مقاييس للتقوىٰ ، وقوانين نسير عليها إذا أردنا النجاح والفوز يوم الحساب وهي :

إيمان مقرون بعمل صالح فحسن الخاتمة لنا سيكون بإذن ٱلله ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [2] ، فالإيمان يترجمه العمل الصالح ليصل الإنسان لحسن الخاتمة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [3] ، فالعمل الصالح يعبر عن قوة الإيمان وعمقه ، وهـٰذا الإيمان الذي يُسكِن صاحبه جنات النعيم .

والشكر لله تعالىٰ علىٰ نعمه علينا ، والشكر المقصود هنا لله تعالىٰ لا يكتمل إلا بالعمل الصالح والانتهاء عن ما نهىٰ ٱلله تعالىٰ ، وهـٰذا يتضح من خطاب ٱلله لآل داوود في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [4] ، فقد كان الشكر بالعمل لا بالقول فقط ، كما وضحته الآية السابقة .

---

(1) يونس ، 34 ـ 37 .
(2) الكهف ، 88 .
(3) الزخرف ، 72 ـ 73 .
(4) سبأ ، 12 ـ 13 .

ووضّح لنا سبل الهداية والضلال ، فقبل أن يعيدنا ٱلله تعالىٰ للحساب فقد أوضح لنا موطن الشقاء وموطن السعادة ، بعد أن أهدانا العقل للتمييز بين الحق والباطل ، وطوبىٰ لمن كان ممن أصلح واتقىٰ ، في قوله عز وجل : ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (1) ، وكذلك قال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (2) ، فقد شرحت الآية الكريمة السابقة أن ٱلله قد أبدع في خلق هٰذا الكون ليكون دليلاً لمن أراد أن يهتدي في هٰذه الدنيا ، فكل ما في الكون ينطق بوحدانية ٱلله تعالىٰ وبواجب طاعته وبقدرته ، وأن هٰذه الحياة لن تدوم فكل من عليها فانٍ ، حتىٰ إن صفوة خلق ٱلله الرسول ﷺ قد مات ولم يُخلّد ، وأن الإعادة بعد الموت والرجوع لله تعالىٰ لينظر في أعمال العباد ، وبعد كل هٰذا هل سيجد الكافر ما يتحجج به يوم يقوم للحساب ؟!

2 ـ مباغتة يوم الحساب للبشر :

وفي هٰذا مبعث للخوف والتشويق والانتظار ، فنحن متيقنون أن يوم الحساب آتٍ لا محالة وفي أية لحظة يشاء ٱلله ، قال تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ

---

(1) الأعراف ، 30 .
(2) الأنبياء ، 31ـ35 .
(3) الأحزاب ، 63 .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ [(1)] ، والإيمان بذلك من لوازم الإيمان بٱلله ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [(2)] ، والتشويق من شأنه أن يدفع الإنسان الصادق لحب اللقاء ، لقاء المعيد عز وجل يوم الحساب ، في حين أن علمها عند واضعها فقط ، حتىٰ إن جميع الرسل والأنبياء الذين جاؤوا للتأكيد علىٰ قيامها وحسابنا لا يعلمون عنها ، مع أنهم صفوة الخلق جميعاً ، قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [(3)] ، فالجهل بالشيء المعلن عنه دون تحديد موعده من شأنه أن يجعل الإنسان في حالة ترقب دائم ، وكذلك في حالة من الخوف والرهبة لأنك لا تخاف مما تعلمه وإنما خوفك مما ينتظرك في الغيب ، قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [(4)] ، فترك علم الساعة لله وحده فقط له حكمة وهدف عظيمان ، ولو كنا علىٰ علم بها لانقلبت موازين حياتنا ، وما كنا لنحيا بشكل طبيعي ، والدليل علىٰ هـٰذا أنا نلاحظ أن هناك من يصاب بأمراض خطيرة وعلىٰ إثرها يعطي الأطباء له مدة محددة للحياة ، عندها تنقلب حياته رأساً علىٰ عقب ويفقد كل رغبة له بالعيش والاستمتاع بالحياة ، ويظل في دائرة الكآبة يدور ، لكنّ المعيد أكد لنا قربها ووقوعها في أية لحظة ، وهـٰذا دافعٌ لذوي الألباب للعمل علىٰ لقاء الرحمـٰن بقلب خاشع ، مع خالقهم الذي صدق وعده .

---

(1) الشورىٰ ، 17ـ19 .

(2) المائدة ، 69 .

(3) الأحزاب ، 63 .

(4) الزخرف ، 66 .

فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ (1) ، فما قرّب العبد من ربه إلا كثرة ذكره لخالقه عز وجل ، ومن لا يجف لسانه من التسبيح والحمد والاستغفار .

وٱلله يعطي الفرص لكل تائب صادق التوبة ، ويفتح أمامه أبواب من الرحمة ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رسول ٱلله ﷺ قَالَ : « يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ فَيَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ » (2) .

والعمل الصالح له أشكال ووجوه لا نستطيع الإلمام بها بسهولة ، إذ أن كل عمل يرضاه ٱلله تعالىٰ عمل صالح .

رابعاً : الخشية من المعيد الذي ينتظر الوقوف أمامه : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : « لاَ يَبْكِي أَحَدٌ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ فَتَطْعَمَهُ النَّارُ حَتَّىٰ يُرَدَّ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ وَلا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي مَنْخَرَيْ مُسْلِمٍ أَبَداً » (3) ، فخشية ٱلله تعالىٰ غيباً من شروط المغفرة والفوز بالجنة التي أعدها المعيد لمن يؤمنون به ويخشونه ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ (4) ، ومع ذلك فإننا قد نصادف في هـٰذه الدنيا أحياناً من يخافون البشر أكثر ممن يخافون خالق البشر جميعاً ، وكأن أحداً منهم بيده العقاب والجزاء ، أو الحياة والموت ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ

(1) آل عمران ، 191ـ193 .
(2) موطأ مالك ، ج 2 ، ص 148 .
(3) سنن الترمذي ، ج1 ، ص 155 .
(4) الأنبياء ، 49 .

الاعتدال في طلب الدنيا ، فالتوازن مطلوب دائماً للبشر في حياتهم .

فعين الخليفة يجب أن لا تنظر إلىٰ معصية ، بل يكون غرضها الوصول إلىٰ خشية ٱلله ، والغض عن ما حرّم ٱلله تعالىٰ ، لأنها في حالة ترقب ليوم الإعادة الذي في أي لحظة هو آت ، فينجو من المهلكة والخسارة ، وأن يكون ذلك القلب الذي لا يسهو عن ذكر المعيد ، فإنه يعمر بهـٰذا الذكر في الدنيا وينجو في الآخرة من سوء المصير ، لأنه لا يفلح من كانت الدنيا كل همه ، فعلىٰ من أراد أن يدخل في خلافة الأرض بحق أن يملك عيناً يمتد بصرها إلىٰ خارج حدود هـٰذه الدنيا ، فلا تتمتع بما هو مفسدة ، لأن الحياة الدنيا ما هي إلا متاعٌ زائل ، وأن يحمل قول ٱلله تعالىٰ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (1) .

4 ـ تصبير قلب المؤمن علىٰ البلاء :

ولا نجد أعمق من صورة قدمها لنا آل ياسر ، الذين جسدوا أروع نموذج لإيمانهم بٱلله المعيد جل جلاله ، فما صبرهم وما تحملهم علىٰ أذىٰ الكفار ليرجعوا عن دين ٱلله تعالىٰ إلا ليقينهم بأن ٱلله معيدٌ لهم وما هي إلا دار فناء لن يخسروا من أجلها دار البقاء ، هـٰذه المعادلة الصحيحة التي بُشِّر من أجلها آل ياسر بالجنة ، عن ابن إسحاق قال : كان عمار بن ياسر وأبوه وأمه أهل بيت إسلام ، وكان بنو مخزوم يعذبونهم ، فقال رسول ٱلله ﷺ : « صبراً يا آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة » (2) ، فالتقرير هنا بأن موعدهم قد سُجِّل في الجنة حيث سيلاقون هناك أجر ما آمنوا به .

وهـٰذه الصورة الخالدة المقرة لعودة الخلق ، ما هي إلا تجسيد لمعنىٰ

---

(1) آل عمران ، 185 .

(2) المستدرك علىٰ الصحيحين للحاكم ، ج 13 ، ص 104 .

الإيمان بالمعيد ، وإلا ما كان هـٰذا الينبوع القوي الذي تدفق داخل نفوسهم ليشد عزيمتهم ويصبرهم علىٰ هـٰذا البلاء الذي لولاه لما هانت عليهم آلامهم وعذابهم .

وبهـٰذه الصورة نخرج بما يمكن أن يُحْدِثه من تغيير الإيمان بهـٰذا الاسم ، فمن شأنه أن يجعل للضعيف أملاً في حقه الذي سُلِب ، وفي المظلوم الذي اتهم بهتاناً وزوراً ، ومن شأنه أن يجعل المؤمن صابراً علىٰ الابتلاءات والمحن ، ثابتاً عند المصائب ، قال تعالىٰ : ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (1) .

فليصبر المؤمن علىٰ البلاء ويستعين بٱلله المعيد ، ويجعل إيمانه بيوم عودته بَرَداً يثلج صدره عند الحاجة ، بهـٰذا سيصل إلىٰ أعلىٰ درجات الصبر والثبات .

وقد أوضح ٱلله لنا من خلال اسمه المعيد بعض إعداداته لنا يوم الحساب ، وهـٰذا من شأنه أن يفتح باب اختيار الدرب الذي يسلكه الإنسان ، فقد ترك ٱلله علم الساعة خافياً عن البشر ، كي يسعىٰ كلٌّ بما رغب ، فالمؤمن يسعىٰ للآخرة من خلال الحياة الدنيا ، والكافر يسعىٰ للدنيا فتلهيه عن الآخرة وتنسيه إياها إلىٰ أن يفوت الوقت لمعرفة ذلك ، لـٰكنه ترك أيضاً بعض الجوانب فيه معلوماً لنا ، مثل قوله تعالىٰ : ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ

---

(1) غافر ، 15ـ20 .

﴿ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (1) ، وقد جاء ٱلله بوصف الجنة والنار في كثير من الآيات القرآنية وذلك للترغيب والترهيب ، وبذلك لن يكون الإنسان غافلاً أو جاهلاً بما سيلاقيه حسب ما قدّم من أعماله هو يعلمها ، فأما الكافر فله نار لا يفر منها لأي مكان ، قال تعالىٰ : ﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾ (2) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (3) ، أما المؤمن المهتدي فله جنة لا يمكن أن يتخيلها العقل ، بل يتشوق لدخولها كل مسلم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ (4) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ (5) ، فمن بٱلله لا يشتهي هٰذا النعيم ؟ ومن لا يرغب بهٰذه الجنة ؟ بالتأكيد إلا الجاهل أو الضال والمشرك والكافر الذين لا يعلمون علم اليقين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ (6) .

---

(1) آل عمران ، 133 .
(2) الهمزة ، 4ـ7 .
(3) النساء ، 56 .
(4) النساء ، 57 .
(5) الصافات ، 40ـ49 .
(6) الشورىٰ ، 17ـ19 .

فلتكن عينك علىٰ الجنة أيها الخليفة أينما توجهت ، وتذكر أنها ذات أبواب مشرعة أمامك بعملك الصالح وإيمانك بالرجوع للحساب ، وأن فوقك المعيد يُعِيدُك لهـٰذا اليوم العظيم الذي لا يخلف وعده مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝٨ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١١ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ۝٦١ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝٦٢ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ۝٦٣ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (2) .

فخليفة ٱلله تعالىٰ علىٰ الأرض عليه أن يستحضر هـٰذا اليوم دائماً ، فلا ينشغل بملاهي الدنيا عن عودته للقاء خالقه ، هـٰذا من شأنه أن يزوده بنورٍ وحلاوة لا يستطيع أن يتذوقها أي كان ، فمن نعم ٱلله علىٰ من ارتضاهم خلفاء له وأولياء أن يطمئن قلوبهم بحلاوة ذكره ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ (3) ، فعلىٰ خليفة ٱلله أن يجعل ذكر المعيد في قلبه ، وعلىٰ لسانه ، وأن يكون يوم اللقاء معه مطلباً وغاية .

---

(1) الروم ، 6ـ12 .
(2) مريم ، 61ـ64 .
(3) الرعد ، 28 .

كذلك أوضح المعيد أنه سيعيد خلق المرء علىٰ نفس صورته التي كان عليها في الحياة الدنيا ، وهو عارٍ من كل الأقنعة التي كان يرتديها أمام الناس ، فلا قناع ولا حجاب بين العبد وربه ، ولا يأتيه حبيب ولا حميم ، ولا يرافقه والد ولا والدة ، ولا يشهد معه أحد ، فلن يدافع عنه محامٍ في محكمة ، بل هناك قضاء عادل والشهود هم أعضاؤه وجوارحه التي خلقها من أعادها للحساب ، قال تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (1) ، فلا كذب ولا تزوير للحقائق ، ولا شهادة زور ، ولا رشوة يوم الحساب ، كل شيء هو كما هو فلا تبديل لخلق الرحمـٰن ، والخلفاء هم أولياء ٱلله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ (2) .

ومن المعروف أنه نحن البشر مكونون من أحاسيس ومشاعر متفرقة ، ونحتاج للدفع والتثبيت أحياناً ، ومن شأن اسم المعيد أن يمدنا بكل ما نحتاجه من هـٰذه الأحاسيس ، وهـٰذه سمة وإن تكن متفاوتة في نفوسنا ، فهناك من ينزلق في الأخطاء بسهولة ، وهناك من يصعب انزلاقه فيها ، وهناك من يضعف أمام المغريات للحظة ، وهناك من يثبت ولا ينجر وراءها ، لكنّ ٱلله تعالىٰ يدفعنا جميعاً لملاقاته في أحسن صورة ، ويثبت قلوبنا علىٰ مبدأ الدين الحق ، وتثبيت القلوب لا يأتي إلا من عند ٱلله تعالىٰ ، وعند حاجة المؤمن للثبات

(1) فصلت ، 20 ـ 23 .
(2) يونس ، 62 ـ 63 .

يجد ٱلله تعالىٰ معه لا يتخلىٰ عنه ، وما أن يطلبه يجده ، وقد كان لنا في حياة الرسول ﷺ عبرة وعظة ، فقد ثبت ٱلله قلبه في مسيرة دعوته بالقرآن الكريم ، وهـٰذا سبب نزول القرآن مفرقاً علىٰ الرسول ﷺ قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ (1) ، فمع اشتداد الأزمات علىٰ الرسول ﷺ احتاج فؤاده إلىٰ تثبيت وتصبير علىٰ هـٰذه المعاناة ، فكان رحمة من ٱلله تعالىٰ أن ثبت قلبه بالقرآن الكريم ، والمؤمن دائماً معرض لامتحانات في هـٰذه الحياة لهـٰذا فهو بحاجة دائماً إلىٰ دعم وتثبيت من المولىٰ عز وجل ، ليقوىٰ إيمانه ولا يتزعزع .

إن الدنيا لا يمكن إعمارها وإصلاحها إلا علىٰ أيدي طلاب الآخرة ، ولـٰكن كيف تُطلب الآخرة ؟

أولاً : أن يكون الإنسان علىٰ يقين أن طريق الاستقامة لا يمكن أن يسلكها مع رفقاء الشيطان ومجالس اللهو ، وأن لا يتخذ أعداء ٱلله تعالىٰ أولياءً له ، قال تعالىٰ : ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (2) .

وأن يكون من المحسنين ، لأن من شأن الإحسان أن يجعل المرء في مراقبة دائمة لذاته ، ففي حديث جبريل لما سأل رسول ٱلله ﷺ عن الإحسان قال : « أخبرني عن الإحسان » . قال : « أن تعبد ٱلله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (3) ، فمراقبة ٱلله تعالىٰ في كل صغيرة أو كبيرة نقوم بها ، من شأنه أن يخلق لدينا مؤشراً عند الوصول لتخطي حد من حدود ٱلله تعالىٰ ، فننتبه ونرجع ، ومحاسبة النفس دائماً وسؤالها ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ

(1) الفرقان ، 32 .
(2) المائدة ، 80 ـ 81 .
(3) صحيح مسلم ، ج 1 ، ص 28 .

﴿مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (1) ، فلن يزل من كان مع ٱلله دائماً ، وسيكون راعياً لدينه ، لأن ٱلله في قلبه وعقله ، وسيسير علىٰ هٰذه الأرض ملازماً لأولياء ٱلله ومبعداً عن أولياء الشيطان .

ثانياً : أن يعلم الإنسان أنه عندما يودِّع أنفاس الحياة ، لا يبقىٰ لديه إلا عمله الصالح ، وهو الذي يجعل ذكره في الدنيا خيراً ، وفي الآخرة نجاة له من الجحيم ، حتىٰ إن كل عمل سيء أو فاسد قام به الإنسان في حياته ينقطع عند ما يودع الدنيا ، لكنّ بعض الأعمال الصالحة التي كان يقوم بها تبقىٰ علىٰ قيد الحياة حتىٰ إعادة الخلق للحساب ، مثل الصدقات والدعاء ممن أحسن معاملتهم في الدنيا ، قال تعالىٰ : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ (2) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (3) ، والعمل الصالح هو الشاهد علىٰ العبد يوم الحساب ، فلا يخفىٰ علىٰ ٱلله أي عمل مهما كبُر أو صغُر ، فهناك ميزان دقيق لا يصل لدقته الحساب البشري ، قال تعالىٰ : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ (4) ، فالعمل الصالح يكون في عدة أشكال منها :

(1) آل عمران ، 133 ـ 134 .

(2) الجاثية ، 30 .

(3) البقرة ، 277 .

(4) الزلزلة ، 1 ـ 8 .

أ ـ **الإنفاق في سبيل ٱلله** ، قال تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (1) ، لأن من شأن الإنفاق أن يضاعف الحسنات فيكبر عمله الصالح ، ويتزايد .

ب ـ **قول المعروف** : فقد أمرنا ٱلله تعالىٰ بقول المعروف والبعد عن القول السيء الذي يحمل الأذىٰ للناس ، وأن تكون النية خالصة لوجه ٱلله تعالىٰ ، في أي عمل يقوم به الإنسان ، لأن هناك من يعمل لنيل رضا ٱلله ، وهناك من يعمل أملاً في إرضاء الناس وشكرهم له ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (2) .

ج ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (3) ، فمن شأن هـٰذا أن يرفع الأمة الإسلامية إلىٰ درجات الرقي والرفعة ، وأن يحفظ حقوق البشر ، ونشر الفضيلة بين المسلمين .

---

(1) البقرة ، 261 ـ 262 .

(2) البقرة ، 263 ـ 264 .

(3) التوبة ، 71 .

د ـ **الصبر علىٰ ابتلاء ٱلله تعالىٰ في الدنيا** : قال عز وجل : ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ (1) .

هـ ـ **اللإكثار من ذكر الرحمـٰن** : قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (2) ، فمن أساسيات حب ٱلله لعبده ، هو كثرة ذكر العبد لله تعالىٰ ، فمن ذكر ٱلله ذكره ، ومن نسي ٱلله نسيه ، فمن أراد محبة ٱلله وقربه ذكره ليل نهار .

و ـ **الإحسان للقريب والبعيد** : قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ (3) .

ز ـ **الجهاد وبذل النفس في سبيل ٱلله** : قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (4) .

ثالثاً : **الاستغفار** : والإكثار من ذكر ٱلله تعالىٰ ، وهـٰذا هو الحب الذي من شأنه أن يرفع الإنسان درجات ، وأن يقربه من خالقه ، ويكون سبباً في نجاته عند إعادته يوم الحساب ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ

---

(1) الرعد ، 22 .
(2) آل عمران ، 191 .
(3) النساء ، 36 .
(4) البقرة ، 218 .

فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ (1) ، فما قرّب العبد من ربه إلا كثرة ذكره لخالقه عز وجل ، ومن لا يجف لسانه من التسبيح والحمد والاستغفار .

وٱلله يعطي الفرص لكل تائب صادق التوبة ، ويفتح أمامه أبواب من الرحمة ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رسول ٱلله ﷺ قَالَ : « يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ فَيَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ » (2) .

والعمل الصالح له أشكال ووجوه لا نستطيع الإلمام بها بسهولة ، إذ أن كل عمل يرضاه ٱلله تعالىٰ عمل صالح .

رابعاً : الخشية من المعيد الذي ينتظر الوقوف أمامه : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : « لاَ يَبْكِي أَحَدٌ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ فَتَطْعَمَهُ النَّارُ حَتَّىٰ يُرَدَّ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ وَلا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي مَنْخَرَيْ مُسْلِمٍ أَبَداً » (3) ، فخشية ٱلله تعالىٰ غيباً من شروط المغفرة والفوز بالجنة التي أعدها المعيد لمن يؤمنون به ويخشونه ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ (4) ، ومع ذلك فإننا قد نصادف في هـٰذه الدنيا أحياناً من يخافون البشر أكثر ممن يخافون خالق البشر جميعاً ، وكأن أحداً منهم بيده العقاب والجزاء ، أو الحياة والموت ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ

---

(1) آل عمران ، 191ـ193 .
(2) موطأ مالك ، ج 2 ، ص 148 .
(3) سنن الترمذي ، ج1 ، ص 155 .
(4) الأنبياء ، 49 .

﴿ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (1) .

خامساً : الابتعاد كل البعد عن النفاق والمنافقين : فالنفاق داء يؤدي بصاحبه إلىٰ التهلكة ، ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ (2) ، فهٰذه الصفة المنفرة في بعض الناس لابد أن نحتاط منها ، بل ونحاربها ، كي لا يتفشىٰ خطرها بين المسلمين .

ولنا في تاريخ البشرية أكبر عظة لنا في الخلق والعدم ، فكما نتداول قول أن التاريخ يعيد نفسه ، فالبشر يتكررون بكفرهم وفسادهم ، وكل زمن كان له رسله وأنبياؤه لهدايتهم ، ومنهم من اهتدىٰ ومنهم من عصىٰ ، والقرآن الكريم جاء علىٰ ذكر معظم هٰذه الأقوام للعبرة والعظة ، فكلما تكررت الحوادث زاد الفهم واستوعب الإنسان الدرس ، قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ (3) ، وأيضاً قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (4) .

---

(1) النساء ، 77 ـ 78 .
(2) النساء ، 138 ـ 140 .
(3) الأعراف ، 94 .
(4) الأعراف ، 168 .

المعيد هو الذي بيده قرار الإعادة لما بدأ خلقاً ، أي أنه مالك الأمر الذي إن شاء شيئاً قال له كن فيكون ، والخليفة هو المؤمن بأن أمر ٱلله نافذ ، وبالتالي أمر العود مكتوب ، ولأنه مكتوب ، فلابد أن يتحقق بفعل الأمر (كن) . قال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (1) .

والعبرة قد تكون متجسدة في أشخاص بعينهم مثل قارون الذي طغىٰ بما أعطاه ٱلله وعصا ، ونسب الفضل في كل ما لديه إلىٰ قدرته البشرية وعمله ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ (2) ، أو في أقوام كاملة ، كانت قد أصبحت مثلاً وعظة لكل من أراد استيعاب الدرس ، مثل قوله تعالىٰ : ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ (3)١ .

والعجيب أنه بعد كل تلاحق هٰذه العبر ، وتكرار العظات ، مازلنا نجد كفراً يعم نفوساً ؟ فتطلب غير ٱلله تعالىٰ ؟

والمعيد يدل علىٰ أنه :

أولاً : قادرٌ ومهيمنٌ :

فقدرته وهمينته واضحة في الخلق والإعادة ، وهٰذه القدرة والهيمنة علىٰ الخلق تكون في حياتهم وفي مماتهم ، فلا يخرج الإنسان من هيمنة خالقه

(1) النساء ، 47 .
(2) القصص ، 76 .
(3) هود ، 89 .

بمجرد خروجه من الحياة ، مثل الذي يخرج من سيطرة رب عمله بمجرد استقالته من العمل ، فلا يعود له سلطة عليه ، فرب العالمين هيمنته علينا في الحياة وخارج الحياة وبعد الحساب ، وتتجسد قدرته هـٰذه كل ليلة ؛ لأن الإنسان حين ينام فإنه يكون بين الحياة والموت ، عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَوَىٰ إِلَىٰ فِرَاشِهِ ؛ قَال : « بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا . وَإِذَا قَامَ ؛ قَالَ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ » (1) . ونحن لنا في رسول ٱلله ﷺ مثالٌ نحتذي به ، وهو لا ينطق إلا بالحق ، وقد جاء حديث الرسول عليه الصلاة والسلام مفسراً لقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (2) .

ثانياً : المعيد حسيب :

فلو لم يكن حسيباً لما كان معيداً ، ولما حاسب عباده علىٰ كل عملٍ مهما كبُر أو صؤل ، وحسابه يكون أحياناً معجلاً أو مؤجلاً ، ولـٰكن الحساب الكبير يكون يوم يعيد الخلق يوم القيامة ، فهو مُحاسبٌ بإعادته للخلق ، وعرضهم أمامه ، قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ (3) .

فعلىٰ خليفة ٱلله تعالىٰ أن يعلم أن إعادته مرتبط بحسابه ، وأن يكون متيقناً بمحاسبة المعيد له ، وأن يعلم أنه عند تناثر ذنوبه والغفلة عن محاسبة النفس ، فلن يفيق إلا عند الموقف الأعظم ، وأن يعلم أيضاً أن ٱلله يخفي حسابه علىٰ من حاسب نفسه في الدنيا ، وأن يدرك أن التحسب بٱلله في الدنيا دفع للمحن والبلاء ، وخيرٌ له في الآخرة ، ويجب عليه أن يعلم أن ٱلله أسرع الحاسبين ،

---

(1) صحيح البخاري ، ج19 ، ص 374 .
(2) الزمر ، 42 .
(3) الحاقة ، 18 .

وهـٰذا دافع للخليفة كي يحاسب نفسه ، قبل أن يأتي يوم الحساب الكبير ، عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّىٰ عَلَىٰ ٱللهِ » (1) .

وَيُرْوَىٰ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ : « حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ وَإِنَّمَا يَخِفُّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا » (2) .

ثالثاً : المعيد هو الآخر :

فهو الآخر الذي انتهت إليه العباد ، فلا آخر بعده ، فقد كان ٱلله ولم يكن شيء غيره ، وكل شيء هالك إلا وجهه ، وهو الذي تنتهي إليه عبودية وإرادة المخلوقات ، فكيف يكون المعيد للخلق وهو ليس بالآخر ؟ ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (3) ، فإعادة العباد للحساب تتطلب أن يكون المعيد هو الآخر .

وعلىٰ خليفة ٱلله تعالىٰ أن يتعلق بالحي الذي لا يموت ، بالآخر المعيد ، الذي سيقف أمامه يوم الحساب ، فليعمل ما ينفعه في ذلك اليوم الموعود .

رابعاً : المعيد باقٍ :

قال تعالىٰ : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ (4) ، كل شيء فانٍ لأن كل شيء مخلوق ، فالخلق محدد ببداية ونهاية ، بيد المبدئ والمعيد ، لكنّ الخالق عز وجل لا يفنىٰ وكيف يفنىٰ وهو لا زمان له ، بل هو قبل الزمان ، وهو سبحانه متصف بالبقاء رغم الفناء لكل شيء ، فكيف يفنىٰ

---

(1) سنن الترمذي ، ج 8 ، ص499 .
(2) المصدر السابق ، ص 499 .
(3) الحديد ، 3 .
(4) الرحمـٰن ، 26 ـ 27 .

جل جلاله ؟ إنه الحق والحق باقٍ لا يفنىٰ وهو المعيد لكل من يفنىٰ .

خامساً : المعيد ودود :

إن ٱلله تعالىٰ يعيدنا بوده من الضلالة إلىٰ الهدىٰ بوده ورحمته للبشر ، ويعيدنا بعد الممات إلىٰ الحياة ليفصل بين المحسن والمسيء ، فكل مخلوق سيأخذ حقه فلا يُظلم عنده أحد يوم الحساب ، وقد ودنا المعيد بتجهيزنا ليوم الحساب ، وعرض علينا بعض ما فيه من نعيم وعذاب ، ومن مظاهر وده لنا هو إهداؤنا الفرص المتكررة للعودة للحق ، والبعد عن الباطل ، وكذلك وده ظاهر للمتقين يوم الدين الذي أعد لهم ما يستحقونه من جنات النعيم ، قال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴾ [1] ، وهو ودود حتىٰ للعصاة بتذكيرهم بالعبر والمواعظ التي مرت بالتاريخ البشري ، ويريهم آيات عديدة في هٰذا الكون علهم يفيقون ويرجعون إلىٰ صوابهم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [2] .

فعلىٰ خليفة ٱلله أن يعمل علىٰ تجهيز نفسه للحساب أمام المعيد ، وأن يحاسب نفسه قبل أن يُعاد للحساب ، وعليه أن يكون من أرباب القلوب التي لا تحتمل وجع الذنوب ، بل ترنو إلىٰ لقاء علام الغيوب .

سادساً : المعيد مميت :

هو الذي يميت الخلق للإعادة من جديد للحياة ، حياة تبدأ بالحساب ، فهو معيد الحياة للخلق بعد الممات ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(1) مريم ، 60 ـ 63 .

(2) القصص ، 43 .

وَٱلْأَرْضِۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (1) ، فمسكن الأرواح لديه عز وجل ، ومصيرها العودة إليه ، كيف لا وهو خالقها ومالكها ؟

فليت الإنسان يحافظ علىٰ هـٰذه الأمانة الثمينة التي أودعها ٱلله وهي الروح فينا لحين استردادها ، لا نضيعها في مسالك الضلال ، ولا نهينها في اتباع الشيطان .

سابعاً : المعيد محيٍ :

فهو الذي بدأ الخلق من نطفة لهدف وغاية ، والغاية هي إعادة إحيائنا للحساب ، فيحيي ٱلله الأجسام البالية بإعادة الأرواح إليها يوم البعث ، لأن كل الخلق هو ملك لله تعالىٰ : ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ (2) ، فٱلله تعالىٰ يحيي الإنسان في الدنيا وفي الآخرة .

ثامناً : المعيد رقيب :

قال تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾ (3) ، بما أن ٱلله معيد لخلقه فلزم ذلك أن يكون رقيباً عليهم ، قال تعالي : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (4) ، لأن الحساب يوم إعادة الخلق تطلب مراقبة العباد ، وعدم الغفلة عن أعمالهم ، فكيف يغفل عن ذلك من لا تأخذه سنة ولا نوم ؟

فليعلم الإنسان أن كل ما يقوم به من قولٍ أو فعلٍ عليه رقيب ، كي يكون

---

(1) التوبة ، 116 .
(2) النور ، 64 .
(3) الأحزاب ، 52 .
(4) المائدة ، 117 .

يوم عودته إلىٰ ٱلله عليه شهيداً ، فلا يُظْلم ، وليعلم أنه لا يحيا في هٰذه الدنيا ليفعل ما يريد ، قال تعالىٰ : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ (1) .

تاسعاً : المعيد باعث :

قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (2) ، إن ٱلله تعالىٰ معيد ببعث الأرواح والأجساد يوم الحساب ، لأنه باعث الموتىٰ يوم النشور ، قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (3) ، هٰذا اليوم الذي كان بعض الخلق يكفرون به ، ولا يلقون له بالاً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ (4) .

فعلىٰ خليفة المعيد جل جلاله في الأرض أن يكون علىٰ يقين أن المعيد باعث الموتىٰ يوم الحساب ، فيرقىٰ عن المعاصي ، وليعمل علىٰ تحصيل أعلىٰ المراتب عند المعيد عز وجل .

---

(1) ق ، 17 ـ 21 .
(2) البقرة ، 55 ـ 57 .
(3) البقرة ، 56 .
(4) يس ، 48 ـ 52 .

عاشراً : المعيد قادر :

قدرة ٱلله تعالىٰ تتجلىٰ في الخلق والإعادة ، قال تعالىٰ : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (1) ، فالإعادة في حق المعيد بالإطلاق ليست مجرد تكرار لما سبق ، بل خلق جديد بقدرته جل وعلا ، هٰذه القدرة التي شملت كل شيء ، والتي اتسعت للمطيع فأثابته ، واتسعت للمذنب فغفرت له ، واتسعت للكافر فصبرت علىٰ عقابه ، لذلك علينا أن نكون قادرين علىٰ كبح جماح النفس ، وقادرين علىٰ إعادة ضمائرنا للحق إذا حادت عنه ، وقادرين حتىٰ علىٰ كظم الغيظ وهو قادر علىٰ الرد والصبر علىٰ الأذىٰ كي نكون ممن يدعونا ٱلله يوم الميعاد من بين الخلق ، عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ عَنْ أَبِيهِ ، أَنَّ رسول الله ﷺ قَالَ : « مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ رُءُوسِ الْخَلائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّىٰ يُخَيِّرَهُ اللهُ مِن الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ » (2) .

حادي عشر : المعيد عدل :

قال تعالىٰ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (3) ، فهو العادل المطلق ، فهو في خلقه وتوزيعه النعم عليهم بنسبٍ متفاوتة هو عادل ، وفي فنائهم وإعادتهم للحساب هو عادلٌ ، بل حسابه للعباد يوم إعادتهم هو العدل ، فكثيراً ما نرىٰ طغاة وجبابرة ظلموا البشر وتجبروا ولم يعاقبهم أحد ، وهٰذه الشرور المنتشرة في الأرض بلا رقيب ولا حسيب .

---

(1) القيامة ، 36 ـ 40 .

(2) سنن أبي داود ، ج 12 ، ص 397 .

(3) الأنعام ، 115 ـ 117 .

فعلىٰ خليفة ٱلله تعالىٰ أن يرضىٰ بحكم العدل ، وأن يعلم أنه ولا بد أن يحكم يوم الفصل بين العباد ، فيخشىٰ ٱلله في الأرض ولا ينسىٰ المعيد العدل الذي سيحاسبه علىٰ ما قدمت يداه ، وأن يعدل في أقواله وأفعاله وأحكامه في الحياة الدنيا ، لأنها الشاهد عليه عند إعادته للخالق عز وجل .

فليكن خليفة ٱلله تعالىٰ عادلاً في الأرض ، لا يجور ولا يظلم ، وكيف يظلم من يسعىٰ في هـٰذه الدنيا بذكر المعيد ، فلا تنسيه هـٰذه الدنيا أن العادل أمر بالعدل ، وأن في العدل لخيراً كثيراً ، إذا علمه الإنسان ما ظلم ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : قَالَ رسول ٱلله ﷺ : « إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَىٰ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَإِنَّ أَبْغَضَ النَّاسِ إِلَىٰ ٱلله يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَشَدَّهُمْ عَذَابًا إِمَامٌ جَائِرٌ » (1) .

فالمعيد عز وجل بيده الأمر ، ولأن أمر كل شيء بيده ، فهو القادر علىٰ إعادة كل أمر متىٰ شاء وكيف شاء . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴾ (3) .

فليحذر خليفة ٱلله تعالىٰ علىٰ الأرض نهايته ، ويجعل سعيه لحسن الخاتمة ، وليكن قوله دائماً من ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ (4) في حياته ، فلا ييأس مع إيمانه ، ولا يبالي بمتاع الحياة الدنيا مع

(1) مسند أحمد ، ج 23 ، ص 144 .
(2) هود ، 107 ـ 108 .
(3) البروج ، 12ـ 19 .
(4) البقرة ، 156 .

فنائه ، ويكون ممن يدركون فائدة الزمن الذي سيعيشه في هـٰذه الدنيا ، فيستغل كل لحظة فيها ليتقرب إلىٰ خالقه أكثر ، لأن الوقت إذا فاته لن يستطيع إرجاعه بالندم والتحسر ، وأن يأخذ عبرة من ندم الكافر يوم القيامة حيث لا يقدِّم ندمه شيئاً ولا يؤخر بين يدي ٱلله ، قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ (1) ، فما فائدة التحسر والندم بعد فوات زمن العمل والطاعة أيها المخلوق من تراب والعائد إليه ؟ الخلفاء وحدهم يدركون الحق وهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (2) .

ولذا فلا يجب علىٰ المستخلفين فيها أن ينسوا الطاعة وبداية خلقهم وأن لا يسهوا عن نهايتهم التي سيجني فيها كل امرئ ما عمل ، وعليهم أن يتخيروا أي الفريقين يريدون ؟ هل يريدون أن يكونوا ممن يسعون وراء الدنيا ، أم ممن يطلبون الآخرة ؟ قال تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن

(1) النبأ ، 38 ـ 40 .
(2) الزمر ، 15 ـ 21 .

كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [1] ، اللهُمَّ اجعلنا من المستخلفين الوارثين في الدارين ولا تجعلنا من المغضوب عليهم ولا من الضالين !

وما أقرب الغد أيها الإنسان اللاهث وراء ملذات هـٰذه الدنيا الفانية ، والتي تسلب منك آخرتك ، فتضيع وراء وسوسات الشياطين ، وتبقىٰ فقيراً من الحسنات والخيرات .

ولـٰكن كيف يحقق المؤمن هـٰذه الموازنة وفوزه بالآخرة ؟

قال تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [2] ، فطلب الآخرة له شروط ومقاييس لا يمكن نيل الجنة بدون هـٰذه الشروط والمقاييس التي أوضحها لنا الخالق .

واسم المعيد مرتبط بيوم القيامة ، لأن إعادة الخلق لن يكون قبل قيام الساعة ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ [3] ، عند حدوث هـٰذه الساعة ووقوفنا بين يدي المعيد عز وجل ، لن تنفع الأماني ، ولا التحسر والندم ، فمصير الإنسان مرهون بما قدّم في حياته ، ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٢٣ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ۝٢٤

(1) الشورىٰ ، 20 .
(2) المؤمنون ، 1ـ11 .
(3) طه ، 15 .

فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ (1) .

فليحيَ الخليفة الذي استخلفه ٱلله في الأرض بحق ذاكراً اسم المعيد كي لا ينسىٰ أمرين هما من أسباب فوزه بجنات عدن :

1 ـ أن بدايته من تراب ورجوعه إليه ، فلا يتكبر ولا يتجبر في الأرض ، إن ٱلله لا يحب الطغاة الذين يسعون بالفساد في هٰذه الأرض . قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ (3) .

2 ـ أن هناك بعد الممات إعادة لحياة هي هدف خلقنا من الأساس . قال تعالىٰ : ﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (4) .

والمعيد بالإطلاق يحبب أولياءه الصالحين بالعودة إليه ، فيسرعون لملاقاته ، وتكون الحياة الدنيا عندهم ما هي إلا وسيلة لقاء بالمعيد وتقرب له عز وجل ، وبهٰذا يكون المعيد بالإضافة محباً للإعادة ، عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَا مِنْ عَبْدٍ يَمُوتُ لَهُ عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ

(1) الفجر ، 21ـ26 .
(2) غافر ، 27 .
(3) البقرة ، 11ـ16 .
(4) البقرة ، 85 .

يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ الدُّنْيَا وَأَنَّ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا إِلاَّ الشَّهِيدَ لِمَا يَرَىٰ مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ فَإِنَّهُ يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَىٰ » (1) .

ولذا فهناك من يبيع الحياة الآخرة ليشتري الحياة الدنيا ؟ وكأنهم مخلّدون فيها ، كالذين في قوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (2) .

فليتنا نكون ممن يتشوقون للقاء ٱلله ، ويسعون في الأرض بهدف نيل رضاه ، وليتنا نكون ممن أمنوا عذابه واستحقوا نعيمه ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (3) ، وليت الدنيا تهون وتصغر في أعيننا ، فلا تكون همنا ولا سبب ذنبنا .

الإنسان يبدأ ويعود إلىٰ ٱلله ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ (4) ، وهـٰذه دعوة للخليفة أن تكون بدايته مع ٱلله ونهايته مع ٱلله ، ذلك هو طريق الفلاح والنجاح ، وكيف يكون خليفة من حاد عن هـٰذا الطريق ؟

فٱلله معيد للخلق للحساب ، ومعيد للفرص لكي يتوب المذنب ، ومعيد

(1) صحيح البخاري ، ج2 ، ص 361 .
(2) التوبة ، 38 .
(3) فاطر ، 36 ـ 37 .
(4) النجم ، 39ـ44 .

للحياة لأخذ العبر ، ومعيد للأرواح في الأجساد بعد النوم ، وبعد هـٰذه الإعادات ماذا ينتظر أصحاب القلوب القاسية التي لا تتفطن لكل هـٰذا ؟ فقد صدق ٱلله في قوله عنهم : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (1) ، فما جدوىٰ الحياة دون أن تلزمنا بالخير والصلاح ، وما فائدة العيش إذا كان بدون شكرٍ للخالق عليه .

فالحياة الدنيا والآخرة مسألة بيع وشراء ، وهناك فريق من البائعين لهـٰذه الحياة والشارين بها الآخرة ، وهم من قال ٱلله فيهم : ﴿ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (2) ، والفريق الثاني هو من اشترىٰ الحياة الدنيا بالآخرة ، وهم الذين قال فيهم تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (3) .

فعجباً لمن يشتري الفناء بالحياة ، ومن يبيع الأمن ليشتري الخوف ، أولـٰئك ما ربحت تجارتهم أبداً ، فبئس ما اشتروا به الآخرة .

---

(1) البقرة ، 73 ـ 74 .
(2) النساء ، 74 .
(3) البقرة ، 84 ـ 86 .

فيا خليفة ٱلله في الأرض ، اسعَ فيها بالخير ، واعلم أنك منذ بداية خلقك أنت في طريق العودة إلىٰ المعيد عز وجل ، هـٰذا من شأنه أن يعيدك إلىٰ الحق إذا ما زاحت خطاك عن الاستقامة ، وانحرف عقلك نحو المفسدة ، فلن يعود للحق إلا كل صاحب ضمير يحييه بذكر المعيد ، الذي أحسن إليك ورحمك وغفر لك .

واعلم أن يوم الميعاد قريب ، وأن لكل منا مكاناً هو داخله يوم الحساب ، لأن الجنة تنتظر الفائزين بها بشوق ، والنار يستعر لهيبها للخاسرين ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ـ رضي الله عنه ـ : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يُسْأَلُ عَنْهَا فَقَالَ رسول الله ﷺ « إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً فَقَالَ خَلَقْتُ هَؤُلاَءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً فَقَالَ خَلَقْتُ هَؤُلاَءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ ، فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَفِيمَ الْعَمَلُ ؟ قَالَ فَقَالَ رسول الله ﷺ إِنَّ اللهَ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ يَمُوتَ عَلَىٰ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُدْخِلُهُ رَبُّهُ الْجَنَّةَ ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّىٰ يَمُوتَ عَلَىٰ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُدْخِلُهُ رَبُّهُ النَّارَ » (1) .

وتذكر أن تكون معيداً في حياتك ، فبالدين والعلم تستطيع أن تعين علىٰ إعادة العاصي للحق ، فكم من كافر بٱلله اعتنق الإسلام علىٰ يد من أعادوه لله من دعاة الحق والإسلام ، وكن معيداً لذكر ٱلله أمام كل متجبر اعتقد أن العالم ملكه ، لعله يعيد التفكير في رحلة عودته إلىٰ المعيد بالإطلاق ، وكن معيداً لحياتك في الدنيا بالخروج من كل مفسدة ضعفت فوقعتَ فيها .

اللهُمَّ يا المعيد أعد للإسلام مجده وللمسلمين العزة والهيبة ، وألبسنا ثوب الخيرية الذي ألبسته أجدادنا وقلت فيهم وفينا : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

(1) موطأ مالك ، ج 3 ، ص 371 .

لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (1) فأعدنا إلىٰ العمل بكتابك والاقتداء بهدي رسولك محمد عليه الصلاة والسلام ، فنعيد الحق بالحق لأهل الحق ، ونبطل الباطل بالحق ليعلو الحق ! اللهُمَّ يا المعيد عيد الحق لأهله وانتصر لعبادك المؤمنين فإنك تعلم ما حلّ بأمة نبيك وليس لها من دونك كاشف للبلوىٰ ، واجعلنا ممن حملوا الأمانة وأقاموا الخلافة طاعة لك واقتداءً بأنبيائك وأوليائك !

اللهُمَّ اجعلنا من الذين يعودون إليك فيما قلت وبما أمرت حتىٰ نهتدي إلىٰ الصراط المستقيم ! اللهُمَّ يا المعيد يوم تعيدنا للتراب لا تعدنا معذبين ، ويوم تبعثنا للحياة من جديد فاجعلنا في جنان الفردوس والنعيم إنك بنا رؤوف رحيم !

✍ ✍ ✍

(1) آل عمران ، 110 .